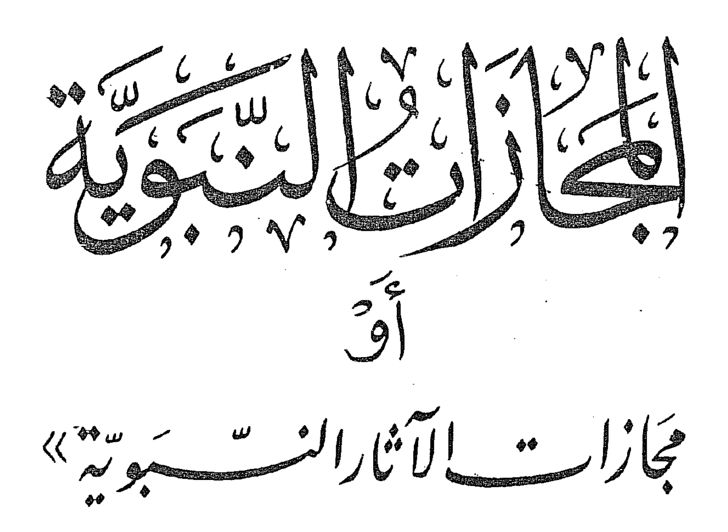


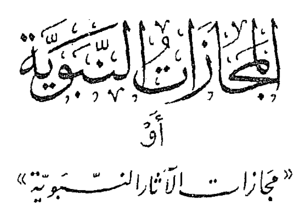
للشريف الرضي

أبي الحسن محمد بن الحسين بن أحمد الموسوي

"٣٥٩ - ٤٠٦ هـ"

حققه وعلق عليه

د. مروان العطية و د. محمد رضوان الداية


المجازات النبوية
أو
«مجازات الآثار النبوية»



١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م

بسم الله الرّحمن الرّحيم
الحمد لله ربّ العالمين
والصّلاة والسّلام على محمّد
وآله الطّاهرين وصحبه المنتجبين

أما بعد:

فهذا بين يدَي القارىء الكريم، كتاب: «**المَجازات النّبويّة**»، للشّريف الرّضيّ ذُو الحَسَبَين أبو الحسن محمّد بن أبي أحمد، ولد ببغداد في سنة **٣٥٩ هـ**.

أمّه السّيّدة فاطمة بنت الحسين بن أبي محمّد الحسن الأطروش، والده أبو أحمد كان عظيم المنزلة في الدّولتين العبّاسيّة والبُوَيْهِيَّة، لَقَبه أبو نصر بهاء الدّين بالطّاهر الأوحد، ووَلِيَ نقابة الطّالبيّين خمس مرّات.

وسيّدنا الشّريف الرّضيّ، هو مفخرة من مفاخر العترة الطّاهرة، وأمام من أئمّة العلم والحديث والأدب، وبطل من أبطال الدّين والعلم والمذهب، هو أول في كل ما وَرِثه سلفه الطّاهر من علم متدفّق، ونفوس زاكية، وأنظار ثاقبة وإباء وشمَم، وأدب بارع، وحَسَب نقيّ، ونَسب نبويّ، وشرف علويّ، ومجد فاطميّ، وسؤددٍ كاظميّ.

كان أوحد علماء عصره، وقرأ على أجلاّء الأفاضل، فكان أديباً بارعاً متميزاً، وفقيهاً متبحّراً، ومتكلّماً حاذقاً، ومفسّراً لكتاب الله وحديث رسوله مُحلّقاً.

نظم الشّعر ولمّا يزد على عشر سنين، فأجاد ونظم في جميع فنون الشّعر فأكثر، وجاء محلّقاً محرزاً قصب السّبق بغير منازع، ولم يكن في ناحية من نواحي

الشّعر أشعر منه في غيرها مما دلّ على غزارة مادّته، وامتاز الرّضيّ بأن شعره على كثرته لابس كلّه ثوب الجودة والملاحة وهذا قلّما يتّفق لشاعر مكثر.

وشعر الشّريف الرّضيّ هو المرآة التي تنعكس عليها الملامح السّابقة فتكشف لنا بوضوح كل ما فيها من جوانب وتفصيلات، وهو الّذي يعطينا صورة صادقة لسمات شخصيّته من ناحية، وسمات عصره وبيئته وثقافته من ناحية أخرى بحيث يصلح من شعره أن يكون من الوسائل القيّمة الّتي تعين على فهم كثير من أحداث هذا العصر وأخباره.

ومن حق الرّضيّ أن نسجّل له في هذا المقام صفة مُهمّة في شخصيّته، هي تحرّزه من كلّ عصبيّة، وخاصّة في باب الصّداقة، أو باب الزّمالة في الأدب والعلم، وفعله في صوت أبي إسحاق الصّابيّ أصدق دليل على ما ذكرنا.

ولتحقّق الرّغبة في طبع آثار هذا العالم الكبير، طبعاً محقّقاً وفنّياً طلبت المستشاريّة الثّقافيّة إلى الأستاذين الفاضلين، الدكتور «**محمد رضوان الدّاية**» والأستاذ «**مروان العطية**» أن يقوما بمهمّة تحقيق وشرح كتاب «**المجازات النّبويّة**» وها هو بحول الله تعالى وقوّته قد وفّقا في سعيهما مشكوراً.

وهذا هو: **المجازات النّبويّة**» بين يدي القارىء الكريم.

ولله الحمد أوّلاً وآخراً

المستشار الثّقافيّ

للجمهوريّة الإسلاميّة الايرانيّة بدمشق

الدكتور صادق آئينه وند

دمشق　　　　اسفند ماه: ١٣٦٥

رجب المرجب: ١٤٠٧

آذار: ١٩٨٧

[مقدمة المؤلف]



أما بعدَ حَمْدِ اللَّهِ سُبحانَهُ بمحامِده التي يَستَحِقُّها، واختصاصِ نبيِّهِ مُحَمَّدٍ وآلِـه الطّاهـرين بالصَّلواتِ التي هُم أهلُهـا، فإنِّي عـرفتُ مـا شَـافَهْتَني بـه من اسْتِحسَانكَ الخَبيئةَ[1] التي أَطلعتُها، والدَّفينة[2] التي أَثْرتُها من كتابي الموسُوم بِـ: **تَلْخيص البَيانِ عن مَجازاتِ القُرآن**[3]. وأنّي سلكتُ من ذلك مَحَجَّةً[4] لم تُسْلك، وطرقتُ باباً لم يُطرق، وما رَغِبْتَ إليّ فيه من سُلوكِ مثلِ تلك الطَّريقة في عملِ كتابٍ يَشتملُ على مَجازاتِ الآثارِ الوارِدة عن رَسُول اللَّهِ صَلّىٰ الله عليه وآلِه، إذْ كانَ فيها كثيرٌ من الاسْتِعارات البَديعةِ، ولُمَعِ [5] البَيان الغريبة، وأَسرارِ اللُّغة اللطيفة، يَعْظُم النّفعُ باستنباط معادِنها، واستخراجِ كوامِنها، وإطلاعها من

---

(١) الخبيئة وزن فعيلة من (خبأ)، وهي بمعنى اسم المفعول أي: المخبّأة

(٢) الدَّفينة كالخبيئة وزناً أي المَدْفُونة.

ـ والكلمتان وصفٌ لكتابه «تلخيص البيان» المذكور بعد. وإنما وصفهما بهاتين الكلمتين استحساناً لهما، وإشادةً بقدر نفسه في استنباطهما.

(٣) طُبع في جُزءٍ واحد، في القاهرة، عني به محمد عبد الغني حسن. (دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م).

(٤) المحجّة: الطريقُ المستقيم.

(٥) لمع جمع لُمعة؛ واللُّمعة من الجسد: بريقُ لونه.

أكِمَّتها وأكْنَانِها [١]، وتَجْريدِها من خِلَلها وأَجْفانها [٢]، فيكونُ هٰذان الكتابان - بإذن الله - لُمْعَتَينِ يُسْتَضاءُ بهما وعِرْنينين [٣] لم أُسبق إلى قَرْع بابِهما، فأجَبْتُك إلى ذٰلك مُستخيراً اللَّه سبحانه فيه على كثرة الأشغال القاطِعة، والعوائِق المانعة، والأَوقات الضَّيقة، والهموم المُخْنِقَةِ، وعملتُ - بتوفيق اللَّه - على تتبُّعِ ما في كلامِه صَلّىٰ الله عليه وعلىٰ آلِه من ذٰلك، والإشارة منهُ إلى مَواضع النُّكَت، ومواقع الغَرَض، بالاعتباراتِ الوجيزةِ والإيماءاتِ الخَفيفة على طريقتي في كتاب: « مَجازاتِ القُرآن » لِئَلّا يطُولَ الكِتابُ فيَجْفُوَ على النّاظِر، ويشقَّ علىٰ النَّاقل؛ فإنَّ القُلوبَ في هٰذا الزَّمانِ ضعيفةٌ عن تحمُّلِ أعباء العُلوم الثقيلة والإجْراءِ في مَسافاتِ الفَضائِل الطَّويلة، لأنَّه لم يَبْقَ من الفَضْلِ إلّا الذَّماءُ [٤]، ومن الفُضَلاء إلا الأَسماء. ولِلَّهِ الحمدُ على السَّرّاء والضَّرّاء، والبُؤسَى [٥] والنُّعْماء. ولَستُ شاكّاً في أنّ ما يفوتُني من الجِنس الّذي أَقصِدُه أكثرُ من الحَاصل لي، والواقِع إليّ؛ ولكنّني أَقتصرُ على ما تنالُه في هذا الوقت يَدِي، ويقربُ من تَصفُّحي وتَأمُّلي، وإذا ورَدَ بمشيئةِ اللَّهِ من هٰذه الآثارِ ما فيهِ موضعُ مَجازٍ قد تقدَّم الكَلامُ علىٰ نظيرٍ لَهُ، أو ما يقومُ مَقامَهُ اقتصَرْتُ علىٰ القَوْلِ الأوّلِ طلَباً للاقتِصاد، ووُقوفاً دونَ الإبعاد، علىٰ مثلِ الأَصْلِ المُقَرَّر في كتابِ « مَجازاتِ القُرآن ». ولولا أَنّ أَبا عليٍّ مُحَمَّدَ بن عبدِ الوهّابِ [٦] قد سبَق إلى

---

(١) الأَكمّة جمع الكِمَامة، وهي الكيمُّ: وعاءُ البزر (في النبات) قبل أن يَظْهر.
والأكنان جمع كِنّ: وقاء كل شيء وستره.
- ضربهما مثلاً لِما يستر الشيء ويَخبؤه، ثم يُسْتَخرجُ منه.

(٢) الخِلَلُ جمع الخِلّة: جَفْنُ السَّيف (قِرابهُ) المُغَشّى بالأدم (أي الجلد).

(٣) العِرْنين من كل شيء: أَوّلُه.

(٤) الذَّماءُ: بقيّةُ الرُّوح في الجَسد.

(٥) في الأُصول: «البُؤس» وقرأتها على الوجه المثبت. والبؤسى ضد النُّعمىٰ وهي بمعنى البؤس.

(٦) اشتهر بأبي علي الجُبّائي، وهو محمد بن عبد الوهاب البصري، أحد أئمّة المعتزلة، ومصنّفي كتبهم. وصفته كتب التراجم بسعة العلم وسيولة الذّهن، ولطافة الأُسلوب. وهو: « الذي ذلّل الكلام وسهّله، ويسّر ما صَعُبَ منه » أي علم الكلام.

تَفسيرِ مُتَشابِهِ الأَخْبَارِ التي ظاهِرُها التَّشْبِيهُ والتَّجْسِيمُ [1]، وصَرِيحُها التَّجْوِيرُ والتَّظليم [2]، واستَقْصىٰ هذا المعَنى في كتابه الموسوم بِـ: شَرْح الحَديث [3]، وتعاطىٰ ذٰلكَ جَماعةٌ غيرُه من عُلماءِ أَهْلِ العَدْلِ [4] في مَواضِعَ من كُتبهم لَتتَبَّعْتُ هٰذا الفَنَّ جَميعاً تَتبُّعاً يكشفُ الشُّبَهَ، ويُوضِحُ المُشْتَبه، على طريقتي في كتابِي الكبير الموسوم بـ حقائق التَّأويل في **مُتَشابه التَّنْزِيل** [5]. إلاّ أَنّني بعون الله أُورد من ذٰلكَ ما كان داخِلاً في بابِ الاستعاراتِ اللُّغوية بِكُلّيته، أو بسعةٍ كثيرةٍ من سَعته. والّذي أَعتمدُ عليهِ في استِخراج ما يتضمَّنُ الغرضَ الذي أَنحُو نحوَهُ، وأقصِدُ قَصْدَهُ، كُتُبُ غريبِ الحديثِ المَعْرُوفةِ، وأَخبار المَغازِي المَشْهُورة، ومَسانِيد المُحَدِّثين الصَّحيحة، مُضيفاً إلى ذلك ما يليقُ بِهٰذا المَعْنىٰ من جُملة كلامِه عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المُوجز الذي لم يُسْبَق إلى لَفْظِه، ولم يُفْتَرعْ من قَبْلِه. وجميعُ ذلك مما أتقنَّا بَعْضَهُ رِوايةً، وحَصَّلْنا بَعضَهُ إجازَةً، وخَرَّجْنا بعضَهُ تَصفُّحاً وقراءَةً، مُستَمّدين في ذٰلك، وفي سائِر الأَنحاءِ والمَرامي والمطالِب

= ولتفنّنه في علم الكلام وتجرّه في أُصول الاعتزال، ووفرة مؤلفّاته في هٰذا، ولآرائه المختلفة التي أَوْرَدها والتفاف جماعة كثيرة حوله عُرِف الذين قالوا بقوله بـ «الجُبّائية».

- واشتهر معه، وبعده، ابنه أبو هاشم الجبّائي.
- وكانت ولادته سنة ٢٣٥، ووفاته بالبصرة سنة ٣٠٣ هـ.

(انظر مصادر ترجمته مستوفاة في سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤ : ١٨٣.

(١) التشبيه تصور الحق سُبحانه وتعالى في ذاته وصفاته بما يشبه الإنسان و (بشيء من التجسيم والمادية)؛ وهؤلاء هم المشبهة الذين شبَّهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلّوه بالمُحْدَثات. وأنكر عليهم ذلك القائلون بالتنزيه، مؤولين الآيات المؤذنة بالتشبيه أو مفوّضين أمرها إلى الله تعالى.

(٢) التَّجوير: من فعل جَوّره؛ أي نسبه إلى الظُّلم، ومثله التَّظليم.

(٣) عدّ الذهبي كتاب (شرح الحديث) في جملة كتب أبي علي الجُبّائي. وله أيضاً ممّا يخصّ إشارة الشريف في المتن كتاب «التعديل والتجوير». وكتاب «الأسماء والصِّفات».

(٤) اهل العَدْل لقب عرف به المعتزلة، لقبوا به أنفسهم وشاع عنهم. ويُعْرَفُون أيضاً بـ(أهل العدل والتوحيد).

(٥) طبع منه جزء (وهو الخامس) في مطبعة الغري بالنجف سنة ١٩٣٦ بشرح محمد الرضا آل كاشف الغطاء. (ولم يصل إلينا غيره).

والمَغـازي توفيقَ اللَّهِ سُبحـانهِ الّـذي يُهَوِّن الشّـدِيدَ، ويُقَـرِّب البَعيد، ويُـذَلِّـلُ الصّعْبَ إذا أَبىٰ، ويُقَوِّم المُعْوَجَّ إذا الْتَوىٰ. وما توفيقُنا إلا بالله عليه تَوكَّلْنا وإليه نُنيب.

[١] فمن ذٰلكَ قولُـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلام[١]: « هٰـذِهِ مَكَّةُ قـدَ رَمَتْكمْ **بأَفْلَاذِ[٢] كَبِدِهَا** »، وفي روايةٍ أُخرىٰ: « **قَدْ أَلْقَتْ إلَيْكُم أفْلَاذَ كَبِدِها** »، وهٰذه من أَنصعِ العِبارات وأَوْقَع الاستِعارات. وقال ذٰلك عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عند خُروجه إلى بَدْرٍ للقِتال؛ وقد خَرج[٣] قُرَيشٌ من مَكّة مُجْلِبةً عَلَيْه[٤] ومُجْلِبةً إليه؛ وكان المسلمونَ قد ظَفِرُوا ببعضِ فُرَّاطِهم[٥]، فأَتَوْا به النبيَّ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّلام، فسأَله عَمَّن خَرج في ذٰلك الجَمْعِ من عِلْيةِ قُرَيش، فقال: فُلانٌ وفلانٌ، وعَدَّد قادَتَهُم وذَادتَهُمْ[٦]، والوُجُوهَ والسّاداتِ منهم، فقالَ عليهِ الصَّلاة والسَّلام: « هٰذِهِ مكّةُ قَدْ رَمَتْكُم بأفلاذِ كَبِدها ».

ولِهٰذا الكَلام مَعْنَيان:

أَحَدُهما: أن يكونَ المُراد به أنّ هؤلاءِ المعدُودين صَمِيمُ قريش ومَحْصنُها ولُبَابُها وسِرُّها، كما يقول القـائل منهم: فـلانٌ قلبٌ في بَنِي فلان إذا كـانَ من صُرَحائِهم[٧]، وفي النُّضارِ[٨] من أَحْسَابِهم، فيجوزُ أَن يكونَ المُراد بالكَبِـدِ ها

---

(١) الحديث في (النهاية في غريب الحديث) واللسان، والتاج: (فـلـذا).

(٢) أفلاذ جمع فلذة، وهي القطعة، ويكثر أن يقال فلذة الكبد.

(٣) لم يؤنّث الفعل لأنه يُريد (بنو قريش) أو (حيّ قريش) لا القبيلة. (كتاب سيبويه ٣: ٢٤٧).

(٤) يقال: أَجْلبَ القوم على فلان أي: تألّبُوا وتجمّعُوا؛ وفي التنزيل العزيز ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ أي تجّمع عليهم أوصِحْ عليم بكل وسائلك.

(٥) من قولهم: فرَطَ القَوْمَ: أيْ تقدَّمتُهم، أوسبقتهم إلى الماء. وهم الطّليعة، والكشّافة.

(٦) الذّادة جمعُ الذّائد، اسم فاعل من: «ذادَ» بمعنى دافَع عن الشيء، يقال: ذادَ عن حُرَمه وعـن وطنه.. الخ.

(٧) الصُّرَحاء جمع الصَّريح، والنسبُ الصّريح: الخالص.

(٨) النُّضَار: الخالص من كل شيء.

هُنا كالمُرادِ بالقَلبِ هُناكَ لتقارُبِ الشّيئين، وشرفِ العُضْوَين، فَيُكنى باسمِ كُلّ واحدٍ مِنهما عن العِلْقِ الكَريم، واللُّبابِ الصَّميم.

والأفلاذُ: القِطَعُ المتفرّقَةُ عن الشّيء، وقَلَّ ما يُستعمل ذلكَ إلاّ في الكَبِدِ خاصَّة.

قال الشّاعر:[1]

تَـكْفِـيـهِ فِـلْذَةُ كَبْـدٍ[2] إن أَلَـمَّ بِهَـا
مِنَ الشِّـواء وَيَـرْوِي شُـرْبَـهُ الغُـمَـرُ

والمَعْنى الآخَرْ: أَن يكـونَ المُـرادُ بـذلـكَ أعيـانُ القَـوْمِ ورُؤَسـاؤُهم، والعَرانِيْنُ المتقدّمَةُ مِنهم، فكأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَقام مكّة مقـامَ الحَشَا[3] التي تَجْمَعُ هٰذه الأَعضاءَ الشّريفة؛ كالقَلْبِ، والنِّيـاطِ[4]، والكَبِد، والفُؤادِ[5]؛ وجَعَل رجالَ قُرَيشٍ كَشُعَبِ الكبِد التي تَحْنُو عليها الأَضالِعُ[6]، وتشتَمِلُ علَيها الجَوانِحُ وقايةً لها، ورَفْرَفَةً عَلَيْها.

---

(١) هو أَعْشى باهِلَة، أبو قحفان: عامر بن الحارث؛ والأعشى لقب له، وهو شاعر جاهليٌّ مُجيد. (راجع إحالات ترجمته في الأَصْمعيات: ٨٧).
- والبيت هو الرابع والعشرون من قصيدة مشهورة في فن الرّثاء (بترتيب الأصمعيات) رثى بها أخاه لأمه: المنتشر بن وهب.

(٢) «فلذة كبد» هي رواية الكامل ٤: ٦٥. وروي أيضاً «حزّة فلذ» و «فلذة لحم»، وهي متقاربة المقاصد. والغُمَرُ: القدح الصغير.
- والذي في الأصول المطبوعة من المجازات «فلذةُ كبدَانٍ» وهو تصحيف غريب.

(٣) الحَشا مفرد الأَحشاء، وهو ما دون الحجاب ممّا في البطن كُلّه.

(٤) النِّياظ: عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه. والنيّاط أيضاً القلب.

(٥) الفؤاد: وسط القلب أو غشاؤه أو وعاؤه أو داخله... والفُؤاد هو القلب أيضاً.

(٦) الأضالع جمع الجمع. المفرد ضلع والجمع. ضلوع وأضلاع وأضلع.

[٢] ومن ذٰلكَ قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، وَقَدْ نَظَرَ إلى (أُحُدٍ) مُنْصَرَفَهُ من غَزَاةِ[1] خَيْبَرَ: « **هٰذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ** »[2].

وهٰذا القول محمولٌ علىٰ المَجازِ لأنّ الجبَل علىٰ الحَقيقةِ لا يَصِحُّ أن يُحِبَّ ولا يُحَبَّ، إذ مَحبَّةُ الإنسان لغيره إنّما هي كنايةٌ عن إرادةِ النّفعِ له، أو التّعظيم المختصّ بهِ على ما بَيَّنّاهُ في عِدّة مواضعَ من كتابَيْنا المشهُورَيْنِ في عُلوم القرآن. وكلا الأمرين لا يَصِحُّ على الجَماد: لا التّعظيمُ المُخْتَصُّ بهِ، ولا النَّفْعُ العائدُ عَليه، فمستحيلٌ أن يُعَظِّم أو يُعَظَّم، أو يَنْفَع، أو يُنْتَفع به. فالمُرادُ إذاً أنّ أُحُداً جَبلٌ يحبُّنا أهْلُه، ونُحِبُّ أَهْلَهُ. وأَهْلُه هُم أَهْلُ المَدِينة من الأَنصار أَوْسِهم وخَزْرَجِهم. وغيرُ خَافٍ حُبُّهم النَّبِيّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وحُبُّه لهم، وتعظيمهم لَهُ وإعظامُه لِقَدْرِهِمْ.

ألا ترىٰ إلى قولِه عليه الصَّلاةُ والسّلام[3] في كلام طويل:

« ... **ولو سَلكَ الأَنْصَارُ شِعْباً، وسَلكَ النَّاسُ شِعْباً لسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصارِ، ولولا الهِجْرَةُ لكنتُ امرأً من الأَنْصار** ».

إلىٰ غيرِ ذلكَ من الكلام الذي يطولُ بذكِره الكتاب، وينقضُ قاعِدَتنا في الاختصار.

[٣] ومثلُ هٰذا الحَدِيث ما رُوِيَ عنه عليه الصّلاة والسَّلام في حديثٍ

---

(١) الغزاة: الغَزوة.

(٢) الحديث في الصَّحِيحين. صحيح البخاري ٦: ٢٠٧، و ٥: ٣٩. وصحيح مُسلم ٤: ١٢٤، ومختصره ١: ٢٠٦.

(٣) الحديث في صحيح البُخاري ٤: ٢٢٢، وصحيح مسلم ٣: ١٠٦، ومختصره ١: ١٤٠.

آخر قال:[1] « **نَهْرَانِ مؤْمِنَانِ، ونَهْرانِ كَافِرَان. أمَّا المُؤْمِنَان: فالنِّيلُ، والْفُرَاتُ، وأمَّا الكافِرَانِ: فَدِجْلةُ، وَنَهْرُ بَلْخٍ** »[2].

والأَوْلَىٰ أن يكون تأويلُ هٰذا الخَبرِ ـ إنْ كانَ صَحيحاً ـ كتأويلِ الخَبرِ المُتَقَدّم، فكأنّهُ عليه الصَّلاة والسّلام قالَ: أَهلُ هٰذينِ النَّهْرَيْنِ مُؤمِنونَ، وأهَلُ هٰذينِ النّهرينِ كافِرُون؛ وتكونُ هاتَانِ الصّفتان جارِيَتَينِ علىٰ هٰذِه الأنهارِ في وقتٍ مخصُوصٍ، أو عَلىٰ الأغلبِ من الأَحوالِ في زَمانٍ مَعْلُوم؛ لأنّ من أهِلِ هٰذينِ النَّهْرَيْنِ المؤمنُ والكافِرُ، كما أنّ من أَهْلِ ذَيْنِكَ النَّهْرَينِ البَرُّ والفَاجِرُ. وقد قيل في ذٰلكَ قولٌ آخَرُ لستُ أَرْتَضِيْه، وهو أَنْ يكونَ إنّما جَعلَ النِّيلَ والفراتَ مُؤمِنَيْنِ على التَّشْبيه والتَّمْثيل، لكثرةِ انتِفاعِ النّاسِ بِسُقياهُما كالانْتِفاعِ بالمُؤمِنين، وجعَلَ دجلةَ، ونَهْرَ بلْخٍ كافِرَيْن لقلّة الانتِفاعِ بهما كقِلّةِ الانتِفاع بالكَافِرين. والقَول الأوّلُ أخْلَقُ[3] بالصَّوابِ، وأشْبَهُ بالمُراد.

[٤] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[4]: « **المُسْلِمُونَ تَتكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعىٰ بِذِمَّتهم أَدْنَاهُمْ، ويَرَدُّ عَلَيْهم أَقْصَاهُمْ، وهُمْ يَدٌ عَلَىٰ مَنْ سِوَاهمْ** ». فقولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِواهُم استِعَارَةٌ ومَجَاز. ولِذٰلك وَجْهانِ:

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (أمن) و (نهر).

(٢) نهر بلخ: نهرٌ مُتوسّط تقع عليه مدينة بَلْخ، وكانت أكبر مدينة في خراسان. (الروض المعطار: ٩٦).

(٣) أخلقُ بالصَّواب أي أَجْدَرُ به.

(٤) من حديثٍ أخرجه أبو داوود وابن ماجة، أطول من هذا. ونَصُّه في سنن ابن ماجة (٢ : ١٩٥): « المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على مَنْ سِواهُم. يرد مشدهم على مضعفهم ومسرعهم على قاعدتهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهدٍ في عهده ».

أَحَـدُهمـا: أَن يكـونَ شَبَّـه المُسلمين في التَّضـافُـر[1]، والتَّـوازُرِ[2]، والاجتمَاع، والتّرافُدِ، باليَدِ الواحِـدَةِ التي لا يُخالِفُ بَعْضُهـا بَعْضاً في البَسْطِ، والقَبْضِ، والرَّفْعِ، والخَفْضِ، والإِبرْامِ، والنَّقْض.

وقد يُسَمّىٰ أنصارُ الرَّجُلِ وأعوانُه يَداً، على طَرِيقِ الاتّسـاع، تَشْبيهاً لهم باليَدِ التي يُنْتَصرُ بها ويُدَافَعُ بِقُوّتِها.

قال الرّاجِزُ: [3]

أعْـطَىٰ فَـأَعْـطَانِي يَـدَاً ودَارا　　وَبَـاحَـةً خَـوَّلَـهَـا عَـقَـارا

يقولُ: بَوَّأَنِي داراً، وأَخَفَّ بِي أَعواناً، وأَنصاراً.

والوجه الآخر:

أن يكونَ اليدُ هاهُنا بمعنىٰ القُوّةِ[4] فكأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامِ قال: وهم قُوّةٌ علىٰ مَنْ سِواهم، والقُوَّةُ أحـدُ المَعانـي التـي يُعَبَّرُ عَنْهـا باسـمِ اليَدِ. وقـد استقصيتُ ذٰلك في كتابي الكَبير الموسـوم: بـ حَقائـق التـأويل وذكرتُ أنّ قول القائِلِ: لا أَفْعَلُ ذٰلك يَدَ الدَّهْرِ[5]، معناهُ عِندي: لا أفْعَلُ ذٰلك قُوَّةَ الدَّهْرِ، أَي ما دامَ الدّهرُ قويَّ الأركانِ قائمَ البُنيان.

---

(١) تضافروا في الأمر: تعاونوا عليه.

(٢) وازره على الأمر: أعانه وقوّاه.

(٣) الرَّجز في اللّسان: (ب و ح) و (ي د ي) وفي مجالس ثعلب ١:٢٠٢ ومقاييس اللغة: (ب و ح).
ـ قال ثعلب في التقديم للرجز: «وأنشدني أعرابيّ من بَهْدَلة».

(٤) في اللسان: (ي د ي): «... واليَدُ: القوّة؛ ومنه أيّده الله أي، قوّاه». وقال ابن الأثير في النهاية (ي د ي): في شرح الحديث (المسلمون تتكافأ دماؤهم...) ما نصه:
«وهم يد على من سواهم: أي هم مجتمعون على أعدائهم، لا يسعهم التخاذل، بل يعاونُ بعضهم بعضاً على جميع الأديان والملل؛ كأنه جعل أيديهم يداً واحدةً، وفعنهم فعلاً واحداً». ا.هـ.

(٥) اختار الزمخشري (في الأساس ع د ي) أن قولهم: «لا أَفْعَلُه يَدَ الدَّهر. أي أبداً»:

[٥] فأمّا الحَديثُ الآخَرُ عنهُ عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو قَوْلُه : [١]

« عَليكُمْ بالجَماعَةِ فإنَّ يَدَ اللّهِ عَلىٰ الفُسْطاط » .

فليسَ المُرادُ باليَدِ فيه كالمُرادِ باليَدِ في الحَديث الأوّل، بل المُـرادُ باليَدِ هٰاهُنا : حِفْظُ اللّهِ ورِعَايَتُه ؛ كما يقولُ القَائلُ : « ما لِي في يَدِ فُلان » ؛ إذا أَرادَ أنّهُ حافظٌ لهُ وأَمينُه عَليه .

والفُسْطاطُ هاهُنا البَلَدُ ؛ ومنه سُمِّي فُسطـاطُ مِصـر[٢] . فكأنّـهُ عليه الصَّـلاة والسَّلامُ، أمَرَهـم بِلُزومِ الجَمَاعَةِ في الأَمْصارِ، ونَهاهُم عن الانشِعاب والافتِراق ؛ ولم يُرِد أنّ الخارِجَ عن المِصر خارجٌ عن قَبْضَةِ اللّهِ ومَملكته ؛ لكنّـه خارجٌ عن حِفْظِه ورِعَايته .

وإنّما أَمرهم بِلُزوم الأَمصارِ لأَنّها في الأكثرِ مواضِعُ الجَماعة ، وإلا فالأمر علىٰ الحقيقة إنّما هو بلزوم الجماعة ، ولو كانَ أهلُها في أكنافِ الفَيافِي ومَطارِح[٣] البَوادِي .

[٦] ومن ذٰلكَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الخيْل : [٤]

---

(١) الحديث في النّهاية في غريب الحديث: (ف س ط). والفائق (ف س ط) وكنز العمّال ١٦ : ٤٤١٨٨ .

والفسطاط ضربٌ من الأبنية في السفر ـ دون السُّرادِق ـ قال ابن الأثير: هو المدينة التي فيها مجتمع النّاس. وكل مدينة فسطاط. (وانظر الحاشية التالية) .

ـ ويراجع الفائق للزمخشري (ف س ط) وكنز العُمّال ١٦ : ٤٤١٨٨ .

(٢) للفُسطاط معانٍ فهو البيت من الشّعر، والسُّرادِقُ من الأبنية، ومجتمع أهـل الـكورة حول مَسْجِد جماعتهم، والمدينة التي فيها مجتمع النّاس. والمعنى الأخير هو المقصُود هنا.

وسمِّيت عاصمة مصر الإسلامية التي بُنيت بعد الفتح بالفسطاط، لأنهم بنوا حول الفسطاط الذي ضرب حين الفتح. (اللسان : ف س ط، ومعجم البلدان، والروض المعطار، مادة : فسطاط) .

(٣) يقال: طرحت به النوى كلّ مطرح أي: نأت به .

(٤) استشهد به في حلية الفُرسان : ٣٤؛ وتمامُه : «قال رسول اللّهِ ﷺ : عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حِرز، وبطونها كنز» .

ـ وفي فضل الخيل للدمياطي : ١٥ : ظهورها عزّ.

« **ظُهُورُها حِرْزٌ وَبُطُونُهَا كَنْزٌ** ». وهذا القول خارجٌ علىٰ طريق المجاز؛ لأنّ بُطونَ الخيلِ علىٰ الحقيقةِ ليستْ بِكَنْزٍ؛ وإنّما أرادَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنّ أصحابَها يُنتجونها من الأفلاء ما تنمى به أَموالُهم، وتحسنُ معه أَحوالُهم، فهم باستيداعِ بُطونِها نطفَ الفُحولةِ كمنْ كنَز كَنزاً إذا أرادَهُ وَجَده وإذا لَجأ إليهِ دَعم ظَهْرَه، كما يكونُ الكانِزُ عند الرُّجوع إلى كَنْزِه والتَّعويل عَلىٰ ما تَحت يَدِه.

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « ظهورها حِرْز »[1] أَوضح من أن نوضحه. والمُرَادُ أَنّها مَنْجاةٌ من المَعاطِب، ومَلجَأةٌ عند المَهارِب.

[٧] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام: [2]

« **في الجَنِينِ غُرَّة عَبْد أَوْ أَمَة** »[3] وفي هذا الكلام مَجازٌ؛ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، إنّما جَعل العَبْدَ أو الأَمةَ غُرّةً لأَنّهما أَفضلُ ما يَمْلِكُه المالك، وأفْخَرُهُ، وأظْهَرُهُ، وأَشْهَرُه. ولذلك سُمّي أيضاً في لِسانِهم الفَرَسُ غُرَّةً؛ لأنّهُ من أَنْفَسِ ما يُمْلَك. ولمثلِ هٰذا المَعنى أيضاً ما سَمَّوا الخَيْلَ جَبْهَةً[4].

وفي الحديثِ المشهُور:[5] « **لَيْسَ في الجَبْهَةِ ولا في النَّخَّةِ، ولا فِي الكُسْعَةِ**

---

(١) الحرز: الموضوع الحصين.

(٢) الحديث في كتب الصّحاح، مشهور، وفي سنن أبي داود رقم ٤٥٧٢ و٤٥٧٣ و٤٥٧٤ «قضى رسول الله ﷺ في الجنين: غرّةً عبدٍ أو أمةٍ، وجعله على عَصَبة المرأةِ... الخ». وصحيح البخاري ١٢: ٢٠ وصحيح مسلم (القرم / ١٦٨١) وسننَ الترمذي (الرقم ١٤١٠) وسنن النسائي ٨: ٤٧.

(٣) الغُرّة ـ في اللغة ـ العبد والأمة، وفي اصطلاح الفقهاء: ما بلغ ثمنه من العبيد والإماء نصف عُشْر الدية. وفي اعتبار نفاسة الغرة عند الشافعي وجهان: أحدهما: لا تعتبر ولو كان قيمتها ديناراً. والثاني: تعتبر، ولا ينقص بها عن خمس من الإبل، أو خمسين ديناراً. وذلك نصف عُشر الدّية أيضاً. والنبي ﷺ كني بالغُرّة عن الجسم جميعه. والغُرّةُ بياض يكون في وجه الفَرس.

(٤) الجبهة: الخيل (لا واحِدَ لها).

(٥) الحديث في النهاية لابن الأثير (ج ب هـ) و(ك س ع) و(ن خ خ). وانظر أيضاً الفائق (جبه)، والغريبين (جبه) ١/ ٣١٥.

صَدَقَةٌ ». والنَّخَّةُ:[1] الرّقيق؛ ومن قال النُّخَّةُ بالضّم قال: هي البَقَرُ العَوامِلُ؛ والكُسْعَة: الحَمِير. وهٰذا أشْهَرُ الأقوالِ في هٰذا الحَدِيث.

قال ابنُ أَحمر:[2]

إنْ نَحْنُ إلاَّ أُنَاسٌ أَهْلُ سَائمةٍ
وَمَا لَهُمْ دُونَهَا حَرْثٌ وَلا غُرَرُ

أي: ليسَ لهم زَرْعٌ يُعْتَمَدُ، ولا خَيْلٌ تُقْتَعَدُ[3]!

وقال الآخر:[4]

كُلُّ قَتِيلٍ في كُلَيْبٍ غُرَّهْ حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّهْ

يقول: كلُّ قتيلٍ نَقْتُلُه بِكُلَيبٍ من غير آلِ مُرَّة عبدٌ لا نَقْتُله بَوَاءً[5]، ولا نَرْضى به كِفَاء.

وكأنّ فحوىٰ الكَلامِ أَنَّ العَبْدَ، والأَمَةِ، والفَرس، من أَظْهَرِ الأسماءِ

---

(١) في مادّة (ن خ خ) في اللسان كلام طويل، مروي عن علماء اللغة ورواتها بأسمائهم ـ لاختلافهم في فروع معاني المادّة. وفيه « النَّخَّةُ (بفتح النون) والنُّخَّةُ (بضمّها) اسمٌ جامِعٌ للحُمُر، وقيل النُّخَّة: البقر العوامِلُ، والنَّخَّةُ (بالفتح): الرقيق من الرجال والنّساء، يعني بالرقيق المماليك. . الخ » انظر ثمة مُستقصى:

ـ واختيار الشريف هو من أقوى المرويّ في هذه المادّة اللغويّة.

(٢) ديوان ابن أحمر: ١٠٧، والبيت من قصيدة طويلة.

(السائمة: الإبل الراعية. والحرث: العملُ في الأرضِ زرعاً كان أو غرساً، وقد يكونُ الحرث الزرع نفسه. والغُرَر جمع غرّة: العبد).

(٣) أي تتخذ مركباً (ركوباً).

(٤) هو مهلهل، في شعره المرويّ من أحداث حرب بكر وتغلب، حرب البسوس. والبيت في الأغاني ٥: ٤٠. واللسان (غ د ر) دون نسبة.

ـ وكليب هو كليب بن ربيعة الذي قتله جسّاس، فقام مهلهل يطلب ثأره وطالت الحربُ جدّاً. وآل مُرّة قوم جساس من بكر بن وائل.

(٥) يقال: باءَ بدمه أي: عَدَلَهُ وكانَ كُفأً له. والمصدر: بُوْء، و: بَواء.

المَمْلُوكة، وأَدَلّها على وَفارَةِ الثّروة، وفَخامةِ النّعمة؛ لأنَّ غَيْرَها من الأَعراضِ في الأكثر لا يَشْتَهِرُ اشْتِهارَها، ولا ينتشِرُ انتشارَها.

[٨] ومن ذلك قولُه عَليه الصَّلاة والسَّلامُ: [١]

« **إذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خيراً عَسَلَهُ. قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولُ الله: وَمَا عَسَلَهُ؟ قَالَ: يَفْتَحُ لَهُ بَيْنَ يَدَي مَوْتِهِ عَمَلاً صَالِحاً يُرْضِي حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ** ».

وفي هٰذا الكلام مجازان **أَحَدُهما**: قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام: عَسَلَه، وهو مأخوذ من العَسَلِ كما يقولُ القائلُ: عَسَلْتُ الطَّعامَ، إذا جَعَلَ فيه عَسَلاً؛ وسَمَّنْتُه إذا جَعَلَ فيه سَمْناً؛ وزَيَّتُّه إذا جَعَل فيه زيتاً. ومعنى عَسَلَهُ: أي جعل عَمَلَهُ حُلْواً يَحْمَدُه الصّالحونَ ويَرْضاهُ المُتَّقُون، فيكون كالشَّيء المَعْسُول الذي يَسُوغُ في اللَّهوات، ويَلَذُّ علىٰ المذَاقات.

والمجازُ الآخَرُ: قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « بين يَدَيْ موته ». ولا يَد للمَوْت علىٰ الحَقيقة، ولكنّها كِنايةٌ عن الشَّيء الواقِع أمام الشّيء المُتَوَقَّع. وقد تكلّمْنَا علىٰ هٰذا المعنى في كتاب **مجازات القرآن**[٢] عند قوله سبحانه في البقرة: [٣] ﴿**فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا**﴾. وعند قوله تعالىٰ في سَبَأ: [٤] ﴿**إِنْ هُوَ إلاّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾. وذلك كما تقولُ: لمن يسأَلُ عن أَحدٍ بالعَشيرةِ، وهو سالكُ طريق، وسائلٌ عن رَفيق: ها هُو ذا بينَ يَدَيْك، أَي قد تَقَدَّمَك، ولا يُقال ذلك إلاّ فيما إذا كنتَ وراءَهُ، وهو أَمامك، لا فيما كنتَ أمامَهُ وهو وراءَك.

---

(١) أخرجه الترمذي (في السنن برقم ٢١٤٣) وروايته: « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله. فقيل له: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: يوفّقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت».
ـ وينظر في رواية الشريف: الفائق (ع س ل) وكنز العمال ١١: ٣٠٦٣ و٣٠٧٩٦ و٣٠٧٩٨. ومسند الإمام أحمد ٤: ٢٠٠ و٥: ٢٢٤. والفتح الكبير ١: ٧٣.

(٢) مجازات القرآن: ١١٥ ـ ١١٦.

(٣) البقرة ٢: ٦٦. وانظر تفسير القرطبي ١: ٤٤٣.

(٤) سبأ: ٤٦ وتفسير القرطبي ١٤: ٣١١، ومجازات القرآن: ٢٦٧.

وكلُّ ذٰلكَ إنّما يُراد بهِ في الأكثرِ تقريبُ الشَّيءِ من الإنسانِ حتّى كأنّهُ لِقَافُ يده[١]، وقِرابُ تَناوُلِه[٢]، كما تقول:

هٰذا الشَّيءَ أَخْذُ يَدِي، أي مُمكِنٌ لَها، وقريبٌ من تَناوُلِها.

[٩] ومن ذٰلكَ قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: [٣]

« وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّين ».

وفي هذا الكلام مجازٌ واستعارة؛ لأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، عَنى به الّذين يُكْثِرُونَ استماعَ الأَقوالِ، واختلافَ الكلامِ؛ فيكونُ ذلك ثالِماً في دِينهم، وقادِحاً في يَقينهم. فشبَّه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلام آذانَهُم بالأَقماعِ التي يُفرغُ فيها ضُروبُ القَوْلِ إفراغ المائِعات.

وهٰذِه منْ أَحْسَنِ العِبارات عن هٰذا المَعْنى؛ لأَنَّ الآذانَ هي الطُّرق التي يُوصَلُ مِنها إلىٰ الصُّدور، والأَنقابُ[٤] التي يُدْخَلُ مِنها علىٰ القُلوب، فهي أبوابٌ مُوصِلَةٌ، وطُرقٌ مُبَلِّغة.

وقد حَمَلَ بعضُ العُلَماءِ هٰذا الحديثَ علىٰ تَأويلٍ غيرِ مُشْبِهٍ لِفَحْوى اللَّفظ؛ لأَنّه قال: المُرادُ بذٰلكَ: الذين تَتَكرَّرُ المواعِظُ علىٰ أَسْماعِهم، وهُم معَ ذٰلك

---

(١) في الأصول المطبوعة: لفاف يده، وتمحّل ناشر والكتاب لها وجوهاً بعيدة.
- ويقال لقف الشيءَ: تناولَهُ بالحِذق بيدٍ أو بضمٍ أو بغيرهما.

(٢) قاربة قِراباً ومقارَبَةً: داناهُ.

(٣) الحديث في النّهاية لابن الأثير (ص ر ر) و (ق م ع). وانظر الفائق (قمع).
- وأورده العجلوني في كشف الخفا (٢: ٤٧٢)، وتتمته: « . . . الذين يُصّرون على ما فَعَلُوا وهم يَعْلَمُونَ. واللَّهِ ما حَسَّنَ اللَّهُ خَلْقَ رَجُلٍ وخُلُقَهُ فَتَطْعَمَهُ النار».
- قال العجلوني بعده: «رواه الطبرانيّ في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً».
- والأَقماعُ جمع قِمْعٍ وقِمَعٍ شبَّه أسماعَ من لا يعملون بما سَمِعُوا بالأقماع التي لا يبقى فيها شيء. وشبه الرسول ﷺ أسماع الذين لا ينتجع فيهم الوَعظ ولا يعملون به بالأَقماع التي لا تعي شيئاً مما يفرّغ فيها.

(٤) الأنقاب جمع النَّقب: الثّقب.

مُصِرُّون على المَعاصي، ومُوضِعُونَ في طُرقِ المَغاوي[1]. وهٰذا القَوْلُ، وإن كانَ سائغاً، فإنّ الأَشْبَه بظَاهِرِ الكَلامِ أنْ يكونَ على ما قَدَّمْتُ القَوْلَ فيهِ من ذم من يَجعلُ سَمْعَهُ مساغاً للأَقوال المُختلفة، والأَنباء المُتَضادَّة. ويكونُ قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: « المُصِرّيْنَ »[2]. تماماً لِهٰذا المَعْنى المُراد، ومبالغةً في وَصْفِ هٰؤُلاءِ المَذْمُومين بكثْرَةِ استِمَاع الأَقوال؛ فيكونُ ذلكَ من قَولهم: أصَرَّ الفَرَسُ أُذنيهِ إذا نَصَبَهُمَا للتَوجُّسِ ؛ لأنَّهُ يُقالُ: أصرَّ أُذنيه، وصَرَّ بِأُذنيه.

وهٰذا التَّأويلُ لمْ أَعلَمْ أَحداً سَبقني إليه.

[١٠] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حين أَتاهُ الفَضْلُ بنُ العَبّاس[3] وابنُ ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب[4] يسأَلانه عن أَبَوَيْهما السِّعاية[5]

---

(١) مُوضعون من أَوْضَع: إذا أَسْرَع في السَّير. والمغاوي من فعل غوى أي ضلّ وانهمك في الباطل.

(٢) قال الزَّمخشري في تفسير الآية الكريمة: ﴿ ومَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا اللَّهُ ولم يُصِرُّوا على مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥) ما نصُّه:

« ولم يصرّوا أي: ولم يقيموا على قبيح فِعلهم غير مستغفرين. وعن النبي ﷺ: «ما أَصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرَّة». وروي: « لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار... ».

(٣) هو الفضل بن العباس بن عبد المطلب (جمهرة الأنساب لابن حزم ١٨).

(٤) هو عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (جمهرة الأنساب لابن حزم: ٧٠).

(٥) في الأُصول المطبوعة: « السِّقايَة »، وفيها تصحيف أخرج الكلام عن مقاصده، والصواب « السِّعاية ». وخبر الحديث مشهور (انظر مثلاً طبقات ابن سعد ٤ : ٥٨ وأنساب الأشراف - القسم الثالث: ٢٤ - ٢٥).

وفي أنساب الأشراف، رواية عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: « مشى بنو عبد المطّلب إلى العباس فقالوا له: تكلّم لنا رسول الله ﷺ في أن يجعل إلينا ما يجعل إلى الناس من هذه السعاية على الصّدقات. قال فبعث العباس ابنه الفضل، وبعثني أبي ربيعة إن الحارث إلى النبي ﷺ حتّى دخلنا عليه فأجلسنا عن يمينه وشماله. ثم أخذ رسول الله بأذني وأذن الفضل فقال: أخرجا ما تُسِرّان فقلنا بعثنا إليك عمك، واجتمع إليه بنو عبد المطلب يسألون أن تجعل لهم نصيباً في هذه السعاية، فقال: إن الله أبى لكم يا بني عبد المطلب أن يطعمكم أوساخ أيدي الناس، أو قال: غسالة أيدي الناس. ولكن لكما عندي الحِباءُ والكرامة. أمّا أنت يا فضل فقد زوّجتك فلانة، وأما أنت يا عبد المطلب فقد زوجتك فلانة. فرجعنا فأخبرنا بقول رسول الله ﷺ » اهـ.

فتَواكلا[1] الكلامَ، فقال عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « أَخْرِجَا مَا تَصُرَّان »[2]. وفي هذا القَوْلِ استعارَةٌ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَراد: أَظْهِرا ما تَكْتُمان في قُلوبكما وصَرِّحا بما تُلجْلِجُ بهِ أَلسنتكُما. فجعلَ القلبَ بمنزلةِ الوِعاءِ والكتمانَ بمنزلةِ الـوِكاء[3]، والأمرَ المكتومَ بمنزلةِ الشَّيء المُوْعى[4]. وكُلُّ شيءٍ جمعْتَهُ فقد صَرَرْتَهُ. ومنه قيل للأَسير: مَصْرور؛ إذا جُمِعَتْ يَداهُ بالغُلّ[5] وقَدماه بالحِجْل[6].

[١١] ومن ذٰلكَ قَوْلُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في عُمْرَةِ الحُدَيْبية[7] عِنْد كَلَامٍ جَرَىٰ في شَأْنِ قُرَيْش: « فإِن اتَّبَعُونَا اتَّبَعَنا مِنْهُمْ عُنُقٌ يَقْطَعُها اللّـهُ ». وفـي هذا القولِ استعارَةٌ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبّه مَن تَبِعَهُ مِنهم في التَّلاحُقِ والامتِداد والجِدِّ والاجتِهاد بالعُنُق الواحدةِ التي لا تَخْتَلِفُ أَجزاؤُها، ولا تَتبايَنُ أَعضاؤُها، فهو أشَدّ لِقُوّتها، وأَوْهَنُ لِصَدْمَتِهَا. وعلىٰ هٰذا المعنى قولُ الشّاعر:

وأنشدَنَاه شيخنا أبو الفتح عثمان بن جِنّي النحويّ[8] رَحِمَـهُ اللّـهُ في حالِ القِراءةِ عليه:[9]

(١) أي أوكل كُلُّ واحد منهما إلى صاحبه أن يتكلّم.

(٢) في النّهاية لابنِ الأثير « ما تَصُرّان » كما في المجازات هنا، وفي طبقات ابن سعد: « ما تَصْرُوان » وفي أنساب الأَشراف « ما تُسِرّان ». وانظر أيضاً الفائق (وكل).

(٣) الوكاء: الرباط الذي يُربط به المتاع، أو يُشَدُّ به الكيس.

(٤) المُوْعَى: اسم مفعول من: أَوْىٰ: وضع الشيء في الوعاء.

(٥) الغُلّ: القيد يوضَعُ في اليد أو في العُنق.

(٦) الحجل: قيد، وأكثر ما يُستعمل في الرِّجل.

(٧) يراجع في عُمرة الحديبية وأخبارها تاريخ الطبري ٢ : ٦٢٠.

(٨) أبو الفتح عثمان بن جِنّي (ت ٣٩٢) من أئمة النحو واللغة والأدب، وله شعر حسـن أيضـاً، ولـد بالموصل، ولزم أبا عليّ الفارسي طويلاً، وسافر معه في بعض أسفاره. وسكن بغداد. وتلقى عنه الجم الغفير. وعلت مكانته عند الخاصة والعامّة. وعُرِف بصحبته لأبي الطيب المتنبي وإعجابه بِه، وتأليفه في شرح شعره والدفاع عنه. وله مؤلفات حِسان أشهرها: الخصائص.
وتاريخ بغداد ١١ : ٣١١ ومعجم الأدباء ١٢ : ٨١ وسير أعلام النبلاء ١٧ : ١٧ .

(٩) أنشدها الفرّاء لشاعر ـ لم يسمّه ـ في عليّ رضي الله عنه وكرّم وجهه.

أَبْلِـغْ أميـرَ المُؤمِنِيـ ـنَ أَخَـا العِـرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ العِـرَاقَ وَأَهْلَـهُ عُنُـقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا[1]!

ولقول الشاعر: « عُنُقٌ إليك » معنيان:

أحَدُهما: أَن يكونَ علىٰ الوجْهِ الذي ذَكرناه أَوّلاً من تشبيهِ الطالِبين له، والقاصِدينَ إليه بالعُنقِ في التَّلاحُقِ إلىٰ فِنائه، والتَّسرُّعِ إلى لِقائه.

والمعنى الآخر: أن يكونَ أرادَ: أَهْلُ العِراق علىٰ توقّعٍ لورودِه وتشوّقٍ إلى طُلوعه، منهم كالعُنق المُمتدّة نحوه؛ وذلك علىٰ المُتَعارف بينَنا من قول القائلِ منّا إذا أرادَ أن يعبِّر عن انتظارِه لواردٍ أو توقّعِه لطالِعٍ أن يقول: عُنُقِي ممتدّةٌ إلى وُرود فُلان. كما يَقُول: عَيْنِي مَمْدُودَةٌ إلى طُلوعِ فلان.

وقولُ الشّاعرِ في البيت الثّاني: « فهيْتَ هَيْتَا » يشْهَدُ بأنَّ مُرادَهُ الوجْهُ الأخيرُ من الوَجهين؛ لأنّ في هٰذا القَولِ حَثّاً له علىٰ التَّعَجُّلِ، وإزعاجاً إلىٰ التسرُّع.

فأما قول الله سبحانه وتعالىٰ: [2] ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾. فقد فُسِّر أيضاً على وَجهين أوردناهُما في مَواضع من كلامنا في تَأْويل القُرآن.

فأحدُ الوَجهين: أَن يكونَ سُبحانه ذكَر الأَعْناقَ، ثُمّ رَدّ الذِّكْرَ علىٰ أصحابِ الأَعناقِ؛ لأنّ خُضوعَ الأعناقِ هو خضوعُ أَصحابِها؛ لَمّا لم يكن خضوعهم إلا بها.

والوجهُ الآخَرُ: أَن يكونَ أرادَ الجَماعات؛ لأَنّه قد تُسَمّىٰ الجَماعةُ عُنقاً

---

(١) البيتان في معاني القرآن للفراء٢: ٤٠ والثاني في الخصائص لابن جني: ١: ٢٧٩.
ـ وقوله: عُنُقٌ أي مائلون.
ـ ويراجع اللسان والتاج (هيت) وشرح المفصّل ٤: ٣٢.

(٢) الشعراء / ٤، وانظر تفسير القرآن للقرطبي (الجامع) ١٣: ٨٧، ومجازات القرآن للشريف: ١٧٠. ومجمع البيان للطبرسي ٤: ١٨٤.

علىٰ الوجه الذي قدمنا ذكره. يقول القَائِلُ: جاءَني عنقٌ من النّاسِ، أي جماعةٌ، فيكونُ (خاضِعين) صفةً للجَماعات؛ والمَعْنىٰ في ذٰلك ظاهرٌ غيرُ محتاجٍ إلىٰ التَّأويل. وقد يَجُوز أن يكونَ (الأَعناقُ) هاهُنا كنايةً عن السَّاداتِ والمُتَقَدِّمينَ من القَوم.

يُقال: هَؤُلاءِ أعْناقُ القَوم: أي سادَتُهم؛ كما يُقال: هٰؤُلاء رؤوسُهم وعَرانينُهم. ذكَر ذلك صاحِبُ العَيْن[1] في كتابه[2].

وقال لي أبو حَفْصٍ عُمَرُ بن إبراهيم الكَتَّانِيّ[3] صاحبُ ابنِ مُجاهِد[4]، وقد قرأْتُ عليه القرآن بروايات كثيرة: سمعت أَبا بكر بن سُفْيان النحوي[5]

---

(١) هو الخليل بن أحمد الفَراهِيدي، أبو عبد الرَّحْمٰن: إمام العربية، وأستاذ سيبويه إمام النحاة. ولد ومات بالبصرة سنة ١٧٠ هـ. وهو مستنبط علم العروض وعلم القافية، وواضع أَوّل معجم عربي شامل (العين).

(٢) لم نجد هذا الكلام في كتاب العين وجاء فيه: «وقول الله تعالى: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾أي جماعاتهم. ولو كانت الأعناق خاصّة لكانت: خاضعة، وخاضعات. ومن قال هي الأَعناق والمعنى على الرجال ردّ نون (خاضعين) على أسمائهم المُضمرة. . . ».
انظر كتاب العين ١/ ١٩١، ومثله في المحكم ١/ ١٣٠.

(٣) أبو حفص عمر بن إبراهيم بن أحمد بن كثير الكتّاني، مقرىء محدّث ثقة، من أهل بغداد. قرأ القرآن على ابن مجاهد، وسمع منه كتاب السبعة. توفي سنة ٣٩٠ هـ. (تاريخ بغداد ١١: ٢٦٩، غاية النهاية ١: ٥٨٧، معرفة القرّاء الكبار ١: ٣٥٦)، والذي في مطبوعات المجازات النبوية (الكناني) بالنون، وصوابه الكتّاني كما أثبتنا.

(٤) أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس التميمي، ابن مجاهد، كبير العلماء بالقراءات في عصره، من أهل بغداد، كان حسن الأدب، رقيق الخلق، فَطِناً جواداً. (وتوفي سنة ٣٢٤). (تاريخ بغداد ٥: ١٤٤، غاية النّهاية ١: ١٣٩، معرفة القرّاء الكبار ١: ٢٦٩).

(٥) لم نجد بين أصحاب المبرّد من يُدعَى (أَبا بكر بن سفيان النَّحوي). وكأنه تحريف عن أبي بكر بن سهل بن السرّاج النَّحوي.
ـ وذكرت كتب التراجم أسماء من يكنى بأبي بكر من أصحاب المبرّد، وهم ـ كما في طبقات النحويين واللغويين: ١١١ ـ ١١٦ ـ:
(أبو بكر بن السريّ بن سهل السرّاج، وأبو بكر محمد بن عليّ بن إسماعيل العسكري، وأبو بكر =

صاحب المبرِّد[1] يقول: أَوْلىٰ الوجُوهِ بتأويلِ هذه الآيةِ أن يكون (خَاضِعِيْنَ). مَـرْدُوداً علىٰ الضَّميـر في (أعنـاقهم) فكـأنّـه تعـالىٰ قـال: فَـظَلُّوا هُم لَهـا خاضِعين[2].

ويَبعد أن يُحمل قوله صَلّىٰ الله عليه وسَلّم في هٰذا الخَبر: « عُنقٌ يَقْطَعُها الله »، علىٰ أنَّهُ أرادَ به الجَماعة؛ لأنّ قولَه « يقطعها اللّهُ »، بالعُنقِ المعروفةِ التي هي العضوُ المخصوصُ أَشْبَهُ، وفي موضعِ الكلامِ أحسنُ؛ وإنّما جاءَ بـالعُنقِ هـاهنا علىٰ طـريقِ الاستعارَةِ تَشْبيهـاً للقَوْمِ الّـذينَ ذكر اتّبـاعهم لَهُ بـالعُنق في الاحتشادِ لطلبهِ والامتِداد لِلّحاقِ به.

[١٢] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، في كتابٍ من كُتبه: [3].

« هٰـذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمّـدٍ رَسُولِ اللّهِ لِعَمَـائرِ كَلْبٍ وَأَحْـلاَفِها وَمَنْ ظـأَرَهُ الإِسْلامُ مِنْ غَيْرِهَا ».

وفي هٰذا الكلامِ استعارةٌ لأنّ الظّأر في الحقيقة العَطْفُ؛ ومنه ظأْرُ الناقة؛ وهو أَن يَموتَ ولَدُها فتعطفَ على البَـوِّ[4] الـذي يُجْعَلُ لهـا لِتدرَّ عَليـه لَبَنها،

= بن أبي الأزهر: محيد بن أحمد بن مزيد، وأبو بكر محمد بن شقير النّحوي، وأبو بكر أحمد بن محمد بن منصور، ابن الخيّاط، وأبو بكر محمد بن جعفر بن محمد السامِريّ الخرائطيّ).

(١) هو أبو العبّاس، محمد بن يزيد الثُمالي الأزدي، المعروف بالمبرّد. إمام العربية في بغداد في زمانه، وأحد أئمّة الأدب والأخبار. ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٢٨٦ هـ.

(٢) يراجع: الكامل ٥ : ٢ والمقتضب ٤ : ١٩٨، ١٩٩.
ـ وقال الزمخشري: أصل الكلام: فظلّوا خاضعين.

(٣) الفائق (ع م ر) والنهاية في غريب الحديث (ظ أ ر، ع م ر) والعقد ٢ : ٣٤.
ـ كتبه رسول الله ﷺ لمّا قدم عليه قطن بن حارثة العليميّ مع وفد من كلب على المدينة، فكتب لهم هذا الكتاب.
ـ والعمائر جمع عمارة، وهي الحيُّ العظيم. فمن فتح عينها. فإنه ذهب إلى التفاف بعضهم على بعض كالعمارة، وهي العمامة؛ ومَنْ كسر فلأنهم عمارة الأرض.
ـ و (ظأره) أي عطفه.

(٤) البَوُّ: ولد الناقة، وجِلدُ الحُوارُ يُحشى تِبناً ويقرّب من أمّه لتدّر عليه.

وأصلُه العَطْفُ علىٰ الشَّيءِ بالأَخذ والحَمْلِ لا بالاختِيار والطَّوع.

ويبين هذا المعنىٰ قول الكُمَيْت الأَسَدِي:[1]

وَهُمْ رأمُوهَـا غَيْـرَ ظَأْرٍ وَأَشْبَلُوا   عَلَيْهَا بأَطْرافِ القَنَا وَتَحَدَّبُوا[2]

أي عَطَفُوا عليها طائِعين مُختارين لا مُجْبَرِين مَحْمُولين؛ ثم استُعمل بعدَ ذلك فيمن عطفَ طائعاً كما استُعمل فيمن عَطف كارهـاً. فكأَنّـهُ عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ جَعل الإسلامَ يعطفُ على الدُّخول فيـه: إمّا طَـوْعاً ومشيئـةً، أَو عِناداً وخِيفة. ومن أمثال العرب:[3] الطَّعْنُ يَظْأَرُ: أي يعطفُ على السّلم والتَّواهب، ويحمل علىٰ البُقْيا[4] والتَّقارُب.

[١٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لِحَادِي[5] مَطِيّه:

« **يا أَنْجَشَةُ! رِفْقاً بالقوارير!** »[6]. وهٰذِه استعارةٌ عَجِيْبَةٌ؛ لأنّه عليه الصلاة

---

(١) أبو المستهلّ الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي، شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة. كان عالماً بآداب العرب وأخبارها وأنسابها. توفي سنة ١٢٦ هـ.

(٢) البيت في هاشميات الكميت بتفسير أبي رياش: ٦٥.
ـ قال في الشّرح: أي رئموا عدوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام، أي قبلوها وعطفوا عليها كما ترأمُ أم الناقة ولدها.
(غير ظأر) أي قَبِلُوا دعوة الإسلام الإسلام ولم يُكرهـوا علـى قبولهـا. و (أثبلـوا): أشفقـوا. و (بأطـراف القنـاة) أي قاتلـوا عليهـا طائعين، يريد بهـا الأسنّـة. و (تحدّبـوا)، أشفقـوا. و (الظأر): العطف.

(٣) جمهرة الأمثال ٢: ١٤ ومجمع الأمثال ١: ٤٣٢، واللسان والتاج (ظ أ ر).

(٤) ـ ويضرب المثل في البخيل يُعطي على الرهبة. يقول: إنه إذا خافك أن تطعنه عطفَه ذلك عليك فجادَ لك بماله. أي طعنُك إيّاه يعطفُه على الصُّلح!

(٥) رواه البخاري ١٠: ٤٥٦ ومسلم (برقم ٢٣٢٣) وأحمد في مسنده ٣: ١٠٧ و ١١٧.

(٦) أراد بالقوارير: النّساء. وشبَّهَهُنّ بالقوارير لأن أقلّ شيءٍ يؤثّر فيهنّ، كما أنّه أقل شيءٍ من الحُداءِ والغناءِ يؤثّر في النساء. أو أراد أن النساء لا قوّة لهنّ على سرعةِ السَّير. والحُداءُ مما يهيج الإبل، ويبعثها على السَّير وسرعته، فيكون ذلك إضراراً بالنساء اللَّواتي عليهنّ.

والسّلام شَبّهَ النّساءَ في ضَعف النَّحائز(1) ووَهن الغَرائِـز بالقَـوارير الـرَّقيقةِ التي يُوهِنُها الخَفيفُ، ويَصْدَعُها اللَّطيف.

فنهىٰ عن أَن يُسْمِعَهن ذٰلك الحادِي ما يُحرِّكُ مـواضعَ الصَّبْـوَة، ويَنْقُضُ معاقِدَ العِفَّة.

وقـد حَمل بعضُ العُلَمـاءِ قولَـهُ تَعالىٰ: (2) ﴿ قَـوَارِيرَ مِنْ فِضَّـةٍ قَدَّرُوْهَـا تَقْدِيْرا ﴾ علىٰ أَنّ المُرادَ بِهِ غيرُ الزُّجاج هٰاهُنـا. والقَارُور: فَـاعُول من استِقـرارِ الشَّيءِ فيه؛ فكأنّه قرارٌ للشّرابِ وغيرِه من المائِعات، فَيَصْلُح أَن يكونَ للزُّجاجِ، ويكون لغيرِ الزُّجاج.

وأما عامَّة المُفَسِّرين(3) فيَذْهَبُون إلى أَنَّ تِلكَ الآنِية الموصُـوفة من فضـةٍ ولكنَّها تشفّ شفيفَ القَوارير من الزُّجاج، فهو أَعْجَزُ لتصويرها وأَعْجَبُ لِتقْدِيرها إذا كانتْ جامعةً للرِّقَّةِ اللَّطِيفة والقُوّة الحَصيفة.

[١٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، وقد تذاكر النّاسُ عنده أَمر الطَّاعون وانتشاره في الأَمصار والأَرياف، فقال صلىٰ الله عليه وآله: (4)

« **فَإِنِّي أَرْجُو ألا يَطْلُعَ إِلَيْنَا نِقَابَهَا** ». يعني نِقابَ المدينة، والنقاب: جَمعُ نَقْب، وهو الطَّريق في الجَبل(5).

وفي هٰذا الكلامِ استِعارةٌ حَسنةٌ، لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَقام هذا الدّاءَ

---

(1) النحائز جمع النّحيزة: الطبيعة والغريزة.

(2) سورة الإِنسان (الدهر) / ١٦.

(3) انظر مثلاً تفسير الكشاف للزمخشري ٤: ١٩٨ ومعانـي القـرآن للفّـراء ٣: ٢١٧ وتفسير القرطبـي ١٩: ١٤٠ ـ ١٤١.

(4) المسند ٥/ ٢٠٧ والفائق والنهاية (طلع، نقب).

(5) في النهاية: « هو الطريق بين الجبلين ».
أي يريد أنّه لا يطلع إلينا من طرق المدينة، فأضمر عن غير مذكور.

المُسَمّى بالطّاعون في تَغَلْغُلِه إلى البِلاد المَنيعة، وذهابِه بالأعلاقِ الكريمةِ مقامَ الجَيْشِ المُغير الذي يوفي على الأَنشازِ[1] ويهجمُ على الحُصونِ والدِّيار.

يقال: « طَلعَ فُلانٌ الثَّنِيَّةَ »[2] إذا أوفى عليها وقَرَع ذِرْوتها.

ومن أَحْسَنِ التّمثيل وأَوقع التّشبيه أن تشبّه أَسبابَ الموتِ وطوارِقَ الدَّهْرِ بالجيشِ الهاجِم، والمِقْنَب[3] المُصَمِّم الذي تُخافُ سَطوَتُه، وتَنْكأُ شَوْكَتُه[4]، ولا يُسَدُّ طريقُهُ، ولا يُؤمَنُ طُروقُه. وقوله عليه الصّلاة والسّلامُ: «أَلاّ يَطْلُعَ إلَيْنا نِقابَها (وهو يُريد نِقابَ المَدِينَةِ ولم يَجْرِ لَها ذِكْرٌ) من الفَصَاحةِ العَجيبةِ لأنّه أقامَ عِلْمَ المُخاطَبِيْنَ بها مَقام تَصْرِيحه بِذِكْرِها ».

ومثل ذلك قوله سُبحانه وتعالى: [5] ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِهَا ﴾ والمرادُ « المدينة » ولم يَجْرِ لَها ذِكر.

ولذَلك في القُرآن نظائِرُ[6]؛ وكان شيخُنا أَبُو الفتح[7] النَّحْوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُسَمّي هٰذا الجنسَ: « شجاعَة الفصَاحـة »، لأَنّ الفَصيح لا يكـادُ يستعمِلهُ إلا وفصَاحَتُه جَرِيّة الجَنان، غَزِيْرَةُ المَوادّ.

---

(١) الأنشاز جمع النّشز: المكانُ المرتفعُ من الأَرض.
(٢) في الأساس (ط ع ل): « طلعتُ الجبَل واطّلَعْتُه: علوته ».
(٣) « المِقنب من الخيل: الجماعَةُ منها ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاث مئة أو دون المئة ». كذا في كتب اللغة، ومُراد الشريف جماعة الخيل بفرسانها، وسطوتها.
(٤) نكأ القرحة: قشرها قبل أن تبرأ.
ـ والمعنى أنَّ شوكة هٰذا المقنب تجرح أو تعيد الجرح دامياً.
(٥) الاية ١٤ من سورة الأحزاب، وانظر تفسير القرطبي ١٤/ ١٤٩.
(٦) نَظائر جمع نَظِير: وهو الشّبيه.
(٧) سلفت ترجمته ص ١٩.

[١٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسَّلام :[1]

« **إنَّ الإِسْـلَامَ بَدَأَ غَـرِيباً وَسَيَعُـودُ غَرِيبـاً** »، وهـذا الكـلامُ من مَحـاسِن الاستِعارات وبدائع المَجازات؛ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جعل الإسلامَ غـريباً في أَوَّلِ أمرِه تَشْبيهاً بـالرَّجُـلِ الغَريب الّـذي قَلَّ أنصـارهُ وبَعُدت دِيـارُه؛ لأَنّ الإسلام كانَ علىٰ هٰذه الصِّفةِ في أَوّل ظُهوره، ثمّ استقرّت قَـواعِدُه، واشتَـدَّتْ معاقِدهُ، وكَثُرَ أَعوانُه، وَضَرَبَ جِرَانَه[2]. وقولهُ عليه الصلاة والسلام: « وسَيَعُودُ غَرِيباً »: أي يعودُ إلى مثلِ الحالِ الأُولى في قِلّةِ العَامِلين بِشَـرائِعه والقـائِمينَ بوظَائِفهِ، لا أَنّهُ ـ والعياذ باللَّهِ ـ تَمَّحِىٰ سِمَاتهُ، وتَدْرس آياتُه.

[١٦] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام في ذِكْرِ الخَوارج :[3]

« **يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّـةِ. . .** » الحديث بـطوله إلى قوله: « قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ ». وفي هٰذا القولِ مَجازٌ لأَنَّـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ شبّه دُخولهم في الدِّين وخُروجَهم منهُ بِسرعَةٍ من غير أن يَتَعَلَّقُوا بِعُقدته أو يَعِيقوا بِطينَتِه، بالسَّهم الذي أَصَاب الرَّمِيَّةَ، وهي الطَّرِيدَةُ المَرْمِيَّة، ثم خَرج مُسرعاً من جِسمها، ولم يَعْلَقْ بشيءٍ من فَرْثِها ودَمِها. وذٰلكَ من صِفاتِ السَّهم الصَّائب؛ لأَنَّهُ لا يكونُ شديدَ السُّرعَةِ إلا بَعد أَن يكونَ قَوِيَّ النَّزعَة[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (برقم ٢٦٣١)، وتماه فيه: « . . . كما بدأ، فَطُوبى للغُرَباء ». وأخرجه مسلم في الصحيح (برقمي: ١٤٥ و ١٤٦) وتمامه فيه « كما بدأ، وهو يأرزُ بين المسجدين كما تأرز الحيّةُ إلى حُجرها.

(٢) الجِران: مقدّم عنق البعير.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦ :١٧٢، ومسلم في صحيحه (برقم ١٠٦٣) وهو في سنن الترمذي (برقم ٢١٨٩) وموطأ مالك (١ :٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٤) قال ابن حجر في الفتح: « وإلى ذلك أشار بقوله: (سبق الفرث والدَّمَ) أي جاوزهما، ولم يتعلّق فيه منها شيء، بل خرجا بعده ». فتح الباري ١٥ :٣٢٣.

ـ والفرث: هو السِّرجين وما يكونُ في الكرش.

(٥) وهو حديث طويل من رواية أبي سلمة وعطاء بن يسار، وقد أتيا أبا سعيد الخُدري، فسألاه عن =

[١٧] ومن ذٰلكَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١):

« **مُضَـرُ صَخْرَةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تُنْكَـلُ** »(٢). وهٰذا القَـوْلُ مَجازٌ؛ لأَنَّـهُ عليه السَّلامُ جعَل مُضَر، وهيَ القَبيلةُ المَعروفَةُ بمنزلـةِ الصَّخرة الـرَّاسِية، والهَضْبـة الثّابتة التي لا تُزَحْزَح عن مَقَرّها، ولا تُؤَخَّرُ عن مَجْثِمِها. وهٰذا معنَى قولِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: « لا تُنْكَلُ ».

وذلك مأخوذٌ من قَولهم: نكَلْتُ عن الأَمر أَنكُلُ نُكولاً إذا تأَخرت عَنْه. ومنه قِيل لِلّـجام (نِكْلٌ)؛ لأنّه يُؤَخَّر به المركوبُ إذا جَمح، ويُحْبَس به

= الحَرُوريّة، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكرها؟ قال: لا أدري من الحَـرُوريّة؟ ولكنـي سمعـتُ رسول الله ﷺ » يقول: « يخرجُ في هٰذه الأُمَّة ـ ولم يقل: منها » قوم، تحِقرون صلاتكم مع صَلاتهم، يَقْرَؤُون القرآن، ولا يجاوُز حلوقهم ـ أو خَناجرهم ـ يمرقون من الدِّين مروقَ السَّهم من الرَّميَّة، فينظر الرّامي إلى سهمه، إلى نصله، إلى رِصَافِهِ، فيتمارىٰ في الفوقة: هل تحلِق بها من الدم شيء؟ ». وفي رواية أبي سلمة والضحاك الهمذاني: أن أبا سعيد الخدري قال: « بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخُوَيصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ فقال: يا رسول الله، إعرِلْ، فقال رسول الله ﷺ ويْلَكَ، ومن يعـدِلُ إذا لم أَعـدِل؟ ـ زاد في رواية: قد خِبتُ وخَسرت إذا لم أعدل ـ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فيه فأَضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ دَعْهُ، فإنّ له أصحاباً يحقِّر أَحَدُكم صلاته مع صلاتهـم، وصيامَـهُ مع صيامهـم » زاد في رواية: يقرؤ ون القرآن لا يجاوِز تَراقِيهم، يمرُقون من الإسلام. وفي رواية: من الدِّين ـ كما يمرق السهم الرَّمِيّة، ينظر أحدهم إلى نَصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيِّه فلا يوجد فيه شيء ـ وهو القِدْح ـ ثم ينظر إلى قُزَذِه فلا يوجَدُ فيه شيء، سبق الفَـرْثَ والدْم، آتيهم: رجُلُ أسود، إحدىٰ عضديه ـ مثل البضعة تدرور، يخرجون علـىٰ حين فرقـةٍ من الناس » قال أبو سعيد فأشهد أَنّي سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأَشهدُ أنّ علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتُمِس فَوُجدَ، فأُتي به حتىٰ نظَرت إليه علىٰ نعتِ رسول الله ﷺ الذي نعت.

قال الحُمَيْرِيّ: أَلفاظ الرواة عن الزُهري متقاربة، إلا فيما بَيّنّا من الزيادة.

(١) الفائق، والنهاية، واللسان، والتاج (ن ك ل).

(٢) أي لا تُمنع ولا تُغلب.

ـ وقال ابنُ الأثير: أي لا تُدفع عمّا سلّطت عليه لثبوتها في الأرض. يقـال: أنكلـت الرجـل عن حاجته: إذا دفعته عنها (النهاية:).

إذا انطلق. ولهٰذا المعنى أيضاً قيل للقَيْد (نِكْل)؛ لأنّه يقصُر الخطو ويمنع العَدْو. وإنَّما أضافَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اسْمَ الصَّخْرةِ إلى اللّهِ تَعالىٰ ليكون أفخَم لها في القُلوب، وأجْدَر لها بالرُّسوخ.

[١٨] ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام:(١)

« **بُعِثْتُ في نَسَمِ السَّاعَةِ إنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُني** ». وفي هذا القولِ استعارَةٌ لأنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كَنَى عن ابتداءِ السَّاعة بالنَّسَمِ، والنَّسَمُ والنَّسِيْمُ جَميعاً اسمٌ لابتداءِ الرِّيح وهي ضعيفةٌ قبل شدّتها؛ وإنّما سُمّيت بذلك لأنّها في الأصل ضَعِيفة، وإنّما يشْتَدُّ من جِسمها بوافدَ تَرْفدُها ودَعائِم تسندُها.

وقد رُوِيَ هذا الخَبرُ على وجه آخر، وهو قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢):

« **بُعِثْتُ في نَفْسِ السَّاعَة** ». وله مَعنيان:

أَحَدُهما: أن يكونَ: بُعثت في تَنفيسِ السَّاعة أي في إمهَالِها وتَأَخُّرِها، من قَوْلِهم: نفسَّ فلانٌ عن غَريمه إذا أَنْظَرهُ، وأَخّر الدَّين بعد أن حانَ قضَاؤُه ووَجب اقْتِضاؤُه؛ فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: بُعِثْتُ وقد حانَ قيامُ السَّاعة، الاّ أَنّ اللّهَ تَعالى نَفَّسَها أي أَخَّرَها قَليلاً، فَبعثني في ذلك النَّفس. والوجهُ الآخر: أَنْ جَعل لِلسَّاعةِ نَفَساً كنَفَسِ الإنسان. وقال: بُعثت في وقت أُحِسُّ فيه

(١) الحِلية لأبي نُعيم ٤: ١٦١، والفتح الكبير ٢: ٨، وكنز العمال ١٤: ٣٨٣٣١ والفائق، **والنهاية** (ن س م).

ـ قال الزمخشري: أي حين ابتدأت وأقبلت أوائلها، أصله: نسم الرّيح، وهو أوّلها حين تقبل بلين قبل أن تشتدّ.

وقال أبو زيد: نسمت الريح تنسم نَسيماً ونسَماناً إذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف. وقيل هو جمع نسمة، أي بُعثت في أناسٍ يلُون الساعة. فأضاف النسم إلى الساعة لأنّها تليها.

(٢) أخرجه الترمذي (رقمه ٢٢١٤) وتمامه: « فسبقتها كما سبقت هذه هذه؛ لإصبعيه السَّبابة والوسطى ». وانظر واللسان (ن ف س).

بِنَفَسِها وقُرْبِها كما يُحِسُّ الإنسانُ بِنَفَسِ الإنسان إذا قَرُبَ من شَخْصِه وسَمِعَ مَجْرَى نَفَسِه[1].

[١٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2] :

« **اليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَىٰ** ». وهٰذا القَوْلُ مَجازٌ لأنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ باليَدِ العُليا يدَ المُعْطِي، وباليَدِ السَّافلة يد المُسْتَعطي، ولم يُرد علىٰ الحقيقةِ أَنّ هُناكَ عالِياً وسافِلاً، وصَاعِداً، ونازِلاً. وإنّما أرادَ أَنّ المُعطي في الرُّتبة فوقَ الآخِذ لأَنّهُ المُنِيْلُ المُفْضِلُ والمُحْسِنُ المُجْمِل.

وليَس هٰذا في مُعطِي الحَقّ، وإنَّما هُو في مُعْطِي الرِّفد[3] ومُسْتَرفِده، وليس المُراد أَنّه خيرٌ في الدِّين، بل المُرَادُ أنّه خيرٌ في النَّفْعِ للسَّائِلين، وإنّما كَنى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن هاتَيْن الحَالتين باليَدَيْنِ، لأنّ الأَغلبَ أن يكونَ بِهما الإِعطاءُ والبَذْلُ، وبِهما القَبْضُ والأَخْذ.

[٢٠] ومن ذٰلكَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[4] :

« **إِنَّ هذِهِ الأَخْلَاقَ بِيَدِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَمْنَحهُ مِنْهَا خُلُقاً حَسَناً فَعَلَ** ». وذِكْرُ اليَدِ هاهُنا مَجازٌ، والمُرَادُ أَنّ الأَخلاق في قَبْضَةِ اللَّهِ وتحتَ مَلَكَةِ[5] الله تعالىٰ، فلما كان في الأكثر ما يَقبضهُ الإنسان ويَمْلِكُه إنّما يقبِضُه بيده ويَنْقُله إلى يَدِه، خاطبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامِ بِلسان العُرْف المُتَقرّر عندَ المُخاطَبين وفي لُغةِ السَّامعين.

---

(١) انظر النهاية ٥ : ٩٤.

(٢) صحيح البُخاري ٣ : ٢٣٤ وصحيح مسلم (برقم ١٠٣٣) والترمذي (برقم ٦٨٠) وأبو داوود (برقم ١٦٤٨) والنسائي ٥ : ٦١ والموطأ ٢ : ٩٩٨ ومسند أحمد ٢ : ٤.

(٣) الرفد: العطاء والصّلة.

(٤) الفتح الكبير ١ : ٤٢٧، وكنز العمّال ٣ : ٥١٥٦ و ٥٢١٦، وتتمته فيه: « ومَن أرادَ به سوءاً منحه خُلُقاً سيّئاً ».

(٥) يقال ملكَهُ مِلْكاً وَمَلَكَةً ومَمْلكةً وتَمَلُّكاً.

وقد مَضى الكلامُ على هٰذا المَعنى في عِدّة مواضع من كُتُبنا المَوضُوعةِ في علرم القُرآن، ولا يَحتمل كتابُنا هذا أكْثَر من هٰذا المِقدار.

[٢١] ومن ذلك قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، لأُبيِّ بنِ كَعب[١] وقد أَعْطَاهُ الطُّفَيْلُ بن عمرو الدَّوْسيُّ[٢] قوساً له جَزاءً علىٰ إقرائه القرآن، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام لأُبَيٍّ[٣]: « **تَقَلَّدْهَا شِلْوَةً مِنْ جَهنَّمَ** ». وفي هٰذا القولِ مَجازٌ؛ لأَنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جَعلَ القَوْسَ إذْ كانتْ تُكْسِب آخِذَها علىٰ الوجْهِ المَكْرُوهِ عَذابَ جَهنَّم كأَنّها شِلْوةٌ من نارِ جَهَنّم، وإنّما قال: شِلْوة، ولم يَقُلْ شِلْواً لأَنّه حمل على مَعْنى القَوْسِ وهي مُؤَنَّثة؛ والشِّلْو: العُضْو[٤].

---

(١) أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد، أبو المنذر، النَّجاري الخزرجي، صحابيّ أنصاريّ. كان قبل الإسلام حَبْراً من أحبار اليهود، مطّلعاً على الكتب القديمة؛ وكان يكتب ويقرأ ـ على قلّة العارفين بالكتابة في عصره ـ. ولمّا أسلم كان من كتاب الوحي. وشهد المشاهد كلّها مع الرسول ﷺ . وكان يُفتي على عهد، وكان ممن اشترك في جمع القرآن. توفي بالمدينة سنة ٢١هـ. (الإصابة ١ : ٢٦. وأسد الغابة ١ : ٦١، وسير أعلام النبلاء ١ : ٣٨٩).

(٢) الطُّفيل بن عمرو بنِ طريف بن العاص الدّوسي الأزْدي، صحابيّ من الأشراف في الجاهلية والإسلام وكان شاعراً غنيّاً، كثير الضّيافة، مطاعاً في قومه. استشهد في اليمامة سنة ١١هـ. وكان يلقّب ذا النُّور. وقد أسلم قبل الهجرة. (الإصابة ٥ : ٢٢٣ وأسد الغابة ٣ : ٧٨ وسير أعلام النبلاء ١ : ٣٤٤).

(٣) كنز العمال ٢ : ٤١٩٩، والفائق، والنهاية (ش ل و) وروايته عند الزمخشري: أقرأ أُبيّ بن كعب بن الطفيل بن عمرو الدوسي القرآن، فأهدى له قوساً؛ فقال النبي ﷺ : مَنْ سَلّمك هذه القوس؟ فقال: : طُفيل. قال: ولِمَ؟ قال: إنّي أقرأتُه القرآن. فقال: تقلّدْها شِلْوَةً من جهنم. قال: يا رسول الله فإنّما نأكلُ من طعامِهم. قال: أمّا طعامٌ صُنِعَ لغيرك فكُلْ منه، وأمّا الطعام لم يُصنَعْ إلاّ لك فإنك إن أكلتَهُ فإنما تأكل بخلاقك ».

قال الزمخشري معلّقاً على الحديث: فُسّرت الشّلوة بالقطعة، وهي من الشّلو بمعنى العضو. وقوله (بخلاقك) أي بحظّك من الدين.

(٤) جمع شلو: أشلاء. وقولهﷺ : «شلوة» هي حال من الهاء في «تَقَلَّدْها». ومعناها: قطعة من جهنم؛ وهي مؤ وّلة بمشتق بمعنى مقطوعة بخلافك بخلافك: أي بحظك من الدين.

ومنه حديثُ أمير المؤمنين عليه السَّلام[1]، في الأُضحِيَّة: أئتِني بِشلْوِها الأَيْمَنِ، وأصْلُه في لغتهم: البَقِيـةُ البـاقِيَـةُ من الشّيء. ومن ذٰلـك يُقـال لبقيّـةِ الأَكِيلة[2] إذا فَرَسَها[3] السَّبع: شِلْوٌ[4].

ويقال لِبَدَنِ القتيلِ: «شِلْوٌ» علىٰ أحَدِ ثلاثة وجوه:

[أ] إما أن يكون مُفرداً من رأسِه فيَكون كالبَقِيَّةِ القَليلة؛ لأنّ الرَّأسَ هـو العُضْوُ الأَرأَسُ[5]، والعِلْقُ[6] الأَنْفَسُ؛ أَلا ترى إلى قولِ الشَّاعِرِ:[7]

إذَا قَطَعُوا رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أكْثَرِي
وَغُـودِرَ عِنْـدَ المُلْتَقَـى ثَمَّ سـائِـري[8]

والوجه الثاني أن يكونَ إنّمـا سُمّي بذلـكَ لِخرُوجِ نَفْسِـه وكونِ الجِسْمِ بَعْدَها، وإن كانَ بتمامِه بمنزلةِ البَقِيَّة التي قد ذَهب أكثَرُها، وفُقِد جَوْهَرُها.

والـوجهُ الثَّـالث: أَن يكونَ إنّمـا سُمّي بذلـك لأنّهُ بَقِيّـةٌ أَبقَتْهـا مَضـارِبُ السُّيوفِ، تشبيهاً بالبَقيّة التي أبقَتْها مَخالبُ الأُسود. وإنّما عَظَّم ـ عليهِ الصَّـلاةُ

---

(١) النهاية، واللسان، والتاج (ش ل و).
ـ يقصد بذلك عضوها الأيمن: إمّا يدها وإمّا رجلها.
(٢) الأكيلة: أكيلة الأَسد: فريسته التي أكل بَعْضَها.
(٣) فرس الأسدُ فريسته فَرْساً: صادها وقتلها؛ وفَرَس الذبيحة: كسر عنقها قبل موتها.
(٤) المعجم في بقية الأشياء (للعسكري): ١٠٢.
(٥) أي العضو الأعظم.
(٦) العِلق: النفيس من كل شيء (يتعلّق به القلب) ج ـ أعلاق وعُلوق.
(٧) الشنفرى: (عمرو بن مالك الأزدي) شاعر جاهليّ، من الخلعاء، الفتـاك، قتـل نحـو سنـة: (٧٠ ق. هـ). الأغاني ٢١: ١٧٨، وسمط اللآلي ١: ٤١٤ وخزانة الأدب ٣: ٣١٣.
(٨) البيت في الأغاني ٢١ / ١٨٢ ـ وله خبر فيه ـ والشعر والشعراء: ١: ٨٠ وانظر (الطرائف الأدبية: ٣٦) والحيوان: ٦: ٤٥٠، وحاشية المحقق تعليقاً على نسبة الشعر لتأبط شراً وتوكيد نسبته للشنفرى. وروي في شعره: « إذا احتملوا رأسي... ».

والسَّلامُ - الوَعِيْدَ في هٰذا الخبرِ زَجْراً لهم عن أَن يَـأْخُذوا علىٰ تعليمِ القُـرآن أَجْراً، أو يَتَّخِذُوه مَكسَباً ومَطْعَماً.

[٢٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسلام :[١]

« أَغْبَطُ النَّاسِ عِنْدِي مُـؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَـلَاةٍ » وفي هٰذا القَوْلِ استعارةٌ لأنّ الحاذ علىٰ الحقيقة : اسمٌ لِمـا وقَع عليـه الذنَب من مُـؤَخّر الفَخِذين[٢]. هٰذا قولُ الأَصمعي. وقال غَيْرُه: بل هو لَحْمُ باطِن الفَخذ، وهما حاذَا الفَخِذَين. وقد جاءَ في كـلامهِم: « خَفِيفُ الحَاذين »[٣]، وقـد استعملوا ذلك في الإنسان أيضاً؛ قال الشّاعر[٤]:

سَيَكْفِيـكَ الجِعَـالَـةَ مُسْتَمِيـتٌ خَفِيفَ الحَـاذِ مِنْ أَبْنَـاءِ جَـرْمِ[٥]

---

(١) أخرجه الترمذي (برقم ٢٣٤٨) وابن ماجه ٢ : ١٣٧٩ والإمام أحمد ٥ : ٢٥٢ أَغْبَطُ النَّاسِ أي أحقهم عند الناس بالغبطة الحقيقيّة. وخفيفُ الحاذ: أي الخفيف الظهر من العيال، القليل المال، القليل الحظّ من الدُّنيا.

(٢) الحاذان: ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين. وأصل الحاذ طريقة المتن من الإنسان. ونقل في اللسان عن ابن سيدة: الحاذُ: طريقة المتن. واللام أعلى من الذال؛ يقال: حال متنه، وحاذ متنه، وهو موضع اللبد من ظهر الفرس.

(٣) في الحديث: ليأتيَن على الناس زمان يُغبط فيه الرجل لخفة الحاذ كما يُغبط اليوم أبو العشرة ضربه مثلاً لقلة المال والعيال. قال الزمخشري: يقال رجل خفيف الحاذ كما يقال خفيف الظهر، استُعير من حاذ الفرس. وكذلك خفيف الحال، مستعارٌ من حاله.

(٤) هو شقيق بن سليك الأسدي وهو شاعر إسلاميٌّ مقلّ.

(٥) البيت من حماسيّة (المرزوقي ٢ : ٧٧٧)، والشّعر لشقيق بن سُلَيك الأَسديّ، وهو شاعر إسلاميّ. ورواية البيت في الحماسة:

فأعـطيتُ الجعالـةَ مستميتاً خفيفَ الحـاذِ من فتيان جَرْمِ

(وينظر نثر الدرّ ١ : ٤٤١ ومروج الذهب ٣ : ٢٦٠ ، واللسـان ، والتـاج (ج ع ل). يقـول الشاعر: أعطيت الرشوة لنائب عني من بني جَرْم، خفيف الحال، فقير، رضي بالموت، وعرّض بنفسه له، لأسْعَد بالرّاحة والسلامة، ويشقى هو بالتّعب والهلكة.
وفي المطبوع من المجازات النبوية: (سيكفيك الحمالة) وهو تحريف.

ويقال: فلان خفيف الحاذ، أي الحال والمؤ ونة. وهما: بحاذ واحد أي بحال واحد. والجُعالَة: ما يُجعل من أجر للذي وجب عليه الغزو إذا أحلَّ غيره مكانه.

وقال بعضُهم: بل هو طَريقةُ المَتْن من الإنسان، والموضعُ الـذي يُسَمّىٰ الحال من الفرس؛ وهو ما وَقع عَليْهِ اللِّبْدُ من ظَهْرِه.

والقَـوْلانِ الأَوّلان أَعجبُ إليّ؛ لأنّه عليـه الصَّلاةُ والسَّـلامُ، كَنى بِخفّـةِ الحَاذِ ها هُنا عن قِلّة المَال، أو قلّة العِيال.

[٢٣] ومنه الحديث الآخر عن ابن مسعود:[١] « **لَيأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْبِطُونَ الرَّجُلَ بِخِفَّةِ الحَاذِ كما يَغْبِطُونَهُ بِكَثْرَةِ المَالِ** »؛ لأن الخفيفَ الحاذِ إذا كان علىٰ ما ذُكـر أَوّلاً في الوَجهين الأَوّلَين مِن قِلّةِ لحمِ بـاطِنَيْ ـ أو ظاهِـرَيْ ـ الفَخِذين كانَ ذٰلـك أسرعَ لِخَـطْوِه وأَخفّ لَعدْوِه لأَنّ الـدُّنيا بمنـزلةِ المِضمـارِ، والنّاس فيها بمنزلةِ الخَيْلِ المُجْرَاة؛ والغايةُ هي الآخِرة.

فكلّما كان الواحدُ منهم أَخفّ نَهْضاً وامْتِراقاً[٢] كان أَسرعَ بلُوغاً ولَحاقاً. ويبيِّن ذلك قَوْلُ أَميرِ المُؤمنين عليّ عليهِ السَّلامُ، في كلامٍ لهُ: تَخفّفوا تَلْحَقُوا. وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بنهج البلاغة الّذي أوردنَـا فيه مختـارَ جَميعِ كلامِه صَلّىٰ اللَّه عليه، وعلىٰ الطّاهرين من أَولادِه[٣].

وأما القَولُ الثّالثُ الذي ذكرناهُ عن بعضِهم من قوله: إنّ الحاذَ هو المَتْن، فقد يَجوزُ أن يُعَبَّـر بهِ أيضـاً عن قِلّة العِيال ونَـزارَةِ المَال، كمـا يقولـون: فلان خفيفُ الظَّهرِ إذا أرادُوا هٰذا المَعْنى، ولأنّ قِلَّةَ اللَّحْمِ علىٰ الجُملة في أيّ عُضْوٍ كان من أَعْضاءِ الحَيوان أَعونُ علىٰ خِفّةِ نُهوضِه وسُرْعَةِ تَصرُّفِهِ في أُموره.

---

(١) يراجع كنز العمّال ١١ : ٣١١٥٠، والفائق (أبو) والنهاية (ح و ذ). وابن مَسْعُود هو أبو عبد الرحمن عبدالله مسعود الهذليّ، من أكابر الصّحابة (ت ٣٢ هـ).

(٢) امترق السَّهمُ (والرَّجُلُ من البيت): أَسْرَع الخُروج.

(٣) انظر نهج البلاغة «ص٦٢ ـ ٦٣ ». وهو من خطبة للإمام علي « كرم الله وجهه. وفيه: « فَإِنَّ الغايَةَ أَمَامكُمْ وإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُدُكُمْ تَخَفّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّما يُنْتَظَرُ بأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ ».

وقال السيد الشريف: « أقول: إنَّ هذا الكلام لو وُزِن، بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله ﷺ، بكلِّ كلامٍ لمالَ به داجحاً وبرّزَ عليه سابقاً. فأمّا قوله عليه السلام: « تَخَفّفُوا تَلْحَقُوا » فما سمع كلام أَقلّ منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة: وأنقع نُطْفَتها من حِكمة! نَبّهنا في كتاب «الخصائص » علىٰ عظم قدرها وشرف جوهرها.

[٢٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[١]، وقد ذُكِرَ عنده شُرَيْح الخَضْرَمِيّ[٢]: « ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَتوسَّدُ القُرْآنَ ». وهٰذِه من الاستِعارات العَجيبةِ، والكناياتِ الغَريبةِ، وهي تحتملُ مَعْنَيين:

[أَحَدُهما] مدحٌ، والآخَرُ ذَمّ.

فأَمَّا المَدْحُ فهو أَن يكونَ المُراد به أنّه لا يَنامُ عن قِراءَةِ القُرآن بل يقطعُ لَيْلَهُ بالتهجُّدِ به، والتّصرُّفِ مع تِلاوته، فيكونُ القائمُ بدرسه كالمشتَمِل به، والنّائم كالمُتَوَسِّد له كأَنَّهُ جَعله وِساداً لِخَدِّه وفِراشاً لِجَنْبه. ومما يُقَوّيّ هٰذا الوجْهَ ما رُوِيَ من قَوْلِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، في حديثٍ آخر:[٣] « **يا أَهْلَ القُرآنِ لا تَوَسَّدُوا والقُرآنَ وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ**».

وأما المعنى الآخر الذي يحتملُ الذُّمَّ فهوَ أن يكونَ المُرَادُ أَنَّهُ غَيْرُ حافظِ القُرآنِ فليسَ بخازنٍ من خَزَنَتِهِ، ولا وِعَاءٍ من أَوعيته[٤]، فإذا نامَ لم يكنْ مُتوسِّداً لهُ كما يتوسَّدُه مَنْ هو ظَرْفٌ من ظُروفِهِ الحاوِيَة لهُ والمُشْتَمِلَةِ عَليه. ومثلُ ذٰلكَ ما رُوِيَ عن أَبي الدَّرْدَاءِ[٥] أنّهُ قال لرجلٍ سَأَلَهُ عن طلبِ العِلْم:[٦]

---

(١) انظر أسد الغابة ٢/ ٥١٨ وابن سعد ٣/ ٣٦٣ وتجريد أسماء الصحابة ١/ ٢٥٦ والفائق والنهاية (وسد) والمسند ٣/ ٤٤٩، ومعنى الحديث المقصود: أنه لا ينام عن تلاوة القرآن.

(٢) شُرَيح الخضرميّ. كان من أفاضل أصحاب النبي ﷺ. أسد الغاية ٢/ ٥١٨ وتحرف اسمه في مطبوعات الكتاب إلى (الحضري) وهو خطأ صوابه ما أثبتناه.

(٣) وتتمته في الفائق: « ولا تستعجلوا ثوابه، فإنّ له ثواباً »، وانظر الفائق والنهاية (وسد)، وكنز العمال ١/ ٢٨٠٣ وبعده فيه: «آناء الليل والنهار».

(٤) يُقال: وعي العِلْمَ وَعْياً إذا حفظه وفهمه. وهو وعاءٌ من أوعية العِلْم.

(٥) أبو الدَّرداء: هو عويمر بن مالك بن قيس الأنصاري الخزرجي: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، على عهد النبي ﷺ بلا خلاف. مات بالشام ـ ٣٢ هـ الإصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١/ ٢٠٨ وغاية النهاية ١/ ٦٠٦ والسير ٢/ ٣٣٥.

(٦) في النهاية في غريب الحديث: حديث أبي الدّرداء « قال له رَجُلٌ أريد أن أطلبَ العلمَ وأخشى أن أُضيِّعَهُ، فقال: لأن تتوسَّد العلمَ خيرٌ لك من أن تتوسّد الجهل ». ومثله في الفائق للزمخشري (وسد).

« لأَنْ تَتَوَسَّدَ العِلْمَ خَيْرٌ مِنْ أن تَتَوَسَّدَ الجهْلَ » .

أرادَ أَن تنامَ ومَعكَ العِلْمُ خَيْرٌ مِنْ أَن تنامَ ومعَك الجَهْل؛ فجَعل العِلْمَ كالفِرَاشِ المُمْتَهَد[1]، والوسادِ المُتَوسَّد[2] .

[٢٥] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، في كلامٍ للأَنصار: [3]

« أَنْتُمُ الشِّعَارُ، والنَّاسُ الدِّثارُ » .

وهذا مَجازٌ لأَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ: إنكم أَقْرَبُ النّاسِ بِنّي، وأشَدُّهم اشتِمالاً علَيّ، فأَنتمْ لي كالشِّعارِ؛ وهو الثَّوبُ الذي يَلِي بدَنَ الإِنسان؛ والنّاسُ الدِّثارُ، لأنّهمْ أَبْعَدُ مِنّي وأَنْتُمْ بَيْنَهُم وبَيْني. ومثل ذلك قولُهم: فلانٌ من بِطانَةِ[4] فُلان، كنايةً عن القُرب مِنْهُ والاخْتِصاص بِه، تشْبيهاً ببطانَةِ الثَّوبِ الّتي تَلِي الجَسد، وتكونُ أقربَ إلى البَدن.

[٢٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [5]

(١) مهدَ الفِراش وامتهده: بسطه ووطّأه. وهو الموضع الذي يهيأ للنوم.

(٢) المتوسّد: المتخذ وسادة.

(٣) رواه البخاري ٨/ ٣٧ ـ ٤٢ في المغازي، من حديث طويل، ومسلم رقم ١٠٦١ في الزكاة وابن ماجة ١/ ٥٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤١٩، وهو حديث طويل قاله الرسول ﷺ يوم حنين عندما قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وَجَدوا، إذْ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم منها هذا الكلام.

(٤) البِطانة من الثوب خلافُ ظهارته، وهو ما يلي البَدن منه. ويُقال: هو ذو بطانة لفلانٍ، أي ذو عِلْمٍ بدخْلَةِ أَمره.

(٥) انظر كنز العمال ١٤ / ٣٨٥١٨ وانظر أيضاً ١٤/ ٣٨٥١١، والفائق والنهاية (خدع، خدع) والمسند ٢/ ٢٩١ و٣٣٨ و٣/ ٢٢٠.

« يَكُونُ قَبْلَ الدَّجَّالِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ ».

وهذه استعارةٌ؛ لأنه جاءَ في التَّفسير أَنّ المُرادَ بذلكَ اتّصالُ المُحولِ[1] وقِلَّةُ الأمطارِ في تِلك السِّنين. يُقال: خَدَعَ المطَرُ إذا قلَّ، والأصْلُ فيه قولهم: خَدَعَ الرِّيقُ إذا جَفّ. قال سُوَيْد بن أَبي كاهل:[2]

أَبْيَضُ اللَّونِ لـذِيـذٌ طَـعْـمُـهُ   طَيِّبَ الرِّيقِ إذا الرِّيقُ خَدَعْ[3]

وجفوفُ الرِّيق وقِلَّتُه من أسبابِ تَغَيُّره وفسادِه لأنَّه كُلَّما كَثُرَ ماعَ، وكُلّما ماعَ طابَ. وقيل: السُّنُون الخُدّاعة هي التي تَخْدَعُ زكاءَ الزرْع: أي تنقصُه، من قولهم: دينارٌ خادِعٌ، وهو الّذي ينقصُ من وَزْنِه أو مِنْ ذَهَبِه.

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: سِنُونُ خَدَّاعة ». والمَطُر هـو الخَادِع إلاّ أنَّ خدع المَطر لمّا كانَ فِيها حَسُنَ إجراءُ الاسمِ عَليها. ولِهٰذا نظائرُ كثيرةٌ في القُرآنِ

= وبعده: «يكثر فيها المطر ويقلّ فيها النبـات». وقال ابن الأثير: أي تكثر فيها الأمطار ويقل الريْع، فذلك خداعها؛ لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر ثم تخلف ».

(١) المُحول جمع المحل: الجدب والقحط.

(٢) سُوَيد بن أبي كاهل (غطيف، أو شبيب) بـن حارثة بن حسل، الذبياني الكناني اليشكري، أبـو سعد: شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسـلام. كان يسـكن بادية العـراق، وسجـن بالكوفـة، لمهاجاته أحد بني يشكر، فعمل بنو عبس وذبيان على إخراجه، لمديحه لهم، فأطلق بعد أن حلف على أن لا يعود إلى المُهاجاة. مات في سنة ٦٠ هـ تقريباً. الأغاني ١٣/١٠٢ والشعر والشعراء ٢/ ٦٣٥ والإصابة ت٣٧٢٢.

(٣) البيت في ديوان سويد بن أبي كاهل اليشـكري ص ٢٤ من قصيدة طويلـة هي من أغلى الشعـر وأنفسه، وقد فضلها الأصمعي وقال: « كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها، وكانت في الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال ». وقال الجمحي: « له شعر كثير، ولكن برزت هذه على شعره ». ويعني في البيت الثغر. ويقال خدع ريقه؛ إذا تغير.
وقال التبريزي في شرح المفضليات ٨٦٨: « ويقال خدع: نقص، وإذا نقص خثـر، وإذا خثـر وغلظ انتن. ومن ثم يخلف فم الصائم. وفي الحديث: إن قبل الدّجّال سنين خداعة، أي: ناقصة الزكاء ».

قد استَقْصَيْنا ذِكْرَها في كتاب (المجازات). وقال بعضُهم[1]: بل السِّنُون الخَدّاعة التي يَكْثُر فيها المَطر ويَقِلُّ العُشب.

وذلكَ مأخوذٌ من الخَدِيعة، فكأَنَّ هٰذِه السِّنين يطمَعُ أَهْلُها في الخِصْبِ والإمراع بكثرةِ أَمطارِها، ثُم تُخلِفُ المَخايل[2]؛ باتّصال جَدْبها وإمحالها.

والقولُ الأوّل أقْرَبُ إلىٰ الصَّوابِ، وأَشْبَهُ بالمُراد.

[٢٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [3]

« تَحَابُّوا بِذِكْرِ اللَّهِ وَرُوْحِهِ ».

وهذا القولُ مجازٌ؛ لأنّه صلّى اللَّهُ عليهِ وآلِه أَراد بالرُّوح ها هُنا القُرآن، تشبيهاً له بالرُّوح القائِمة بالحَيوانِ المُصَحّحة لانتفاعِ النّاس بالقُرآن في رشادِ السَّبيل، ومَصالِح الدُّنيا والدِّين كانِتفاعِ الأَبْدانِ بالأَرْواحِ في تَصِريف حَركاتِها، وتَرْتيبِ إرادَتِها، وتصحيحِ لَذّاتها وشَهواتها.

وقد ذكرنا ذلك مَشْرُوحاً في مواضع من كتابنا في عُلوم القرآن.

---

(١) وبهذا التفسير أخذ ابن الأثير الجزري في كتابه النهاية (خدع)، وقال بعد الحديث شارحاً: « أي تكثر فيها الأمطار ويقل الرَّيْع، فذلك خداعها؛ لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر ثم تخلف. وقيل الخدّاعة: القليلة المطر، من خدع الرِّيق إذا جفَّ ».

(٢) المخايل: جمع مَخِيلة، وأصل معناها: السَّحابة، ويصحُّ في معناها هنا: المأمول من الوَعْد.

(٣) الفائق، والنّهاية والتّاج (روح)، قال الزمخشري: خطب ﷺ فقال: تحايوا (كذا بالياء) بذكر الله وروحه؛ هو القرآن لقوله تعالى: ﴿ أَوْحَيْنا إليك روحاً من أَمْرِنا ﴾)[الشورى: ٥٢].
و (تحايَوا) من التحية، أو من الحياة، لأنه يحيى بن الدّين. ورواية الشريف هنا (تحابُّوا) ـ بالباء ـ جاءت في النهاية، واللسان والتاج. وقال ابن الأثير شارحاً: أراد ما يحيا به الخلق ويهتذون، فيكون حياة لهم. وقيل: أراد أمر النبّوة، وقيل: هو القرآن».
وقال الزبيدي في التّاج: «ومن المجاز في الحديث ـ تحابُّوا بذكر الله وروحه. أراد ما يحيا به الخَلْقُ ويهتدون، فيكون حياةً لهم، وهو القرآن. وقال الزّجاج: جاءَ في التفسير أنّ الروح: الوحي. ويسمّى القرآن روحاً. وقال ابن الأعرابيّ: القرآن والروح: النفس.

[٢٨] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام [١] :

« قَدْ أنَاخَتْ بِكُمُ الشُّرُفُ الجُون »

يعني الفِتنَ المُتَوقِّعة: وهٰذا القولُ مجازٌ. لأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبّه الفتنَ بالنُّوق المُسنّات؛ لجلالةِ خَطْبها واستِفحال أَمْرِها، وجَعَلها جُوناً، وهي السُّود ها هُنا [٢]، لظلام ِ مَنْهَجِها والتِباس ِ مَخْرَجِها.

والشُّرُف جمعُ شارِف، وهي النَّاقَةُ المُسِنّة، وهم يُشَبِّهونَ الحَرْبَ بها.

قال: الكُمَيْت الأسدي يصف حرباً [٣] :

مبســورةً شــارِفــاً مُصَــرّمــةً محلوبها الصَّابُ حين تحتلبه [٤]

يقال: بُسِرَتِ النّاقةُ وابْتَسَرَتْ إذا حَمَل عَليها الفَحْل، ولم تَضْبَع [٥]. وقد يجوز أن يكون الفائدةُ في تشبيهِ الفِتَن بالمُسِنّـاتِ من الإبل لأنّهـا أكْرَهُ مَنـاظر، وأَقَلُّ مَنافِع كما شَبَّهُوا الحَرْبَ بالمرأةِ العَجُوز. فقال بعضهم في أبيات [٦] :

---

(١) الحديث في الفائق، والنهاية، واللّسان، والتاج (شرف) وروايته في الفائق: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. أناخت بكم الشرق الجُون ـ أو الشُّرُف ـ.

(٢) الجُوْن جمع جَوْن؛ وهو الأسود. وأشار بقوله هاهنا إلى أن الجون تطلق على البيض والسود، ولكن المراد بها هنا السود.

(٣) سلفت ترجمته مختصرة ص ٢٣ ح ١.

(٤) المصرّمة: المقطعة، وهي التي قطعت اثداؤ ها حتى لا ترضع فتضعف بالرضاع. والصاب: شجرٌ مرّ، أي عصارة هذا الشجر المر إذا حلب.

(٥) ضَبِعَتْ الدابة تَضْبَعُ ضَبَعاً: أرادت الفحل واشتدّت شهوتها. فهي ضَبِعَـةٌ وضَبْعَـى. ومعنـى قول الشريف (إذا حمل عليها الفحل ولم تضبع): وهي غير طالبة له وحينئذ لا يكون للقاح فائدة لأنها لا تحمل حينئذ؛ يقول: هذه الحرب نافرة هائجة تصيب الناس بشرها من غير رحمة ولا تبصر.

(٦) هو الشاعر عمرو بن معد يكرب بن ربيعة الزبيدي: فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على النبي الكريم سنة ٩ هـ وأسلم، وشهد اليرموك والقادسية، وتوفي على مقربة من الري. =

شمطاءَ عابسةً عقيماً بَطْنُها   مكْرُوهةً للشَّم والتقبيل [1]

وقال بعضُ العُلَماء: (الشُّرُف) ها هنا الفِتَنُ التي يَسْتَشْرِفُها النَّاسُ لِعِظمِها. والصّحيحُ: التأويلُ الأوّل. وقد روى هذا الحديث بلفظ آخر. رواهُ بعضهم: «الشُّرُق الجوْن» [2] بالقاف، أي أُمور عِظامٌ تأتي من قِبَل المَشْرِق، وكُلّ ما أتى من ناحيةِ المَشْرِق فهو شارِق، فشارِقٌ وشُرُق كشارِفٍ وشُرُف.

والقول الأول أصَحُّ في النَّقل، وأَشبَهُ بطريقةِ القَوم.

[٢٩] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، في يوم حُنَيْن لمّا رأى مُجْتَلَد القوم [3]: «**الآن حَمِيَ الوَطِيسُ**»، وهٰذه اللَّفظةُ: الأغلبُ عَليها أنّها من جُملة الأَمثالِ من كلامِه عَليه الصَّلاةُ والسَّلام، وقد شَرْطنا أَلّا نَذْكُرَ ها هُنا ما تلك حالُه، إلّا أنّ لَها بعضَ الدُّخولِ في باب الاستِعارة؛ فلذٰلكَ رأَينا الإيماءَ إليها، والتَّنْبيه عَليها. فقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «الآن حَمِيَ الوَطِيس»، وهو يَعْني حَمَسَ [4] الحربُ وعَظُم الخَطْبُ ـ، مجازٌ، لأنّ الوطيسَ في كلامِهم حَفِيرةٌ تُحْتَفَرُ فيوقَدُ فيها النَّارُ للاشتِواء، وتُجْمَعُ على وُطُس، فإن احتُفِرَت للاجتِياز،

= وقيل: قتل عطشاً يوم القادسية سنة ٢١ هـ الإصابة: ٥٩٧٢ ومعاهد التنصيص ٢: ٢٤٠ والسمط ٦٣ و٦٤ (وقد طبع مجموع شعره في مجمع اللغة العربية بدمشق، جمعه مطاع طرابيشي).

(١) البيت في شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٤٣، ورواية صدره:

شمطاء جَزّتْ رأسها وتنكَرَتْ

والشَمَط: بياض شعر الرأس يخالط سواده، والرجل أشمط والمرأة شمطاء.

(٢) انظر الفائق ٢: ٢٣٣.

(٣) أخرجه مسلم (برقم ١٧٧٥) وأحمد في المسند (١: ٢٠٧) وانظر أيضاً سيرة ابن هشام ٢: ٤٤٥، والنهاية واللسان (وطس).

ومجتلد: مصدر ميمي من تجالد القوم بالسيوف؛ أي تضاربوا بها. والمعنى لما رأى تجالد القوم وحمي الوطيس: اشتد الحرب والأمر، وقال الخطابي: هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبي ﷺ من العرب، وهي مما اقتضبه وأنشأه، والوطيس في اللغة: التَّنُّور.

(٤) أي اشتدّت.

فهي إرَةٌ[1] وتجمع على إرِين. ولا وطيسَ هناك علىٰ الحقيقة، وإنَّما المُرَادُ ما ذكرنا من حَرِّ القِراع وشِدَّة المِصَاع[2] والتفافِ الأَبطالِ، واختلاطِ الرِّجال. ومن هُنا قالت العَربُ: أُوقِدَتْ نارُ الحَرْب بين آلِ فلان وآل فلان، وقال اللَّهُ سبحانَهُ مُخْرِجاً الكلامَ[3] على مطارِحِ لسانهم ومَعارِفِ أوضاعِهم[4]: ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطفَأَهَا اللَّهُ** ﴾.

وتشبيهُ الحرب بالنَّارِ يكونُ من وَجْهَيْنِ: أحَدُهما لِحَرِّ مُواقِع السُّيوف، وكَرْب[5] مَلابس الدُّروع، وحَمْيِ المُعْتَرِكِ لِشدَّةِ العِراك وكَثْرَةِ الحَركات؛ والوَجْهُ الآخر أن يكون إنّما شُبّهت بالنّار لأنّها تأكُل رجالَها، وتُفني أَبطالَها كما تَأْكُل النَّارُ شُعَلَها وتَحْرِق حطَبها.

[٣٠] ومن ذلك ما رُوِيَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أنّه قال ـ والخبر مطْعُونٌ في سنده ـ[6]:

---

(١) الإرَة: حفرة توقد فيها النار: أو النار نفسها؛ أو استعارها وشدّتها. تجمع على (إرُون، وإرات).

(٢) المصاع: المضاربة بالسيف.

(٣) جاء في مطبوعات الكتاب: (مخرجاً للكلام)، والصواب ما أثبتناه.

(٤) المائدة: ٦٤. وانظر تفسير القرطبي ٦: ٢٣٨، وتلخيص البيان في مجازات القرآن ١٣٣ و١٣٤، وجاء فيه: «وهذه استعارة. لأن الحرب لا نار لها على الحقيقة، وإنما شبّهت بالنار لاحتدام قراعها، وجِدِّ مصاعها، وأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها.

(٥) الكرب: تضييق القيد على المقيد؛ والمعنى ضيق الدروع على لابسها مما يسبب الحرارة في أجسادهم كالنار.

(٦) رواه البخاري في الصحيح ٢: ٢٧، ومسلم برقم ٦٣٣، وأبو داود برقم ٤٧٢٩، والترمذي برقم ٢٥٥٤، وابن ماجة ١: ٦٣، وأحمد في المسند ٣: ١٦، والبيهقي في السنن الكبرى ١: ٣٥٩ وانظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (ض ر ر).. والحديث صحيح وسنده عن جرير بن عبدالله (رض)، ورجاله ثقات، وروايته في كتب الصحيح هي: « كنّا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا القمر، لا تضامّون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا، ثم قرأ: « وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ق: ٣٩ ».

« تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ كما تَرَوْنَ القَمَـرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا تَضـامُّونَ[1] في رُؤْيَتِهِ » .

وفي رواية أُخرى[2] : « لا تَضَارّون في رؤيته » بالتّشديد فيهما وفتح التاء . وعامَّةُ المحدِّثين يقولون : (تُضَارُون) و (تُضَامُون) بالتخفيف وضم التّاء كأنّه من الضَّير رالضَّيم : أي لا تختَلِفُون في مَطلعه ، ولا تَتمارَوْنَ في رُؤ يته ، فَيَضير بعضُكم بَعضاً ، أو يضيم بعضُكم بَعضاً في دفعه عن ذٰلك ، أو الاستِئثار بهِ عليه والإدراكِ لهُ دُونه ، فـأما من رَوَى : تَضَـارّون وتَضَامّـون بفتح التـاء والتشديـد ، فالضِّرارُ ها هنا راجعٌ إلى معنى الضَّيْر هُناك ؛ لأنّه من المُضَارّة ، وهي المُفاعَلة بين الاثنين ، فكأنّ الضِّرار وقَع بينَهُما لأَجْل اختلافِهِما وتَنازُعِهما . ومَنْ قالَ : لا تَضَامّون بالتشديد ، فمعناه : إنكم تَرَوْن القمر رؤية جليّة لا تحتاجون معها إلى أَن ينْضَمّ بعضُكم إلى بعض طَلباً لرؤيته ، واستعانةً على مُشاهدته ؛ فهو مأخـوذٌ من الانضِمام ، وهو الاجتماع للتَّقَوِّي على نظرِ الشيء البَعيد أو الخَفِيّ الضِّئيل .

وهذا الخبر كما قلنا مطعونٌ في سنده ، ولو صَـحّ نقلُه وسَلِمَ أَصْلُه لكانَ مَجازاً كغيرِه من المجازات التي تَحتاجُ إلى أن تُحْمَلَ علىٰ التَّأويلاتِ المُوافقـة للعَقل .

وبعد هذا فهذا الخبر من أَخبارِ الآحادِ فيما مِنْ شَأنـه أن يكونَ معلومـاً ، فغيرُ جائز قَبُولُه ، لأنّ كلّ واحدٍ من المُخبرين يجوزُ عليه الغَلطُ فيما يُخبرُ بـه ، ويصحُّ كونه كاذِباً في نَقله ، ولا يجوزُ أن يُقـطع في دِيننا على الشَّيء من وجـهٍ يجوزُ الغَلطُ فيه ، لأَنّا لا نأمَنُ بالإقدام على اعتقادِه من أن يكونَ جَهْلاً ، ولا نأمن

---

(1) لا تضامون : بتخفيف الميم من الضيم : الظلم ، والمعنى : إنكم ترونه جميعكم لا يظلم بعضكم في رؤ يته ، فيراه البعض دون البعض ، وروِي بتشديد الميم : من الانضمام والازدحام ؛ أي لا يزدحم بكم في رؤ يته ، ويضم بعضكم إلى بعض في ضيق ، كما يجري عند رؤ ية الهلال مثلاً ، دون رؤ ية القمر ، إذ يراه كل منكم موسّعاً عليه منفرداً به ، وكذلك الخلاف في تضارون ، بالتخفيف والتشديد .

(2) وبالروايتين ورد في الكتب السابقة فانظرها .

من أن يكونَ إخبارُنا عنه كَذِباً، وإنّما نعمَلُ بأخبارِ الآحادِ في فُروعِ الدِّين، وما يَصِحُّ أن يتبعَ العَمَلُ بهِ غالِبَ الظَّنّ.

ومما عَلّقْتُه عن قاضي القضُاة أبي الحسَن عبدِ الجَبّار بن أحمد[1] عند بلوغي في القِراءة عليه إلى الكلام في الرُّؤية إلى مَنْ شَرط في قَبُول خَبرِ الواحد أن يكوَن راويةً عَدْلاً. وراوي هذا الخبر قيسُ[2] بن أبي حازِم عن جرير بن عبدالله البَجَليّ[3]، وكان مُنْحَرِفاً عن أَميرِ المُؤمنين عليّ[4] عليه السلام، ويقال: إنَّه كان من الخَوارج، وذلك يَقْدَحُ في عدالته ويوجب تُهْمَتَهُ في رِوايته. وأيضاً فقد كانَ رُمِيَ في عقله قَبْلَ مَوته، وكان مع ذلكَ يُكثِرُ الرِّوايةَ فلا يُعْلَمُ هل روٰى هذا الخَبر في الحالِ التي كان فيها سالِمَ التَّمييز، أو في الحالِ التي كان فيها فاسِدَ المَعْقُول، وكلُّ ذٰلك يمنعُ من قَبُولِ خَبرِه، ويُوجب اطِّراحِ رِوايته.

وأَقُولُ أنا: ومِنْ شَرْطِ قَبُولِ خَبرِ الواحدِ أَيضاً مع ما ذكره قاضي القُضاة

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار، أبو الحسن الهمذاني الأسدابادي: قاض، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. ولي القضاء بالرّي، ومات فيها سنة ٤١٥ هـ. وله مؤلفات باقية مطبوعة أكبرها: المغني.

(٢) هو قيس بن أبي حازم حصين بن عوف، أبو عبدالله الأحمسي الكوفي: عالم ومحدّث ثقة وحافظ من أهل الكوفة. سار ليدرك النبي ﷺ وليبايعه، فتوفي نبي الله وقيس في الطريق، سمع أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعدة من الكبار. قال الذهبي: حديثه محتج به في كل دواوين الإسلام. توفي ٩٧ هـ وقيل ٩٨ هـ.

تاريخ بغداد ١٢ : ٤٥٢ وأسد الغابة ٤ : ٢١١، والسير ٤ : ١٩٨.

(٣) جرير بن عبدالله بن جابر، أبو عمرو البجلي القسري: من أعيان الصحابة، وكان أميراً نبيلاً جميلاً. وقد بايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم. وسكن الكوفة، ثم سكن قرقيسياء، وقدم رسولاً من علي إلى معاوية، واعتزل بعدئذ الاثنين بالجزيرة ونواحيها، حتى توفي في الشراة ٥١ هـ.

أسد الغابة ١ : ٣٣، وتهذيب التهذيب ٢ : ٧٣، والسير ٢ : ٥٣٠.

(٤) قال الذهبي في سيره ٤ : ١٩٩ : « ومنهم من لم يحمل عليه (أي على قيس بن أبي حازم) في شيء من الحديث، وحمل عليه في مذهبه، وقالوا: كان يحمل على عليّ. والمشهور أنه كان يقدّم عثمان. ولذلك تجنب كثير من قدماء الكوفيين الرواية عنه ».

ولعل هذا هو السبب في حملة الشريف الرضي على قيس بن أبي حازم.

مِن اعتبارِ كونِ راوِيهِ عَدْلاً، أن يَعْرَى الخَبرُ المَرويُّ من نكير السّلف. وقد نُقل نكيرُ جَماعةٍ من السَّلفِ علىٰ راوِي هٰذا الخبر منهم العِرْباضُ بن سارية السُّلَمي(١)، وهو من مُخْتَصّي الصَّحابة، رُوي عنه أنّه قال: من قالَ إن مُحَمّداً رأىٰ ربه فقد كذب. ورُوي أيْضاً عن بعضِ أزواجِ النَّبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢): أنه قالت: « من زَعم أنّه مُحَمّداً رأى ربه فقد أَعْظَم الفِرْيَةَ على الله ». وقالت ذلك عندَ ذهابِ بعضِ النَّاسِ إلى أنّ قوله تعالىٰ(٣): ﴿ ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخْرَى ﴾. إنّما أريدَ بها رُؤيةُ اللَّهِ سُبحانه، لا رؤيةُ جِبرائيل عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ كما يقولهُ أَهْلُ العَدْل(٤).

وأيضاً ففي هذا الخبر كان التشبيه لأنّه قال: تَرونَهُ كما ترونَ القَمر، الّذي هُوَ في جهةٍ مخصوصةٍ وعلىٰ صفةٍ معلومة؛ وإذا كانَ الأمرُ كما قُلنا لم يكن للخَبر ظاهِرٌ، واحتَجْنا إلى تأوُّلِه كما احْتَجْنا إلى ذلك في غيره.

وقد يجوزُ أن نَحْمِلَه علىٰ ما حملنا عليه الآية، وهي قولُه تعالى(٥): ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّها نَاظِرة ﴾. لأنّا نقولُ إنّ في الكلامِ إسقاطَ مضافٍ؛ كأنّه تعالى قال: إلى ثوابِ رَبّها ناظِرة؛ فكذلكَ هٰذا الخبرُ قد يجوزُ أن

---

(١) العِرْباض بن سارية، أبونجيح السلميّ: صحابي، من أعيان أهل الصفة، سكن حمص، وروى أحاديث، مات سنة ٧٥ هـ. أسد الغابة ٤: ١٩، وتهذيب التهذيب ٧: ١٧٤، والسير ٣: ٤١٩.

(٢) هي عائشة أم المؤمنين (رض). انظر البخاري ٨: ٢٠٦ في تفسير سورة المائدة ومسلم برقم ١٧٧، والترمذي برقم ٣٠٧٠.

(٣) النجم: ١٣. وانظر أيضاً تفسير القرطبي: ١٧: ٩٤.

(٤) قال القاضي عبد الجبار في (تنزيه القرآن عن المطاعن) ص ٤٠٥: « وربّما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾ إنّ ذلك يدلُّ على أنه ﷺ رأى ربّه مرّة بعد أخرى. وجوابنا أن المراد بذلك جبريل عليه السّلام لأنه المذكور من قبل بقوله تعالى: ﴿علّمه شديدُ القُوى ذو مِرَّةٍ فاسْتوى﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى﴾ فأثْبَتَهُ رائياً له ثم قال: ﴿ولقد رآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ . . . انظر تفسيره لمسائل سورة النّجم ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٥) الآيتان ٢٢ و٢٣ القيامة. وانظر أيضاً تفسير القرطبي ١٩: ١٠٧.

يكونَ المرادُ به إنكم ترون أشراطَ يومِ المعادِ وما وعَد اللَّهُ بِهِ وأُوْعَد من الثَّوابِ والعِقاب كما تـرونَ القمرَ ليلةَ البَـدْر، يُريـد في البَيان والـظُّهور والإصحـار[1] للعيون.

ولو كانَ هٰذا الخبرُ صحيحَ الأَصلِ، واضحَ النَّقْلِ لكـانَ عندنـا مَحْمُولاً على العِلم؛ لأن إطـلاقَ لفظِ (رؤيـة) بمعنى العِلم في الكـلامِ مَشْهُـور، والاستشهادُ على ذلك كثير.

وهذا موضعُ المجاز الذي يختصُّ ذكره بكتابنا هذا.

وأما اعتِراضُ المُخالِفين علىٰ هٰذا التّأويل بأن النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أخرج هذا الكلام مخرجَ البِشارة لأَصحابِـه، ولا يجوزُ أن يُبَشِّـرَهُم بمعنًى كان حاصِلاً لهم في الدُّنيا وهو العِلمُ باللَّهِ سُبحانه علم استِـدلال تَعْتَرِضُـه الشُّكوك وتَعْتَوِرُه[2] الشُّبَهُ والظُّنون، ويحتاجُ العالِمُ في حَـلِّ عقودِ تلك الشُّبَـهِ إلى كُلَفٍ ومَشاقّ تُتعب الخَواطِر وتُعَنِّي الناظر، فَبَشَّرُهم عليـه الصَّلاةُ والسَّـلامُ بأنّ ذٰلـكَ يزولُ في الآخِرة، فيكون عِلْمُهم باللَّهِ سُبحانَهُ اضطِراراً غيرَ مَشُـوبٍ بكلفةٍ ولا مَعقود بِمَشّقة.

وهذا كقولِ القائلِ منّا إذا أرادَ أن يُخبر عن شِدّةِ تحقُّقِه للشَّيء: أَنا أَعْلَمُ هذا الأمرَ كما أَرى هٰذه الشَّمس.

وقـوله من بعـد. « لا يُضَامُـون في رؤيته » أو لا يُضَـارُون، بالتّخفيف، والتَّشديدِ على الخِلاف الذي قَدّمنا ذِكْـرَهُ مُقَوّ للتّـأويل الـذي تَأوَّلْنـاهُ عن مَعنى العِلم الذي لا شُبْهَة فيه ولا شكّ تَعْتَريه، والصَّحيحُ أن يكونَ الضَّمير في قوله:

---

(١) الإصحار: معناه الظهور، وأصحر القوم: برزوا في الصحراء. والبروز في الصحراء ظهور، لأن الصحراء خالية من موانع الرؤ ية.

(٢) أي تتداوله وتصيبه الشبه والظنون.

« لا تُضامون في رؤيته » راجِعاً إلى القمـرِ، لا إلى اللَّهِ سُبحانـه وتعالى. كـأَنّه قال: تعلَمُون رَبَّكم كما تَرَوْنَ القمر، لا تُضامون في رُؤيته. أي في رؤيةِ القَمرِ. وقد يَجُوز أَيضاً أن يكونَ الضّميرُ راجعاً إلى اللَّهِ سُبحانه، ويكون بمعنى العِلم كأنّه قال: تَعلمونَ ربَّكم كما ترونَ القَمر، لا تُضامون في عِلْمِهِ: أي في عِلْمِ رَبِّكم.

[٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« **أُنْزِلَ القُرآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ[٢] لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وبَطْنٌ** »[٣].

وهذا القولُ مَجازٌ، لأَنّهُ لا ظهرَ للآيةِ ولا بَطْنَ على الحَقيقة؛ وإنّما المُرادُ أنّ لها فَحْوًى وظاهِراً وسِرّاً وباطِناً، فالظّهرُ هاهُنا بمعنى الظّاهر، والبطنُ بمعنى الباطِن. وهذا القولُ ينصرِفُ إلى الآ الآيِ المُتشـابهة دونَ الآيـاتِ المُحْكَمة؛ لأن المُتشابِهَةَ هي الّتي لا ظهْرَ لَها، والمُحْكَمَة هي التي لا بَطْنَ لها.

والمُتَشَابِهَةُ هي التي يُستَعْمَـلُ فيها النَّـظَرُ ويعملُ فيهـا الفِكر، ويتفـاضَلُ العُلَماء في استِفْتاحِ مُبْهَمِها واستِنْطاقِ مُعْجَمِهَا.

---

(١) انظر صحيح ابن حِبّان ١: ٢٤٣، والمطالب العالية برقم ٣٤٨٩ منسوباً للبزار، ومجمع الزوائد ٧: ١٥٢ ونسبه للبزار، وأبي يعلى، والطبراني في الأوسط. وانظر في شرح الحديث كتاب شرح السنة ١: ٢٦٣، والفائق والنهاية واللسان والتاج (بطن، ظهر).

(٢) أراد بالحرف: اللغة، يعني على سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، وهذه اللغات السبع مفرّقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن.

(٣) قال ابن الأثير: « أراد بالظهر ما ظهر بيانه، وبالبطن ما احْتيج إلى تفسيره ». وقيل: ظهرها: لفظها، وبطنها: معناها. وقيل: أراد بالظهر ما ظهر تأويله وعرف معناه وبالبطن ما بطن تفسيره.
وقيل: قصصه في الظاهر أخبار، وفي الباطن عبر وتنبيه وتحذير، وغير ذلك. وقيل: أراد بالظهور التلاوة، وبالبطن التفهّم والتعظيم.

[٣٢] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام[١]:

« **الخَيْلُ مَعْقودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ** ».

وهذا القَوْلُ مجازٌ لأنّ الخَيْرَ في الحقيقةِ ليسَ يَصِحُّ أن تُعْقَد بهِ نَواصِي[٢] الخَيل، وإنّما المُرَادُ أنّ الخيرَ كثيراً ما يُدْرَك بِها ويُوصَل إلَيْه عَليها؛ فهي كالوسائلِ إلى بُلوغه، والأَرْشِيَةِ إلى قَلِيبِه[٣]؛ فكأنه معقودٌ بنواصيها لشدَّة مُلازَمَتِه لها، وكثرةِ انتهازِ فُرَصِه بها؛ لأَنَّهم عليها يُدرِكون الطَّوائل[٤]، وَيَجْلِبُوْنَ المغانم، ويفوقون الأعداء، ويَبْلُغون العَلْياء. ومِمّا يُقَوّي ذلكَ ما رُوِيَ من تمام هذا الخبر، وهو قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[٥]: « **الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ: الأجرُ والغنيمةُ إلى يوم القِيامة** »، وفي هٰذا الكلامِ حَثٌّ على ارتباطِ الخيلِ لِما في ذٰلكَ من الغُنْمِ العاجِل والأَجْرِ الآجِل؛ فأَمّا الغُنم فما يُدْرَكُ بها من الأَسلابِ والأَنفال[٦]؛ وأَمّا الأَجْرُ فعلىٰ ما يُدْفَعُ بها من أَعداءِ الإِسلامِ وأشياعِ الضَّلال. وكلا الأَمْرَين خيرٌ تَنْحُوهُ الطّلبات[٧]، وتَتَعَلَّقُ به الرَّغَبات.

---

(١) رواه البخاري ٦: ٤٠، ومسلم برقم ١٨٧١، والموطأ ٢: ٤٦٧، والنسائي ٦: ٢٢١ و٢٢٢. وروايته وتتمته عندهم: « الخيل معقود في نواحيها الخير إلى يوم القيامة ».

(٢) نواصيها: جمع ناصية وهي الشعر المسترسل على الجبهة، ويحتمل أنه كنى بالنواصي عن جميع الفرس. كما يقال: فلان مبارك الناصية.

(٣) الأرشية: جمع رشاء: وهو الحبل، والقليب: البئر، والحبل هو الذي يربط فيه الدلو ويلقى في البئر فيخرج الماء.

(٤) الطوائل: جمع طائلة: وهي الفضل والغنى والسعة. وجاءت كلمة (يجلبون) في الطبعات السابقة (يحبون، يحيون، يجبون)، واستظهرنا هذه القراءة ليتفق الكلام ويستقيم النص.

(٥) رواه البخاري: ٦: ٤٠ و٤١، ومسلم برقم ١٨٧٢ و١٨٧٣ و١٨٧٤، والترمذي برقم ١٦٩٤، والنسائي ٦: ٢٢١، و٢٢٢، وابن ماجة: ٢: ٩٣٢، وأحمد في المسند ٣: ٣٩ و٥: ١٨١.

(٦) الأسلاب جمع سلب، وهو سلاح المحاربين. والأنفال جمع نفل وهو الغنيمة ومن ذلك سورة الأنفال أي الغنائم.

(٧) الطلبات جمع طَلِبَة، أي الرغبات.

[٣٣] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام(١):

« لَا تَسْأَلِ الَمرْأةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَكْتَفِيءَ مَا في إنسَائِهَا ».

وفي هذا الكلامِ استعـارَةٌ؛ لأنّه عليـه الصَّلاةُ والسَّـلامُ أرادَ أنّ المرأةَ لا يَنبغي لها أن تطلبَ طلاقَ أُخْتِها لِتَتَّصِلَ بالـزَّوْجِ الذي كـانَ لَها طَلبـاً لأَنْ تَجُرّ حَظَّها إليها، وتستبِدَّ بالنَّفع عَليها، فتكونَ كَأَنَّها اكتفأَت ما في إنائِها: أَي أَمالت الإنَاءَ إلى نَفْسِها فقَلَبَتْهُ لتستَفرغَ ما فيهِ، وتَسْتَأثِرَ عَليها به.

يُقال: كفأتُ الإنَاءَ إذا كَبَبْتَهُ، واكتَفأتهُ: إذا شربْتَ ما فيهِ أَجْمَع، أو أكلتَ ما فيهِ أَجْمَع.

[٣٤] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢):

« تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِمِسْيَمِهَا»، وهذا القولُ مَجازٌ لأنَّـهُ لا مِيْسَم هُناك. ولا يبعـدُ أن

---

(١) رواه البخاري ٤: ٣٩٥ في البيوع، ومسلم رقم ١٥١٥ في البيوع، والإمام مالك في الموطأ ٢: ٦٨٣ في البيوع، والترمذي رقم ١١٣٤ في النكاح، وأبو داود رقم ٢٠٨٠ في النكاح، والنسائي ٧/ ٢٥٨ و٢٥٩ في البيوع، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٨، و٢٧٤ وابن ماجه رقم ١٢٧٢ في التجارات. وتكفأ ما في إنائها: هو من كفأت القدد: إذا كببتها لتفرغ ما فيها، ولهذا مثل لإقالة الغدة حقّ صاحبتها من زوجها إلى نفسها.

(٢) انظر هذه الرواية في الفائق: (وسم) والنهاية (ميسم).

وأما رواية كتب الحديث فهي: « تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

أخرجه البخاري ٩: ١١٥، ومسلم برقم: ١٤٦٦، وأبو داود برقم ٢٠٤٧، والنسائي ٦: ٦٨، وابن ماجة برقم ١٨٥٨، وانظر المسند ٢: ٤٢٨ و٣: ٨٠ - ٨١ و٣٠٢ و٦: ١٥٢، والميسم: وفِعَل من الوسامة، وهي الجمال والحسن. وقد وُسم فهو وسيم، والمرأة وسيمة، وحكمها في البناء حكم ميزان وميقات، والميم زائدة.

وتربت يداك: التصقت بالتراب من الدعاء، وهذا الدعاء وأمثاله كان يرد من العرب ولا يريدون به الدعاء على الإنسان، وإنما يقولونه في معرض المبالغة في التحريض على الشيء، والتعجب منه ونحو ذلك.

يكونَ هٰذا الكلامُ داخِلاً في حَيِّزِ الحَقيقة، ويكون المِيْسَمُ مِفْعَلاً من الوَسامة. يقال: وَسُمَتِ المَرْأَةُ وسَامَةً، وإِنّها ذات مِيسَمٍ وجَمال. وهٰذا القَوْلُ مجازٌ، لأنّه لا مِيْسَم هُناك علىٰ الحَقيقة؛ وإنّما أرادَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنّها تُنْكَحُ لِأَثَـرِ الجَمالِ الظّاهِرِ عَليها، وجَعَل الجمالَ مِيْسَماً لها مُبالَغَةً في وصفِه بالعُلوقِ بِها والظُّهورِ على وَجْهها، كما يشهرُ أَثَرُ المِيسَمِ الذي تُكْوىٰ بِه الإِبِلُ، فلا يَذْهَبُ إلا بذهابِ الجِلْدِ الذي أثّر فيه وعلقَ بِه.

ويقولونَ في أمثالهم: يَبْقىٰ بقاءَ الوَسْم، إذا وَصَفُوا الأَمْرَ بالخُلودِ والدّوام والبقاءِ علىٰ الأيّام.

[٣٥] ومن ذلك قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]:

« الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ». وهٰذا القَوْلُ مَجازٌ؛ لأنَّ أَصْل الجَبِّ هو اختِزَالُ السَّنامِ من أَصْلِه[٢]. فكأَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَعل الإِسلامَ مُسْتَأصِلاً لكـلِّ ذَنْبٍ تقدَّم للإِنسان قَبله حتّى لا يَدَعَ لَهُ جِنَايَةً يَحْذَرُ عاقِبَتَها، ولا مَعَـرَّةً[٣] يَسُوءُ الحديثُ عَنها بل يُعَفِّي علىٰ ما تقدّم من السَّوءاتِ، ويَحْشُو على ما ظَهر[٤] من العَوْرات.

[٣٦] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥] في وَصِيَّته لأُمَراءِ الجيش

---

(١) انظر ابن سعد ٧: ٤٩٧، وكنز العمال ١: ٢٤٣ و١٣: ٣٧٠٢٤، والفتح الكبير ١: ٥٠٧، والنهاية واللسان والتاج (جبب). وانظر أيضاً تفسير ابن كثير: ٣٨: الأنفال، و٨: التحريم، والمسند ٤: ١٩٩ و٢٠٤ و٢٠٥.

وجاء في صحيح مسلم برقم ١٢١ ما يشبهه، وهو قوله ﷺ من حديث طويل:

« أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله . . . ».

(٢) يجبّ الاسلام ما قبله: أي يقطع ويمحو الذنوب فلا يؤاخذ بها. والجبّ لغة: قطع السنام، أو أن يأكله القَتَبُ أو الرَّحْل.

(٣) المَعَرَّةُ: الأذى والمساءة والمكروه والإثم.

(٤) يحثو على ما ظهر: أي يغطي عليه كأنه حثا التراب عليه فغطاه.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢: ٤٤٧ و٤٤٨، مع خلاف الرواية.

الذي بعَثَه إلى مُؤْتَةَ[1] : « **وستَجِدُون آخرين للشَّيطانِ في رُؤوسِهم مَفاحِصَ**[2]، **فاقْلَعُوها بالسُّيوف** »، وهٰذِه من الاستِعارات العَجيبة، والمَجازاتِ اللَّطيفة.

وذلك أنّ مِن كلام العَربِ أن يقولَ القَائِلُ مِنهم إذا أرادَ أن يَصِفَ إنساناً بشِدَّةِ الارتِكاسِ في غيّه والارتكاضِ في عِنان بَغْيه: قد فَرَّخ الشَّيْطَانُ في رأسِه أو قد عَشَّش الشَّيْطانُ في قَلْبه، فذَهب عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ إلى ذلك الـوَضْعِ وبَنَى علىٰ ذلك الأَصْلِ، فقالَ « للشَّيْطانِ في رُؤوسِهِمْ مَفاحِصُ ». والمَفْحَصُ في الأَصل في الموضعُ الذي تبحثهُ[3] القَطاةُ لِتَجْثُمَ عليه أو لتبيضَ فيه. **وإنّما قيل له مَفْحَص لأَنها لا تجثم فيه إلاّ بعد أن تفحص التراب عنه توطئة لمجثمها وتمهيداً لِجسمها.** ويُقال ما بَقِيَ لفلانٍ مَفْحَصُ قَطاةٍ؛ إذا لم يَبْقَ له ربْعٌ يُؤوِيْهِ ولا جَرِيءٌ يكون فيه. فيحتمل قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**للشَّيْطانِ في رُؤ وسهم مَفاحِصُ**» أحد مَعْنَيَين: **[أحدهما]**: أن يكون أرادَ أنّ الشَّيطان قد بدأ يَخْتَدِعُهم، ويَغُرُّهم ويَستهويهم ويُضِلّهم، ولم يبلغْ بعدُ من ذٰلك غايَتهُ، ولا استَوْعَب خَدِيعَتَهُ؛ كالقَطاةِ التي بَدأتْ باتّخاذِ المَفْحَصِ لتبيضَ فيهِ وتُرَتّبَ فِراخَها فيه.

[والمعنى الآخـر]: أن يكونَ أرادَ أنَّ الشَّيـطانَ قد استَـوْطن رؤوسهم، فجعَلها لهُ مَقيلاً، ومَبْرَكاً، ومَلْعَباً، ومُتَمَعَّكاً[4]. كما تَتّخِذُ القُطاةُ مَفْحَصاً لِتَأوي إلَيْهِ وتَسْتَجِنَّ فيه[5].

---

(١) وهي بأدنى البلقاء، من أرض الشام، وكانت في السنة الثامنة من الهجرة النبوية. انظر هذه الغزوة في ابن هشام ٢ : ٣٧٣، وابن كثير ٤ : ٢٤١، وابن سيد الناس ٢ : ١٩٨، وتاريخ الخميس ٢ : ٧٠.

(٢) مفاحص من الفعل فحص وفحصوا أي كشفوا، وأراد الذين يحلقون وسط رؤ وسهم فيتركونها مثل افحوص القطا، وهو مجثمها، وهم الشمامسة الذين حلقوا رؤ وسهم.

(٣) بحث الأرض بحثاً: حفرها وطلب الشيء فيها.

(٤) المتمعك: المكان الذي يتمرغ فيه الحيوان ليهرش جلده.

(٥) تستجنّ فيه: أي تستتر فيه.

[٣٧] ومن ذٰلك قولُهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]:

« **أَجِدُ نَفَسَ رَبِّكُمْ مِنْ قِبلِ اليَمَنِ** »، وهٰذا القولُ مَجازٌ، لأَنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ أنَّ غَوْثَ اللَّهِ ونَصْرَهُ يأتيانِ من قِبَلِ اليمنِ، يعني القَبيلة لا البَلْدَة، والقَبيلةُ هم الأَنصْارُ الّذين نَفَّس اللَّهُ بِهم خِناقَ الدِّين، وكَشَفَ بأيديهم كُرَبَ المُؤمنين. ومن كلامهم: أَنتَ في نَفَسٍ من أَمْرِكَ: أي في مُتَّسَعٍ طويلٍ ومُضْطَربٍ عَرِيض. ويقولُ القائِلُ: اللَّهُمَّ نَفِّسْ عَنّي، أي فَرِّجْ كَرْبِي، واكشِفْ هَمّي. ومما يقوّي هٰذا التّأويلَ الحديثانِ المَرْوِيَّان عنهُ عليه الصَّلاة والسَّلامُ: في مثل هذا المعنى، وأَحَدُهما قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام[٢] « **لا تَسُبُّوا الرِّيح فإِنَّها مِنْ نَفَسِ الرحْمٰنِ** ». يريدُ أنَّه تَعالىٰ يُفَرِّجُ بها الكُروبَ، ويَطْرُد بها الجُدوب[٣].

والحديث الآخرُ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤]: « **الرِّيحُ مِنْ رُوحِ الله** ».

= والمعنى الأخير أولى بالحمل عليه، لأن النبي ﷺ قال: فاقلعوها بالسيوف، وأثر الفحص لا يقلع وإنما يقلع العش، والبيت الذي بني، إلا إذا جعلنا في اقلعوها مجازاً بأن يشبه محو الأثر بقلع البيت.

(١) انظر المسند ٢: ٥٤١، والفائق والنهاية، واللسان، والتاج (ن ف س). قال الزمخشري: هو مستعار من نفس الهواء الذي يردّه المتنفّس إلى جوفه فيبرّد من حرارته ويعدِّلها. أو من نفس الريح الذي يتنسّمه، فيستروح إليه ويتنفّس عنه. أو من نفس الروضة، وهو طيب روائحه الذي يتشمّمه فيتفرّج به لما أنعم به ربّ العزّة، من التنفيس والفرج وإزالة الكربة.

(٢) أخرجه الترمذي برقم ٢٢٥٣، وأبو داود برقم ٥٠٩٧. وانظر الفائق والنهاية (نفس). وقال ابن الأثير: يريد بها أنها تفّرج الكرب، وتنشىء السحاب، وتنشر الغيث، وتذهب الجدب.
قال الأزهري :النَّفَس في هذين الحديثين اسمٌ وضع موضع المصدر الحقيقي . . كأنه قال: أجد تنفيس ربكم من قبل اليمن، وإنّ الريح من تنفيس الرحمن بها عن المكروبين ».

(٣) الجُدوب جمع جدب: كقلب وقلوب، والجدب: القحط وقلة الزرع، وذلك لأن الريح تحمل السحاب، فإذا صادفت جواً بارداً أمطرت فتسقي الأرض فينبت الزرع فيأكل الناس والدواب ويشربون ويزول الجدب.

(٤) أخرجه أبو داود برقم ٥٠٩٧، ورواه ابن ماجة برقم ٣٧٢٧.

فقولُه عليه الصَّلاة والسَّلامُ: « من رُوحِ الله » كقوله: « من نَفَسِ الرَّحْمٰن »، والمَعْنَيانِ مُتقارِبان.

[٣٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(١):

« الحُمَّى رَائِدُ المَوْتِ، وَهِيَ سِجْنُ اللَّهِ في الأَرْضِ يَحْبِسُ بها عَبْدَهُ إذا شَاءَ وَيُرْسِلُهُ إذا شَاءَ ».

وفي هٰذا الكلامِ استعارَتَان عَجيبتان. إحداهُما قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام: « الحُمّىٰ رائدُ المَوْت » تَشْبيهاً لها برائدِ الحَيّ الذي يَتَقَدَّمُهُم فيرتَادُ لهم مَساقِطَ السَّحابِ ومنابِتَ الأَعْشاب، فَيكون ارْتِحالُهم على خَبره، واستِنامَتُهم إلى نَظَرِه، ومنه الحديث « الرائدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ » فكأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام جَعل الحُمّىٰ مُقَدّمةً للمَوْتِ وطَليعةً للحَتْف. والاستعارةُ الأُخرى قولهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: « وهي سِجْنُ اللّهِ في الأَرض يحبسُ بِها عَبْدَه إذا شاءَ ويُرْسِلُه إذا شاء.

فكأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبَّهها بالسِّجْنِ من حيثُ مَنَعَتْ صاحِبَها من التَّصَرُّفِ والإضطراب وغَفَّلته عن قضاءِ الآراب(٢)؛ فكان أَسِيْرَها حتّى تُطْلِقَهُ ورقيقَها حتى تُعْتِقَه.

[٣٩] ومثل ذلك الحديث الآخرُ وهو قولُه عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ(٣):

---

(١) أنظر مسند الشهاب ١ : ٦٩، وكشف الخفاء ١ : ٤٣٩، وهو حديث ضعيف.

(٢) الأداب، جمع أَرَب: وهو الغاية والبغية.

(٣) أخرجه مسلم برقم ٢٩٥٦، والترمذي برقم ٢٣٢٥، وابن ماجة برقم ٤١١٣، وابن حبان ٢ : ٣٩٨ و ٣٩٩، وأحمد في المسند ٢ : ٣٢٣ و ٣٨٩ و ٤٨٥، وأبو نعيم في الحلية ٦ : ٣٥٠ و ٨ : ١٧٧ و ١٨٥، والحاكم ٣ : ١٠٤ و ٤ : ٣١٥، والطبراني برقم ٦١٨٣، وانظر مسند الشهاب ١ : ١١٨.
قال النووي في شرح صحيح مسلم ٥ : ٨١٤: « معناه أنَّ كلَّ مؤمن مسجونٌ، ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان وأما الكافر فإنما له من ذلك =

لأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شبَّهَ الدُّنيا بالسِّجنِ للمُؤمن من حيثُ قَصرَ فيها خطوه عن اللّذّاتِ، وكَبَح لجِامَهُ عن الشّهَوات، وحَصَر نَفْسَهُ عن التّسَرُّعِ إلى ما تَدْعُو إليه الدَّواعي المُخْزِية، والأهواءُ المُرْدِيَة. وكانَ زِمامَ نَفْسِه وخِطامَها، وهادِيها وإمامَها[1]، خائفاً خوفَ الجانِي المَرْعُوب، والطَّرِيد المَطْلُوب، في عُصبةٍ عَمِلُوا للمَعاد وفَطِنُوا للزَّاد، تَحْسَبُهم من طُولِ سُجودهم أَمْواتاً، ومن طُولِ قِيامِهِمْ نَباتاً!

ومن أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طَلَبَ القوتَ من بعض الرَّاغِبين المَفْتُونين، فقيلَ له في ذلك فقال: أنا مَسْجُونٌ وهو مُطْلَقٌ، وهل يأكلُ المَسْجُون إلا من يَدِ المُطْلَق؟ وشبَّهها عليهِ الصَّلاةُ والسلام بالجنّةِ للكافِرِ من حيثُ استَوْعَب فيها شهَواتِه واسْتَفْرَغ لَذّاتِه، وقَضى فيها الأَوْطارَ وتَعَجَّلَ المَسارَّ، واستَهْوَاهُ عاجِلُ حُطامِها، ورَيِّق جِمامِها[2]، فَنَسِيَ العاقبةَ واسْتَهان بالمَغَبَّةِ فكانَ مَيّت الأَحياءِ كما كانَ المُؤمِنُ حَيَّ الأموات[3]. ولي في بعض كُتُبي فصلٌ وهو لائقٌ بِهٰذا المَوْضِع، وذلك قَولي: فالحمدُ لِلّهِ الذي جَعل أَهْلَ طاعَتِه أَحْياءً في مَماتِهِمْ كما جَعل أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ أَمْواتاً في حَياتِهِمْ.

[٤٠] ومن ذلك قولـه عليه الصلاة والسلام[4]: « كَيْفَ أَنْتُمْ إذا مَـرِجَ

= ما حصل له في الدنيا على قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد ».

(١) الزمام: الخيط الذي يشدّ في البُرة أو في الخشاش ثم يشدُّ إلى طرف المقود. والخطام: الزمام. وما وضع على خطْم الجمل ليقاد به. والهادي: الدليل.

(٢) الجمام جمع جمّ: وهو الكثير، والريق: الرائق والشائق الذي يجذب العين ويخلب اللبّ، أي استهواه كثير مفاتنها، وحسن متاعها.

(٣) ويشبهه في هذا قول عديّ بن الرعلاء الغساني:

ليس من ماتَ فاستراحَ بميْتٍ ... إنما الميت ميِّتُ الأحياء

(٤) المسند ٦:٣٣٣، وكنز العمال ١١:٣١٤١٨، والفائق والنهاية (مرج). وتتمته عند =

الدينُ». في حديث طويل. وفي هذا القَولِ مجازٌ لأنَّ أصلِ قولِهم مَرِج الشَّيءُ مأخوذ من القَلقِ، والاضطراب، والمَجيء، والذَّهاب. يقال: مَرِجَ الخاتمُ في الإصبعِ إذا قَلِقَ وتَحرَّكَ؛ فكأنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام وصَف دِيْنَ النَّاسِ على ذلك العَهْدِ بالتَّكفِّي [1] والمَرَجانِ [2]، واضطرابِ الأَركان. والمُرادُ بذلكَ اضطرابُ أهلِ الدِّين فِيه، وقِلّة ثَباتِهم عَليه. قال الشَّاعِر [3].

مَرِجَ الدِّيْنُ فأَعْدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الحارِك مَحْبُوك الكَتَدْ [4]

ومثل هذا الحديثُ الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام بعبدِ الله بن عَمْرو [5]: «**كَيْفَ أَنْتَ إذَا بَقِيتَ في حُثالةٍ مِنَ النّاسِ قد مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وأمانَاتُهم**»: أي لا يستقرّونَ علىٰ عهْدٍ، ولا يُقيمون علىٰ عَقْدٍ؛ يَصِفُهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقلة الثَّباتِ، وكثرةِ الانتِقالات. والمُرَادُ: أَصحابُ الأَماناتِ والعُهود، وإن كانَ ظاهر اللَّفْظِ يتناوَلُها، وصريحُ الكلامِ يتعَلَّقُ بها. وذلكَ أَيضاً من جُملةِ المجازاتِ المقصود بيانُها في هٰذا الكِتاب.

والحُثَالَةُ: الرَّدِيء من كُلّ شَيء. وأَصْلُه ما يتَهافَتُ من قُشارَةِ التَّمرِ

= الزمخشري: «وظهرت الرغبة، واختلف الإخوان، وحرِّق البيت العتيق».

وقال ابن الأثير في شرح الحديث: «أي فسد وقلقت أسبابه. والمرْج: الخلط».

(١) كفأ فلاناً: كبّ على وجهه، وتكفأ: تعثر في مشيته حتى ليكاد ينكفيء على وجهه، والتكفي. تفعل من كفأ. والمعنى أن النبيّ ﷺ وصف دين الناس في هذا العهد بالانقلاب على وجهه.

(٢) المرجان: من المرج: أي الفساد والقلق والاضطراب والاختلاط.

(٣) هو جارية بن الحّجاج الإيادي، المعروف بأبي دواد: شاعر جاهلي. كان من وصّاف الخيل المجيدين. الأغاني ١٦: ٣٧٣ والسمط ٢: ٨٧٩ وشرح أبيات المغني ٣: ٥٦.

(٤) شعر أبي دواد ضمن كتاب: «دراسات في الأدب العربي لفربناوم ص ٣٠٤».

الكتد: موصل العنق في الظهر، ومحبوك: مدمج، والحارك: ما شخص فوق فروع كتفيه. والمعنى يقول: اشتد الزمان فأعددت له فرساً هذه صفته». وجاء في مطبوعات الكتاب (الكبد)، وهو خطأ واضح، صوابه ما أثبتناه.

(٥) أخرجه ابن ماجة ٢: ١٣٠٧، وأبو داود برقم ٤٣٤٢.

والشَّعير. يقال: حُثالَةٌ وجُفَالَةٌ وحُفَالَةٌ وجُثَـالة[1]. فشبّـه عليهِ الصَّـلاةُ والسَّلامُ بذلك الرُّذَّالَ[2] البَاقِين من الخِيار الذَّاهبين. وهٰذا أيضاً داخلٌ في بابِ المَجاز.

[٤١] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقد خَرج ذاتَ يومٍ مُحْتَضِناً أحدَ ابْنَيْهِ الحسن والحُسَين عليهما السلام[3]:

« لَتُجَبِّنُونَ وَتُبَخِّلونَ وَتُجَهِّلُون، وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رَيْحَانِ اللَّهِ، وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بِوَجٍّ »، في كلامٍ طويل؛ وفي هٰذا الكلامِ مَجازان. [أَحَدُهما] قولُه عليه الصَّلاة والسَّلامُ: « وإِنَّكُمْ لَمِنْ رَيْحَانِ الله ». وللرَّيْحانِ هاهُنا وَجهان: أَحدُهُما يكونُ الكَلامُ بِهِ استعارَةٌ، والآخر يكونُ به حَقيقة.

فأَمَّا الوَجْهُ الذي يكونُ بِهِ حَقيقة، فهو أنْ يكونَ الرَّيْحانُ بمعنى الـرِّزْق. وقد قِيْل إِنَّهُ الرِّزْقُ الذي يُؤكل خُصوصاً. ومن كلامِهِمْ: خَرجْنـا نَطْلُبْ رَيْحـانَ اللّهِ: أي رِزْقَ اللَّه، والوَلَدُ من رِزقِ اللَّهِ سُبحانه، فصـارَ الكلامُ حَقيقـة. وأَمَّا الوجْهُ الذي يكونُ بِهِ استعارَةٌ، فهو أن يكونَ الرَّيْحَانُ هاهُنا يريدُ بِهِ النَّبْتَ المَخْصُوص الذي يُستطابُ للشَّمِيم، فجعلَ الوَلد بمنزلِتِهِ لأَنَّهُ يُسْتَلَذّ شَمُّ رِيحه، ويُسْتَرْوَح إلى استِنْشاقِ عَرْفِه[4]. وعادَةُ النَّاسِ معروفةٌ في شَمِّ الـوَلَدِ وضَمِّـه. وأصلُ الرَّيْحانِ مأخـوذٌ من الشَّيءِ الذي يُسْتَـرْوَحُ إِليه ويُتَنَفَّسُ من الكُـرَبِ بِهِ. وعلىٰ ذلك قول الشَّاعِر[5]:

---

(١) الجفالة: القشارة، والجثالة: ما تناثر منْ ورق الشجر، والحفالة: هي الحثالة وهذه الألفاظ كلها تدور على معنى النفاية والرديء.

(٢) الرذال: الخسيس والرديء من كل شيء.

(٣) انظر المسند ٤: ١٧٢ و ٦: ٤٠٩، وانظر الفائق (جبن) والنهاية (وطأ).

(٤) العَرْف: الرّائحة مُطلقاً، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.

(٥) هو النمر بن تولب بن زهير العكلي: شاعر مخضرم. عاش عمراً طويلاً في الجاهلية، أدرك الإسلام وهو كبير السنّ ووفد على النبيّ، فكتب عنه كتاباً لقومه، وهو من الشعراء المعمرين، توفي ١٤ هـ تقريباً. وله شعر مجموع، طبع ببغداد. الإصابة ت ٨٨٠٤، والأغاني ٢٢: ٢٧٢، والشعر والشعراء ١: ٣٠٩.

سَلامُ الإلَهِ وَرَيْحَانُهُ وَرَحْمَتُه وسَماءٌ دِرَرْ[1]

وأصلُه من الواو؛ كأنَّهُ مأخوذٌ من الرُّوح.

والمجازُ الآخر قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «وإنّ آخرَ وطأةٍ وَطِئَها اللَّهُ بِوَجّ»، وأصَحُّ ما قالَهُ العُلَماءُ في تأويل هذا الخبر أنّ فيه مضافاً محذوفاً تقديره أن يكون: وإن آخِرَ وَطْأةٍ وَطِئَها جُنْدُ اللَّهِ أَوْ رَسُولُ الله بِوَجٍّ[2]؛ ووَجٌّ جبل بالطَّائف.

وهذا كما نقُوله في قوله تعالىٰ[3]: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي يُؤذون أولياءَ اللَّهِ وأَصفِياءَ اللَّه، لأَنّ حقيقةَ الأَذى لا يَصِحُّ على اللَّهِ سُبحانَهُ، والمُرَادُ بذكر الوطأةِ بِوَجّ أَنّ آخِرَ إيقاعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بالمُشركين علىٰ أَيْدِي المُؤمنين بِوَجّ، ولذلك قال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة[4]: آخرُ غَزاةٍ غَزاها رَسُول اللَّهِ صَلّى اللَّهُ علَيه وآلِه، الطَّائِف. يُريد أَنَّهُ لم يَغْزُ بَعْدَها غزاةً فيها قَتالٌ؛ لأنَّ مخرَجَهُ عَليه الصَّلاةُ والسّلامِ إلى تَبُوك[5] من بَعْد لَمْ يَلْقَ فيه كَيْداً ولم يُقابِلْ أحداً.

---

(١) شعر النمر بن تولب (ضمن: شعراء إسلاميون) ص ٣٤٥.
والبيت من قصيدة عدتها عشرة أبيات، وبيت الشريف رابع فيها. ومعنى ريحانه: رزقه، ودِرر، بكسر الدال: أي تدر بالمطر درة بعد درة. وقد ضبطت الدال في طبعات الكتاب السابقة بفتح الدال وهو تصحيف.

(٢) وَجٌّ: هو الطائف؛ وهو وادي وجّ وهو بلاد ثقيف، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، وقال ياقوت: «كانت الطائف تسمّى قبل ذلك وَجّاً بوَجّ بن عبد الحيّ من العماليق». انظر معجم البلدان (طائف ووَجّ).
وقال ياقوت أيضاً (وجّ): «وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: إن آخر وطأة لله يومُ وَجّ»: وهو الطائف، وأراد بالوطأة الغزاة ههنا، وكانت غزاة الطائف آخر غزوات النبي».

(٣) الأحزاب: ٥٧، وانظر تفسير القرطبي ١٤: ٢٣٧.

(٤) أبو محمد: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي: محدث الحرم المكي. من الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها سنة ١٩٨ هـ. تذكرة الحفاظ ١: ٢٤٢، تاريخ بغداد ٩: ٧٤، حلية الأولياء ٧: ٢٧٠.

(٥) جاء في جوامع السيرة لابن حزم: ٢٤٩: «هذه آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه. وكان رجوع =

والعَربُ تُكني عن الوَقيعةِ أو الحالِ الشَّديدةِ بالوَطأة، يقولُون: وَطىءَ آلُ فلانٍ آلَ فُلان في يومِ كَذا وفي مكان كَذا وَطْئاً شديداً.

ومنه ما حُكي عن أبي سُفْيان بن حَرْب[1] أَنّهُ خرجَ يوماً بعد وفاة النَّبي ﷺ إلى ظاهِرِ المدينةِ، فلما نَظَر إلى أُحُدٍ قال: لقد وَطِئْنا مُحَمّداً وأصحابَهُ هاهُنا وَطْئاً شَدِيداً.

[٤٢] ومن ذلك قولُ النَّبيّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2]: « **اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتك على مُضَرَ** ». أي أَصِبْهُم بالشَّدائِد واقْرعْهُم بالقَوارِع[3]، ومنهُ قول الشاعر[4]:

وَوَطِئْتَنا وَطْئاً على حَنَقٍ وَطْأَ المقَيَّدِ نابِتَ الهَرْمِ[5]

وإنّما قالَ: «المُقَيّد» لأنَّ وَطْأَهُ أَشَدّ واعتمادَهُ أَثْقل. وقال الآخر[6]:

= النبي ﷺ من عُمْرته بعد حصار الطّائف ـ كما ذكرنا ـ في آخر ذي القعدة من سنة ثمانٍ ». وكانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع ولم يكن فيها قتال. وانظر ابن هشام ٢: ٥١٥، وابن كثير ٥: ٢، وتاريخ الخميس ٢: ١٢٢.

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: صحابي من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. وتوفي بالمدينة، وقيل بالشام ٣١ هـ.

(٢) رواه البخاري ٨: ١٧٠ في تفسير (آل عمران)، ومسلم برقم ٦٧٥، وأبو داود برقم ١٤٤٢، والنسائي ٢: ٢٠١ في الافتتاح. وبعده وتتمته: « اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ».

(٣) القوارع جمع قارعة: وهي الداهية المفاجئة.

(٤) هو زهير بن أبي سُلْمى حكيم الشعراء في الجاهلية المتوفّى ١٣ ق.هـ.

(٥) نسبه في اللسان (هرم) إلى زهير وليس في ديوانه في طبعاته وشروحه جميعاً. وهو بلا نسبة في تأويل مختلف الحديث / ٢١٣ والنهاية لابن الأثير ٥: ٢٠٠. وروايته في اللسان: (يابس الهرم) وفي تأويل مختلف الحديث: (ثابت الهرم). وفيه: « والمقيد أثقل شيء وطْأً، لأنه يرسف في قيده، فيضع رجليه معاً.
والهرم: نبت ضعيف، فإذا وطئه كسره وفتّه ».

(٦) هو الهُذَيْل بن هُبَيْرة التغلبي، شاعر جاهلي، كان رئيساً قائداً جراراً للجيوش (عدّه ابن حبيب من الجرّارين من ربيعة، والجرار من يرأس ألفاً)، أسره الأعيس يزيد بن حذيفة السعدي. الاشتقاق =

* وَطِئنَا قُعَيْناً وَطْأَةَ المُتَثَاقِلِ [1] *

وقوله عليه الصلاة والسلام في أوّل الحديث: « **إنكم لَتُجنّبون وتُبخِّلون وتُجهّلون** »، يريد إنكم لتُجَبِّنُ الناسُ آباءَكُمْ وتبَخِّلُهم وتجهِّلُهم .

فأضافَ هٰذِهِ الأحوالَ إلى الأَبْناءِ إذ كانُوا شَبَهاً للآباءِ، وهٰذا أيضاً مجازٌ ثالث في الخَبرِ الذي كلامُنا عليه.

[٤٣] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ [2] : « **لَوْ يَعْلَمُونَ مَا يَكُونُ في هٰذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الجُوعِ الأَغْبَرِ، ومِنَ المَوْتِ الأَحْمَرِ. . .** ». وهاتانِ الاستِعارتانِ من أَحْسَنِ الاستعاراتِ، لأنّ الجُوعَ أَبَداً إنّما كانَ يَلْحَقُ العَرَب في اللأّواءِ والأَزَماتِ والسّنين المُجْدِباتِ؛ وتلكَ السِّنون تُسَمَّى غُبْراً لا غبرارِ [3] آفاقِها من قِلَّةِ الأَمطارِ، وأَراضيها من عَدمِ النَّباتِ والأَعشابِ؛ ويَقُولـون: هٰذِه حِجَـجٌ [4] غُبْرٌ إذا كانت كذلك، ألا تَرى إلى قَوْلِ الشّاعر:

أَغَـرُّ يُبـارِي الـرِّيـحَ في كـلِ شَتْـوَةٍ   إذَا اغْبَرَّ أَقْدَامُ الـرِّجالِ من المَحْـلِ

وقيل: « عام الرَّمادة » [5] لِهٰذا المعنى علىٰ أحد القولين.

= ٢٤٩ و ٣٣٦ والجمهرة لابن حزم ٣٠٧ والمحبر ٢٤٩ والأنوار ١ : ٢٣٩ .

(١) صدره: أَلَمْ يَأْتِ أَحْيَاءَ الأَرَاقِمِ أَنَّنا . ، وهو من قصيدة طويلة قالها الشاعر الهذيل بن هبيرة في يوم عاقل، وهو يوم لبني زيد بن عمرو التغلبي، على بني أسد، وفيه مقتل قيس بن جابر الأسدي، قتله عبّاد بن عامر التغلبي. وقعين في البيت هو قعين بن الحارث بن ثعلبة، من أسد بن خزيمة، من عدنان وهو جدّ جاهلي ـ انظر الأنوار في محاسن الأشعار ٢٣٩ ـ ٢٤٢ وجـاءت الشطـرة في طبعات الكتاب محرفة تحريفاً غريباً وروايتها عندهم:

ـ وطئنا تميماً وطأة المشاغل ـ وصوابه ما أثبتناه.

(٢) انظر النهاية واللسان (حمر، غبر).

(٣) انظر النهاية ٣ : ٣٣٧ واللسان والتاج (عنبر).

(٤) الحجج: السنين.

(٥) عام الرّمادة في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذلك سنة سبع عشرة أو ثمان =

والقول الآخر: أنه إنما سُمِّيَ بذلك لِهلالِ النَّاسِ فيه؛ مأخوذٌ من الرَّمْدِ وهو الهَلاك. قال الشاعر[1]:

صَبَبْتُ عليهم حَـاصِبي فتَـرَكْتهُمْ ... كأصْرامِ عادٍ حيْنَ جلَّلها الرَّمْدُ[2]

أي الهَلاكُ.

والاستعارَةُ الأُخْرى قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « والمَوْت الأَحمر »، وهذه طريقةٌ للعَـربِ في وصفِ اليَوْم العَمَـاس[3]، واشتدادِ البـأسِ بالحُمْـرَة. فكما يقولون: يومٌ أَحمر، كذلك يقولون: موتٌ أَحْمَر.

قال الشّاعرُ في صفة الأسد[4]:

إذا عَـلَّقَتْ أَظْـفـاره فـي فـريسـةٍ ... رأى الموتَ في عَيْنَيْهِ أَحْمَرَ أَسْوَدا[5]

= عشرة من الهجرة، سمي به لأنه هلكت فيه الناس والأموال كثيراً. وقيل: هو لجدب تتابـع فصيّر الأرض والشجر مثل لون الرّماد. والأول أجود. انظر تاريخ الطبري ٤ : ٩٦ والكامل لابـن الأثير ٢ : ٥٥٥.

(١) لأبي وَجْزة السعدي، يزيد بن عبيد السلمي: شاعر محدث، مقريء، من التابعين. أصله من بني سُليم، ونشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن فنسب إليهم، وسكن المدينة، فانقطع إلى آل الزبير، ومات بها سنة ١٣٠ هـ. الأغاني ١٢ : ٢٣٩ ـ الشعر والشعراء ٢ : ٧٠٢ وغاية النهاية ٢ : ٣٨٢.

(٢) البيت في الصحاح والتكملة واللسان والتاج (رمد)، والجمهـرة ٢ : ٢٥٦، والمقـاييس ٢ :٤٣٨. وروايته فيها: صببت عليكم...

(٣) في التاج: (عمس): « والعماس من الليالي: المظلم الشديد الظلمة، وقد عَمِس وعَمُس، كفرح وكرم، نقله ابن القطاع ».

(٤) هو أبو زبيد الطائي، حرملة بن المنذر بن معديكرب: شاعر معمَّر، عاش في الجاهلية والإسلام. وهو من نصارى طيىء، ومات بالكوفة أو في باديتها نحو سنة ٦٢ هـ. الأغاني ١٢ :١٢٧، الشعر والشعراء ١ : ٣٠١ والسمط ١ :١١٨.

(٥) شعر أبي زبيد (شعراء إسلاميون ص ٦١٩) وروايته فيه:

إذا عَلَّقَـتْ قِرْنـاً خطـا طيفُ كفِّه ... رأى المـوتَ رأيَ العيـن أسـودَ أحمرا

وهو كما تلاحظ في المجازات النبوية مضطرب فيه تقديم وتأخير وتغيير. والبيت من رائيتـه المشهورة في وصف الأسد. والخطّاطيف، مفردها خطاف، وهو حديدة حجناء، يختطف بها، وخطاطِيف الأسد: براثنه. والموت الأحمر: يعني القتل، وذلك لما يحدث عن القتل من الدم.

وقد يجوزُ أن يكونوا إنّما وصَفُوا يوم الحَرْبِ بالحُمْرةِ لاحمرارِ أرْضِه وسِلاحِه بأسَابيِّ النَّجيع[1]، والعَلَقِ الصَّبيب[2]، لكثْرَةِ الجِراح التي يَحْمَرُّ من نَضْحِها معارِفُ[3] الأبدانِ وسَرابِيلُ[4] الأقْران. وإذا ساغَ هذا في صِفَةِ اليَوْمِ سَاغ مثلُه في صفةِ المَوت.

[٤٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه[5]:

«أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقاً بِي أَطْوَلُكنَّ يداً»[6]، والحديثُ أنَّهُنَّ لما سَمِعْنَ منهُ صَلّى اللَّهُ عليهِ وآلِه هٰذا القَوْلَ جَعَلْنَ يَتَذارَعْن[7] يَنْظُرْنَ أَيُّهُنَّ أَطْوَلُ يَداً إلى أنْ تُوفِّيَتْ زَينب بنتُ جَحْشِ بن رِياب[8] الأسدي أوّلَ من تُوفِّي منهنّ، وكانت كثيرةَ المَعْرُوف، فعلمْنَ حينئذٍ أنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما أرادَ بِطُول اليَدِ كثيرةَ البِرِّ وَبَذْلِ الوَفْر. **وكنايتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن هذا المعنى بطولِ اليَدِ مجازٌ** واتّساعٌ؛ لأنّ الأغلبَ أن يكونَ ما يُعطيه الإنسانُ غَيْرَهُ من الرِّفْدِ والبِرِّ أن يعطيَه

---

(١) النّجيع من الدم: ما كان مائلاً إلى السواد لشدّة حمرته، وأسابيه: طرائقه، وهي جمع إسباءة.

(٢) العلق: الدم مطلقاً أو الشديد الحمرة أو الغليظ، والصبيب: الدم، والمراد الدم الأحمر الشديد الحمرة حتى يكون مناسباً للموت الأحمر.

(٣) المعارف: الوجوه.

(٤) السرابيل: الجلود.

(٥) رواه البخاري ٣: ٢٢٦ و ٢٢٧، ومسلم برقم ٢٤٥٢، والنسائي ٥: ٦٦ و ٦٧. وروايته عند مسلم: «قالت عائشة (رض): قال رسول الله ﷺ: أسرعكنّ لحوقاً بي أطولكنّ يداً، قالت: فكنّ يتطاولن، أيتهن أطولُ يداً، فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدّق».

(٦) أراد ﷺ أمدّكن يداً بالعطاء؛ من الطَّوْل، فظنّنه من الطُّوْل. وكانت زينب تعمل بيدها وتتصدق بها.

(٧) يتذارعن: أي يقسن أذرعهن ليرين أي الأيدي أطول.

وفي البخاري: فأخذن قصبة (قطعة من البوص) يقسن بها أيديهن. والمعنى: أن نساءه ﷺ منهن من طول اليد الطول الحسي لا الطول المعنوي، وهو الكرم وبذل المعروف.

(٨) تصحف في مطبوعات الكتاب إلى (رئاب) وحاول بعضهم أن يجد له تفسيراً، والصحيح ما أثبتناه. انظر السير ٢: ٢١١، وأسد الغابة ٧: ١٢٥، والوافي ١٥: ٦١، وطبقات ابن سعد ٨: ١٠١.

ذٰلكَ بِيدِه فسمىٰ النَّيْلَ[1] باسمِ اليَدِ؛ إذْ كانَ في الأكثرِ إنّما يكونُ مَدْفُوعاً بهـا ومُجْتَازاً عَليها. وقد أشَرْنا إلى هذا المعنى فيما تقدَّم.

ومثلُ ذلك قولُ أميرِ المُؤمنين عليّ عليهِ السَّلامِ: «من يُعْطِ باليَدِ القَصيرة يُعْطَ باليَدِ الطَّويلة». ومَعْنى هٰذا القَوْلِ أَنَّ من يَبْذُل خَيْرَ الدُّنيا يجْزِه اللَّهُ خَيْـرَ الآخِرة، وكنى عليه السَّلامُ عَمّا يُبْذَلُ من نَفعِ الدُّنْيا باليَدِ القَصيرة لِقلَّتِه في جَنْبِ نَفْعِ الآخِرة لأنَّ ذٰلكَ زائلٌ ماضٍ وهٰذا مقيمٌ باقٍ.

وقد ذكرنا ذٰلكَ في كتابِنا الموسُوم بِنَهْجِ البَلاغة.

وقد جَمعُوا ـ اليَد التي هي الجارِحةُ ـ علىٰ أَيْدٍ وأَيادٍ، وهو شاذٌّ فيها، كما جَمعُوا اليدَ التي هي العطيَّةُ على أيَادٍ وأَيْدٍ وهو شاذٌّ فيها[2]، وقد جاءَ أيضاً في جمعها يُدِيّ[3]. أنشدَنا شيخُنا أبو الفتح عُثمان بنُ جِنِّي، وأبو الحَسَن عليُّ بن عِيسىٰ الرَّبَعي[4]، وأظنه من أَبياتِ الكِتَاب[5]:

وَلَنْ أَذْكُـرَ النّعمـانَ إلَّا بصـالـحٍ فـإنَّ لَـهُ عِنْـدِي يُـدِيًّـا وأَنْعُمَـا[6]

---

(١) النَّيْل: الجود والعطية؛ وما يُنال، يقال: أصاب من عدوّه نَيْلاً.

(٢) يريد أن أياد شاذ في جمع الجارحة، وأيد شاذ في جمع العطية. وأيد هو جمع يد، وأياد: هو جمع الجمع. وانظر شرح المفصل ٥: ٨٤، وسر صناعة الأعراب ١: ٤٢٠.

٣) لقد خصّ الشريف ـ يدي ـ بالعطية، ولكنها وردت في جمع الجارحة أيضاً.

(٤) علي بن عيسى بن الفرج: هو أبو الحسن الرَّبَعي، عالم بالعربية. أصله من شيراز، وهو صاحب (نظام الغريب)، المطبوع. توفي في بغداد ٤٢٠ هـ. أنباه الرواة ٢: ٢٩٧، ونزهة الألبا ٣٤١، ووفيات الأعيان ٣: ٣٣٦.

(٥) ليس من أبيات الكتاب (كتاب سيبويه). والبيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، من بني دارم، وهو شاعر جاهلي، من الشجعان الرؤساء. يقال: كان اسمه «شقة بن ضمرة» فسماه النعمان: «ضمرة». وهو صاحب يوم «ذات الشقوق» من أيام العرب في الجاهلية. السمط ١: ٤٣٥ و ٥٠٣ و ٢: ٩٢٢، والخزانة ٢: ٣٢.

(٦) البيت في النوادر ٢٥٠ ـ ونسب فيه لضمرة، ونسب في اللسان (يدي) إلى الأعشى، وانظر ديوان الأعشى ص ٢٥٧، وهو بلا نسبة في سر صناعة الأعراب ١: ٢٤٠، وعجزه في شرح الملوكي =

[٤٥] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١] : « مَاتَ حَتْفَ أَنفِهِ » .

وذلك مجازٌ، لأنّه جَعل الحَتْفَ لأَنْفِه خاصّاً، وهو في الحقيقةِ لهُ عَـامّاً. لأن الميتَ على فِـراشهِ من غيـرَ أَن يعجلَهُ القَتْلُ إنمـا يتنَفّسُ شيئاً فشيئـاً حتى يَنْقَضِيَ ذَماؤُه[٢] وتَفْنى حَوْباؤه[٣]، فخصَّ عليه الصَّلاة والسَّلام الأنْفَ بذٰلكَ لأنه جِهَةٌ لخروجِ النَّفَسِ وحُلولِ المَوْت.

ولا يكادُ يُقالُ ذٰلكَ في سائرِ المِيتاتِ حَتّى تكونَ الميتةُ ذاتَ مُهْلَة، وتكونَ النَّفْسُ غَيْرَ مُعجلة، فلا يستَعْمَلُ ذٰلكَ في المِيتة بالفَرقِ والهَدْمِ وجميـعِ فَجْأةِ المَوْت، وإنّما يُستعمل في العِلّة المُطَاولة، والمِيْتَةِ المُماطِلة.

ورُوي عن أَمير المُؤمنين عليّ عليه السَّلام أَنَّهُ قال: ما سَمِعْتُ كلمةً عربيَّةً من العَربِ إلّا وقد سَمِعْتُها من رسولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وآلهِ، سمِعْتُه يقول: ماتَ حَتْفَ أَنْفِه، وما سَمِعْتُهَا من عَرَبِيٍّ قَبْلَه[٤].

[٤٦] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[٥] :

= وشرح المفصل ٥ : ٨٤. ونسب في اللسان (زنم) للشاعر ضمرة النهشلي. وانظر الصحاح والمقاييس واللسان والتاج (يدي). والبيت في ذيل ديوان عدي بن زيد العِباديّ ص ١٦٦ . أثبته جامع الديوان عن تفسير الطوسي ٣ : ٢١٨ .

(١) في سنن أبي داود ربرقم ٢٤٩٩ في الجهاد: آن النبي ﷺ قال: من فصل في سبيل الله، فمات أو قتل، فهو شهيد، أو وقصه فرسه أو بعيره، أو لدغته هامّة، أو مات على فراشه، بأيّ حتْفٍ شاء الله، فإنه شهيد، وإن له الجنة ». وانظر غريب الحديث ٢ : ٦٨، والمسند ٤ : ٣٦، والفائق والنهاية (حتف).

(٢) الذّماء: بقية الروح.

(٣) الحوباء: النفس.

(٤) في غريب الحديث: « قال الذي سمع هذا الحديث من النبي عليه السلام: إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من لغات العرب قط قبل رسول الله عليه السلام ».

(٥) انظر مسند الشهاب ٢ : ٩٦، والتلخيص الجيد ٣ : ١٤٥، وغريب الحديث ٣ : ٩٩، والإحياء ٢ : ٤٢ و ٤ : ١٠٢، والفائق والنهاية واللسان والتاج (خضر)؛ وتتمته: « فقيل: يا رسول الله، وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السُّوْء ».

« إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ ».

ولهذا القولِ تعلُّقٌ ببابِ المَجاز، وللعُلَماءِ في تأويله قولان:

أَحدُهما: أنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَهى عن نِكاحِ المرأةِ على ظاهرِ الحُسْن، وهي في المَنبِت السُّوء أو في البيتِ السُّوء، فوجْهُ المجازِ من هٰذا القولِ أنّهُ عليه الصَّلاةُ والسّلامُ شَبّه المرأةَ الحَسناءَ بالرَّوضةِ الخَضِرة لجمالِ ظاهِرها، وشبّه مَنْبِتَها السُّوء بالدِّمنةِ لقباحَةِ باطِنها. والدِّمْنَةُ: هي الأَبْعارُ المُجتمعة تركبها السَّوَافِي ويعلُوها الهابِي[1]. فإذا أَصابَها المَطَرُ أنبتت نَباتاً خَضِراً يروقُ منظرُه ويسوءُ مَخْبَرُه، فنهىٰ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن نِكاحِ المرأةِ إذا كانت مَغموضة[2] في نَفْسِها، أو مَطْعُوناً عَليها في نَسبها، لأنّ أعراق السُّوءِ تنزع إلى وَلَدِها وتضربُ في نَسْلِها.

قال الشّاعر[3]:

وَأَدْرَكْنَهُ خالاتُه فخذلْنَهُ ألا إنَّ عِرْقَ السَّوْءِ لا بُدَّ مُدْرِكُ

والقول الآخر أن يكون عليه الصَّلاة والسَّلامُ، إنما نهى في الحقيقةِ عن تَعارُض النّفاق وتغايُر الأخلاق، وأن يتلَقّى الرجلُ أَخاهُ بالظّاهر الجميلِ، وينطوي على الباطن الذّميم، أو يخدَعُه بحلاوةِ اللّسان، ومن خَلْفِها مرارَةُ الجَنان. وإلى هٰذا المَعْنى ذهب الشّاعِرُ في قوله[4]:

(١) السوافي: جمع سافية؛ وهي الريح تثير التراب. والهابي: تراب القبر، والتراب الذي يهبّ مع الريح، والمراد هنا الأخير.

(٢) الغامض: الخامل الذليل والحسب غير المعروف، والمراد بالمرأة المغموضة: الخاملة الذليلة التي لا يُعرف حسبها.

(٣) البيت في ثمار القلوب ص ٣٤٥: (عرق الخال)، وهو غير منسوب. وروايته فيه:

وأدرَكَهُ خالاتُهُ فخذلْنَهُ ألا إنّ عرق السَّوء لا بد مدرِكُ

(٤) أبو الهذيل الكلابي؛ زفر بن الحارث بن عبد عمرو، أمير، من التابعين، من أهل الجزيرة. مات متحصناً في قرقيسيا نحو سنة ٧٥ هـ. خزانة الأدب ٢: ٣٢٥، والوافي ١٤: ١٩٩، وتهذيب ابن عساكر ٥: ٣٧٦.

وقـد يَنْبُتُ المرْعَى على دِمَنِ الثَّـرى   وتَبْقَى حَـزَازَاتُ النفوس كمـا هِيَـا[1]

كأنّه أراد: إنّا وإن لقيناكُم بظاهِرِ الطَّلاقَةِ والبِشْـرِ، فإنّـا نُضْمِرُ لكم على باطنِ الغِشّ والغَمَر، ومثل هذا قول الآخر[2]:

وَفِـينَـا وإنْ قِيـلَ اصْـطَلَحْنَـا تَـضَـاغُـنٌ
كمـا طَـرَّ أوبـارُ الجِـرَابِ علىٰ النَّشْـرِ[3]

وقـال أَهلُ العـربيّة: النَّشْـرُ أن ينبت وَبـرُ البَعيـرِ وتحتـه داءُ العُـرّ، وهـو الجَرَبُ، فيرى كأنَّ ظاهره سليمٌ وباطنه سَقيم.

[٤٧] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسلام[4]:

« **الأَنصارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي** ».

وفي هذا القولِ مَجازان: أَحَدُهما قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: (كَرِشي) ويحتمل ذلك مَعْنَيين:

---

(١) البيت في غريب الحديث ٣: ٩٩ ـ ١٠٠ منسوب لزفر بن الحارث الكلابي، ومثلـه في الخزانـة ٢: ٣٢٦، والوافي ١٤: ٢٠٠، واللسان والتاج (دمن).
والبيت ضربه الشاعر مثلاً للرجل يظهر مودته وقلبه يغلّ العداوة.
والدمن: جمع دمنة: وهي بقية الدار التي تكون محلاً للقذارة، ومأوى للحشرات.

(٢) هو عُمْير بن الحباب كما في التاج، وينسب لطارق بن ديسق، وقال الصاغاني: وقد يخلط شعره بشعر أبي جندب الهذلي. وفي الأساس: قال أبو جندب الهذلي. وهو في شرح أشعار الهـذليين ٣٦٨. ونسب في الجمهرة ٢: ٣٥٠ لسويد بن الصامت.

(٣) البيت في الصحاح واللسان، والتاج (نشر)، وشرح أشعار الهذليين ٣٦٨ وفي الجمهرة ٢: ٣٥٠.
وطر: أي نبت، والمراد هنا كما ينبت وبر الجمال على الجرب. والجراب حمع جرب؛ وهو الجمل المريض بالجرب.

(٤) رواه البخاري ٧: ٩١ و ٩٢ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم برقم ٢٥١٠، والترمذي برقم ٣٩٠١، وأحمـد في المسنـد ٣: ١٧٦ و ١٨٨ و ٢٠١ و ٢٤٦، وانظـر أيضـاً غريب الحـديث ١: ١٣٧، والفائق، والنهاية، واللسان، والتاج (كشر). وبرواية ثانية عند الترمذي برقم ٣٩٠٠.
وروايته عند البخاري ومسلم: « إن الأنصار كرشي وعيبتي، وإن الناس سيكثرون ويقلّون، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم ».

أحدُهما: أن يكونَ أرادَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ أنَّهم مادَّتي التي أقْوىٰ بها، وأفْزَعُ إليها كما تَفْزَعُ ذواتُ الاجتِرار إلى أكْراشِها في انتِزاع الجِرَّة[1] منها، والاعتماد عند فقد المَرْعىٰ عليها، فأرادَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ الأنصارَ ـ رحمةُ اللَّهِ عَليهم ـ يمدُّونه بأنفسِهم، ويكون معَوَّلَهُ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ عليهم.

والمعنى الآخر: أن يكونَ المُراد أنّ الأنصار أَهْلِي وعِيالي وحامَّتي[2] وجَماعتي. و (الكَرِشُ) اسمٌ للجَماعة. قال الشاعر[3]:

وسَبيْنا بَناتِ قَيْصَرَ قَسْراً واستبحْنا كَرَاكِراً وَكُرُوشا[4]

أي جَماعات. وقال أبو زيد[5]: الكَرِشُ: اسمٌ من أسماء الأصل كالسِّنْخ، والجِذْم وما في معناهما، ويقولُ القائل: لفلانٍ كرشٌ منثُورَةٌ؛ إذا أراد أنه ذُو كثرةٍ من العِيال وعَدد من الأولاد، ومعنى (منثورة) متفرّقون متشعّبون لأنّ الكَرِشَ مُجتمعة؛ وهٰؤلاء مع شبههم بها كالشُّعَبِ المُتَفَرّقة.

وإنما شَبّه الأولادَ والعِيالَ بالكَرِش لأنّها في الأنعامِ مُستقرٌّ لأعلافها

---

(١) الجِرّة: اللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت علفه، وما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه.

(٢) الحامّة: خاصة الرجل من أهله وولده.

(٣) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب اللَّهَبي، من قريش: شاعر، من فصحاء بني هاشم. كان معاصراً للفرزدق والأحوص، وله معهما أخبار، وكان شديد السمرة، جاءته من جدته وكانت حبشية، واللَّهَبي نسبة إلى أبي لهب. توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك نحو سنة ٩٥ هـ. السمط ٢ : ٧٠١، وسرح العيون ٣٤٣، والمؤتلف والمختلف ٤١، ومعجم الشعراء ١٧٨.

(٤) البيت في كنز الحفاظ ٣٣، وأساس البلاغة واللسان والتاج (كرش)، وانظر فيها أيضاً (سبى)، والمخصص ٣ : ١٢٣. والرواية فيها مختلفة كثيراً (في الشطرة الأولى) عن رواية الشريف في كتابه. ورواية كتب اللغة للبيت على الشكل التالي:

وأفأنا السَّبيّ من كلّ حيٍّ وأقمنا كراكراً وكروشا

وبعد في كنز الحفاظ:

وافتتحنا مدائن الملك كسرى واستبينا النَّبيط والأحْبُوشا

(٥) انظر النوادر في اللغة ص ١٩٠، وغريب الحديث ١ : ١٣٨.

ومَغِيضٌ لما يصلُ إلى أجوافها، وكذلك عيالُ الرَّجل، وولده؛ إليهم تنصرفُ مكاسِبُه وعليهم تُنْفَقُ خزائِنُه.

والمجازُ الآخر قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: و (عَيْبَتي)[1]، وأراد أنّهم موضعُ ثِقتي، ومُستودع نَفْثَتِي، ومكان سِرّي ولجأ[2] ظهري، كالعَيْبَةِ التي يُودعها الإنسان نفائِس ذُخْرِه[3]، وكرائِم وَفْرِه؛ ويكون ما استَوْدَعها قُوّةً لظهرِه، وعُدّةً لدهره. وقد ذكر الواقديُّ[4] في كتاب المَغازي[5] هذا الكلام في جُملةِ خُطْبَةِ النّبيّ التي خطب بها قبل وفاتِه بزيادةٍ في ألفاظه.

فقال: قال صلى الله عليه وآله[6]: «ألاَ إنَّ الأنْصارَ عَيْبَتِي التي آوِي إليها ونَعْلِي التي أطَأُ بِها وكَرِشِي التي آكُل فيها».

وهاهنا زيادَةُ مجازٍ لم تكن هناك. وهو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: (ونَعْلِي التي أَطَأُ بِها). ولهذا القولِ وَجْهان:

---

(١) العيبة من الرجل: موضع سره.

(٢) اللجأ: الملجأ والمسند.

(٣) هذا تفسير آخر للعيبة. لأن العيبة تكون بمعنى الحقيبة التي توضع فيها الثياب، وما يحتاج الإنسان إلى حفظه من أمتعته.

(٤) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبدالله الواقدي، من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفّاظ الحديث. ولد بالمدينة وولي القضاء في بغداد، واستمر إلى أن توفي بها سنة ٢٠٧ هـ. تاريخ بغداد ٣:٣، وتهذيب التهذيب ٩:٣٦٣، والسير ٩:٤٥٤.

(٥) لم نجد هذا الكلام في كتاب (المغازي) للواقدي المطبوع في مصر ١٣٦٧ هـ: ١٩٤٨ م.

(٦) في الترمذي برقم ٣٩٠٠، ما يشبهه، وهو: «أن رسول الله ﷺ قال: ألا إن عَيْبَتي التي آوي إليها: أهل بيتي، وإن كرشي الأنصار، فاعفوا عن مسيئهم، واقبلوا من محسنهم».
وقال ابن الأثير في جامع الأصول ٩:١٦٦: «أراد بقوله: الأنصار كرشي وعيبتي، أي موضع سرّي وأمانتي، فاستعار الكرش والعيبة، لأن المجترّ يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته، قال الهروي: قال أبو عبيد: يقال: عليه كرش من الناس، أي جماعة، كأنه أراد: جماعتي وصحابتي الذين بهم أثق، وعليهم أعتمد».

أَحَدُهما: أن يكون شبّههمْ بالنَّعْـلِ التي تَقِي القَدَم نَكْتَ الظِّـراب[1]، وَوَخْز الشُّبَّاك[2]، وما في مَعنى ذلك. فأراد أنّهم تقويةٌ ضدّ الأعـداءِ، واشتدادِ اللأْواء.

والوجهُ الآخَـرُ: أنْ يكونَ أرادَ أنَّهُم جُنـودُه التي يطأُ بِهـا البِلادَ، ويغلبُ الأضداد. وتقول العرب: داسَ آلُ فلان آلَ فلان[3]، ووَطىء بَنُو فلان بني فلان إذا كانوا الغالبينَ لهم والعَالِين عَليهم[4].

ومن ذلك ما حُكِيَ عن أَبي سُفيان بن حَرْب أنَّهُ قال، وقد مرّ بأحُدٍ: لقد دُسْنا هاهُنا مُحَمَّداً وأصحابَهُ دَوْسَةً مُنكرة؛ ويُروٰى وَطِئنا.

[٤٨] ومن ذلـك قولُـه عليه الصَّـلاةُ والسَّـلامُ: لحكِيم بن حِـزَام بن خُوَيْلد[5] بعد إسلامه وقد أَلْحف في سُؤاله صلّى اللّٰهُ عَليهِ وآلِه لَمّا قَسم غنائمَ هوازن[6]:

---

(١) النكت: أن تضرب الأرض بقضيب فيؤثر فيها، والظراب: جمع ظرب: وهو ما نتأمن الحجارة وحدّ طرفه، والمراد أن النعل تقي القدم تأثير الحجارة فيها.

(٢) الشباك: نوع من البوص إذا وضعت عليه القدم بدون فعل جرحها.

(٣) انظر اللسان والتاج (دوس).

(٤) انظر اللسان والتاج (وطأ).

(٥) هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى، أبو خالد: صحابي، قرشي، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، وكان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، وعمر طويلاً. وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام. مولده بمكة وأسلم يوم الفتح وتوفي بالمدينة سنة ٥٤ هـ. الإصابة ٢ : ٣٤٩، وتهذيب التهذيب ٢ : ٤٤٧، والتيسير ٣ : ٤٤.

(٦) أخرجه البخاري ٣: ٢٦٥، ومسلم برقم: ١٠٣٥، والترمذي برقم ٢٤٦٥، النسائي ٥ : ١٠١. وانظر مسند الشهاب ٢ : ١٨٢، ومجمع الزوائد ١٠ : ٢٤٧. وانظر الخبر عن أموال هوازن وعطايا المؤلفة قلوبهم في: ابن هشام ٢ : ٤٨٨، وابن سيد الناس ٢ : ٢٤٩، وابن كثير ٤/ ٣٥٢، وتاريخ الخميس ٢ : ١١٢.

« يا حَكِيمُ إنّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فمَنْ أخذه بسَخَاوَةِ[1] نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ومَنْ أَخَذَهُ بإِشْرَافِ[2] نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ».

في كلامٍ أكثرَ من هٰذا؛ فقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « إنّ هٰذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ » مَجازٌ؛ لأنّه شَبّه حَلاوة المالِ في القُلوب بِحَلاوة الثَّمرة تُشرِفُ النَّفْسُ إليها ويَكْثرُ التَّتَبُّعُ لها، فكَذٰلك الأَمْوالُ الدَّثْرة[3] تَلْهَجُ النفْسُ لها ويكثُر النُّزوعُ إليها. وفي قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ » سِرٌّ لطيف؛ وهو أنه شَبّه المالَ بالثَّمرةِ التي حَسُنَ مَنْظَرُها، وطابَ مَخْبرُها، وليسَ كُلُّ ثَمرةٍ مأكولة كذٰلِكَ صِفَتُها؛ لأنّ في النَّابِتات والثَّمراتِ ما يَحْسُنُ ظاهِرُه ويَقْبحُ باطِنُه، ومنها ما تَقْبَحُ ظَواهِرُه وتَحْسُنُ مَخابِرُه.

فجعل عليه الصَّلاة والسَّلام المالَ من قسمِ النَّابتاتِ التي تَرُوق في العُيون وتَحْلُو في الأفواهِ والقُلوب. والمالُ على الحقيقةِ بهٰذه الصِّفة؛ لأنّ العيونَ تَعْلَقُه[4]، والقلوبَ تَمِقُه[5]، ومما يُشْبِهُ ذٰلك قوله عليه الصَّلاةِ والسَّلام[6]:

« مَنْ خُضِّرَ لَهُ في شَيْءٍ لَزِمَهُ ». والمراد من اعتادَ الانتفاعَ بشيءٍ، عَلِقَ به وتوكَّل عليه. فكأنّهُ شَبّه تلويحَ الأمر بِنَفْعِه، وإبدائه بالخَيْرِ المرجوّ من جِهته بالخضيرة الطَّالِعَة إذا أَذِنَت بالثَّمرة اليَانِعة.

---

(١) سخاوة النفس: عدم حرصها على المال واقتنائه.

(٢) إشراف النفس: تطلعها إلى المال وحرصها على تملكه.

(٣) الدَّثْر: الكثير من كل شيء، ويوصف به على لفظه كالمصدر، وهو أيضاً المال الكثير.

(٤) تعلقه: تتطلع إليه وتحبه وتتشوف إليه.

(٥) تمقه: تحبه أيضاً.

(٦) انظر الفائق، والنهاية، واللسان، والتاج (خضر). وهو فيها هكذا: « من خُضِّر له في شيء فلْيلزمه » وانظر شرحه فيها.

[٤٩] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[١] :

« الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنىً »[٢] .

وهذا القول مجازٌ. لأن المراد بذلك أن المتصدِّقَ إنّما يَجِبُ عليه الصَّدَقَةُ إذا كانت له قُوَّةٌ من غِنى . والظَّهْرُ هاهُنا عبارةٌ عن القُوّة ؛ فكأنّ المالَ للغَنِيّ بمنزلةِ الظَّهْرِ الذي عَلَيْهِ اعتِمادُه وإلَيْه سِناده . ومن ذلك قولُهم : فلان ظَهْرٌ لفلان إذا كانَ يَتقوَّى به ويَلْجَأُ في الحوادثِ إليه . وقد جاءَ في السِّيرة[٣] أنَّ المسلمين كانُوا عند حفرِ الخَنْدَقِ[٤] بالمَدِينة يَرْتَجِزُونَ بجُعَيل بن سُراقة الضَّمْرِيّ[٥] ويقولون :

سَمّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْراً وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْماً ظَهْراً[٦]

---

(١) رواه البخاري ٣ : ٢٤٣ ، وأبو داود برقم ١٦٧٦ ، والنسائي ٥ : ٦٢ ، وروايته فيها « خيرُ الصَّدَقة ما كان عن ظَهْرِغِنىً ، وأبدأْ بمن تَعُول » . وانظر أيضاً مسند الشهاب ٢ : ٢٢١ ، ومسند أحمد ٣ : ٤٠٢ و٤٣٤ ، والطبراني في الكبير ٣١٢٠ ، والدارمي ١٦٦٠ . والفائق والنهاية واللسان والتاج (ظهر) .

(٢) يقال : أعطى فلانٌ عن ظهر غِنىً ، أي أعطى عطاء من له ثروة ومال ، فكأنه أسند ظهره إلى غناه وماله .

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢ : ٢١٧ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٦٣٢ ، وطبقات ابن سعد ٤ : ٢٤٦ ، وتاريخ الطبري ٢ : ٥٦٧ .

(٤) غزوة الخندق في شوال سنة خمس هجرية .

(٥) جعيل بن سراقة الضَّمْري : صحابي، من أهل الصفة وفقراء المسلمين ، أسلم قديماً ، وشهد مع النبي ﷺ أحداً ، وأصيبت عينه يوم قريظة ، وكان دميماً قبيح الوجه ، أثنى عليه ﷺ ووكله إلى أيمانه . وسياق أسد الغابة ١ : ٣٤٥ ، وتجريد الذهبي ١ : ٨٦ يدل على أن هذا الذي غيَّر رسول الله ﷺ اسمه وسماه عمراً غير جعيل ابن سراقة المذكور . وانظر أيضاً طبقات ابن سعد ٤ : ٢٤٦ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٦٣٢ .

(٦) البيت في سيرة ابن هشام ٢ : ٢١٧ ، وابن سعد ٤/ ٢٤٦ ، وتاريخ الطبري ٢ : ٥٦٧ وأسد الغابة ١ : ٣٤٥ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٦٣٢ .

والظهر : القوة والمعونة . والضمير في «سماه» و « كان » للنبي ﷺ .

وقال أبو ذر الخشني : « وقد يجوز فيه وجه ثان ، وهو أن يكون الظهر (هنا) : الإبل ، فيكون البيت على وجه آخر ، تقديره : وكان المال للبائس يوماً ظهراً ؛ فأضمر اسم كان وإن لم يتقدم ما يفسره ، لأن مساق الكلام يدل عليه ، كما قالوا : إذا كان غداً فأتني ، أي إذا كان اليوم غداً» .

وكان النَّبيُّ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يقول معهم: عَمْراً، وظَهْـراً؛ ولا يقولُ باقي الشعر. وكان جُعَيل بن سُـراقَة يعمـلُ مَعهم ويقول مثْـلَ قَوْلِهم ويَضْحَكُ إليهم، فَعَلِمُوا أنّه لا يسوُؤه ارتِجَازُهم به. وكان النّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد سَمَّاه عمراً، واسمه الأظهرِ جُعَيل. ويقال: جُعَال. وكان رَجُلاً صالحاً من قُدَماء المُهاجرين، ومن البَدْرِيين، والذين شَهِدُوا المشاهـدَ كُلُّها مـع النبي صلّىٰ الله عليه وآله. وكان لهُ مع ذلك اختصاصٌ بِخدمتِه وملازمـةٌ لمَعْزِلـه[1]. وكانَ من فُقراء الصَّحابةِ [و] لَمّا قَسم النبيّ صلّى الله عليـه وآله، غَنـائمَ حُنَين، لم يعط الأنصَـارَ منها شيئـاً[2]، ولا كثيراً من المُهـاجِرين، وفَـرّقها في قُـرَيش والمؤلَّفةِ قُلوبُهم لِيَثْبُتُوا علىٰ الإِسلام ويُؤْمَن مِنْهُم الفَساد؛ وكانَ جُعيل بن سُرَاقة مِمَّنْ حُرِمَ العـطية فكلَّم سَعْـدُ ابن أبي وَقّاص[3] النّبيّ عليـه الصَّلاةُ والسَّـلامُ في شأنِـه، وقال: يا رسول الله تَحْرِمُ جُعَيلاً مع ما تعْلَمُه من خَلَّتِه[4]، ومع مالَهُ من حرمته، وتُعطي عُيَيْنَة بن حِصْنٍ[5] والأَقْرَع بن حَابِسٍ[6] وفلاناً وفلانا. فقال عليه الصَّلاةُ

(١) المعزل: فكان العزلة والانفراد؛ أي أن جعيلاً هذا كان يلازم النبي ﷺ في عزلته وانفراده عن الناس ليخدمه.

(٢) انظر الخبر عن أموال هوازن وعطايا المؤلفة قلوبهم بالتفصيل في: ابن هشام ٢ : ٤٨٨، وابن سيد الناس ٢ : ٢٤٩، وابن كثير ٤ : ٣٥٢، وتاريخ الخميس ٢ : ١١٢، والدرر ٢٤٥، والنويري ١٧ : ٣٣٩.

(٣) سعد بن أبي وقّاص: مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أبو إسحـاق: الصحابـي، الأمير، فاتح العراق، ومدائن كسرى.

(٤) الخَلَّة: الاحتياج والفاقة.

(٥) أبو مالك الفزاري: عيينة بن حصن بن حذيفة، صحابي، من الفرسان الشجعان، وكان في الجاهلية من الجرارين. وكان من المؤلفة قلوبهم، ومن الأعراب الجفاة، أسلم بعد الفتح. وقيل: أسلم قبل الفتح. وكان ممن ارتدّ وتبع طليحة الأسدي، وقاتل معه فأخذ أسيراً فأسلم، فأطلقه أبو بكر أسد الغابة ٤ : ٣٣١، والإصابة ٣ : ٥٥، وتجريد الذهبي ١ : ٤٣٢.

(٦) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية، أسلم وسكن المدينة، وكان من المؤلفة قلوبهم، وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى اليمامة، واستشهد بالجوزجان ٣١ هـ. أسد الغابة ١ : ١٢٨، وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٨٩، وتجريد =

والسَّلامُ [1]: « أمَا وَالّذي نَفْسِي بِيدِه لَجُعَيْل بن سُرَاقة خيرٌ من طِلاع [2] الأرضِ مثْلِ عُيَيْنَة والأقرع ونكنّي تألّفْتُهما ليُسْلِمَا، ووكلْت جُعَيل بنَ سُرَاقة إلى إسلامِه ». وممّا في هٰذا المعنى أيضاً قول القائل: أعطيتُ فلاناً كذا عن ظَهْر يَدٍ، أي عن امْتِناعٍ وقُوّة ولم أُعْطِه عن خِيفَةٍ وذِلّة.

وهـذا المعنى ضِدُّ قوله سُبحانه [3] ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَة عنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون﴾ فكأنّه خَلَعَ لَفْظِ الظَّهْرِ من الكلام غَيّر المَعْنى.

والمرادُ بِذٰلك هاهُنا على الأظهرِ من التّأويلاتِ الّتي ذكَرْنَاها في كتابِ مَجازات القرآن [4] ـ أن يكونَ: حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَة عن قَهْرٍ وذِلَّةٍ وخِيْفَةٍ ورِقْبَة. فهو نقيضُ قول القائل: أعطيتُه عن ظهرِ يَدٍ، أيّ عن اختيارٍ ومَشِيئة، واستظهارِ قُوّة.

[٥٠] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام [5]:

« اللّهُمَّ إنّي أَحْمَدُكَ عَلَى العِرْقِ السَّاكِنِ وَاللَّيل النَّائِم » [6]، ووَصْفُ اللَّيلِ بِالنَّوم مجاز، لأنَّ النَّوْمَ إنّما يكونُ فيهِ لا مِنه، ولكنّه لمّا كانَ مطيّةً للنَّومِ وظرْفاً لَهُ

= الذهبي ١: ٢٦.

(١) انظر ابن سعد ٤: ٢٤٦، وأسد الغابة ١: ٣٣٨، والدرر ص٢٥١.

(٢) أي خير مما يملؤ ها حتى يطلع عنها ويسيل، أو ما يطلع منها كناية عن عدم رسوخهم في الإسلام.

(٣) التوبة: ٢٩، وانظر أيضاً تفسير القرطبي ٨: ١٠٩.

(٤) هذا الكلام غير موجود في (مجازات القرآن)، المطبوع في مصر، لأنه مفقود إلى الآية ٦٤ من سورة التوبة مع آخر قسم من سورة الأعراف.

(٥) المراد بالعرق الساكن: الطمأنينة وعدم الإزعاج، لأن العروق يكون جريان الدم فيها طبيعياً إذا كان القلب طبيعياً، ويتأثر القلب بتأثر حواس الإنسان فإذا لم يحدث للإنسان إزعاج فعرقه ساكن، أما إذا أزعج أو تأثر فإن القلب يدفع الدم بشدّة في العروق فيظهر أثر ذلك في العروق بالارتفاع والانخفاض، فلا يكون ساكناً في نظر من يراه. والعرق لا يسكن نبضه عن الإضطراب الشديد، ولا يرقأ دمه إلا في حالة السلامة.

(٦) والليل النائم: أي النائم صاحبه، لأن الليل لا ينام، وإنما ينام فيه الإنسان.

حَسُنَ أن يُوصف بِه ويُضافَ إليه، وعلىٰ هذا قولَ جرير[1] :

لَقَدْ لُمتِنا يا أُمّ غَيْلاَنَ في السُّرَى
ونِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِم[2]

[٥١] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3] : « **مَنْ أَكَلَ مِنْ هاتَيْن البَقْلَتَيْنِ فَلاَ يَقْرُبَنَّ مَسْجِدَنا[4]، فَمَنْ كانَ آكِلَهُما لا بدَّ فَلْيُمِتْهُما[5] طَبْخا** ». وهذا القولُ مجازٌ لأنّ الإماتَة على الحقيقةِ لا تلْحَقُ إلاّ ذا حَياةٍ، وإنّما المُراد فليستخرجْ ما فيهما من القُوّة التي عنها تكونُ شِدَّةُ الرَّائِحة المكروهة، بالطَّبْخ؛ تَشبيهاً بالمَيت الذي لا يَبْلُغ إلى مُفارقَةِ الحياةِ إلاّ بعدَ بُلوغ قُوّته مُنْقَطَعها، وتفريقِ الموتِ مُجْتَمعها. وفي روايةٍ أُخرى فَلْيُمِثْهما[6] طبخاً (بالثَّاء) أي: فليطْبُخهُما حتّى تتفتّتا فتنماثا.

[٥٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: [7] « **المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ** ».

وفي رواية أخرى: « **مرآةُ أَخِيه المؤمنِ يَرَى فيه حُسْنَه وقُبْحَه** ».

---

(١) جرير بن عطية بن حذيفة بن الخطفى بن بدر الكليبي اليربوعي، من تميم: أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة سنة ١١٠ هـ.

(٢) ديوان جرير ٢ : ٩٣٣، وهو من قصيدة في ٦٥ بيتاً، وقد جاء ترتيبه سادساً. ومعنى البيت: وما المطيّ بنائمة في الليل، فجعل سهر المطيّ سهراً لليل. وهذا ضدّ ما في الحديث، لأن الذي في الحديث ليل نائم، والذي في البيت ليل غير نائم.

(٣) رواه البخاري ٥: ٤٩٨، ومسلم ٥٦٢، ومالك في الموطأ ١ : ١٧، والنسائي ٢ : ٤٣، وأبو داود برقم ٣٨٢٧. والبقلتان: هما الثوم والبصل.

(٤) ليس أكل الثوم والبصل من باب الأعذار في الانقطاع عن المساجد، وإنما أمرهم بالاعتزال عقوبة لهم ونكالاً، لأنه ﷺ كان يتأذى بريحها.

(٥) أي فليبالغ في طبخهما.

(٦) ماث الشيء ـ موثاً وموثاناً: مرسه بيده حتى تخلّ أجزاؤه، وفي الماء: خلطه وأذابه فيه.

(٧) أخرجه الترمذي مفرّقاً في ثلاثة مواضع برقم ١٩٢٧ و١٩٢٨ و١٩٣٠، وانظر سنن أبي داود برقم ٤٩١٨، وإحياء علوم الدين ٢ : ١٨٠٠.

وهـذا القولُ مجـازٌ واستعارَة. والمـرادُ أنّ المُؤمن النّاصِـحَ لأَخيهِ المُؤمن يُبَصِّرهُ مواقِعَ رُشده، ويُـطْلِعُه علىٰ خَفـايا عَيْبـه، فَيكون كـالمرآةِ لَـهُ ينظرُ فيهـا مَحاسِنَهُ: فيستحِسِنُها ويزدادُ منها، ويَرى مَساوئه فيستقبحُها وينصرفُ عنها.

[٥٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١] :

« اليَمِينُ الْفَاجِرَةُ تَدعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ ».

وهذا القولُ مجازٌ؛ لأنّ اليَمينَ الفاجِرَة علىٰ الحَقيقةِ لا تخرب الدّيار، ولا تُعفّي الآثار، وإنَّما المُراد أَنّ اللّهَ سُبحانَهُ إِذا أقْدَم الحالِفُ علىٰ اليَمينِ الفاجِرَةِ استهانَةً بها واستِغْراراً بالعُقوبَة المُرْصَدِة علَيها قَطع تعالىٰ دابِرَهُ.

[٥٤] ومن ذلك قولـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ في حـديثٍ يختصُّ بصلاةِ الجُمعة[٢] : « تُصَلّى في حَلا قِيم البِلاَد».

وهذا الكلامُ مجازٌ؛ وحلاقيمُ البِلادِ عبارةُ عن نَواحِيها وأَطرافِها والمَداخل إليها؛ فكأنّـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ شَبّـه تلكَ الأَطراف المُفضيـة إلى الأَوساط بالحَلاقِيم التي هي الطُّرُق إلى الأَحشاءِ والأَجْوَاف.

بسم الله الرحمن الرحيم[٣]

[٥٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[٤] :

---

(١) رواه البيهقي ١٠: ٣٥ ـ ٣٦، والقضاعي في مسند الشهاب ١: ١٧٦، وانظر فتح الوهاب ١: ١٠٣، والكنى للدولابي ٥: ١٦٥.

(٢) انظر النهاية واللسان (حلقم)، وهو فيهما من حديث الحسن، ونصه: « قيل للحسن: إن الحجّاج يأمر بالجمعة من الأهواز، فقال: يمنع الناس في أمصارهم، ويأمر بها في حلاقيم البلاد!».

(٣) اعتاد المؤلف في كتابه هذا أن يبسمل بعد كل مرحلة، ولـم يكن ينظـر في ذلك إلـى عدد الأحاديث، ولكن لعله كان يراعي في ذلك بدء الكراريس.

(٤) رواه البخاري ١٤: ١٠٠، ومسلم برقم ٢٢٨٤، والترمذي برقم ٢٨٧٧، وانظر أيضاً مسلم برقم ٢٢٨٥، ومسند الشهاب ٢: ١٧٦.

=

«إنِّي مُمْسِكُ بحُجَزِكُمْ[1] هَلمُّوا[2] عَنِ النَّارِ وتَغْلبُونَنِي، تَقَاحَمُونَ[3] فيها تَقَاحُمَ الفَرَاشِ والجَنَادِبِ[4] وأُوْشِكُ أَنْ أُرْسَلَ حُجَزَكُمْ»[5].

وفي هٰذا الكَلامِ مَجازٌ وتوَسُّع. ذٰلك أنَّ المُرَاد بِهِ أنّه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يبالِغُ في زَجْرِ أُمَّتِه عن التَّقَحُّمِ في المَعاصِي والارتِكاس في المضالِّ والمَغاوِي بشكائمِ[6] المَنْعِ وخَزائم[7] الرَّدْع. فشبه ذٰلكَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بإمساكِ الرَّجُلِ بِحُجْزَةِ صاحِبه إذا كان أن يَسْقُطَ في مَهْواةٍ أو يَرْتَكِسَ في مَفْواة: ليتماسَكَ بإمساكِه وينجُوَ بعد إشفاقِه.

فلّما شَبَّه إحْدٰى الحالَتَيْنِ بالأُخرى أَجْرٰى عليهَا الاسمَ على سَبِيل المَجاز وطريقِ الاتّساع. وحَسُنَ أَن يقولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنّني آخُذِ بحُجَزِكم عن النّار؛ ومُراده: عن الأعمالِ المُؤَدّيةِ إلى دُخول النّار؛ لأنّ السَّبب للشيءِ جارٍ مَجْرٰى نفسِ الشَّيء. ومِمّا يُبَيّنُ أنّ المُرادَ ذٰلِكَ أنَّهُم لم يَكُونوا في حَالِ سماعِهم لِهٰذا الخِطابِ مُتَهافِتين في النَّارِ وإنّما كانُوا في الأَعمالِ التي يَسْتَحِقُّون بِها عَذاب النَّار!

[٥٦] ومما يشبه هذا الخبر ما روى من قوله عليه الصلاة والسلام[8]: **«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ قومٌ بعدَما امْتَحَشُوا وصَارُوا حُمَماً وفحماً»**، فمعنى هٰذا

---

(١) الحجز جمع حجزة، وهي معقد الإزار، وهو الثوب الذي يغطي ما بين السرّة والركبة، والحجزة من السراويل موضع التكة، والمراد بالأخذ بالحجز الشدّ والجذب، لأنها أمكن من الشدّ والجذب.

(٢) هلموا معناها: أقبلوا، والمعنى هنا: أقبلوا إليّ بعيداً عن النار، أو ضمّن هلموا معنى ابتعدوا. وفي الحديث حذف تقديره: أقول لكم، أو قائلاً هلموا. . . .

(٣) التقحّم: الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت.

(٤) الجنادب جمع جُنْدب، وهو طائر كالجراد، يَصِرُّ في الحرّ.

(٥) أي أكاد أهم بعدم جذبكم ومنعكم فأترك المكان الذي أجذبكم منه فتهوون في النار.

(٦) الشكائم: جمع شكيمة، وهي الحديدة في اللجام تكون في فم الفرس.

(٧) الخزائم: جمع خزامة، وهي خطام البعير في أنفه حتى يمتنع عن المشي إذا جذبه راكبه نحوه.

(٨) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (محش، وبعد).

الكلامِ عندنَا أنّهُ يخرجُ من استحقاقِ النّارِ بالتَّوْبَةِ قومُ هٰذِه صِفَتُهم، وهٰذا على طريقِ المجازِ؛ أيّ أنّهُم بأَعْمالِهم المُؤَدّية إلى دُخولِ النَّارِ كمَنْ أحْرِقَ بِضُرَمِها وصار من حُمَمها.

ومعنى امْتَحشُوا: أُحْرِقُوا. والمُرْجِئَةُ[1] يَحْمِلُون هٰذا الخَبر علىٰ ظاهِره، ولا يَفْزَعُون إلى تَأْويله. ومعنى هَلُمّوا عن النَّارِ: أي ارْجِعُوا إلى طاعَةِ اللَّهِ سُبْحانَهُ التي هي الأمانُ من العَذابِ، وجانَبُوا مَعاصِيه التي هي الطَّرِيقُ إلى العِقاب. ومَعْنى (تَغْلِبُونني تَقَاحَمُونَ فِيهَا) أي أنني مَع كثرة الزَّجْرِ لكُمْ والإعْذَارِ إليكُم تَنْفَلِتُونَ وتنَازَعُونَ إلى المُقَبَّحاتِ كما يتَهافَتُ الفَراشُ في الشِّهابِ، والذُّبابُ في الشَّراب!

ومعنى (وأُوشِكُ أن أُرْسِلَ حُجَزَكُم): أي أوشَكُ أن يَطْرُقَني طارقُ المَوت فتفقدون نَهْيِي لكم عَنِ المَعاصي، وأَخْذِي بكم عن طريق المغاوِي، فجعلَ ذٰلك عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمنزلةِ إرسالِ حُجَزِهم، وإلقاءِ أزِمّتهم. وهٰذا مجازٌ ثانٍ.

[٥٧] ومن ذلك قولهُ عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِمُحَلِّم بن جَثَّامَة اللَّيْثيّ[2] في قتلِهِ عامر بن الأضبط الأَشْجَعِيّ[3] وهو مُسلم: «**أَقَتَلْتَهُ في غُرّة الإسلام**»[4] وهٰذِه استعارة.

---

(١) المرجئة ـ انظر: الفرق بين الفرق ص٢٠٢، ومقالات الإسلاميين ١٣٢.

(٢) محلِّم بن جثامة ـ واسمه يزيد بن قيس بن ربيعة الكناني الليثي: صحابي، اشتهر بقتله عامر بن الأضبط الأشجعي؛ لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتاعه. فنزلت فيه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقي إليكم السلام: لست مؤمناً...﴾. الآية ٩٤ من سورة النساء. وقيل إنه مات بعد أيام فلفظته الأرض. أسد الغابة ٥: ٧٦، التجريد للذهبي ١: ٥٤، والسيرة لابن هشام ٢: ٦٢٦، وانظر أيضاً تفسير القرطبي ٥: ٦٢٦، وسنن أبي داود برقم ٤٥٠٣.

(٣) عامر بن الأَضْبَط الأشجعي: صحابي، وهو الذي قتله سريّة رسول الله ﷺ يظنونه متعوذاً بالشهادة. أسد الغابة ٣/١١٧، والتجريد للذهبي ١: ٢٨٢، وسيرة ابن هشام ٢: ٦٢٦.

(٤) سنن أبي داود برقم ٤٥٠٣، من حديث طويل، والسنن الكبرى ٩: ١١٦.

وأراد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغُرّة الإسلام أوّله، تشبيهاً بِغُرَّةِ الفَرس التي هي أَوَّلُ ما يَسْتَقبلها منهُ المُستقبلُ ويَراها المُتَأَمّلُ؛ ولها أَيضاً يَشْتَهِرُ شَيْنه[1] ويَتْمَنُ صُورَتُه[2]، ويقولونَ هٰذا غُرّة الشَّهْر: أي أَوَّلُه لأنَّهُ أوَّلُ عَدِّه، ومَبدأُ مَدْخله. ويقولون: فلانٌ غُرّة قومِه إذا كانَ المنظور إليهِ منهم، والمُعَوَّل عليهِ من بينهِمْ.

[٥٨] ومن ذٰلك قولهُ علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ في مثلٍ ضَرَبَهُ لقُريش يطولُ الكِتابُ بذكره:

« **ويَقْطَعُ النّاسُ في آثارِهِمْ حَتَّى بَقِيَتْ عَجُزٌ مِنَ النَّاسِ عَظِيمةٌ** »، وهذه استعارَةٌ لأنّ المُرادَ بالعَجُزِ هاهُنا مآخيرُ النَّاسِ وعَقابِيلُهم[3] تشبيهاً بِعَجُز النَّاقةِ أو غيرِها من الدَّوابّ، لأنّ أَوَّلَ ما يتحرَّكُ للسَّير هادِيها وعُنقها، ثم يتبعهُ رِدْفُها وعَجُزها. فَسُمِّي القومَ الذينَ يتأَخَّرُون في السَّير أَعجازاً كما سُمِّي المتقدّمونَ أَعْنَاقاً. يُقال: قد طَلعتْ أعناقُ القَوم: أي أَوائِلُهم ومُتَقدِّمُوهم، وجاءَت أعجازُهم: أي أَواخِرُهم ومُثَبِّطُوهم.

وعلىٰ هذا سَمَّوا مُقَدَّمي القَومِ في الوَجاهَةِ والمَنْزِلَة أَعْناقاً ورُؤوساً. وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدَّم.

وقد يجوز أن يكون الحديث المروي: [4]

---

(١) يشتهر: أي يظهر ظهوراً واضحاً، والشَّين: العيب، واللام في لها بمعنى باء السببية، أي بسبب الغُرة؛ أي إذا كان فيها عيب يتضح ويظهر، والغرّة تزين سائر محاسنه.

(٢) تَيْمُنُ: أي تحسن صُورته. وليس المراد باليمن البركة، فيكون نظم الكلام: فتبارك صورته، وإنما المراد الحسن، واستعمل اليمن في الحسن. والفعل يَمُن في أصل معناه: صار ذا يُمْنٍ وبركة.

(٣) العقابيل: جمع عُقْبُول، وهي بقية العلّة والعداوة والعشق، والمراد هنا: مطلق البقية.

(٤) أخرجه مسلم برقم ٣٨٧، وابن ماجة ١ : ٢٤٠ . وأطول أعناقاً: أي أكثر أعمالاً، يقال: فلان عُنُقٌ من الخير، أي قِطْعة، وقال غيره: من طول الأعناق، وهي الرقاب، لأن الناس يوم القيامة يكونون في الكرب، والمؤذِّنون في الروح مشرئبُّون لأن يؤذن لهم في دخول الجنة، وقيل: إنهم يكونون يومئذ =

[٥٩] « يَجِيءُ المُؤَذِّنُونَ أَطْـولَ النَّاسِ أَعْنَـاقاً يَـوْمَ القِيَامَـةِ » : من هٰذا أيضاً. يُريد أَنَّهُم يُوافُون يومَ القِيامة أَوْجَه النّاسِ وُجوهاً ورُؤوساً، فيكون قـولُنا «أَطْول» هاهُنا من الطَّوْل[1] لا الطُّول، ولا بدّ أن يكونَ المراد «بالناس» هاهُنا الخُصوص دون العُموم؛ كأنّهم يكونَون في القِيامَةِ أَوْجَهَ من النّـاسِ الذين هم كالنُّظراء لهم في الطَّبقة مَعهم، لأَنّه لا يَجُوز أن يكونُوا يَومئذٍ أعظمَ وَجاهـةً من النَّبِيّين والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصَّالِحين.

[٦٠] ومن ذلك قولُه عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِعثمان بن مَظْعـون[2] رحمه الله لما أراد الاختصاءوالسِّياحة[3] : « خِصَاءُ أُمّتي الصِّيامُ ».

وهـذا القولُ مَجـازٌ لأَنّه عليـه الصَّـلاةُ والسَّـلامُ أَراد: أنّ الصِّيـام يُمِيتُ الشَّهـواتِ، ويشغَلُ عن اللّذّات، كمـا أَنّ الخِصاء في الأَكثـر يكسِرُ النَّـزْوَة[4] ويقطَعُ الشَّهوة.

[٦١] ومما يُؤَكّد ذٰلك، الخبرُ الآخرُ المرويُّ عنهُ عليه الصَّلاة والسَّـلامُ قال[5] : :

= رؤ وساً ومقدَّسين، والعَرب تصف السادة بطول الأعناق، وروي إعناقاً بكسر الهمزة، أي إسراعاً إلى الجنة، وهو العنق، وهو ضرب من سير الإبل سريع.

(١) الطَّوْل: الطاقة والفضل.

(٢) عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي، أبو السائب: صحابي، كان من حكماء العرب في الجاهلية، يحرم الخمر وأسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، واردا التبتل والسياحة في الأرض زهداً بالحياة، فمنعه رسول الله ﷺ. وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين سنة ٢ هـ. الإصابة ت ٥٤٥٥، وأسد الغابة ٣: ٥٩٨، والعقد الثمين ٦: ٤٩، والسير ١: ١٥٣.

(٣) انظر المسند ٢: ١٧٣، والفتح الكبير ٢: ٨٧، وكنز العمال ٨: ٢٣٥٩٨، والحديث عندهم وتتمته: « خصاء أمتي الصيام والقيام ».

(٤) النزوة هنا: الرغبة في الجماع.

(٥) رواه البخاري ٤: ١٠٦، ومسلم برقم ١٤٠٠، وأبو داود برقم ٢٠٤٦، والترمـذي برقـم ١٠٨١، والنسائي ٤: ١٦٩ و٦: ٥٦ و٥٧، وانظر السنن الكبرى ٤: ٢٩٦ و٧: ٧٧.

« من استطاعَ منكمُ البَاه فلْيَتزوَّجْ، ومن لم يَسْتَطِعْـهُ فَلْيَصُمْ فإنّ الصَّـوْمَ وِجَاءٌ ». وَالوِجاءُ: الخِصاء[1].

وسمعتُ شيخنا أَبا بكر محمد بن مُوسٰى الخُوَارَزْميّ[2] عفا الله عنهُ ـ يقولُ في أثناء قراءتي عليه، وقد اعترضَ ذكرُ الخِـلافِ في وُجوب النِّكـاح ـ: يُمكن الاستدلالُ بِهٰذا الخبرِ على أن النِّكاح غيرُ واجب خِلافاً لـداود[3] فإنَّهُ يقولُ: إنّهُ واجبٌ علىٰ الرَّجُلِ مُرّة في عُمره؛ قال: وموضعُ الاستدلال منه أنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نَقل النِّكـاح إلى الصَّومِ، وجَعـل الصَّوْمَ بـدلاً منه. والأَبـدالُ حُكْمُها حكمُ المُبْدَلات.

فلو كانَ الأَصلُ واجِباً كانَ بَدَلُه كذلك كالتيّمم والماءِ. وأَبدالُ الكَفّاراتِ مِثْلُها، فلو كانَ الصَّومُ الذي هو بَدلٌ من النِّكاح غيرَ واجبٍ دَلَّ على أنَّ المُبْدَل أَيضاً وهو النِّكاح غيرُ واجِب.

[٦٢] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأَميـرِ المُؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[4]: « **إنَّ لَكَ بَيْتاً وَإِنَّكَ لَذُو قَرْنَيْهَا** ».

---

(١) في التاج (وجأ): « وقيل: الوجْيءُ: المصدر، والوجاء: الاسم. وفي حديث الصوم: « إنـه له وجاء» ممدود. فإن أخرجهما من غير أن يرضّهما فهو الخصاء، تقول منه: وجأت الكبش ».
وقال ابن الأثير من جامع الأصول ١١ :٤٢٨ : « الوجاء: نوع من الخصاء، وهو أن ترضّ عروق الأنثيين، والمراد: أن يقطع شهوة الجماع».

(٢) أبو بكر الخوارزمي البغدادي محمد بن موسى: المفتي العلاّمة، شيخ الحنفية في عصره، وتخرج به فقهاء بغداد. وما شاهد الناس مثله في حسن الفتوى والإصابة فيها وحسن التدريس، وقد دعي إلى القضاء مراراً، فامتنع، توفي في بغداد سنة ٤٠٣ هـ. تاريخ بغداد ٣: ٢٤٧، والجواهر المضيئة ٢: ١٣٥، والسير ١٧: ٢٣٥.

(٣) هو داود بن رُشَيْد، أبو الفضل الخوارزمي، البغدادي، إمام، محدّث، حافظ ثقة، رحّال جوّال، وكان من أئمة الأحناف في عصره. وروى عنه مسلم وأبو داود وابن ماجـة، وروى له البخـاري والنسائي. سكن بغداد وتوفي فيها سنـة ٢٣٩ هـ. تاريخ بغـداد ٨: ٣٦٧، والجواهـر المضيئـة ٢: ١٨٦، والسير ١١: ١٣٣.

(٤) انظر المسند ١: ١٥٩، وكنز العمال ٥: ١٣٦٣٩، والفائق والنهاية واللسان والتاج (قرن). ورواية =

وهـذه استعارةٌ، لأنّ المُـرادَ: إنّك ذو قَـرْنَيْ الأُمَّه، فكـأنّهُ عليـه الصَّلاةُ والسَّلام قال: وإنكَ رأسُ هٰذِه الأُمَّة، لأَنَّ الرّأسَ هـو ذُو القَرْنين، لأنّ القَـرْنين إنما يكُونان فيه ويَظْهرانِ عَليه. وهٰذا الخبر على هٰذا التأويل من الأَخبار الدّالَّةِ على أَنَّ أميرَ المُؤمنين عليه السَّلام أفضلُ النّاسِ بعدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَليهِ وآلِه، إذْ كانَ رأسَ أُمَّتِهِ ورَئيسَ أُسرته.

ومثل قوله عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ «لَذُو قَرْنَيْها» في أنّ المُراد بِهِ الأُمّة وإن لَمَ يجْرِ لها ذكرُ قَوْلُه تَعالى[1]: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وقولُه سبحانه[2]: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ من أَقْطَارِهَا﴾، في أنّ المُرادَ الشّمس؛ والمَدِينة؛ وإن لم يَجْر لَهُمَا ذِكر.

وقد قال بعضُهم[3]: المُرادُ بهٰذا الخَبرِ أَنّك في هٰذِهِ الأُمَّةِ كَـذِي القَرْنين في أُمَّتِه. وعلىٰ هٰذا التَّأويل أيضاً لابدَّ من تسليمِ الرِّياسةِ لهُ على كافَّتِهم، لأنَّ ذا القَـرْنَين كـان مسْتَتْبعـاً ذِمّـة المُلوك كُلّهم والعَـالِيَ بـالقُـدرةِ والبَسْطِ على جَماعتهم.

هذا إن كانَ ذُو القرنين هو الإسكَندر الرُّومي[4] على مـا يقولُـه بعضُهم،

= المسند هي: «إن لك كنزاً من الجنة وإنك ذو قرينها». وأما رواية كتب اللغة فهي: «أنه قال لعليّ: إن لك بيتاً في الجنة، وأنك ذو قرنيها». وقال ابن الأثير: «أي طرفي الجنة وجانبيْها. قال أبو عبيد: وأنا أحسب أنه أراد ذو قرني الأمة، فأضمر. وقيل: أراد الحسن والحسين».

(١) الاية ٣٢ من سورة صٓ. وانظر تفسير القرطبي ١٥: ١٩٢. وقال القرطبي: «يعني الشمس كناية عنغير مذكورة، مثل قوله تعالىٰ: «ما تَرَكَ على ظهرها من دابّة»، أي على ظهر الأرض؛ ويقول العرب: هاجت باردة؛ أي هاجت الريح باردة. وقال الله تعالى: «فلولا إذا بلغت الحُلْقُوم» أي بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: «إنها ترمي بشرر كالقصر» ولم يتقدم للنار ذكر....».

(٢) الآية ١٤ ـ الأحزاب ـ وانظر تفسير القرطبي ١٤: ١٤٩. وقال القرطبي: «وهي البيوت أو المدينة؛ أي من نواحيها وجوانبها، الواحد قُطْر، وهو الجانب والناحية».

(٣) وبه أخذ الزمخشري في الفائق (قرن).

(٤) انظر تاريخ الطبري ١: ٥٧٢، والمسعودي ١: ٣١٨، ودائرة المعارف الإسلامية ٣: ٣١٨، وتفسير القرطبي ١١: ٤٥.

وإن كانَ اسْمَ نبيٍّ من الأنبياءِ على ما يَقُولـه الآخَـرُون فمـوضـعُ الاحتجـاجِ بالفضْلِ أيضاً موجـودٌ؛ لأنّ ذلك النبيَّ في دهـرِه كان أفضـلَ أُمّتِهِ وخيـارَ أَهْلِ دَعْوَتِه.

وقد رُوِي عن أَمير المؤمنين عليه السَّلامُ أنه قال ـ وقـد ذُكِر ذُو القَـرنين ـ فقال[1]: دعا قومَهُ إلى عبادَةِ اللَّهِ فضَربُوه على قَرْنَيهِ ضَرْبَتين، وإنّ فيكم لِمَثْله؛ فتـرى أَنَّهُ عليـه السَّلامُ أرادَ بهـذا القولِ نَفْسَـهُ: أَيْ أنا أدْعُـو إلى اتّبـاع الحَقّ وسَأُضرب علىٰ رَأسي ضَربتَين تكونُ فِيهما مَنِيّتي فأكون كَذِي القَرْنَين.

وقد يجوزُ أن يكـون النبيُّ عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ أراد بقـوله: وإنَّـكَ لَذُو قَرْنَيها هذا المعنى. واللَّهُ أعلم.

وقال بعضهم: أنّهُ عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمّا ذكرَ في أَوّلِ الكلامِ الجَنَّـةَ قال: وإنَّك لذُو قَرْنَيْها، يُريد قَرْنَي الجَنّة: أي طَرَفيها، فكأنّهُ وَصَفَهُ بِبُلوغ غاياتِ المُثَابين فِيها؛ وفي هٰذا القَوْلِ بُعْدٌ.

وحُكِي عن ثَعلب[2] أنه سُئل عن هٰذا الحديث، فقال: أَراد عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنك لذو جَبَلَيْها، يَعني الحَسَن والحُسَين عليهما السلام[3].

قال: وَيَجُوز أن يكونَ قولُه: «ذو قَرْنَيْها» يريد به طَرَفي الأُمّة: أي أَنْتَ في أَوّلها، والمَهْدِيُّ من وَلَدِكَ في آخِرها.

---

(١) قال الزمخشري في الفائق ٣: ١٧٣ (قرن): « وتفسيره فيما يروى عن عليّ رضي الله تعالى عنه: إنه ذكر ذا القرنين فقال: دعا قومه إلى عباده الله فضربوه على قرنيه ضربتين، وفيكم مثله، يعني نفسه الظاهرة؛ لأنه ضرب على رأسه ضربتين؛ إحداهما يوم الخندق، والثانية ضربه ابن ملجم ».

(٢) هو أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب: إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان راوية للشعر، محدّثاً، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة. ولد ومـات في بغداد سنة ٢٩١ هـ. تاريخ بغداد ٥: ٢٠٤، وابن خلّكان ١: ١٠٢، وإنباه الرواة ١: ١٣٨.

(٣) وهو ما أخذ به ابن الأثير ٤: ٥٢ (قرن)، نقلاً عن أبي عبيد.

قال ويَجُوز أن يكون ذلك مِنْ قوله: عَصَرْتُ الفَرَسَ قَرْناً أو قَرْنَين: أي استَخْرَجْتُ عَرَقه بالجَرْي مَرَّةً أو مَرَّتين؛ فكأنّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ذو اقتباسِ العِلْمِ الظّاهِرِ واستِخْراجِ العِلم البَاطِن.

والاعتمادُ على ما قَدَّمْنا ذِكْرَهُ من التَّأويلِ الأَوّل؛ وهو من استِنْباطي.

[٦٣] ومن ذلك قولُه عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]:

« **أخَافُ عَلَيْكُمْ إذا صُبَّت الدُّنْيا عَليكم صَبّاً** ».

وهذا استعارةٌ لأَنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أراد: غَمرتْكُم الدُّنيا بمنافِعِها وعَمَّتْكُم بفوائِدِها وعَوائِدها، فشبَّه كثرةَ ذلك بالوَبْلِ الغَزير المُنْصَبِّ على الإنسان في أنّه يَبُلُّه بِدَمغاتِه ويَغْمرُه من جَميعِ جِهاته. ومثلُ ذلك: انْغَمس فلانٌ في الدُّنيا انْغِماساً؛ إذا كَثُر التباسُه لَها، وعَظُم أَخْذُه مِنها تَشْبِيهاً لها بغَمرةِ المَاءِ إذا خاضَها الخَائِضُ، أو غَمسَ فيها الغَامِس.

[٦٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢]: « **كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ** ».

وهذه استعارةٌ؛ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُرِد حقيقةَ الزِّناءِ المَذْمُوم؛ وإنّما أرادَ أنّ كلَّ عينٍ لابُدّ أن تكونَ لها طَمْحَةٌ إلى حُسْنٍ أو طَرْحَةٌ إلى أرَب. وإن كانَ ذو التَّقوى يكبَحُ نفسه بالشَّكِيم ويَعْرُكُ[٣] شَهْوَتَهُ عَرْكَ الأَدِيم[٤]، ولا يكونُ نظَرُه إلاّ فَلْتَةً، ولا تتبعُ النظرةُ النّظرةَ كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

---

(١) المسند ٥: ١٥٣، و١٥٥ و١٧٨ و٣٦٨ و٦: ٢٤.

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٧٨٧، وأبو داود برقم ٤١٧٤ و٤١٧٥، والنسائي ٨: ١٥٣. وروايته عندهم: « كلُّ عين زانية، وإن المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا ـ يعني زانية ».

(٣) يعرك: يفرك ويدلك ليجعلها هادئة غير شديدة.

(٤) الأديم: الجلد، وإذا داك الجلد صار ناعماً وذهبت خشونته كما تذهب خشونة الشهوة.

وقد قال الشاعر[1]:

نظرتُ إليها بالمُحَصَّب من مِنىً ولي نَظرٌ لولا التَّحَرُّجُ عارِمُ[2]

فوصفَ النَّظَرُ بالعُرَام[3] في هٰذا الشّعر كوصْفِ العَيْن بالزِّنَا في هٰذا الخبر.

[٥٦] فأما الحديث الآخر، وهو قولُه عَليه الصَّلاةُ والسّلام[4]: « القُسْطَنْطِينيَّةُ الزانيةُ »، فالمرادُ بهِ الزَّاني أَهْلُها، وذلكَ كما جاءَ في التَّنزيلِ من ذِكْرِ القُرى؛ مثل قوله تعالى:[5] ﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمةً، . . . . وقريةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ أي أهلها ظالمون وأهلها آمنون. وذلك في القرآن كثير.

[٦٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

« لا يَلْقَى اللَّهَ عَبْدٌ لمْ يُشْرِكْ بالله شيئاً ولَمْ يَتَنَدَّ بِدَمٍ حَرَامٍ إلَّا دَخَلَ مِنْ أيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شاءَ ».

فقوله عليه الصلاة والسلام: « ولم يَتَندَّ بدمٍ حَرام » مجازٌ؛ لأنه أراد لم يُصب دماً حراماً؛ ومن قولهم: ما نَدِيتُ من فُلانٍ بشيءٍ: أي لم أُصب منهُ شيئاً، فجعل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الذي يسفكُ الدّمَ مُتَندِّياً به، وإن كان لم يُباشِر

(١) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب: أرق شعراء عصره ولم يكن في قريش أشعر منه. مات غرقاً سنة ٩٣ هـ. وله ديوان مطبوع. الأغاني ١ : ٦١، والخزانة ٢ : ٢٧، والسير ٤ : ٣٧٩.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٢٢.

(٣) العرام: الحدّة.

(٤) النهاية لابن الأثير ٢ : ٣١٧ (زنا).

(٥) الآية ١١ من سورة الأنبياء، وانظر تفسير القرطبي ١١ : ٢٧٣، والآية ١١٢ من سورة النحل، وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ١٩٣.

(٦) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (ندي).

سَفكه بنفسِه؛ لأنّ الأَعلب فيمن يَتولّى سَفْكَ الدَّمِ مباشراً أنْ يُصيبَهُ منـهُ بَلل، ويَشهد عليه أَثر. وعلى هذا فول الشاعر[1]:

تَبَـرَّأ مِنْ دمِّ القَتِيـلِ وبـزِّهِ وَقَدْ عَلِقَتْ دَمَّ القَتِيلِ إِزَارُهَا[2]

ولم يكن هناكَ على الحقيقة أثَرُ دَمٍ عَلقت[3] الإزار، وإنما أَخرجه الشّاعر علىٰ الوجهِ الذي ذَكرناه. فكأنّه جعلَ القاتِلَ وإن لم يَظهر عليهِ شاهِدُ الدَّم كمن ظَهرت عليهِ شَواهِدُه النّاطقة، ودلائلهُ القاطعة؛ لقوّةِ الأماراتِ التي تَشهدُ بفعله وتعصّب الأمرِ به، وهذا[4] المَعنى أيضاً أراد جرير بقوله[5]:

وقـلتُ تَـضَـاحَـةً لـبـنـي عَـدِيٍّ
ثـيـابَـكـمُ ونَـضْـحَ دَمِ الـقـتـيـلِ[6]

فكأنّه خاطب قَومـاً ونهاهُم عن أَن يَقِفُـوا موقفَ الـظِّنةِ ويَنـزلوا منـزلَ التُّهمة[7] ليتبرؤوا من دَم قتيلٍ اتّهموا بنفسِه وقُرِفوا[8] بِقَتْله.

[٦٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[9]:

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد بن محرِّث، من بني هذيل بن مدركة، من مضر: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والاسلام وسكن المدينـة، واشتـرك في الغـزو والفتـوح، مات بمصر، وقيل مات بافريقية نحو سنة ٢٧ هـ. الأغانـي ٦: ٢٦٤، والخزانـة ١: ٣٨١، ومعاهـد التنصيص ٢: ١٦٥.

(٢) انظر شرح أشعار الهذليين ١: ٧٧.

(٣) المفعول به محذوف، والتقدير علقته الإزار.

(٤) هذا: مفعول به مقدم لأراد.

(٥) سلفت ترجمته ص ٧١.

(٦) ديوان جرير جزء ٢ ص ٧١٩.

(٧) التُّهَمةُ: الاتهام وما يتّهم عليه، ومثله التُّهْمَة.

(٨) قرفوا: اتهموا.

(٩) في صحيح مسلم ٨: ٤٠، « قال: لقد احْتَضَرْتِ بحِظَارٍ شديدٍ من النارِ »، وانظر مثله في المسند ٢: ٤١٩ و٥٣٦، والنهاية واللسان والتاج (حظر).

«مَنْ فَعَلَ كذا وكذا فقدَ احتُظِرا من النَّار بحِظَار».

وهذا القولُ مَجازٌ؛ والمرادُ أَنه من فَعل ذلك فقد احْتُجِزَ من النّار بحاجِز، والحِظارُ: الحائطُ المُستدير علىٰ الشّيء. فَجعَل عليه الصّلاةُ والسّلامُ المتباعِدَ عن الفَعْلةِ التي تُوجب دخولَ النّار كَمن ضُرِبَ بينَهُ وبَينها سِياجٌ، وأُغلق عليه رِتاج[1]. والحِظارُ والحظيرةُ بمعنىً واحد[2]. وهو حَظار بفتح الحاء[3]، والجمعُ أَحظرة. كما يُقال دِوار والجَمع أَدْوِرَة.

[٦٨] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[4]: «اغْتَرِبوا لا تُضْوُوا».

وهذا استعارةٌ، والمُراد انكحُوا في الغَرائِب، ولا تنكحُوا في القَرائب؛ لأنّهم يقولون: الغرائبُ أَنجب[5]، والضَّوَى: ضُؤولَةُ الجِسم ودِقَّتُهُ، ويُقال: أَضْوَت المرأةُ: إذا أتتْ بولدٍ ضَاوٍ، كما يُقال أَذْكَرت إذا أتَت بولدٍ ذكر، وكانُوا يعتَقِدُون أنّ القَريبة تُضوي كما أن الغَريبة تُدْهِي: أي تَأتي بالولَدِ دَاهية[6].

وقال الشاعر[7]:

فتىً لم تَلِدْه بنتُ عَمٍّ قَريبةٌ فتُضْوي وقد يَضْوَى رَدِيدُ القرائب[8]

---

(١) الرِّتَاجُ: الباب العظيم، والباب مطلقاً.

(٢) في التاج (حظر): «والحظيرة: المحيط بالشيء سواء كان خشباً أو قصباً... والحِظَار؛ ككتاب: الحائط. وكل ما حال بينك وبين شيء فهو حِظار وحَظارٌ...».

(٣) أي يجوز فتح حائه. وفي التاج (حظر): «ويفتح كالجَهَاد والجِهاد».

(٤) الفائق والنهاية واللسان والتاج (ضوى). والامتاع ١ : ٩٤.

وقال ابن الأثير: «أي تزوّجوا الغرائب دون القرائب، فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القريبة. وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولداً ضعيفاً. فمعنى لا تُضْوُوا: لا تأتوا بأولاد ضاوين: أي ضعفاء نحفاء، الواحد: ضاوٍ.

(٥) أنجب: أفعل تفضيل من النجابة، والولد النجيب: الكريم الحسيب.

(٦) اي جيد الرأي والأدب.

(٧) في الإمتاع والمؤانسة ١ : ٩٤: «أنشد الأصمعي عن العرب قول قائلهم في مدح صاحب له». ومثله في اللسان والتاج البيت بلا نسبة.

(٨) انظر البيت في الامتاع والمؤانسة ١ : ٩٤، ورواية الشطر الثاني على الشكل التالي:

وقال الآخر[1] :

وأَتـركُ بنتَ العَمِّ وهي قـريبـةٌ   مَخافةَ أَن تُضْوِي عليَّ سَلِيلِي

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « **اغْتَرِبُوا** » عبارة عن هٰذا المعنى من أحسنِ العباراتِ؛ لأنّهُ جعل التَّباعُدَ عن المُنكح في العَشيرة والبيتِ والذّهابِ به إلى غَير السِّنْخ[2] والأصل بمنزلةِ الرَّجُل المُغترب الذي يُوطِن[3] غَيْرَ وَطنهِ ويَسكُن غيرَ سَكنه.

[٦٩] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[4] : « **خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرةٌ لعين نائمة** »، وهٰذه استعارةٌ لأنّ المُرادَ بذلكَ عينُ الماءِ الجاريةِ التي لا يَنقطعُ جَرْيُها ليلاً كما لا ينقطع نهاراً، فسماها « ساهرةً » لهذا المعنى؛ لأنّها في ليلِها دائبةٌ وعينُ صاحِبها نائمـة، ولفظُ السَّهر في هٰـذا الكلام أحْسَنُ مـا جُعل بهـذا المعنى متلَبِّساً[5] وصُبَّ عليها مُلبساً[6].

[٧٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7] : « **كُـلُّ هَوىً شـاطِنٍ في**

= فَيَضْوَي وقد يَضْوَى رِدِيْدُ الأقارِب

واللسان والتاج (ردد)، ورواية الشطر الثاني فيهما على الشكل التالي:

فَيَضْوَى وقد يَضْوَى رَدِيْدُ الغرائبِ

وأما رواية الزمخشري في الفائق فهي كرواية الشريف للبيت ما عدا كلمة (فَتُضْوِي) وهي عنده (فيضوي) وجاءت رواية الشريف نفسها في اللسان والتاج في مادة (ضوى).

(١) سليلي: الولد الذي خرج من صلبي، ومن ذلك السيف السليل والمسلول: الذي خرج من قرابه.

(٢) السِّنْخ: الأصل.

(٣) أي الذي ينزل وطناً غير وطنه فيكون غريباً فيه.

(٤) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (سهر). وقال الزمخشري: « أي هو راقد، وهـي تجـري لا تنقطع ».

(٥) أي مختلطاً به ومستعملاً في معناه.

(٦) الملبس: اللباس، وجعل الشريف لفظ السهر كأنما ألبسه المعنى المراد، وهو دوام جريان العين.

(٧) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (شطن).

وقال ابن الأثير في النهاية: « وفي الكلام حذف مضاف تقديره: كل ذي هوى، وقد روي كذلك ».

النَّار»، وهذا مجازٌ؛ لأنّه وصَف الهَوى بالشُّطون وهو البُعد، وأراد به تباعُدَ صاحِبه عن الرّشد، وترامِيه إلى الغَيّ. وقال أبو عُبَيْدة: الشَّاطِنُ هاهُنا المُعْوَجُّ عن الحَقّ، والهوى على الحقيقةِ ليس بِجْسمٍ فيُوصفَ بالقُرب والبُعد والزَّوال واللّبث. وسمّيَ الشيطانَ شيطاناً لأنه شَطَن عن أَمرِ رَبّه أو أَبعد في مَذاهِب غيّه، ومنه قيل «نَوًى شَطُونٌ» «وبئر شَطُونٌ». ومن ذلك سُمّي الحَبلُ شَطَنا لأَنه يبلغ القَعْرَ العَميق والماءَ والبعيد.

وفي هذا الخبر أيضاً مجازٌ آخر، وهو أنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جعَل الهوى الشّاطن في النّارِ، ومُراده صاحبَ الهَوى الشّاطن، وهو الّذي يمتدُّ به هَواهُ فيقذِفُه في المضَالّ ويحملُه علىٰ المَزالّ.

[٧١] ونظير هذا: الخبرُ الآخر، وهو قوله عليه الصلاة والسلام[١]:
«**عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ البِرِّ وَهُمَا فِي الجنَّةِ، وإياكم والكَذِبَ فإِنَّهُ مَعَ الفُجُورِ وَهُمَا في النَّارِ**».

وأراد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صاحبَ الصِّدق والبِرّ، وصاحبَ الكَذِب والفُجور.

[٧٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[٢]: «**كَيْفَ بِكُمْ وبزمان يُغَربَلُ الناسُ فيه وَيَبْقَى حُثَالَةٌ من الناس قَدْ مَرِجَتْ عُهودُهُمْ وأَمَانَاتُهُمْ**».

وهذه استعارةٌ؛ والمرادُ أنّهم يُتَنَقّى خَيارُهم فيَهْلِكون بالقَتل السَّريع، والموتِ الذَّريع كما يُغَرْبَل الحَبُّ بالغِرْبال فيسْقُط قشبُه[٣] وصِغارهُ ويبقى

(١) رواه البخاري ١٠: ٤٢٣، ومسلم برقم ٦٠٦، و٢٦٠٧، ومالك في الموطأ ٢: ٩٨٩، وأبو داود برقم ٤٩٨٩، والترمذي برقم ١٩٧٢.

(٢) رواه أبو داود برقم ٤٣٤٢، وابن ماجه ٢: ١٣٠٧، وأحمد في المسند ٢: ١٦٢ و٢١٢ و٢٢٠ و٢٢١.

(٣) القِشْب: الناعم، والقذر أيضاً (يعني ما خالط الحبّ الخالص من زؤان وما شابهه).

جِـلاله [1] وخِيـارُه. وقد قيـل: إن الغَربلة اسم للقَتْـلِ خصوصـاً، ومنـه قـول الشاعر [2]:

تَـرَى المُلُوكَ حَـوْلَـهُ مُغَـرْبَلَهُ ... يَقْتُلُ ذا الذَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهْ [3]

أي مُقَتّلَةَ؛ والقول الأول أشْبَهُ بالمُراد وأليقُ بـالصَّواب. وقـد تكلّمنا فيمـا تَقَدَّم على قـولـه عليـهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ: « ويَبْقى حُثـالـةٌ من النَّـاسِ قـد مَـرِجَتْ عُهودُهم » [4].

[٧٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [5] وقد سئل:

[أيُّ الأعمـال أفضـلُ؟ فقـال: أَلْحَـالُّ المُـرْتَحِـلُ. قيـل: ومـا الحـالُّ المرتحلُ؟ قال: الْخَاتِمُ المُفْتَتِحُ ».

---

(١) الجلال: جمع جليل، وهو الكبير.

(٢) هو عمرو بن ذكوان الحضرمي الشاعر الجاهلي كما في معجم الشعراء، وأما في سيرة ابن هشام ١: ١٠١، والروض الأنف ١: ١٢٥، ومعجم ما استعجم فهو عامر الخَصَفِيّ، وفي العقد ٥: ١٦٦، هو عمرو بن قيس الجشمي، ونسب في أنساب الأشراف: ٤: ١: ٣٣٦ لنصيب الشاعر وليس في ديوانه المجموع والمطبوع في العراق.

(٣) البيتان في أنساب الأشراف ٤: ١: ٣٣٧، والمفضليات شرح ابن الأنباري ١٠١، وسيرة ابن هشام ١: ١٠١، وشرحها في الروض الأنف ١: ١٢٥، ومعجم ما استعجم ٢: ٦٣٥، والاشتقاق ٢٩٠، والأغاني ١٥: ٧٩، والعقد ٣: ٣٥٢ و٥: ١٥٩ و١٦٦، واللسـان والتـاج (دعبـل، غربـل)، والمخصص ٦: ١١٤.
والبيت الأول في معجم الشعراء ٢٥، والمقاييس ٢: ٥٠٩، وجاءت لفظة (مغربلهْ) في بعضها (مرعبلة). والمغربلة: المستأصلة، والمرعبلة: المقطّعة. والبيتان من أرجوزة طويلة كمـا في اللسان والأغاني وشرح المفضليات ومعجم الشعراء، أولها:
* أحيا أباه هاشمُ بن حَرْمَلَهْ *

(٤) سبق بيان ذلك في الكلام على الحديث النبوي: « كيف أنتم إذا مرج أمر الدين... » [ص: ٥٢]

(٥) رواه الترمذي برقم ٢٩٤٩، والدارمي ٢: ٤٦٩، وروايته عندهما: « عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال: الحالُّ المرتَحِلُ ـ قال: وما الحالُّ المرتحل؟ قال: الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حلَّ وارتحل ».

وفي هذا الكلامِ مَجازٌ؛ لأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنما أرادَ المُداوِمَ لِتلاوةِ القُرآن، فهو يختمُ ويَفتتحُ وَيُتِمُّ ويَستأنف؛ فشبّهه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالمُسافِرِ المُجِدّ بينا ينزلُ حتّى يرتحلُ، وبينا يسيرُ حتى ينزلَ؛ فشبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ختم التلاوةِ بنُزولِ المنزل، وشبه استئنافها بسَيْر المرتحل؛ وجَعله مُستمّراً علىٰ هٰذهِ الطّريقةِ أبَداً لا يرمِي إلى غايـةٍ ولا يقفُ عند نِهـاية. وقـد قيلَ إن المُـراد بذلك: المجاهدُ في سبيلِ اللّهِ الذي يغزُو ويُعْقب، ويَقْفِل[١] ويُعاود. والقول الأول أظهرُ عند العُلَماء، وأوْغَلُ في مذاهب الفصحاء[٢].

[٧٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[٣]:

« **إنَّ قَوْماً يُضْفَزون الإسلام ثم يَلْفِظُونَهُ** ».

وهذا القولُ مجازٌ؛ لأنّ المُرادَ أنّهم يُلقَّنون الإسلام ويُعَلَّمونه فيتنـاسَوْنَـهُ ويفارِقُونه كالذي يلقم الشيء، فَيْدسَعُ به[٤] ولا يُسِيغُه إلى جوفه.

---

(١) يقفل: أي يرجع، ومن ذلك سميت القافلة لجماعة الإبل المسافرة، تفاؤلاً بأنها سترجع إلى وطنها سالمة بعد سفرها.

(٢) انظر في ذلك الفائق، والنهاية، واللسان، والتاج (حلل).

قال ابن الأثير: « وكذلك قُرَّاء أهل مكة إذا ختموا القرآن بالتلاوة ابتدأوا وقرأوا الفاتحة وخمس آيات من أول سورة البقرة إلى « وأولئك هم المعلمون »، ثم يقطعون القراءة، ويسمون فاعل ذلك: الحالّ المرْتَحِل، أي ختم القرآن وابتدأ بأوّله ولم يفصل بينهما بزمان ».

(٣) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (ضفز)، بالزاي، وجاء في الفائق: « وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي رضي الله تعالى عنه: ألا إن قوماً يزعمون أنهم يحبونك يُضْفَزُون الإسلام، ثم يلقطونه، ثم يُضْفَزُونه، ثم يلفظونه ثلاثاً ولا يقبلونه ». والضَّفْز: التلقيم، والضفيزة: اللقمة الكبيرة. وفي القاموس: الضفز: لقم البعير، والضفيزة: اللقمة العظيمة. وقال ابن الأثير والزبيدي في النهـاية والتاج تعليقاً على الحديث: « معناه: يُلقَّنُونَه ثم يتركونـه فلا يقبلونـه ». * وقـد تحرفـت كلمـة (يضفزون، وهي بالزاي) في مطبوعات الكتاب جميعها إلى (يضفرون بالراء) وهـو تحـريف قبيح، وكذلك هي حيثما جاءت في كلام الشريف الرضي، وانظر في ذلك جميعـاً تاج العـروس (ضفز).

(٤) دسع يدسع ـ دسعاً ودسوعاً البعير بجرّته: دفعها حتى أخرجها من جوفه إلى فيه دفعة واحدة. ودسع =

وذلك، مأخوذٌ من قولهم : ضَفَزْتُ البعيرَ بالفاء وليس بالغين : إذا لَقَّمتهُ لُقَماً عِظاماً : وقد يجوزُ أن يكونَ مأخوذاً من قولهم : ضَفَـزَ الرَّجُـلُ الدَّابـة يَضْفِزُها ضَفزاً : إذا ألقى الّجامَ في فِيها، والمَعنيان متقاربان.

[٧٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [١] :

« **يَمِينُ اللَّهِ مَلأَى سَحّاء، لا يُغِيضُها السيلُ والنهارُ** ».

وهذه استعارةٌ لأنّ المُرادَ باليَمين هاهُنا نعمةُ الله ، ووصَفَها بالامتلاءِ لكثرةِ منافِعها وعُمومِ مَرافِدها؛ فجَعلها كالعَيْن الثرّة[٢] التي لا يُفِيضُها المَوائِح [٣]، ولا تنقصها النَّوازح [٤].

والسَّحُّ : شدة المطر، يقال سَحَّتِ السَّماءُ سَحّاً إذا جادت جَوْداً، وخصَّ اليمينَ لأنّها في الأكثرِ مظنَّةُ العَطاء ومُوصلة الحِباء[٥] ، على طريق المجازِ

= الرجل بقيئه : رمى به . والتقدير في كلام الشريف : يلقم الشيء : أي يوضع الشيء في فيه، فيدفع به ويرميه من فيه .

(١) رواه البخاري ٨ : ٢٦٥ ، في تفسير سورة هود و١٣ : ٣٤٧ ، ومسلم برقم ٩٩٣، والترمذي برقم ٣٠٤٨، وأحمد في المسند ٢ : ٢٤٢ و٣١٣ و٥٠٠ وهو حديث طويل وروايته فيها تختلف عن رواية الكتاب وأوله فيها : « يد الله ملأى . . »، ورواية ابن ماجه ١ : ٧١ في المقدمة ، وهي تشبه رواية الشريف ، ونصها :

« يمينُ اللَّهِ مَلْأَى. لا يَغِيْضُها شَيءٌ. سَحّاءُ الليلَ والنهارَ. وبيدِهِ الأُخْرى الميزانُ، يرفَعُ القِسْطَ ويخفض. قال : أرأيتَ ما أنفَقَ مُنْذُ خلق الله السموات والأرض؟ فإنه لم ينقصْ مما في يديه شيئاً ».

ويفيضها في الحديث : الفيض : النقص، وغاض الماء يغيض : إذا نقص ، أي لا ينقصها شيء من كثرة العطاء . وسحّاء : من سحّ المطر والسحاب يسُحّ : إذا سال وهطل، وسحاء : فعلاء منه ، أي دائمة الصب بالعطاء . وانظر في شرح الحديث أيضاً الفائق والنهاية واللسان والتاج (سمح وغيض).

(٢) الثرّة : كثير الماء .

(٣) الموائح جمع مائحة : وهي الآلات التي تخرج الماء من العيون والآبار.

(٤) النوازح جمع نارحة : وهي مثل الموائح .

(٥) الحباء : العطاء .

والاتّساع. وقد شرَحنا هذا المعنى في عِدّة مواضع من كُتبنا المشتملة على عُلوم القرآن.

[٧٦] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[١]:

« ابْنُوا المَساجِدَ واتخِذُوها جُمّاً »، وهٰذه استعارةٌ لأن المُـرادَ ابنُوهـا ولا تّتخِذُوا لها شُرُفاً فشبّهها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكِباش الجُمّ، وهي التي قرونُها صِغارٌ خافِيَةٌ. ومنه الخَبرُ المشهورُ في ذِكر القِيامَـة[٢]: « إنّه يُؤخـذ للجَمَّاءِ من القَرْناءِ » وذلك من أحْسَنِ التَّشبيهِ وأوقعِ التّمثيل.

وقـال ابن الأَعـرابيّ[٣]: الأَجَمُّ: الـذي لا رُمـح معـه، ومن ذلـك قـول الشاعر[٤]:

وَيْـلُ آمِّهِمْ مَعْشَـراً جُمّـاً بُيُـوتهُم ... مِنَ الـرِّمَاحِ وفي المعـرُوْفِ تَنْكِيْرُ[٥]

أراد أن بيوتهم خاليةٌ من الرّماح المركُوزة بأَبوابِها؛ فهي كالكِباش الجُمّ التي لا قرونَ تَظْهَرُ لَها، وقال الأعشىٰ[٦]:

---

(١) انظر السنن الكبرى ٢ : ٤٣٩، والفتح الكبير ١ : ١٩، وكنز العمال ٧ : ٢٠٧٦٩ و٢٠٧٧٠ وكشف الخفاء ١ : ٣٤، والفائق واللسان والتاج (جمم).
جُمّ جمع أجمّ: وهي التي لا شُرَف لها، من الشاه الجمّاء، وهي خلاف القَرْناء.

(٢) انظر المسند ٢ : ٢٣٥ و٣٢٣ و٣٦٣ و٤٤٢ و١ : ٧٢، ومسلم برقم ٢٥٨٢، والترمذي برقم ٢٤٢٢. وفي النهاية واللسان والتاج: (جمم): « إن الله تعالى ليديَنَّ الجمّاء من ذات القرن ». والجماء التي لا قرن لها، ويَدي: أي يَجْزي.

(٣) في اللسان (جمم): « ورجل أجَمُّ: لا رمح معه في الحرب ».

(٤) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح: شاعر تميم في الجاهلية، وهو زوج أمّ زهير بن أبي سلمى، وهو رأس المدرسة الأوسية. توفي نحو سنة ٢ ق. هـ. الشعر والشعراء ١ : ٢٠٢، والأغاني ١١ : ٧٠، والسمط ١ : ٢٩٠.

(٥) ديوان أوس بن حجر ص ٤٤. وهو من قصيدة طويلة وهو فيها الحادي والثلاثون. وبيت أجمّ: أي لا رمح فيه.

(٦) هو ميمون بن قيس بن جندل، أبو بَصِيْر، المعروف بأعشى قيس، والأعشى الكبير: من شعراء =

مَتَى تَدْعُهُمْ لِلِقَاءِ الحُرُو ... بِ أَتَتْكَ خُيُولٌ لَهُمْ غَيْرُ جُمّ [1]

أي: قد أشرع فوارِسُها الرِّماح، فهي كالكِباش إذا نَهَدَت للكِفاح، وسَدَّدَتْ قُرونَها للنِّطاح.

وقد جاءَ في كلامهم: « الرِّماحُ قُرُون الخَيْل ».

ومن ذلك الحديثُ المرويُّ [2]:

« سَتَكُونُ فِتْنَةٌ كأنَّها صَياصِي بَقَرٍ ».

والصَّياصِي هاهنا: القُرون. قيل إنّما شَبَّهها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بِقُرون البقرِ لِكثرة ما يُشْرَع فيها من الرِّماح.

[٧٧] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ [3]:

« **لا يَزَالُ العَبْدُ خَفِيفاً مُعْنِقاً بِذَنْبِهِ ما لم يُصِبْ دَماً** [4]، **فإذا أصابَ دَماً بَلَّحَ** » [5]، وهذا مجازٌ لأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبَّه المُذنِبَ غَيْرَ القاتِلِ بحامِلِ الحِمْل، إلّا أنّ فيه بعضَ الخِفّة، فَهُو يُعْنِق به، أي يُسرِعُ من تحتِه، فإذا أصابَ

= الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. وكان يغنّى بشعره، فسمي « صناجة العرب ». مولده ووفاته في قرية (منفوحة) باليمامة سنة ٧ هـ وأدرك الاسلام ولم يسلم. الأغاني ٩: ١٠٨، والشعر والشعراء ١: ٢٥٧، ومعاهد التنصيص ١: ١٩٦.

(١) انظر ديوان الأعشى ص ٤١، وهو من قصيدة طويلة رقمه فيها (٤٧)، ورواية الشطر الثاني فيه:
بِ تَأْتِكَ خَيْلٌ لهُمْ غيرُ جُمّ

(٢) انظر المسند ٤: ١٠٩ و٥: ٣٣ و٣٥، وغريب الحديث ٢: ٨٤، والفائق والنهاية واللسان والتاج (صيص).

(٣) أخرجه أبو داود برقم ٤٢٧٠، والغريبين ١: ٢٠٥، والفائق والنهاية واللسان والتاج (بلح وعنق).
ومعنقاً من الإعناق: وهو ضرب من السير سريع وسيع، والمراد به: خفّة الظهر من الآثام، يعني أنه يسير سير المخفّ.

(٤) أي ما لم يقتل أحداً.

(٥) بَلح: إذا أعيَى وانقطع، يروى بتشديد اللام وتخفيفها، والتخفيف فيها قليل. وقد جاءت في طبعات الكتاب بالتخفيف واخترنا التشديد لأنه أشهر وأكثر.

دَماً ثَقُلَ ذٰلك العبءُ حتى يَبْلَح منه. والتبليحُ: الإعياء، مأخوذٌ من بُلوحِ الشَّيءِ، وهو انقطاعُه، فكأنّ مُنَّتَهُ [1] قد نَفِدت، وقُوَّته قد انقطعت.

وإنما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلك تَغْليظاً لأمرِ الدَّمِ لِيَقِلَّ الإقدامُ علىٰ سَفْكِه، ويكثر التَّزاجُر عن التَّعرُّضِ له، ومع ذٰلك فالتَّوْبَةُ تُسْقِطُ العَذاب المُسْتَحقّ عليه كما تُسقط العِقابَ المُستَحقّ على غَيره من المعاصي، خِلافاً لما ظَنَّهُ بعضُ النّاسِ من أنّ القاتِلَ لا تَوْبَةَ لَهُ؛ لأَنّ الأمرَ لو كانَ على ما قالَهُ لم يكنْ للقاتِلِ سبيلٌ إلى الانتِفاع بطاعَتِه في المُستقبل لأنّها تَقَعُ مُحْبَطَةً؛ ولا يَجوزُ ألاّ يكونَ للعاصي طريقٌ إلىٰ الانفِكاك من عِقابِ المَعاصي؛ لأنّ في ذٰلك [2] إغراءً له بها وحَمْلاً لَهُ عَليها.

وفي بعض الأحاديث [3]: أن أعرابيّاً قتل تسعةً وتسعين إنســانــاً، ثم أَتى راهِباً بالشام يستفْتيه في توبَتِه، فقال لَهُ: ما أُرى لكَ تَوْبةً، فقال: لا جرَم والله لأُكَمِّلَنَّهُم بكَ مئةً، فَقَتَلَ الراهبَ!

وما حكوه عن عَبدِ اللهِ بنِ عَبّاس ـ رحمه اللّهُ ـ من اختلافِ فَتْواهُ في هٰذا المَعنى، لأنه أَفتى مُستفتياً سأَلهُ عن تَوبةِ القاتلِ بأنّهُ لا توبةَ لَهُ، وأفْتى آخَرَ بأَنَّ لهُ توبةً، فَلهُ عندنا وجهٌ صَحيحٌ قد نُقل عن ثِقاتِ النّاقلين؛ وذٰلك أنّهُ سُئل عن اختلافِ قَوْلَيْه في هذا البابِ، فقال: أتَاني مُستفتٍ فأَفْتَيْتُهُ بأنَّ للقاتلِ توبةً لأنّي رأيتُ عليه من أماراتِ مَن قَتل وهو نادِمٌ على قتله خائفٌ من جَرائِر فِعله، واستَفْتَاني آخَرُ، فأفتَيْتُه بأنّه لا توبةَ للقاتِل لأنّي رأيتُ أَماراتِ من قد عَزم على

---

(١) ذهب بمنته: أي ذهب بقوته.

(٢) يريد أن القول بعدم قبول توبة القاتل حملاً له على التمادي في المعاصي بعد وقوع القتل منه، لأنه ييأس من مغفرة الله له.

(٣) انظر صحيح البخاري ٦/٣٧٣ و٣٧٤ في الأنبياء، ومسلم رقم ٢٧٦٦ في التوبة. وهذا الكلام من حديث طويل هذا طرف منه.

القَتْلِ في المُستقبل، وأراد أن يَلْجَأ إلى التَّوبةِ بعد الإقْدامِ علىٰ سَفْك الدّم المُحَرَّمِ، فأفتيتُه بذلك ليقفَ عن عَزْمِه ويخافَ عواقبَ إثمه.

[٧٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« **بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ** »، وفي روايةٍ أُخرى: « **أَنْضَحُوا أَرْحامَكُمْ** »، والمَعْنى واحد، وهذه استعارةٌ؛ لأن المُرادَ: صِلُوا أَرحامكم ولو بالسَّلامِ، أيْ جَدِّدوا المودَّةَ بينَكُم وبين أقربائِكم ولو بالتَّسليم عَليهم تَشْبيهاً بَبلّ السِّقاء اليابِس؛ لأنَّه لا يتبلَّلُ إلا بملْءِ الماء، فينتدي قاحِلُه[٢] ويتمدَّد قالِصُه[٣]، فشبّهوا بلَّ الأَرْحامِ بذلك، لأنّ في حُسْنِ المخالَقَةِ[٤] تَجديداً لمُخْلِقِها[٥]، وإحكاماً لِما وَهى من علائِقها، ومثلُ ذلكَ قَوْلُ الكُمَيْت الأَسَدِيّ[٦]:

نَضَحْتُ أَدِيْمَ الوُدِّ بيني وبَيْنَهُم ... بآصِرَةِ الأَرْحامِ لَوْ يَتَبَلَّلُ[٧]!

---

(١) انظر مسند الشهاب ١: ٣٧٩ و٣٨٠، وفتح الوهاب ١: ٢١١، والبزار ١٨٧٧، والغريبين ١: ٢٠٨، والفائق والنهاية واللسان والتاج (بلل).

(٢) قاحلة: يابسة.

(٣) القالص: المنكمش.

(٤) المخالقة: هي المعاشرة بخلق حسن، يقال: خالقهم إذا عاشرهم بخلق حسن. وأراد الشريف بها هنا مطلق المعاشرة.

(٥) المُخْلق: الذي أبلى واستنفدت جدته فصار بالياً، والمعنى: تجديد البالي من المعاشرة.

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) انظر شرح هاشميات الكميت لأبي رياش القيسي ص ١٨٥، والبيت من هاشمية طويلة ترتيبه فيها (١٠٢)، وقال أبو رياش في شرح البيت: نَضَحْتُ: بَلَّلْتُ. والآصرة: العطفة، يقال: آصرت الشيء أي عطفته. والأواصر: الأرحام الواحدة آصرة لأنها تعطف على قراباتها، يقال: أصرته أي عطفته.

قوله: يتبلّل أي لو ينفعه ذلك. يقول: أخذت بالرفق واللين فلا ينفعني ذلك وإذا أرادوا خرز الأديم بلّوه لئلا يتخرّم بيني وبينهم، يعني بيني وبين بني أميّة. وقد جاءت (انضحوا) في الحديث، و (نضحت) في بيت الشاهد بالحاء في طبعات الكتاب السابقة والصواب ما أثبتناه. =

[٧٩] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامْ [١] لرجلٍ قيلَ له: إنّهُ نام عن الصَّلاةِ حتى أَصْبَح: « ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ في أُذُنِهِ الشَّيْطَانُ ».

وهذا مجازٌ لأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ أنّ الشَّيطانَ تهكَّم بهِ وسَخِرَ منه، لأنّهم يقولون ذٰلك فيمن ظهرَ اختِلالُه، وبانَ انْحِلالُه. وأصله مأخوذ من الإِفْساد؛ فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أنَّ الشَّيطانَ قد أفْسَدهُ وفَسخ عَقْده [٢] وعلىٰ ذلك قولُ الشَّاعر [٣]:

إذا رَأَيْتَ أنْجُماً مِنَ الأَسَدْ ... جَبْهَتَهُ أو الخَراتَ والكَتَدْ [٤]
بَالَ سُهَيْلٌ في الفَضِيخِ فَفَسَدْ ... وَطَابَ أَلْبانُ اللِّقَاحِ وَبَرَدْ

= والنَّضْخ قريب من النَّضْح. وقد اختلف فيهما أيهما أكثر، والأكثر أنه بالمعجمة أقلّ من المهملة. وقيل: هو بالمعجمة: الأثر يبقى في الثوب والجسد، وبالمهملة: الفعل نفسه. وقيل: هو بالمعجمة ما فُعِل تعمّداً، وبالمهملة من غير تعمد.

(١) رواه البخاري ٣: ٢٣ و٢٤، ومسلم برقم ٧٧٤، والنسائي ٣: ٢٠٤. وانظر أيضاً النهاية واللسان والتاج (بول).
ومثله قوله (ص): « فإذا نام شفر الشيطان برجْله فبال في أُذُنه ».
وحديث ابن مسعود: « كفى بالرجل شراً أن يبول الشيطان في أُذُنه ». وكل هذا على سبيل المجاز والتمثيل.

(٢) فسخ عقده: لما تغلب الشيطان على هذا الشخص ومنعه من صلاة الصبح، كان كأنه تسبب في فسخ العقد الذي بينه وبين ربه على الطاعة والصلاة في أوقاتها.

(٣) الرجز في مجالس ثعلب ٢: ٤٢١، والأزمنة والأمكنة ١: ١٩١ و٣١٨، ومبادىء اللغة للإسكافي ٧٩، واللسان والتاج (خرت وفضخ وكتد وجبه)، وانظر أيضاً معاني القرآن للفراء ١: ١٢٩، و٢: ١٠٨.

(٤) الخراتان: نجمان من كواكب الأسد، بينهما قدر سوط، يقال: خرات، بالتاء، وخراه، بالهاء.
والكتد: نجم من كواكب الأسد.
والفضيخ: الرطب المفضوخ المسدوخ. يقول: لما طلع سهيل ذهب زمن البسر وأرطب، فكأنه بال فيه.
قال ثعلب: « وَحّد (وبرد) لأن معنى لبن وألبان واحد. والتراب واحده وجمعه واحد.

أي أفْسَد سهيلُ اللَّبَن ففسَد، فعبّر عن إفسادِه لهُ ببولِهِ فيه؛ تشبيهاً بالبائـلِ في الماءِ لأنّه يُفْسِدُ عَذْبَهُ ويمنَعُ شُرْبَه.

[٨٠] ومن ذٰلك قوله عليه الصّلاة والسّلام [1]:

« **تُعْرضُ للناس جَهَنّمُ كَأَنَّها سَرَابٌ يَحْطِمُ [2] بَعْضُهَا بَعْضاً** ».

وهـو مجازٌ؛ لأنّـه عليه الصَّـلاةُ والسَّـلامُ أراد شِـدَّة احْتِـدامِهـا والتفـافَ ضِرَامها، فكأنّ بَعْضَها يَحطِم بَعْضاً: أيّ يَهُدُّه ويَهِيضُه، والحَطْمُ الكَسْرُ، وقـد يَجوز أن يكونَ المرادُ أنّها تَحْطِم أبدانَ المعاقبين بها، وجَبَلهم بعضها؛ لأنّهم خالِدُون فيها، غيرُ خارِجين مِنها.

[٨١] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام [3]:

لرجل من وفدِ تُجيبَ [4]: « **إني لأَرْجُو أَن تموتَ جَمِيعاً، فقـالَ: أوليس الرَّجلُ يموتُ جَميعاً يا رسُولَ الله؟ فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: تتشعّبُ أهواؤُه وهُمومَه في أَوْدِيَةِ الدُّنيا فلعَلَّ أَجلَه يدركُه في بعضِ ذٰلكَ فلا يُبالي اللَّهُ في أَيِّها هَلك** ».

وفي هذا الكلام مَجازان.

---

(١) رواه البخاري ١٣: ٣٥٨ ـ ٣٦٠، ومسلم برقم ١٨٣، والنسائي ٨: ١١٢ و١١٣ وهو طرف من حديث طويل في الحساب وأهوال القيامة والحكم بين العباد. السراب: معروف.

(٢) الحطم: الكسر والدقّ؛ أي: ينكسر بعضها على بعض.

(٣) انظر الحديث في عيون الأثر ٢: ٢١٥، وطرفاً منه في طبقات ابن سعد ١: ٣٢٣ في وفد تُجيب وهو قوله ﷺ: « إني لأرجو أن تموت جميعاً »، وطرفاً منه آخر في سنـن ابـن ماجـه (١: ٩٥ و٢: ١٣٧٥، وهو قوله ﷺ: « من تَشعَّبَتْ به الهُمومُ في أحـوال الـدنيا، لم يبـالِ الله في أيّ أوديتهـا هلك ». وقالوا عن هذا الرجل « عاش ذلك الرجل على أفضل حال وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزق ».

(٤) قدم وفد تُجيب على رسول الله ﷺ، سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلاً، ورحب بهم رسول الله، وأكرم منزلهم وحباهم. انظر طبقات ابن سعد ١: ٣٢٣، وعيون الأثر ٢: ٢١٤ ـ ٢١٧، وجمهرة الأنساب ٤٢٩.

أحدهما: قوله عليه الصلاة والسلام: إني لأرجو أن تموت جميعاً، لأن الإنسان لا يموت إلا جميعاً، وإنّما أراد: **إني لأَرجُو أَلاَّ يُدركك الموتُ**، وهُمومك مُقَسّمةٌ، وأهواؤك مُتَشعّبة، فكانَ يكونُ متفرّقاً بتفرّقِ أهوائِه، ومُتشعّباً بتشعُّب آرائِه.

والمجازُ الآخَرُ: قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: « **في أَودية الدُّنيا** »، وهذه استعارةٌ عجيبةٌ، لأنّه شَبّه اختلافَ طَرائِق الدُّنيا ومَذاهِبها، وتبايُن أحوالِها ونوائِبها **بالأَودية** المُختلفة. فمنها البَعيدُ والقَريب، والمُخْصِبُ والجَديب، والواسِعُ والضّيق، والمُنجي والمُعطب.

[٨٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[١]: وهو يعني المدينة:

« **أُسْكِنْتُ بِأَقَلِّ الأَرْضِ مَطَراً، وهي بين عَيْنَي السماء: عينٍ بالشام، وعَيْنٍ باليمن** ».

وهذه استعارةٌ؛ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام أرادَ كثرةَ انهِلال السَّماءِ بالمَطر في هٰذين الموضعين: الشّام، واليَمن. يكنّى عن ذلك بِعَيْني السماء، كأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّه أُفقي السَّماءِ المُطِلَّين على هٰذين البَلدين بالعَيْنين الدّامعتين، فأرادَ أنّ العينين لا تنقطعُ مياهُهما عن هٰذين المَوضعين كما لا تَرْقَأ[٢] دُموع هاتَيْن العَينين. وقد يجوزُ أن يكونَ إنّما أرادَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يشبِّههما بالعَيْنين من العُيونِ التي تنبعُ[٣] الماء في الأرض.

فكما أنّ ماءَ العينِ موصولٌ لا ينقطِعُ، فكذلك قَطْرُ السّماءِ في هٰذين البَلدين متّصِلٌ غيرُ مُنقطع، وكلا القَولَين مَجازٌ وتوسُّع.

---

(١) انظر كنز العمال ١٢ : ٣٤٩٦٨.

(٢) رقأ الدمع: جفّ وسكن.

(٣) تنبع من أنبع: أي التي تخرج الماء من الأرض.

وقد سَمّوا السَّحابَ النّاشىء من جِهةِ القِبْلة عَيْناً علىٰ أحَدِ المعنيينِ اللَّذين ذَكرناهما، فقد يجوزُ أيضاً أنْ يكونَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: بين عَيْنَي السَّماء، يُريد بين السّحابَين النّاشِئَين بهٰذين البَلدين.

[٨٣] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[١]:

« الحَيَاءُ نِظَامُ الإيمانِ ».

وهٰذه استعارةٌ، والمرادُ أنّ الحياءَ يَجمع خِلَال الإيمان كما يَجْمَعُ السِّلكُ فرائدَ النِّظام[٢]: لأنّ الإنسانَ الكثيرَ الحياءِ يُحْجِمُ عن مُواقعَةِ المَعاصي، ومطاوعَةِ المَغاوي، فإذا قلَّ حياؤُه تَفَرَّق جُمَّاع[٣] إيمانه، فأشبَه السّلك في أنه إذا انقطَع تهافَتتْ خَرَزُ نظامِه.

وهذا المَعنى أرادَهُ الشّاعِرُ بقوله[٤]:

يَعِيشُ المرءُ ما اسْتَحْيا بخيرٍ ويَبْقَى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ[٥]

---

(١) هذا خبر مشهور؛ ولم يرد بهذه الرواية في دواوين السنة، وروايته فيها:
« الحياء من الإيمان » و « دعه، فإن الحياء من الإيمان ».
وبهذه الرواية أخرجه البخاري ١: ٦٩، ومالك في الموطأ ٢: ٩٠٥، والترمذي برقم ٢٠١٠، و٢٦١٨، والنسائي ٨: ١٢١، وأبو داود برقم ٤٧٩٥، ومسلم برقم ٣٦، وأحمد في المسند ٢: ٥٦ و١٤٧، والبيهقي في مختصر شعب الايمان ص١١٠، وانظر أيضاً صحيح ابن حبان ٢: ٣١٧ و٣١٨، ومسند الشهاب ١: ١٢٤، وابن ماجه ٢: ١٤٠٠.

(٢) النظام: كل خيط يسلك فيه لؤلؤ ونحوه، والمراد فرائد اللؤلؤ التي تنظم في الخيط.

(٣) جُمّاع: هو كل ما تجمع وانضم بعضه إلى بعض.

(٤) لأبي تمام الطائي، الشاعر المصنف المشهور. توفي في الموصل سنة ٢٣٢ هـ. وفيات الأعيان ٢: ١١، ونزهة الألباء ١٥٥، وتاريخ بغداد ٨: ٢٤٨.

(٥) ورد البيت ضمن أبيات في ديوان أبي تمام ٤: ٢٩٧، وهو من قصيدة قالها في التعريض بأحد بني حميد، ونسبت له أيضاً في بهجة المجالس ١: ٥٩١، على أن أبا تمام نفسه أوردها في الحماسة ٣: ١١٦٢ (بشرح المرزوقي) من غير نسبة، وجاء البيت أيضاً بلا نسبة في لباب الآداب ٢٨٤ و٢٨٦ و٢٨٧.

وليس يُنافي هذا الحديثُ الحديثَ الآخر، وهو قولُه عليه الصّلاة والسّلام[1]:

« الحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الإيمان ».

فإنه لا يمتنع أن يكون شعبةً منهُ، ويكون مع ذلك نِظَاماً له.

[٨٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام [2]:

« مِنْبَرِي هذا على تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الجَنَّةِ ».

وقد قيل في تفسيرِ التّرعِ ثلاثة أقوال[3]:

أحدها: أن يكون اسماً للدّرجة.

والثاني: أن يكونَ اسماً للرَّوضة على المكانِ العَالي خاصّة.

والثالث: أن يكونَ اسماً للبَاب[4].

وفي هذا الكلامِ مجازٌ على الأَقوالِ الثّلاثة، وجميعُها يؤولُ إلى مَعنًى واحد. فإن كانت التّرعة بمعنى الدَّرجة، فالمُراد أنّ منبره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على طريقِ الوْصولِ إلى دَرَج الجَنّة؛ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يدعُو عليه إلى الإيمان، ويتلُو قوارعَ القرآن ويُخَوّف ويَزْجُر، ويَعِد ويُبَشِّر.

وإن كانت بمعنى البابِ فالقَوْلُ فيهما واحد. وإن كانت بمعنى الرَّوضة

---

(١) رواه البخاري ١ : ٤٨ و٤٩، ومسلم برقم ٣٥، وأبو داود برقم ٤٦٧٦ والنسائي ٨ : ١١٠، والترمذي برقم ٢٠٢٨، وابن ماجه ١ : ٢٢، وأحمد في المسند ٢ : ٤١٤ و٤٤٢.

(٢) السنن الكبرى ٥ : ٢٤٧، ووفاء الوفا ١ : ٧٧، والفتح الكبير ٣ : ٣ : ٢٤٨، عن أبي هريرة نقلاً عن مسند أحمد، وكنز العمال ١٢ : ٣٤٨٢٥، ومسند أحمد ٢ : ٣٦٠ و٤٠١ و٤١٢ و٣ : ٣٨٩ و٤ : ٤١ و٥ : ٣٣٥ و٣٣٩، وانظر أيضاً غريب الحديث ١ : ٤ والغريبين ١ : ٢٥٢.

(٣) انظر في هذه الأقوال كتاب الغريبين ١ : ٢٥٢ و٢٥٣ وغريب الحديث ١ : ٦٠٥ والفائق والنهاية واللسان والتاج (ترع).

(٤) قال أبو عبيد بعد أن حكى تفسير أبي عمرو الشيباني (الترعة : الدرجة): وقال غيره: « الترعة: الباب، كأنه قال: منبري هذا على باب من أبواب الجنة » ثم نقل عن سهل بن سعد، راوي الحديث عنده، قوله: أتدرون ما الترعة؟ هي الباب من أبواب الجنة، قال أبو عبيد: وهذا هو الوجه عندنا ». وأما الزمخشري فقد قال: « والمعنى أن من عمل بما أخطب به دخل الجنة ».

على المكان العالي، فالمرادُ بذلك أيضاً كالمُراد بالقَولين الأوَّلين، لأنَّ مِنبره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الطريق إلى رياضِ الجَنَّة لِمَنْ طَلبها، وسلك السَّبيل إليها، وفيه زيادةُ معنى، وهو أنْ يكونَ إنما شبّهه بالرَّوضة لِما يَمُرّ عليه من مَحاسِن الكَلِم وبدائع الحِكَم التي تُشبه أزاهيرَ الرّياض وديابيجَ النّبات[1]، وهُم يقولون في الكلام الحَسن: كأنه قِطَعُ الرَّوض، وكأنه ديباجُ الرّقيم[2]. وأضاف عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الروضة إلى الجَنّة لأنّ الكلامَ المُوفقَ الذي يتكلّم به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَهدي إلى الجَنّة، ويكون دالاًّ عليها وقائداً إليها. وعندهُم أنّ الرَّوْضة إذا كانت علىٰ الأَيفاع[3] والأَنشاز[4] كانت أحسَن مَنظراً وآنق زهراً، وعلى ذلك قول الأعشىٰ[5]:

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عليها وَاكِفٌ خَضِلُ[6]

وقد قال بعضهم: التُّرْعة: الكُوّة. وهو غَريبٌ؛ فإن كانَ المُراد ذلك، فكأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: «مِنْبَرِي على مَطْلع من مَطالِع الجَنّة»،

---

(١) الدِّيباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته الحرير (فارسي معرب). وديباج الوجه: حسن بشرته. ويجمع على دَبابيج ودَيابيج. والمراد هنا النبات الذي كأنه ديباج: أي يطرّز الأرض ويزينها.

(٢) الرقيم: فعيل بمعنى مفعول: أي المرقوم المخطط. والمراد كأنه ثوب الحرير المخطط.

(٣) اليفع واليفاع: المرتفع من كلّ شيء، يكون في المشرف من الأرض، والجبل، والرمل، وغيرها. والأيفاع: جمع اليفع أو اليفاع.

(٤) الانشاز: جمع نَشَز ونُشاز: وهو المكان المرتفع.

(٥) سلفت ترجمته ص ٨٩ ج ٦.

(٦) انظر ديوان الأعشىٰ ص٥٧ وشرح القصائد العشر ٤٢٦ وشرح القصائد التسع ٢ : ٦٩٢ والبيت من معلقته، وروايته فيها (مُسْبِلٌ هَطِلٌ) بدلاً من (واكِفٌ خَضِلٌ). وانظر غريب الحديث ١ : ٥ ورواية البيت فيه تشبه رواية الشريف.
وقال النحاس ٢ : ٦٩٣ : «قال أبو عبيدة: لم يُقل في الروضة أحسن من هذه الأبيات». والحزن في البيت: ما غلظ من الأرض، وارتفع. والمسبل: المطر أرسل دفعه وتكاثف.

والمعنى قريبٌ من مَعنى الباب؛ لأنّ السّامع لِما يُتلى عَليه كأنَّهُ يَطَّلعُ إلى الجنّة فينظرُ إلى بَهجتها وإلى ما أَعَدّ اللّهُ للمؤمنينَ فيها.

[٨٥] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام(١):

« **إن الإِسلامَ لَيَأْرِز إلى المدينة كما تَأْرِز الحية إلى جُحْرها** »، وهذه استعارةٌ؛ والمرادُ أنّ الإسلام ليأوي إلى المدينةِ كما تأوي الحَيّةُ إلى جُحرها، وأصلُ ذلك مأخوذٌ من التقبُّض والاجتِماع، يقال: أرز أُروزاً إذا كان منه ذلك، فجعل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المدينة كالوِجار(٢) للإسلام يتقلَّصُ إليها، وينضمّ إلى حِماها، لأنها قطبُ مَداره ونقطة ارتِكازه.

[٨٦] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام(٣):

« **لا يَدْخُلُ الجَنّةَ لَحْمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ** ».

وهذا القولُ مَجازٌ لأنّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّه نماءَ أعضاءِ البَدن بنباتِ أغصانِ الشّجر لِما بَينهما من المُشاكلة؛ لأنّ العُروق كالعُروق والأَلْحِيَة كالجُلود(٤)، والإيراقَ كالحَياة، والإيباس كالوَفاة.

---

(١) رواه البخاري ٤: ٨٠ و٨١، ومسلم برقم ١٤٧، والترمذي برقم ٢٦٣٢، وابن ماجه ٢: ١٠٣٨، وأحمد في المسند ١: ١٨٤ و٢: ٢٨٦ و٤٢٢ و٤٩٦ و٤: ٧٣ و٧٤ وروايته فيها: « إن الإيمان ليأرز . . . ».

ويشبه رواية الشريف الحديث الآخر برواية مسلم برقم ١٤٦ وهو: « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها ».

وجاء في كتب غريب الحديث ما يشابه رواية الكتاب، انظر الغريبين ١: ٣٨، والفائق والنهاية (أرز) ومثله في اللسان والتاج.

(٢) الوجار: حجر الضبع وغيرها. والمراد أن المدينة كالملاذ للإسلام يتجمع فيها كما تأوي الحية إلى جحرها.

(٣) انظر سنن الدارمي ٢: ٣١٨ ورواية الحديث فيه:

« يا كعب بن عجرة إنه لن يدخل الجنة لحم نبت من سحت ».

والسُّحْتُ: الحرام الخبيث من المكسب والمطعم والمشرب.

(٤) الألحية: جمع لحاء. وهو قشر الشجرة.

[٨٧] ومِن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[١] لعبدالله بن عمرو بن العاص[٢] وذكرَ قيامَ اللّيل وصيامَ النَّهار، فقال:

« إنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذلِكَ هَجَمَتْ[٣] عَيْنَاكَ وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ[٤] ».

فقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « هَجمت عَيْنَاك » استعارةٌ؛ لأنّ المُرادَ به غَوْر العينين لطول القيام، ولِبُعد العهد للطعام.

وذلك مأخوذٌ من قولهم: هَجَم فلانٌ على فُلان إذا دَخل عَليه دخولاً فيه سُرْعَةٌ وله رَوعة.

ويقال: هجمَ عليهم البيتُ إذا سقَط عليهم[٥]، فشبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إفراطَ دُخول العَينين في حِجاجِ[٦] الرّأس بهُجومِ الرَّجُلِ الهاجِم أو وُجوب[٧] البيت الواقع؛ فالتَّشبيهُ بالأوّل لايغالِه في مَدخله، والتشبيهُ بالثّاني لزواله عن مَوضِعه. ومعنى نَفِهَتْ[٨] نفسك: أي أصابَها المَلال وجَدّها[٩] الإعياء والكلال.

---

(١) رواه البخاري ٤ : ١٩١، ومسلم برقم ١١٥٩، والنسائي ٤ : ٢٠٩ و٢١٥. وروايته عندهم: « إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين، ونفهت له النفس، لا صام من صام الابد... ».

(٢) عبدالله بن عمرو بن العاص، قريش: صحابي، من النسّاك، ومن أهل مكة، أسلم ثم انزوى في جهة عسقلان، منقطعاً للعبادة، وعمى في آخر حياته، توفي في ٦٥ هـ، واختلفوا في مكان وفاته. أسد الغابة ٣ : ٣٤٩، العقد الثمين ٥ : ٢٢٣، والسير ٣ : ٧٩.

(٣) هجوم العين: غورها ودخولها في مكانها من الضعف.

(٤) نفهت نفسك: إذا اعيت وسئمت وكلّت. وكانت في طبعات الكتاب السابقة (تهمت نفسك) وهو تحريف، والصحيح ما أثبتناه. وانظر أيضاً الفائق (هجم).

(٥) هجم البيت: انهدم كانهجم.

(٦) الحجاج: العظم الذي ينبت عليه الحاجب.

(٧) الوجوب: السقوط، ووجوب البيت معناه سقوطه.

(٨) تحرفت في المطبوع إلى (تهمت) وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه، وانظر الحاشية رقم (٤) قبل قليل.

(٩) جدّ الشيء: قطعه. والمراد أن الاعياء والكلال وهو التعب، يقطعان النفس عن العمل.

[٨٨] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[١]:

« **لأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أحَدِكمْ قَيْحاً[٢] حتى يَرِيَهُ[٣] خيْرٌ لـه من أن يَمْتَلِىءَ شِعْراً** »[٤].

وفي هذا القولُ مَجازٌ، لأنّ المُرادَ به النّهي عن أن يكونَ[٥] حِفظُ الشّعر أغلبَ على قَلب الإنسـان، فيشغَلهُ عن حِفظ القرآن وعُلومِ الـدّين حَتّى يكون أَحضرَ حواضِره وأكثرَ خَواطِره؛ فشبَّهه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإِناءِ الذي يَمتلىءُ بنوعٍ من أَنواع المائِعات، فلا يكونُ لغيرِه فيه مَسْرَبٌ[٦] ولا مَعَهُ مَذْهب!

وقـال بعضُهم: إنّما هٰـذا في الشّعر الـذي هُجِي بهِ النّبـيُّ عليـه الصَّلاةُ والسَّلامُ خصوصاً[٧]. والصحيحُ أنه في كلّ شعرٍ اسْتَولى على القلبِ كلَّ استيلاءٍ عُمـوماً[٨]؛ لأن النّهي يتعلّق بحفظِ القَليـل مِمّـا هُجِيَ بـه النبيُّ عليـهِ الصَّـلاةُ

(١) رواه البخاري ١٠ : ٤٥٣، ومسلم برقم ٢٢٥٧، وأبو داود برقم ٥٠٠٩، والترمذي برقـم ٢٨٥٥ و٢٨٥٦، وابن ماجه ٢ : ١٢٣٦ و١٢٣٧.

(٢) القيح: الصديد الذي يسيل من الدُّمَّل والجرح.

(٣) يريه: قال ابن الأثير: هو من الوَرْي: الداء؛ يقال: وُرِيَ يُوْرَى فهو مَوْرِيّ، إذا أصاب جوفه الداء. وقال الأزهري: الوَرْيُ، مثال الرَّمْي: داء يداخل الجوف. وقال الفراء: هو الوَرَى، بفتح الراء. وقال ثعلب: هو بالسكون؛ المصدر، وبالفتح: الاسم. وقال الجوهري: ورى القيح جوفه ترِيه وَرْياً: أكله. وقال قوم: معناه: حتى يصيب رئته. وأنكره غيرهم.

(٤) انظر شرح الحديث في الفائق والنهاية واللسان والتاج (قيح، وري).

(٥) الضمير في يكون يعود على الشعر.

(٦) المسرب: الطريق.

(٧) وهو قول الشعبي كما في الفائق ٣ : ٢٣٨. ويريد الشريف أن حفظ القليل من شعر الهجاء لرسول الله فنهي عنه من طريق آخر، فصار حفظ هذا الشعر غير مراد من هذا الحديث لأن التمثيل فيه خاص بالكثير، فلو حملنا الحديث على شعر الهجاء لفهم أن القليل منه مباح، وهو غير المقرر.

(٨) قال النووي في شرح الحديث: « قالوا المراد منه أن يكون الشعر غالباً عليه مستولياً، بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية ».

والسَّلامُ، وكثيرهُ يُراعىٰ فيه أن يكونَ غالباً على القلب وطافِحاً علىٰ اللُّبّ.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «حتى يَرِيَه» معناه: حتى يُفسِدَه ويَهِيضه[1]. ويقولون: وَرَاه الدَّاءُ إذا فَعل ذٰلكَ به، قال الشاعر[2]:

وَرَاهُنَّ رَبِّي مِثْلَ ما قَدْ وَرَيْنَنِي وَأَحمىٰ عَلَى أَكْبَادِهِنَّ المَكَاوِيَا[3]

[٨٩] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[4]:

«**كُلُّ صَلاَةٍ لا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الكتابِ فهي خِدَاجٌ**».

وروى هذا الخبر بلفظ آخر، وهو قوله:

«**كُلُّ صَلاَةٍ لاَ قِرَاءَةَ فِيهَا فَهِيَ خِدَاجٌ**»[5].

وهذه استعارةٌ عجيبةٌ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جعَل الصَّلاةَ التي لا يُقرأ

---

(١) في التاج (هيض): ويقال: به هيضة أي به قُياء، كغراب، وقيام به جميعاً، نقله الجوهري. وقيل: هو انطلاق البطن فقط. ويقال: أصابت فلاناً هيضة، إذا لم يوافقه شيء يأكله، وتغيّر طبعه عليه، وربما لان من ذلك بطنه، فكثر اختلافه. ولعل مراد الشريف أن يفسد القيح الجوف ويجعل صاحبه يقيء ويضطرب.

(٢) هو سُحَيْم عبد بني الحسحاس، شاعر، رقيق الشعر. كان عبداً نوبياً أعجمي الأصل، اشتراه بنو الحسحاس من بني أسد، فنشأ فيهم. مولده في أوائل عصر النبوة، ورآه النبي ﷺ وكان يعجب بشعره، وعاش إلى أواخر أيام عثمان، وقتله بنو الحسحاس، وأحرقوه، لتشبيبه بنسائهم، وذلك نحو سنة ٤٠ هـ. الإصابة ت ٣٦٥٩، والخزانة ٢: ٨٧، والسمط ٢: ٧٢١، والشعر والشعراء ١: ٤٠٨.

(٣) ديوان سحيم ص ٢٤، وجاء في شرح البيت: «الوَرْي: داء يلصق بالرئة فيقتل صاحبه. وقال أبو عبدالله ابن الأعرابيّ: كل أمْرٍ يَحْوَى منه الجوف فقد وراه إذا أقرحه. فدعا عليهن بذلك». والبيت من قصيدة طويلة له في ديوانه.

(٤) رواه مسلم برقم ٣٩٥، وأبو داود برقم ٨١٩ و٨٢٠ و٨٢١، والترمذي برقم ٢٩٥٤ و٢٩٥٥، والنسائي ٢: ١٣٥ و١٣٦، وابن ماجه ١: ٢٧٣، و٢٧٤، والإمام مالك في الموطأ ١: ٨٤، ٨٥.

(٥) وبعده في بعضها زيادة «غير تمام» لأن الخداج: النقص. والتقدير: فهي ذات خداج، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، أو هي مخدجة، فوضع المصدر موضع المفعول.

فيها ناقصةً بمنزلةِ النَّاقةِ إذا ولَدتْ ولداً ناقصَ الخِلقة أو ناقصَ المُـدّة. ويُقال: أخدجَ الرَّجُل صلاتَهُ إذا لم يَقرأ فيها فهو مُخْدِجٌ وهي مُخْدَجَة.

وقال بعض أهل اللُّغة[1]: يقال خَدَجَتِ الناقةُ إذا أَلقتْ وَلدها قبل أَوانِ النِّتاج وإن كانَ تـامّ الخِلقة، وأَخـدجت: إذا ألقته نـاقصَ الخَلْق وإن كان تـامَّ الحَمل؛ فكأنه عليه الصَّلاة والسلام قال: كُلُّ صَلاةٍ لا يُقرأ فيها فهي نُقصان إلا أنها مع نقصانها مُجْزئة.

وذلـك كما تقـولُ في قولـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ[2]: « **لا صَـلاةَ لجـارِ المَسْجدِ إلّا في المَسْجِد** » إنما أرادَ به نفيَ الفضلِ لا نفيَ الأَصل، فكأنَّهُ قال: لا صلاةَ كاملةً أو فاضلةً إلّا في المسجدِ، وإن كانت مُجزئة في غيرِ المَسجد. فنفى عليه الصَّلاة والسلام كمالَها ولـم يَنْفِ أَصْلَها؛ ومما يؤكّد ذلك الخبرَ الخبرُ الآخرُ، وهو قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3]:

[٩٠] « **لا غِرارَ في صلاةٍ ولا تَسْلِيم** »[4]:

أي لا نقصانَ فيهما من قولهم: ناقةٌ مُغَارٌّ إذا نقصَ لبنها؛ ومنه الحـديثُ

---

(١) هو الجوهري كما في الصحاح (خدج). وانظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (خدج).

(٢) رواه الدارقطني في السنن ١ : ٤٢٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٣: ٥٧، و٣: ١١١ و٣: ١٧٤، وابن كثير في التفسير الآية ٣٦ من سورة النور (٣: ٣٠٥)، والغزالي في إحيائه ١: ١٥١ وانظر الفتح الكبير ٣: ٣٤٥، وكنز العمال ٧: ٢٠٧٣٧، وكشف الخفاء ٢: ٥٠٩.

(٣) رواه أبو داود برقم ٩٢٨ و٩٢٩، وأحمد في المسند ٢: ٤٦١، والحاكم ١: ٢٦٤ والبيهقي ٢: ٢٦٠ و٢٦١.

(٤) قال أبو داود: قال أحمد: يعني ـ فيما أرى ـ أن لا تُسَلِّم ولا يُسَلَّم عليك، ويغرِّر الرجل بصلاته، فينصرف عنها وهو فيها شاكٌّ.

والغرار: النقصان، من غارت الناقة: إذا نقص لبنها، وهو في الصلاة: أن لا يتمّ أركانها كاملة، وقيل: الغِرار: النوم؛ أي ليس في الصلاة نوم.

وأما التسليم ففيه وجهان: فمن رواه بالجرّ جعله معطوفاً على قوله: « في صلاة » فيكون المعنى: لا نقص في صلاةٍ ولا في تسليم، وهو أن يقول إذا سلّم: السلام عليك، وإذا ردّ يقول: وعليك. =

الآخر[١]: «لا تغارّوا التَّحيّة» أي: لا تنقصُوا السَّلامَ ورُدّوا على البَادىءِ به مثلَ ما قال.

[٩١] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام [٢]:
« عائدُ المَرِيض عَلَى مَخَارِفِ الجَنَّةِ ».

وفي هذا الكلام مجازٌ علىٰ التَّأويلين جميعاً، فإنْ كانَ المرادُ المخارفَ جمع مَخرف وهو جَنىٰ النّخل، فكأنّه عليه الصَّلاةُ والسلامُ شهِدَ لعائدِ المَريضِ بدخولِ الجنّة، وحَقّق له ذٰلكَ حتى عَبّر عنه وهو بعدُ في دارِ التَّكليف بعبارةِ مَنْ صارَ إلى دارِ الخُلود، ثقةً له بالوُصولِ إلى الجَنّة والنُّزول في دارِ الأَمَنَة[٣]؛ وهذا موضعُ المَجاز. وإن كان المُرادُ بالمخارفِ جمع مَخرفة، وهي الطّريق، كما رُويَ عن بعض الصحابة[٤] أنه قال في كلام له: « وتَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ

= والوجه الثاني: أن يروى منصوباً، فيكون معطوفاً على قوله: « لا غرار » فيكون المعنى: لا نقص في صلاة ولا تسليم فيها، أو: لا نوم في صلاة ولا تسليم فيها، لأن الكلام لغير كلام الصلاة لا يجوز فيها. وانظر أيضاً في شرح الحديث: الفائق والنهاية واللسان والتاج (غرر).

(١) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (غرر).
وقال الزبيدي في التاج: « أي لا يُنْقَصُ السلام، ولكن قُلْ كما يقال لك أو زِدْ ». وكانت (تغارُّ) في طبعات الكتاب السابقة (تغاروا) وهو تحريف، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٥٦٨)، والترمذي برقم ٩٦٧، وروايته فيهما:
« عائدُ المريض في مخرفة الجنة ».
وانظر أيضاً في شرح الحديث الفائق، والنهاية واللسان والتاج (خرف)، ورواية الحديث فيها تشبه رواية الشريف.
وقال الزمخشري: « هو جمع مخرف أو مخرفة، فالمخرف من قولهم: اشترى فلان مخرفاً صالحاً، أي نخلات يخترفن »؛ والمخرف: القطعة الصغيرة من النخل ست أو سبع يشتريها الرجل للخرفة، وقيل: هي جماعة النخل ما بلغت.
والمخرفة: سكة بين صفين من نخل يخترف من أيهما شاء، أي يجتني. والمخرفة: البستان أيضاً.

(٣) الأَمَنَة: هي الأمن.

(٤) هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما في الفائق ١ : ٣٦٠، والنهاية ٢ : ٢٤.

مَخْرَفَةِ النَّعَم »: أي طَريق النعم الواضح الذي أَعلَمَتْهُ بأَخفافها وأَعْتَدَتْه[1] بكثرة غُدُوِّها ورَواحها.

فموضع المجازِ أنّه عليهِ الصّلاة والسَّلامُ جَعل عائِدَ المَريضِ كالماشِي في طريقٍ يُفضي به إلى الجَنّة، ويُوصله إلى دارِ المُقامة[2].

[٩٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3] للمغيرة بن شُعْبة[4]، وقد خطب امرأة ليتزوَّجها: « **لَوْ نَظَرْتَ إليها فإنّهُ أَحْرىٰ أن يُؤْدَم بَيْنَكُمَا** »[5].

وفي هذا اللّفظِ مجازٌ علىٰ التّأويلين جَميعاً، فأَحَدُهما أنْ يكونَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « أَحْرىٰ أَن يُؤْدَمَ بينَكما » مأخوذٌ من الطّعام المأدُوم، لأنّ طِيبَهُ وصَلاحَهُ إنّما يكونُ بالإدام كالزَّيت والإهالَةِ[6] وما يكونُ في مَعناهُما، فكأنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أراد أنّ ذٰلكَ أَحْرى أن يَتوافَقا كما يُوافِقُ الطّعام أُدْمَهُ أو كما يوافِقُ الإدامُ[7] خُبزه.

---

(١) اعتدته: أعدّته وهيأته وجعلته صالحاً للسير فيه.

(٢) المقامة: الإقامة.

(٣) رواه الترمذي برقم ١٠٨٧، والنسائي ٦: ٦٩ و٧٠، وابن ماجه ١: ٥٩٩، وروايته فيهما: « انظر إليها، فإنه أَمْرى أن يُودم بينكما ». وانظر غريب الحديث ١: ١٤٢.

(٤) المغيرة بن شعبة، أبوعبدالله الثقفي: أحد دهاة العرب وقادتهم، وولاتهم، وهو صحابي، ويقال له « مغيرة الرأي ». وهو أول من وضع ديوان البصرة، وأول من سلم عليه بالإمرة في الإسلام، توفي سنة ٥٠ هـ. الإصابة ت ٨١٨١، وأسد الغابة ٤: ٤٠٦، والعقد الثمين ٧: ٢٥٥، والسير ٣: ٢١.

(٥) أي: أولى وأجدر أن يجمع بينهما ويتفقا على ما فيه صلاحهما، وأكثر ألفة نسج بينهما. وانظر في شرح الحديث الغريبين ١: ٢٩، والفائق والنهاية واللسان والتاج (أدم).

(٦) الإهالة: الشحم الجامد أو الذائب أو الزيت، وكل ما ائتدم به. وينبغي أن يراد به هنا ما عدا الزيت إذا اعتبرنا العطف ليس للتفسير، أما إذا أريد بالعطف عطف التفسير فيجوز أن يراد به الزيت.

(٧) الإدام: ما يؤكل مع الخبز من زيت وغيره.

قال الكسائيُّ [1] : أدَمَ اللَّهُ بينَهُما علىٰ مثال فَعَل : إذا أَلْقى بينهما المَحَبَّةَ والاتّفاق .

[٩٣] وأقولُ : إنّ هٰذا يشبهُ دعاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للبانِي على أهله ، وهو قولُه [2] : « بالرِّفاءِ والبنين » .

كأنه عليه الصّلاة دَعا بأنْ يُلائِم اللّٰهُ بينَهُما كما يُلائمُ الرّافي بين شقق الثّوب المَرْفُوء .

وأما التَّأويل الآخر في أَصْل الخَبر ، فهو أَن يكونَ بمعنى : ذٰلك أَحرى أن يُصلح اللّٰهُ بينَكُما ؛ من قولهم : عِنانٌ مُؤْدَم إذا كانَ مُصْلَحاً مُحكماً [3] .

قال الرّاجز [4] :

* في صَلَبٍ مِثْلِ العِنَانِ المُؤْدَمِ [5] *

---

(١) أبو الحسن الكسائي : هو علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي بالاولاء ، الكفوفي : إمام في اللغة والنحو والقراءة ، من أهل الكوفة ، وتنقل في البادية ، وسكن بغداد ، وتوفي بالرّيّ سنة ١٨٩ هـ . إنباه الرواة ٢ : ٢٥٦ ، ونزهة الألباء ٦٧ ، وتاريخ بغداد ١١ : ٤٠٣ ، وقول الكسائي في غريب الحديث ١ : ١٤٢ ؛ واللسان والتاج (أدم) .

(٢) رواه النسائي ٦ : ١٢٨ ، وابن ماجه ١ : ٦١٤ ، وهو فيهما : « عن عقيل بن أبي طالب أنه تزوج امرأة من بني جشم . فقالوا : بالرفاءِ والبنين . فقال : لا تقولوا هكذا . ولكن قولوا ، كما قال رسول الله ﷺ : اللهم بارك لهم وبارك عليهم » . وإنما نهى عنه لأنه كان من شعار الجاهلية ، فكره لذلك ونهى أن يقال بالرِّفاء والبنين كما في النهاية واللسان والتاج (رفا) .

(٣) انظر اللسان ، والتاج (أدم) .

(٤) هو العجاج عبدالله بن رؤبة بن لبيد ، أبو الشعثاء السعدي التميمي : راجز مجيد ، من الشعراء من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، وهو أول من رفع الرجز ، وشبهه بالقصيدة . توفي نحو سنة ٩٠ هـ . الشعر والشعراء ٢ : ٥٩١ ، وتهذيب ابن عساكر ٧ : ٣٩٧ ، وشرح شواهد المغني ١ : ٤٩ .

(٥) البيت للعجاج يصف امرأة ، وانظر ديوانه : ٢٩٣ (ت عزة حسن) وقبل البيت :

رَيّا العِظَام فَعْمَة المُخَدَّمِ
في صَلَبٍ مِثْلِ العِنانِ المُؤْدمِ
وبعده : إلى سواءِ قَطنٍ مُؤَكَّمِ

ويقال: أَدِيمٌ مُؤْدَمٌ، إذا ظهرَتْ أَدَمَتُه وهو مَأوى اللَّحمِ مِنْهُ، وأَديم.
مُبْشَر إذا ظهرَتْ بَشَرته، وهو مَأوىٰ الشِّعرِ منه [١].
ويقال: رجل مُؤْدَمُ إذا كان مَحْبُوباً؛ قال الرّاجز [٢]:

* والبِيْضُ لا يُؤْدِمْنَ إلا مُؤْدَماً [٣] *

أي لا يحببن إلا مَحْبُوباً [٤].

[٩٤] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام [٥]:
« إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً ».
وهذا القول مجاز والمراد به: إن البيان قد يَخْدَعَ بِتَزْويقهِ وزَخارِفه وحُسن معارِضِه ومطالِعه حتى يَستزلَّ الإنسان من حالِ الغضبِ والمُخاشنةِ إلى حال الرِّضا والمُلاينة، وينزِعَ حُمَات السَّخائم [٦]، ويَفْسَخ عقود العزائم، ويَكْبَح

= وانظر الصحاح واللسان والتاج (صلب) ومقاييس اللغة ٣: ٣٠١، واصلاح المنطق ٤٦ و٩٨.
(١) وانظر مثله في اللسان والتاج (أدم).
(٢) الرجز في غريب الحديث ١ : ١٤٣، والمقاييس ١ : ٧٢، والصحاح واللسان والتاج (أدم)، وهو فيها بلا نسبة.
(٣) انظر في شرح البيت، اللسان والتاج (أدم).
(٤) في غريب الحديث ١ : ١٤٣ : « أي لا يُحْبِبْنَ إلاّ مُحَبَّباً موضعاً لذلك. والمؤدم في البيت الشاهد: الرجل الحاذق الذي جمع بين لين الأدمة، وخشونة البشرة، ومثل هذا يكون محبوباً. وقد عبر الشريف عن لازم المعنى وهو الحبّ.
(٥) رواه البخاري ١٠ : ٢٠٢، ومسلم برقم ٠٨٦٩ والترمذي برقم ٢٠٢٩ و٢٨٤٨، وأبو داود برقم ٥٠٠٧ و٥٠١١ و٥٠١٢ و١١٠٦، ومالك في الموطأ ٢ : ٩٨٦، وأحمد في المسند ١ : ٢٦٩ و٣٠٣ و٢ : ١٦ و٦٢، والبخاري ٢٩٢.
ومعنى الحديث: أن الرجل قد يكون عليه الحق، وهو أقوم بحجته من خصمه، فيقلب الحق ببيانه إلى نفسه، لانه معنى السحر: قلب الشيء في عين الانسان، وليس بقلب الأعيان ألا ترى أن البليغ يحمدح الإنسان، فيصرف قلوب السامعين إلى حبّ الممدوح، ثم يذقه حتى يصرفها إلى بغضه.
وانظر في شرح الحديث أيضاً غريب الحديث: ٢ : ٣٣، والغريبين ١ : ٢٣٥.
(٦) الحُمَات جمع حُمَة: وهي الإبرة التي يضرب بها الزنبور أو الحية أو العقرب أو يلدغ بها والسخائم جمع سخيمة: وهي الحقد، والمراد ينزع دوافع الحقد وأسبابه.

الجامحَ حتى يرجع، ويُسِفّ[1] بالمحلِّق حتى يَقَع، ويعود بالخَصم الضَّالع[2] مُوافقاً، وبالضِّدّ الأبعد مُقارباً.

والسِّحرُ في الأصلِ: هو التَّمويه والخَدِيعة والتَّلبيس والتَّغطية.

وقال بعضُهم: السِّحر: ما نقلَك من حالٍ إلى حال. وكانت العَربُ تعتقد أن السّحر يصرفُ الوجوهَ ويقلبَ القُلوبَ، ويُمْرِض الأجسام، ويُسَفِّهُ الأحلام، ويفرّقُ بين المُتَحابَّيْن، ويجمعُ بين المُتَباغِضَين.

وهذا في الحقيقة نقلٌ من حالٍ إلى حال. وهو عِندنا باطِلٌ إلا أنْ يُرادَ بهِ ما قَدَّمْنا القولَ فيه من خَديعةِ الإنسان بلينِ القَـوْلِ، وحُسن اللَّفظ حتى يرضى بعد اشْتِطاطه[3]، ويَنْثني بعد جِماحه.

وهذا الوجهُ هو الّذي ذهبَ إليهِ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام دونَ ما يَقُـولُه أهلُ الجَهالة وطَغامُ[4] الجاهِليّة.

[٩٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

« **إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَني مِنْهُ بَرحْمَةٍ** »، وأصلُ هذا الكلام مستعارٌ لأنّ المرادَ به

---

(١) يقال أسفّ الطائر: دنا من الأرض في طيرانه، وأسفّت السحابة: دنـت من الأرض،والمحلـق: المرتفع. والمراد أن الكلام ينزل بالمرتفع إلى أسفل، أي يغيّر حال المخاطب من التشـدّد إلـى اللين.

(٢) الخصم الضالع: المائل المخالف، ومن معاني الضالع: الجائر، ولكن المعنى الذي ذكرناه أولى وأنسب، وبقول الشريف موافقاً.

(٣) الاشتطاط: مجاوزة القدر المعقول والتباعد من الحق.

(٤) الطَّغَام: أراذل الناس وأوغادهم.

(٥) رواه البخاري مطولاً من وجهين آخرين عن أبي هريرة ١٠ : ١٠٩ و١١ : ٢٥٢، ومسلم ١ : ٣٤٧، وابن ماجة ٢ : ١٤٠٥، والدّارمي، ١ : ٣٠٥ ـ ٣٠٦. وانظر المسند بتحقيق شاكر ١٢ : ١٩٢، وفتح الباري ١٤ : ٧٦ ـ ٧٧، والترغيب والترهيب ٤ : ٢٠٠، وقوله: «يتغمد منه برحمة»؛ أي يلبسنيهـا ويسترني بها، مأخوذ من غمد السيف، وانظر غريب الحديث ٣ : ١٦٥.

إلا أن يُغَطِّيني اللَّهُ أو يُجَلِّلني [1] منهُ بِرحَمة، مأخوذٌ من غمْدِ السَّيفِ الذي يكونُ كِناناً [2] له وسِباغاً [3] علَيه، وقال الشاعر [4]:

نَصَبْنا رِمَاحَاً فوقَهَا جَسدُّ عَامِرٍ كَظِلِّ السَّماءِ كلَّ أرْضٍ تَغَمَّدَا [5]

أي امتد جَدُّهم على أقطارِ الأَرض، فغطّاها كامتدادِ السَّماء عليها من جميع جِهاتها، يَصِفُهم باستطالةِ الجَدِّ وانبسَاطِ اليَدِ وثراءِ المال والعَدَد.

[٩٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [6]:

« اللّهم إنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً تَلمُّ بها شَعثي ».

وهذه استعارةٌ، والمرادُ: تجمعُ بها أَمْرِي، فكَنَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

---

(١) أي يغطيني ويعلوني بالرحمة.

(٢) الكنان والكنة والكن: ما يستر الشيء ويقيه.

(٣) سبغ الشيء سبوغاً: طال إلى الأرض، والمعنى يكون ستاراً عليه.

(٤) والبيت في ديوان ابن مقبل: ٦٨ من قصيدة طويلة قال ابن قتيبة شارحاً البيت: «جدّ عامر؛ أي حظ عامر، أي معها جد عامر، وهذا مثل، كظلِّ السماء في الكثرة، وهو مثل: يقول: ظلّ السماء يلبس كل شيء وكذلك هَمّ. وابن مقبل هو تميم بن أُبيّ بن مقبل، من بني العجلان، من عامر بن صعصعة، أبو كعب: شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وأسلم، فكان يبكي أهل الجاهلية، عاش نيفاً ومئة سنة، وعدّ في المخضرمين، وكان يهاجي النجاشي الشاعر، وتوفي بعد سنة ٣٧ هـ. (الإصابة ١: ١٩٥، والشعر والشعراء ١: ٤٥٥، والسمط ١: ٦٦، وابن سلام ١: ١٥٠، وعامر في البيت الشاهد: هو عامر بن صعصعة، إذ كان بنو العجلان قوم ابن مقبل من بني عامر بن صعصعة.

(٥) جاءت (كظلّ السماء) في مطبوعات الكتاب محرّفة بالطاء (كطلّ السماء) وهو خطأ.
قال الشريف المرتضى معلقاً على البيت في أماليه ١: ٣٤٥: «فالَجدّ هاهنا: الحظّ، وشبه ما قُسم لعامر من الغلبة والظفر بظلِّ السماء الذي يستر كل شيء، ويظهر عليه».

(٦) رواه الترمذي رقم ٣٤١٥، من حيث طويل، وروايته فيه: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلُم بها شعثي، وتردّ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي....» الحديث. ومعنى الحديث: أي تجمع بها ما تفرق من أمري. وانظر النهاية واللسان والتاج (شعث).

عن ذلك بالشَّعث تَشْبيهاً بالعودِ الذي تشعَّث رأسُه وتَشَظَّتْ[1] أطرافه، فهو محتاجٌ إلى جامعٍ يَجمعُهُ وشاعثٍ يَشْعَثه. ومن ذلك قولُ الشّاعر يصف النار[2]:

وغَبْرَاءَ شَعْثَاءَ الفُرُوعِ مُنِيفَةٍ
بها تُوصَفُ الحسْناءُ وَهْيَ جَمِيلُ[3]

أراد: تفرّق أطرافَها وتشعّثُ شِوَاظِهَا[4].

[٩٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

« أَعُوذُ باللَّهِ مِنْ شَرِّ عِرْقٍ نَعَّارٍ ».

وهذه استعارةٌ. والأصلُ في ذلك رفعُ الصَّوت؛ يُقال: فلانٌ نَعَّارٌ في الفِتَن: أي صيّاحٌ فيها ودَعَّاءٌ إلَيها. وقال بعضُ التّابعين ـ وقد صلّى خلفَ مُصعب بنِ الزُّبير[6] وهو رافع صوته بالتكبير والتَّهليلِ: قاتَلهُ اللَّهُ نعَّاراً بالبِدَع:

---

(١) تشظّت أطرافه: أي صارت أطرافه شظايا وهي جمع شظية، وهي القطعة من الشيء، ويقال: تشظي العود: تطاير شظايا.

(٢) لم نعرف قائله، ولم نجده في مصادرنا ومراجعنا.

(٣) منيفة: عالية مرتفعة.

(٤) الشواظ: المراد به هنا دخان النار، لأنه هو الذي يظهر فيه التفرق أكثر من تفرق اللهب.

(٥) رواه الترمذي رقم ٢٠٧٦، وابن ماجة ٢ : ١٦٥، وأحمد في المسند ١ : ٣٠٠ وروايته عندهم: «عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ، كان يعلمهم رُقَى الحُمَّى، ومن الأوجاع كلِّها: بسم الله الكبير؛ أعوذ بالله العظيم، من كل عرق نَّعار؛ ومن شرِّ حرِّ النار».
وجاء في الفائق والنهاية واللسان والتاج (نعر): «أن ابن عباس (رض) كان يقول في الأوجاع: بسم الله الكبير؛ أعوذ بالله العظيم، من شر عرق نّعار ومن شر حّر النار».
قال الزمخشري: «جُرْحٌ نُعُور ونَعَّار، إذا صوّت دمه عند خروجه. وفلان نّعار في الفتن؛ إذا كان يسعى فيها ويصوّت بالناس». وَنَعَر العرق بالدم: إذا ارتفع وعلا.

(٦) مصعب بن الزبير بن العوام، أبو عبدالله الأسدي القرشي: أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام. نشأ بين بين يدي أخيه عبدالله بن الزبير، فكان عضده الأذوى في تثبيت حكمه بالحجاز فالعراق، وولاه عبدالله البصرة فقصدها، وضبط أمورها. قتل سنة ٧١ هـ. (تاريخ بغداد ١٣ : ١٠٥ وفوات الوفيات ٤ : ١٤٣ والسير ٤ : ١٤٠).

أي صيَّاحاً بها، فشبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شفورَ دمِ العِرق[1] وتواتُرَهُ بصوتِ الصّائح المُنوّه من وَجهين: لارتفاعِ نِدائِهِ، ولتكريرِ دُعائِه، فجعَل العِرْقَ نَعّاراً للعِلّة المَذكورة علىٰ طريقِ المَجازِ والاتّساع.

وقال بعضُ أَهل اللُّغةِ[2]: يقالُ: نَعَر العِرْقُ نَعراً ونَعراناً إذ اهْتَزّ بالدَّمِ ولم يَرْقأ، فإنْ كانَ الأمرُ على ما قالَ، فقد خرَج الكلامُ عن باب المَجازِ إلى حَيِّزِ الحقيقة.

[٩٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3].

« مَنْ كَانَتِ الدُّنْيا هَمَّهُ وَسَدَمَه جَعَلَ اللَّهُ فَقْراً بين عَيْنَيهِ »[4]، وهذا الكلامُ مجاز؛ والمُراد به أنّ من جَعل الدُّنيا هَمَّهُ، وقَرَّ عليها بالَه، وأعرض عن الآخرةِ بوجههِ، وأخرجَ ذِكْرَهـا من قَلْبِه، وأقبَلَ علىٰ تَثمير الأموال[5]، واستِضْخامِ الأَحْوال؛ عاقَبهُ اللَّهُ علىٰ ذٰلكَ بأن يزيدَهُ فَقْر نفسٍ وَضَرعَ خَدٍّ[6]، فلا تَسُدُّ

---

(١) أي سُدّة دفعه وضربه حتى يسمع له صوت، وهو ضد سكون العرق الذي دعابه النبي ﷺ، في حديث سابق.

(٢) في التاج (نعر): «قال الأزهري: قرأت في كتاب أبي عمرو الزاهد منسوباً إلى ابن الأعرابي: جرح نعار، وهو الذي لا يرقأ..».

(٣) رواه الترمذي رقم ٢٤٦٧، والدارمي ١: ٩٦ من المقدمة، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠: ٢٤٧. وانظر الترغيب والترهيب ٤: ٨٢. ورواية الترمذي هي: «من كانت الآخرة همّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما تدّر له».

وأما رواية الدارمي فهي: «فهومان لا يشبعان فهوم في العلم لا يشبع منه، وفهوم في الدنيا لا يشبع منها، فمن تكن الآخرة همه وبثه وسدمه يكفي الله ضحيته ويجعل فقره بين عينيه، ثم لا يصبح إلا فقيراً ولا يمسي إلا فقيراً». وانظر أيضاً الفتح الكبير ٣. ٢٣٢ وكنز العمال ٣: ٦١٨٦ و١٦: ٤٤١٦٠، والنهاية واللسان والتاج (سدم).

(٤) السّدم: اللَّهَجُ والولوع بالشيء، وهو هم في ندم.

(٥) أي يجب تقييده بتثميرها طلباً للمباهاة بها والاستعلاء على عباد الله، أما من يثمر الأموال يريد بها صالح الجماعة الإسلامية فهذا محبوب من الله ومن الناس؛ وله الجزاء الأوفى.

(٦) يقال ضرع فلان إلى فلان: إذا ذلّ واستكان وخضع. ونسبة الفرع إلى الخد أجود وأبلغ، لأن الخدّ =

مَفاقِره[1] كثيرةُ ما جَمع وعدَّد، وعَظيمُ ما أَثَّـلَ[2] وثَمَّرَ، فكـأنّه يـرَى الفقْرَ بين عَينيه، فهو أَبداً خائفٌ من الوُقوعِ فيـه والانتهاءِ إليـه، فلا يـزالُ آكِلاً لا يشْبَـعُ وشارِباً لا يَنْقَع[3].

فمعَـهُ حِرْصُ الفُقـراء، وله مـالُ الأَغنياء. وقـال عليه الصّـلاة والسَّلامُ: « جعَل فقراً بين عَيْنَيه » مبالغةٌ في وصفِه بتصوّر الفَقر فكأنّهُ قـريبٌ منه، وغيـرهُ غائبٌ عنه كما يقول القائل لغيره، إذا أرادَ هذا المعنى: حاجَتُك بين عَيْنَيّ، أي هي متصوّرةٌ لي وغيرُ غائبةٍ عن قَلبي.

[٩٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4] في صِفَةِ شَاءٍ[5] ذكرها:

« **فجاءَتْ به كلِّه قَالِبَ لَوْنٍ غَيْرَ وَاحِدٍ أو اثنين[6]** ».

وهذه استعارةٌ، وأن ألـوانها جـاءت مُستاويـةً، فكأنّمـا أُفرغت في قـالبٍ واحِدٍ، وهذه من أحسنِ العِبارات عَنْ هٰذا المَعنى وذلك كما يقول القائلُ منا، إذا أرادَ أن يصفَ قَوماً متشَابهين في الخَلْق والمَنَاظر، أو في الطِّبائع والغَرائز: كأنما طُبِعُوا على سِكّةٍ واحِدة، أو خُلِقُوا من طينةٍ واحدة.

= هو موضع التكريم في الوجه، فإذا كان ذليلاً؛ كان الجسـم كلـه ذليلاً، وكانـت النفس خاضعـة مستكينة.

(١) المفاقر: وجوه الفقر يقال: سد الله مفاقره: أغناه.

(٢) أي كثر ماله وأوفره ليستثمره.

(٣) لا ينقع: أي لا يرتوي، يقال نقع الماء غلة العطشان: أي رواه.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٣ : ٢٧٧ (سورة القصص الآيات ٢٣ ـ ٢٨)، والفائق والنهاية واللسان والتاج (شبع وقلب).

(٥) الشاء جمع شاة: وهي الواحدة من الضَّأْنِ والمعز، والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش.
أي في صفة شياه ذكرها، وهذه الشياه هي التي رعاها موسى عليه السلام لشعيب عليه السلام، وكان رعيها ثماني حجج مهراً لابنته التي تزوجها موسى عليه السلام، وقد سمح شعيب لموسىٰ من نتاج الغنم بما كان لونه مخالفاً للون أمه، فلم تجيء منها كذلك إلا واحدة أو اثنتان.

(٦) أي أنها جاءت على غير ألوان أمّهاتها، كأن لونها قد انقلب.

(٧) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم، رأي القالب الذي تصب فيه المعادن التي تصنع منها =

[١٠٠] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1] :

« خَيْرُ الخَيْلِ الأَدْهَم الأَقرحُ المُحَجَّل ثلاثا، طَلْقُ اليَدِ اليُمْنَى »[2] .

وهذه من محَاسن الاستعاراتِ لأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبَّه الثـلاثَ من قوائمِه لالتفافِ التَّحجيلِ عليها بالثلاّثِ المعقولةِ من قوائِم البَعير، والمَشْكُولـة من قَوائم الفَرَسِ. وشَبَّه اليُمنى منها لِخُلُوِّها من التَّحْجيلِ بالمُطلقةِ من العِقالِ[3]، أو العاطلةِ من الشِّكال[4].

= الدراهم على شكله؛ يريد كأنهم طبعة واحدة لقالب واحد.

(١) رواه ابن ماجه ٢ : ٩٣٣، وروايته فيه: «خير الخيل الأدهم، الأقرح، المحّجل، الأرثم، طلق اليد اليمنى. فإن لم يكن أدهم ، فكميت، على هذه الشِّيَةِ».
ورواه أيضاً الترمذي رقم ١٦٩٦ و١٦٩٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٦ : ٣٣٠.

(٢) الأدهم: أي الأسود، والأقرح من الخيل: ما كان في جبهته قُرحة، وهي بياض يسير في وسط الجبهة، والمحّجل: اسم مفْعول من التحجيل وهو الذي في قوائمه بياض، ويكون في رجلين ويد وفـي رجلين فقط، وفي رجل فقط، ولا يكون في اليدين وحدهما بل يكون فيهما مع الرجلين، ولا يكون في يد واحدة دون الأخرى إلا مع الرجلين، ومعنى المحجل ثلاثاً: أي الذي بثلاث من قوائمه بياض، هي الرجلان وليد اليسرى بدليل قوله:
طلق اليد اليمنى. ورواية (المحّجل ثلاثاً) تفرّد بها الشريف وهي غير موجودة في الكتب التي خرّجنا منها هذا الحديث.
وقال ابن الأثير في النهاية ١ : ٣٤٦ (حجل): «هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد، ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين؛ لأنهما مواضع الأحجال وهي الخلاخيل والقيود، ولا يكون التحجيل باليد واليدين ما لم يكن معها رجل أو رجلان».
وطلق اليد اليمنى: إذا لم تكن مُحَجَّلة؛ أي مطلقها ليس فيها تحجيل. والأدهم: الفرس الذي في شفته العليا بياض. والكميت: هو الذي لونه بين السواد والحمرة، يستوي فيه المذكر والمؤنث.
والشِّية: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره، وأصله من الوشي، والجمع شيات، والهاء فيها عوض عن الواو الذاهبة من أوله، كالزنة والوزن.

(٣) العقال: القيد.

(٤) الشكال: الحبل.

ويقال ناقة عُلط[1] إذا لم تكن مَوْسُومة[2]، ويقال طَلْقٌ إذا لم تكن مَعْقُولة، وناقَةٌ عُلُطٌ إذا لم تكن مَزْمومة[3].

[١٠١] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام[4] لِسُرَاقة بن مالك المُدْلِجيّ[5] لما خَرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مَكّة مُهاجراً إلى المدينة، وقد لَحِقَ به وهو بعدُ على شِرْكه[6]:

« **قفْ ها هُنا فعَمِّ علينا بتَهَوُّرِ النُّجُوم** ».

وهذه استعارَةٌ فكأنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام شبّه السَّماء وما فِيها من مواقع الكواكب ومراقِب الثوَّاقِب بالأَبنية المَوْطودة[7]، والدّعائِم المَرفُوعة، وجعَل تزَحْزُحَها عن مطَالِعها وانصبَابَها بعد ترفُّعِها كالبِناء المُتَهوِّر[8] والسَّقف المتقوّض[9].

[١٠٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث طويل، وقد خط

---

(١) عَلَطَ البعير علْطاً: كواه في علاطه فأعلمه بعلامة فيه. فهو معلوط.

(٢) أي معلمة بالوسم، وهو كي في عنقها.

(٣) الزمام: الخطام الذي يخطم به البعير، فالناقة غير المزمومة هي غير المخطومة.

(٤) لم نجده في دواوين السنة ولا في كتب اللغة.

(٥) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أبو سفيان: صحابي، له شعر، وكان في الجاهلية قائفاً (القيافة: اقتصاص الأثر وإصابة الفراسة)، وأخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر. وأسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ، وحسن إسلامه، وهو الذي ساخت قوائم فرسه، والذي ألبس سِوَارَيْ كسرى في الخبرين المشهورين. مات سنة ٢٤ هـ. (الإصابة ت ٣١٠٩ وأسد الغابة ٢: ٣٣١ والوافي ١٥: ١٣٠).

(٦) وذلك عندما هاجر سيدنا محمد ﷺ، وقد أسلم سراقة بعد ذلك بثماني سنين بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ.

(٧) أي مثبتة.

(٨) المتهور: المتهدم؛ وهو مستعار من تهوّر البناء وهو انهدامه، والغرض إدباره، ومثله قولهم: تقوض الليل.

(٩) المتقوض: المتهدّم أيضاً، أو هو الذي نزعت منه الأعواد والقوائم والأطناب.

في الأرض خطوطاً يمثل بها أحوال ابن آدم فقال صلى الله عليه وآله[1]: « **وهذه الخطوط إلى جنبه الأعراضُ تنهشه من كل مكان فإن أخطأه هذا أصابه هذا** ».

وفي هذا الكلام مجاز، وقوله عليه الصلاة والسلام: وهذه الخطوط إلى جنبه الأعراض تنهشه، ويروى تنغشه بالغين[2] والمراد بذلك أعراض الدنيا، وهي ما تعرض فيها من المصائب وتطرق من النوائب، وشبهها عليه الصلاة والسلام بالحيات الناهشة والذؤبان الناهسة[3] لأخذها من لحم الإنسان ودمه وتأثيرها في نفسه وجسمه.

[١٠٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« **لا يُصَلِّ الرَّجُلُ وهُوَ زَنَاءٌ** ».

وهذا القولُ مجازٌ لأن أصل الزَّناءِ الضيِّق والاجتِماع، وقال الأخطل يذكر حُفرَةَ القَبر[5]:

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٦، وابن ماجه ٢ : ١٤١٤، والبخاري ١٤ : ١١ و١٢، وهو حديث طويل، ونص الكتاب مثل رواية ابي ماجه للحديث.

وقوله: الأعراض وهي جمع عَرَض، وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير وفي الشر، والعرْض: ضد الطول.

والمعنى: الحوادث التي تعرض له كالأمراض والوقائع. وتنهشه: أي تصيبه، وعبر بالنهش ـ وهو لدغ ذات السم ـ مبالغة في الإصابة والإهلال.

(٢) النغش: تحرك الشيء في مكانه. والمعنى أنها تجعله مضطرباً غير ثابت.

(٣) نهس اللحم: أخذه بمقدم أسنانه ونتفه، وهذا أوجع وآلم من أحدّ قبضة كثيرة منه.

(٤) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (زنأ). وهناك ما يشبهه في كتب السنة وهو قوله ﷺ: «ولا يصلي وهو حقِن حتى يتخفّف» وقوله أيضاً: «ولا يقوم إلى الصلاة وهو حَقِن». انظر سنن أبي داود رقم ٩٠، والترمذي رقم ٣٥٧، والمسند ٥ : ٢٥٠، و ٢٦٠ و٢٦١.

قال الزمخشري: «هو في الصفات تطير براء وجواء وجبان، وهو الضَّيّقُ». وقال ابن الأثير: «أي حاقن بوله. . . والزَّناءُ في الأصل الضَّيْقُ، فاستعيد للحاقن لأنه يضيق ببوله».

(٥) الأخطل هو أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت، التغلبي (١٩ ـ ٩٠ هـ). أحد شعراء العصر الأموي الكبار. ويأتي بعد جرير والفرزدق فهو ثالثهما. وله ديوان شعر اعتنى به الرواة قديماً. وله أكثر من طبعة حديثة. منها واحدة بشرح السكري. حققها د. فخر الدين قباوة.

(الأغاني دار الكتب ٨ : ٢٨٠ والشعر والشعراء ١٨٩ وخزانة الأدب ١ : ٢١٩).

وإذا قُـذِفْتُ إلى الـزَّنـاء تَعـرُّهـا   غَبْـرَاءَ مُـظلمـةً مِنَ الأَجفـارِ[1]

ويقال: قد زَنأ بوله يَزْنأ زُنُوءاً إذا احتقن، وأَزنأ الرجلُ بولَه إزناءً إذا حقَنه، فسُمِّي الحاقِنُ زَنَاءً لاجتماع البولِ فيه وضيق وعائِه علَيه. وموضعُ المَجازِ من هٰذا الكلامِ أنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام وصَفَ الرَّجُلَ بالضِّيق وإنما الضِّيق وعاءُ البَول، إلا أن ذلكَ الموضعَ لمّا كانَ شيئاً من جُملته ونَوطاً مُعلّقاً به جازَ أن يُجري اسْمُه عليه. وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «لا يُصَلِّ الرَّجُلُ وهو زَنَاء» فيه من الفائدةِ ما ليسَ في قوله: وهو حاقن؛ لأن الحاقنَ قد يحقنُ القليلَ كما يحقنُ الكثِير، والزَّنَاءُ هو الضّيق، ولا يكاد يضيقُ وعاءُ البولِ إلا مِن الكَثيرِ دونَ القَليل.

[١٠٤] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسلام[2]:

«الحِجازُ قَطِيفَةُ الإيمانِ».

وهذه استعارةٌ؛ والمراد بها أنه يحيطُ بالإيمان ويجَمع شَمْله ويضمَّ أهله كما تضمّ القَطيفة، وهي الكِساءُ الغَليظ؛ جملةَ بدنِ الإنسانِ إذا اشتملَ بها ودخَل فيها. وإنّما قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلام ذلك لثبات عرَب الحجازِ من قُريش وغيرِها على الإسلامِ بعد دُخولهم فيه؛ فلم يرتدّ منهم أَحَدُ كغيرِهم ممّن خَلّى حَبْلَ الدّين عن يَدِنِه ورجعَ على عَقِبه.

وقال أصحابُ الآثار[3]: ما من قبيلةٍ من قبائِل العَربِ بعد وفاةِ النّبي عليه

---

(١) ديوان الأخطل: ٤١٨ وروايته ثمة مع البيت الذي قبله:

بأبـي سليمـان الـذي لولايدُ   منـه علقـت بظهـر أحـدبَ عاري
وإذا دُفعـت إلـى زنـاء بابها   غبـراء مظلمـة من الأجْفارِ

الزناء: الضيق من كل شيء. يقال: زنأ الشيءُ يزنأه ويقال: زنأ المكانُ.

(٢) في دواوين السنة: «الإيمان في أهل الحجاز». انظر مسلم رقم ٥٣، والمسند ٣: ٣٣٢ و٣٣٥ و٣٤٥. والحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها، أي قراها، وكذلك اليمامة فإنها من الحجاز.

(٣) وهذا يصدقه قول الطبري ٣: ٢٢١: «لما فصل أسامة كفرت الأرض وتصرّمت وارتدت من كل قبيلة =

الصَّلاةُ والسَّلام إلا وقد فشا فيها الارتداد عامّة أو خاصّة إلا قريشاً وثَقِيفاً، فإنه لم يَرتدّ منهم أَحَدٌ، هٰذا على أنّ هاتين القَبيلتين كانتا في أَوّل الإسلامِ أشدَّ نِكايَةً، ولرسول الله صلى الله عليه وآله أَحضر [1] عَداوة.

[١٠٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [2] :

« **إنَّ هٰذِهِ المسائلَ كَدٌّ يَكُدُّ بها الرَّجُلُ وَجْهَهُ** »، وفي هذا الكلام استعارةٌ على تأويلِ الكدّ في العربيّة.

وأحـدُ التّأويلين أن يكـونَ الكَدُّ بمعنى الإتعـابِ والإنصـابِ كمـا يقـول القائلُ: كدَدْتُ فَرسي إذا أرادَ أنّه أتْعَبُه واستَنْفَدَ طاقَته. فعلى هٰذا التّأويل يكون معنى كَدِّ الرجل وجْهَه بالمسَائل أنّه لكثرةِ بَذْلِه في السُّؤال وطلب ما في أيـدي الرّجال قد أَجْراهُ مَجرى المطيّـةِ التي يُحْضِرهـا بكثرةِ الحَـلّ والتَّرْحـال، وقطع المسافات الطوال.

والتأويلُ الآخَرُ أن يكون الكَدُّ مأخـوذاً من استِقْصاء النَّـزْح ماءَ الـرّكيَّة [3] حتى يبلغَ حَمْأتها [4] ويستنفدَ غَمْرتها [5].

يقال، كد الرَّكِية، واكتدهـا: إذا فعَل بها ذٰلك.

= عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً».

وفي جوامع السيرة لابن حزم: ٣٣٩: «لما توفي رسول الله ﷺ، ارتد أكثر العرب ـ وثبت أهل البحرتين من أهل مكة والطائف، وكثير من سكن اليمن ـ فبعضٌ كفر وارتد. . . ».

(١) المحاضرة: المجالدة، والمراد بقوله:
أحضر عداوة: أشد عدواة.

(٢) رواه الترمذي رقم ٦٨١، وأبو داود رقم ١٦٣٩، والنسائي ٥: ١٠٠، وأحمد في المسند ٥: ١٠ و١٩.

(٣) الركية: البئر.

(٤) حمأة البئر: طينتها؛ أي ترح ماء البئر جميعها حتى وصل إلى الطين الموجود في قعرها.

(٥) غمرتها: معظم مائها.

قال الشاعر[1]:

أَمُصُّ ثِمـادِي والمِيـاهُ كثيـرةٌ ... أُعالجُ منهـا حَفْرها واكْتِدَادَهَـا[2]

ويكـون قولُ القـائِل على هـذا التـأويـل كـدَدْتُ فـرسي أي اعتصَـرتُ مـادّتـه واستَقْصَيت ما عِنده، فيكون كَدُّ الوَجْهِ على هذا القَوْلِ يُرادُ بِهِ اعتِصـارُ مائِـه واستِقْطارُ حيائه. ومن المُتَعارف بيننا أن يقولَ القائلُ إذا أَراد هـذا المعنى: قد هَرَقْتُ[3] ماءَ وَجْهي بكثرةِ الطَّلَبِ إلى فُلان، والرّغبة فيما عند فُلان.

[١٠٦] ومن ذلك قوله عليه الصّلاةُ والسّلام للرجلِ الذي قـال لبعضِ الصَّحابة[4]: إنْ فَتَحَ اللَّهُ عليكم الطائِفَ فَسَلِ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أنْ يَهَبَ لك نادية بِنْتَ غَيْلانَ بن سَلَمةَ[5] فإنّهـا إذا قامَت تَثَنَّتْ وإذا تكلّمَتْ تَغَنَّتْ

(١) قال في البيان والتبيين: «وقال بعض الحجازيين»، وفي مجالس ثعلب: «أنشدنا أصحابنا»، وهو أيضاً بلا نسبة في اللسان والتاج (كدد).

(٢) البيت في مجالس ثعلب ٢: ٥٩٦ بلفظ (أحاول يوماً) وفي البيان ٣: ٣٣٨: (أكدُّ ثمادي، واللسان والتاج (أحاول منها).

وقال ثعلب: «يقول: أرضى القليل وأقنع به. والثماد: الماء القليل» والكد والاكتـداد: النـزع باليد، يكون ذلك في الجامد والسائل، واكتداد المياه: استخراج غايتها حتى لا يبقى شيء منها. وكانت (حفرها، بالفاء) في طبعات الكتاب السابقة بالقاف (حقرها)، وهو تحريف صوابه ما أثبتناه.

(٣) هرقت الماء وأرقته: صببته.

(٤) هو عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة كما في أسد الغابة ٥: ٤٢٣، والإصابة ٣: ٥٨٠، والمغـازي ٣: ٩٣٣، والبداية والنهاية ٤: ٣٤٩، والسيرة الحلبية ٣: ٧٨، وفتح الباري ١١: ٢٤٨، وقيل: هو عبد الرحمن بن أبي بكر، الإصابة ٣: ٥٨٠، وقيل: هو عمر بن أم سلمة أم المؤمنين كمـا في الأغاني ١٣: ٢٠١، وقيل غيرهم.

(٥) هي بادية (بالباء، على خلاف في ذلك) بنت غيلان بن سلمة بن معتّب بن مالك الثقفية: صحابيه، أسلمت لما أسلم أبوها، وروت الأحاديث عن سيد المرسلين، وهي التي قال عنها هيت المخنث: (تقبل بأربع وتدبر بثمان). وحول ضبط اسمها خلاف كبير، والأشهر أنه بالباء والياء.

(أسد الغابة ٧: ٣٤ والإصابة ٤: ٢٤٢ وفتح الباري ١١: ٢٤٨ ـ ٢٤٩ والمغازي ٣: ٩٣٢ والسيرة الحلبية ٣: ٧٨ ـ ٧٩.

(*)وغيلان بن سلمة بن معتب بن مالك الثقفي: صحابي، حكيم، شاعر جاهلي، أسلـم بعـد فتـح

في كلامٍ طويل بلغَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام عنه. وكان هذا الرجل من مُخَنَّثي[1] المَدِينة فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلام[2]:

« لقد غَلْغَلْتَ النَّظَرَ يا عَدُوَّ اللَّهِ ».

وفي هذا الكلامِ استعارَةٌ لأنّ غلغلةَ الشَّيء هو إدخالُه في شيءٍ يلبِسَ به ويصيرَ من جُملته؛ وذلك لا يصحّ في نظرِ الإنسانِ إلا على طريقِ الاتّساع والمجَاز.

فكأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام أرادَ أنّ هٰذا الإنسان بلغَ بنظرِهِ من محَاسِنِ هٰذهِ المرأةِ إلى حيثُ لا يبلغُ ناظِرٌ ولا يصِلُ واصِلٌ؛ فكان كالشَّيءِ المُتَغلغِل الذي يَدِقُّ مَدْخَلُه ويلطفُ مَسْلَكُه ويبعُدُ مُتُولَّجُه[3].

وروى لنا أبو عليّ الحسنُ بنِ أحمد بن عبد الغَفّار النَّحوي الفارِسِي[4]

= الطائف وهو أحد وجوه ثقيف ومقدميهم، وهو ممن وفد على كسرى وله معه خبر طريف. وكان شاعراً محسناً، توفي في آخر خلافة عمر بن الخطاب (رض) سنة ٢٣ هـ. (أسد الغابة ٤: ٣٤٣ والإصابة ت ٦٩٢٦ والاستيعاب ٣: ١٨٦ والأغاني ١٣: ٢٠٠ وفتح الباري ١١: ٢٤٨ و٢٤٩.

(*) وكانت غزوة الطائف في شوال سنة ٨ هـ.

(١) هو هِيْتٌ الخزاعي المخنث؛ كان يدخل على أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، فنفاه النبي ﷺ من المدينة المشرفة إلى الحمى فاستمر على ذلك إلى خلافة عمر، فجهد، فكان رخّص له أن يدخل المدينة فيتصدق عليه يوم الجمعة ويستطعم ويرجع حتى مات. (الإصابة ت ٩٠٢٢ وأسد الغابة ٥: ٤٢٣ وفتح الباري ١١: ٢٤٨ و٢٤٩ والأغاني ١٣: ٢٠١ وجامع الأصول ٦: ٦٦١ والفائق ٤: ١٢٢ والنهاية واللسان والتاج (هيت، وضع).

(٢) انظر فتح الباري ١١: ٢٤٩ والسيرة الحلبية ٣: ٧٩. وانظر في هذا الخبر المغازي ٣: ٩٣٣. والبخاري ٨: ٣٥ و٣٦، والموطأ ٢: ٧٦٧، ومسلم رقم ٢١٨٠، وأبو داود رقم ٤٩٢٩.

(٣) متولّجه: مدخله، وتولّج في البيت وعلى القوم: دخل.

(٤) هو أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد بن أحمد بن عبد الغفار، شيخ العربية في زمانه، وأحد الأئمة في علم العربية. ولد في فسا، ودخل بغداد، وتجوّل في البلاد، ثم استقر في بغداد إلى أن

في كتابه الموسوم بالإيضاح[1] إجازةً، وأنشدَناه الشّيخان أَبو الفتح[2] وأبو الحسن[3] النّحويان ملافَظةً قول الشاعر[4]:

طُلِيْنَ بِكَدْيُونٍ وأشْعِرْنَ كُرَّةً
فهنّ إضاءٌ صافياتُ الغلائلِ[5]

والكَدْيون: عكَرُ الزّيت تُطلى به الدُّروع وتُحمى به في النّار لتذهبَ أَصداؤُها وتصفُو أَلْوانُها.

وقيل أيضاً إن الكَدْيُون اسمٌ من أسماءِ التُّراب. والكُرَّة: البَعرُ التي يوقدُ به النارُ عليها، وقيل: في الغَلائِل التي ذكرها الشاعر في هذا البيت قولان:

فأحدهُما أنها اسمٌ لبطائن وشِعارات تُلْبَسُ تحت الدُّروع، والواحدةُ: غِلالة، وإنما سُمّيت غَلائل لانغِلالها بين الدُّروع والأَجساد.

والثاني: أنها المَسامِيرُ التي تجمعُ بين رُؤوس الحَلق، والواحدةُ غَلِيلة

= توفي بها سنة ٣٧٧ هـ. وكان متهماً بالاعتزال، وله شعر قليل. (تاريخ بغداد ٧: ٢٧٥، وفيات الأعيان ٢: ٨٠، وإنباه الرواة ١: ٢٧٣، ونزهة الألباء: ٣١٥.

(١) صنّفه لعضد الدولة البويهي، وهو في قواعد العربية، وهو مطبوع.

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جني، (توفي سنة ٣٩٢ هـ). وقد سبقت الإشارة إليه.

(٣) هو أبو الحسن الربعي، علي بن عيسى بن الفرج. وقد سبقت الإشارة إليه.

(٤) هو النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، أبو أمامة الذبياني الغطفاني المضري: شاعر جاهلي، من مقدمي شعراء الجاهلية. وهو من أهل الحجاز. وكانت تنصب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء، فتعرض عليه أشعارها.

(٥) البيت في ديوانه: ٧١ من قصيدة طويلة، وروايته فيه:

عُلِيْنَ بكدَيْونٍ وأُبْطِنّ كُرَّةً فهنّ إضاءٌ صافياتُ الغلائلِ

وجاء في شرح البيت في الهامش: عُلين: طلين، يعني الدروع. بكديون، قال أبو عمرو: وهو دُرديّ الزيت تجلي به الدروع. والكرَّة: البَعَرُ، فيجلي بهما الدروع. فهن إضاء، يعني الغدران؛ شبَّه صفاء الدرع بها. والغلائل: ثياب تلبس تحت الدروع. ويقال: كل ما طليت به من دسم فهو كديون.

وإنما سُمّيت بذلـك لأنّها تُغَـلّ في الدُّروع: أي يُسْتَقْصىٰ إدخـالُها فيهـا فتَصيرُ كالأَجْزاءِ مِنها.

[١٠٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل(١):

« **وَلَيْسَ مِنْ مَلِك إلاّ وَلَهُ حِمىً، أَلَا وَإنّ حِمىَ اللَّهِ مَحَارِمُـه؛ فمن أَرْتَع حَوْلَ الحِمى كَانَ قَمَناً أَنْ يُرْتِعَ فيه** ».

وهذا الكلامُ مجازٌ؛ لأنّهُ عليه الصَّلاة والسَّلام شَبّه ما حَظَره اللَّهُ سُبْحَـانَهُ من محارِمه بـالحِمىٰ الذي يَحْمِيـه ذو السُّلطان والمَلَكـة، من مَواقِـع السَّحاب ومنابِت الأعشابِ، فلا ترعىٰ فيه إلا إبِلُه ولا ينزلُ به إلا حَيُّه، وما كان يفعل ذلك من العرب إلا الأعَزُّ فالأعز، والأَبَرُّ فالأَبَرّ(٢)، حتى ضربت العربُ المَثل بحمىٰ كُلَيب بن ربيعة(٣)، وهو كُلَيب وائل في أنّه رَجُلٌ حَرَامٌ وممنوعٌ لا يُرام، فقالوا:

---

(١) رواه البخاري ١ :١١٧، ومسلم رقم ١٥٩٩، وأبو داود رقـم ٣٣٢٩، و٣٣٣٠، والترمـذي رقـم ١٢٠٥، والنسائـي ٧ :٢٤١، وابـن ماجـه ٢ :١٣١٩، والدارمـي ٢ :٢٤٥، وأحمـد في المسنـد ٤ :٢٦٧ و٢٦٩ و٢٧١. ورتع حول الحمى: إذا طاف به ودار حوله.

والحمى: قال النووي: إن الملوك من العرب وغيرهم، يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس (أي أرض) ويمنعهم دخوله. فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه.

(٢) يقال أبرّ فلان على القوم: غلبهم. والمعنى على ذلك: الأغلب فالأغلب.

(٣) كليب بن ربيعة التغلبي الوائلي: سيّد الحيّين (بكر) و (تغلب) في الجاهلية. ومن الشجعان الأبطال، وأحد من تشبهوا بالملوك في امتداد السلطة، وكانت منازله في نجد وأطرافها؛ وبلغ من هيبته أنه كان يحمي مواقع السحاب، فيقول: ما أظلته هذه السحابة في حماي: فلا يرعى أحد ما تظله: وكان يقول: وحش أرض كذا في جواري، فلا يصاد، وكان لا يورد أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره . . . وهو أخو مهلهل بن ربيعة، وخال أمرىء القيس بن حجر الكندي. قتله جسّاس بن مرّة البكري الوائلي، فثارت حرب البسوس بين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة، وهي أطـول حرب عرفت في الجاهلية، وكاد مقتله سنـة ١٣٥ ق. هـ = ٤٩٢ م. (سـرح العيون ٩٢، وابـن الأثير ١ :٥٢٣ ونهاية الأرب للنويري ١٥ : ٣٩٧ والنقائض ٢ :٩٠٥.

أَعَزُّ من حِمَى كليب[1]، فجعلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ما حَظَره اللّهُ سبحانَهُ على العِباد من المَحارِم كالحِمى الذي يجبُ عَليهم ألاّ يَطُوفوا به ولا يَمُرّوا بجوانِبه، ومَنْ خالَف اللّهَ منهم أرْصَد له العِقابَ وانتظَر له النَّكال[2].

فما حرّم سبحانَهُ من الأشياءِ حِمىً لا يُرعى، وما أَحلّ منها مَرْعًى لا يُحمى. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فمن أَرْتَع حول الحمى كان قمناً أن يُرتِعَ فيه»، يريد به التَّحذيرَ من الإلمام بشيءٍ من صَغائِر الذُّنوب لئلا يكونَ ذلكَ مُجَرِّئاً على الوُقوع في كبائِرها والتهُّوكِ[3] في مَعاظمها، وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى.

وهذا الغَرضُ نحاه[4] عمر بن عبد العزيز[5] بقوله:

دَعْ بَيْنك وبينَ الحَرامِ جُزْءاً من الحَلالِ؛ فإنّكَ إن استَوْفَيْتَ الحَلالَ كُلَّه تَاقَتْ نَفْسُكَ إلى الحَرام.

[١٠٨] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام: لزيد بن أرقم[6] وقد كان

---

(١) المثل في الدرة الفاخرة ١: ٣٠٠ والوسيط ٤٦ وجمهرة العسكري ٢: ٦٥ والفاخر ٩٣ والميداني ٢: ٤٢ وأمثال العرب للضبي ١٢٩ والزمخشري ١: ٢٤٦ والثمار ٩٩ والأغاني ٥: ٢٩ والحيوان ١: ٣٢٠ والعقد ٥: ٢١٣ ورواية المثل في كتب الأمثال والأدب والتاريخ هي:.

«أعزّ من كليب بن وائل».

(٢) النكال: العقاب أو النازلة أو الفعل الذي يقع بالشخص فيحذر غيره الوقوع في مثله.

(٣) التهوّل: التهور والوقوع في الشيء بلا مبالاة، وأصله السقوط في هوّة الردى والاضطراب في القول.

(٤) نحاه: أي قصده وأراده.

(٥) عمر بن عبد العزيز بن مروان، أبو حفص الأموي: الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم. ولد ونشأ بالمدينة وتوفي بدير سمعان من أرض المعرة سنة ١٠١ هـ. (تاريخ الخلفاء ٢٢٨ وحلية الأولياء ٥: ٢٥٣ وتهذيب التهذيب ٧: ٤٧٥ والسير ٥: ١١٤).

(٦) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري: من مشاهير الصحابة، غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة،

رَقَّى [1] إليهِ صلّى اللّهُ عليه وآلهِ في غزوةِ المُرَيْسِيع [2] كلاماً سَمِعَهُ من عبدالله بن أُبَيّ بن سَلُول [3] فيه طَعْنٌ علىٰ المهاجِرين وغَمْضٌ [4] لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو مَشْهورٌ في كتب المغازي [5] فاتَّهمت الأنصارُ زَيداً في حكايَتِه، وكانَ إذْ ذاكَ صغيرَ السنِّ حتى نزلَ القُرآن بتصدِيقه في السُّورة التي يُذْكَرُ فيها المُنافقون وذلك قوله سبحانه [6]:

﴿ يقولون لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ولله العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ وللمُؤْمِنِينَ وَلكنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾. فدعَا النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ زيدَ بن أَرقم، وهو مُتَأَثِّرٌ على ما فيه مأخذ بأُذنه فرفعه، ثم قال له [7]:

= وشهد صفّين، ومات بالكوفة سنة ٦٨ هـ. (طبقات ابن سعد ٦: ١٨ وأسد الغابة ٢: ٢١٩ والسير ٣: ١٦٥).

(١) رَقّى إليه كلاماً: أبلغه إياه وأصل رقّى: رفّع؛ وهذا مناسب لمقام الرسول ﷺ.

(٢) المريسيع: ماء لبني خزاعة، بينه وبين الفُرع يومان، وبين الفرع والمدينة ثمانية برد، وإليه تضاف غزوة بني المصطلق وكانت في السنة السادسة من الهجرة النبوية.

(٣) عبدالله بن أبيّ بن سلول، أبو الحُباب الخزرجي: رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة، وكان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر، تقية، ومات بالمدينة سنة ٩ هـ. (تاريخ الخميس ٢: ١٤٠ والمحبر ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣: ٢: ٩٠.

(٤) الغمض: التنقيص.

(٥) انظر المغازي للواقدي ١: ٤٠٤ وابن هشام ٢: ٢٨٩ وابن سعد ٢: ١: ٤٥ وابن سيد الناس ٢: ١٢٢ وابن كثير ٤: ١٥٦ وتاريخ الخميس ١: ٤٧٠ والسيرة الحلبية ٢: ٥٨٣.

(٦) الآية ٨ من سورة المنافقين، وانظر تفسيرُ القرطبي ١٨: ١٢ ـ ١٢٩.

(٧) الحديث في النهاية واللسان والتاج (وفي). ورواه البخاري ٨: ٤٩٤ و٤٩٦ و٤٩٧ و٤٩٩ في تفسير سورة المنافقين، ومسلم رقم ٢٥٠٦ و٢٧٧٢، والترمذي رقم ٣٣١٤ و٣٨٩٨، وأحمد في المسند ٤: ٣٧٣، والطبراني (٥٠٥٠). ورواية الحديث عندهم في: «هذا الذي أَوْفَى لله له بأُذُنه، وإن الله قد صدَّقك يا زيد».

وأوفى الله بأذنه: أي أظهر صدقه في إخبار عما سمعت أذنه. وقال ابن الأثير في شرح الحديث: «كأنه جعل أُذُنه في السماع كالضامنة بتصديق ما حكت، فلما ترك القرآن في تحقيق ذلك الخبر صارت الأذن كأنها وافية بضمانها، خارجة من التهمة فيما أدّته إلى اللسان».

« وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ وصَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ »، فقوله عليه الصَّلاة والسلام: « وفَتْ أُذُنك » مجاز كأنّهُ جعَل أُذُنَهُ في سَماعِها ما سمعت كالضَّامِنَةِ لتصديقِ ما حكتْ؛ لأنّهُ صَدق في نفِسه. فلمّا نزَل ما نَزل في القرآنِ في تحقيقِ ذلكَ الخَبرِ صارَتْ الأُذن كأنها وافِيَةٌ بضَمانِها وخارجةٌ من الظِّنّةِ فيما أَدَّتْهُ إلى لسانِها.

وهذا من غريب المجازات.

[١٠٩] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[١]:

« حَسّـانُ حِجَازٌ بين المُؤمنين والمُنـافقين، لا يُحبُّه مُنَـافِقٌ، ولاَ يُبْغِضـهُ مؤمنٌ ».

وفي هذا الكلام مجازٌ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّـلام جَعَلَ حَسّـان كالسِّيـاج المَضْرُوب بين حَيِّزي الإيمان والنِّفاق، فمَنْ كانَ في حَيِّز الإيمـانِ أحبَّه، ومن كانَ في حَيّز النِّفاقِ أبْغَضَه.

وذلـك لِما كـانَ يَظْهـر عَنْهُ من المُنَـافَحة عن رَسُـول الله صلّى اللَّهُ عليه وسَلّم، بسيفِ لسانِه ونوافِذ أَقوالِهِ، فكانَ قولُه يَسُرّ المُؤمنين ويْغِبـطُهم، ويَسُوء المُنافقين ويُزْعِجُهم. وهذا الكلامُ عِندنا[٢] في حَسّان متعلّقٌ بوقتٍ مخصوصٍ، وهو زمن النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) انظر الفتح الكبير ٢ : ٧١، وكنز العمال ١١ : ٣٣٢٤٥، ومختصر ابن عساكر لابن منظور ٦ : ٢٩٣، والسير ٢ : ٥١٨، والوافي ١١ : ٣٥٣. وحسان في الحديث هو حسان بن ثابت الأنصاري أبو الوليد الصحابي، وشاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. توفي بالمدينة سنة ٥٤ هـ.

(٢) كان حسان (رضى) عثمانيّ الهوى، وكان ممن شارك في إثارة السؤال الذي يستفسر عن مقتل عثمان، هل قتل ظالماً أو مظلوماً، حتى إنه امتنع عن مبايعة عليّ بالخلافة. ويظهر أن حسان استمرّ في معارضة عليّ طوال فترة خلافته القصيرة.. (انظر الأغاني ١٥ : ٢٩ (الساسي)، والطبري ٤ : ٤٢٩).

فأما حينَ ظاهَرَ أميرَ المؤمنين عليه السّلام[1] بِعَداوته ورمَاه بمعاريضِ القَولِ[2] في أشعارِه فقد خَرج من أنْ يكُونَ حِجازاً بين الإيمانِ والنّفاق وتحيز إلى جانب النّقمة والضَّلال!

[١١٠] ومن ذلكَ قولهُ عليه الصَّلاة والسَّلامُ في كلامٍ تكلَّمَ بهِ عند مُنْصَرَفِهِ من تَبُوكَ[3]: « **فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إلاَّ رَجُلٌ في الْحَرَمِ مَنَعَهُ الْحَرَمُ مِنْ عَذابِ اللّهِ** ».

وفي هذا الكلام مجازان:

أحدهما: قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « تحتَ أُديم السماء »، فجعَل للسّماءِ أَديماً؛ يريدُ: ما ظَهر منها للأبصارِ تَشْبيهاً بأَدِيمِ الحيَوان، وهي الجلُود التي تلبسُ الأجسادَ وتُغَطّي اللُّحوم والعِظام. ويقالُ أَيضاً: أَديم الأَرض، ويُراد بهِ ما ظَهر من صَفحاتها التي تُباشِرُها النَّواظِر، وتَطَؤُها الأَقْدَامُ والحَوافِر.

والمجازُ الآخَرُ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: فمنَعَهُ الحَرمُ مِن عذابِ اللّه. والحَرمُ على الحقيقةِ غيرُ مانِعٍ من العَذابِ الذي يُريد اللّهُ سُبحانه أن يُنزلَهُ بالمُسْتَحِقّين؛ وإنّما المُرادُ أنّ اللّهَ تعالى جعَل الحَرم مَعاذةً لعبادهِ تَعْظِيماً لقدْرِه، وتَفْخِيماً لأَمْرِه، فمنْ استَجار به من عَذابِهِ عند مُواقَعةِ مَعْصِيَتِهِ جازَ أن يؤخّر عنه العذَاب ما كان مُتَعلقاً به.

وفي إقامةِ الحُدودِ على اللاّجيءِ إلى الحَرمِ خلافٌ بين العُلماء، ليسَ هذا موضِعُ ذِكره، ولا بدَّ أن يُوفيه تَعالى ما يَستحقّهُ من العِقاب في دارِ الجَزاء إلا أَن يكونَ منه توبةٌ يَسْقُط بها عقابُه أو طاعةٍ عظيمةٍ تَصْغُر معها مَعْصِيَتُه. فالحَرم لا

---

(١) هو الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٢) معاريض القول: أي الأقوال غير الصريحة في نقد الإمام عليّ.

(٣) غزوة تبوك كانت في رجب من سنة تسع من الهجرة انظر جوامع السيرة لابن حزم ص٢٤٩ وابن كثير ٥/٢.

يمنَعُ من العَذاب، وإنّما يمتنعُ اللّهُ سبحانَهُ من فِعله باللّاجِيء إليـهِ والعائِـذِ بِهِ للعِلّةِ التي ذَكَرْناها؛ فلمّا كان الله تَعالى إنّما يفعلُ ذلكَ لأجلِ الحَـرمِ جازَ أن يَنسِبَهُ إليه على طريقِ المَجاز وعادَةِ الاتّساع.

[١١١] ومن ذلك قولـه عليه الصـلاة والسلام[١]: « **أَوْثَقُ العُـرَى كَلِمَةُ التَّقوى** »،وهذه استعارةٌ لأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَعل التَّقْوى كالعُرْوةِ التي يتعلقُ بهـا فَتنْهض من المَعـاثِـر وتُنجّي من المَـزالِّ والمَـزالِق؛ لأنّ المُتَّقِي للّهِ سُبحانه يأمنُ من نَقماتِه وينجُو من سَطَواتِه، فيكـون كالمُمسـكِ بِعُروةِ الحَبْـلِ المتينِ والمُستند إلى النَّضَد[٢] الأمين.

[١١٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: وهو يتجهَّز لغزوة تَبُوكَ[٣]:

« **إنيِّ عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ** » وهذه استعارةٌ واقِعَةٌ موقِعَها ومُقَرطِسَة غَرَضَها[٤]؛ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام شَبّه السَّفَر بالطّائـرِ الذي قـد همَّ بالمـطارِ[٥]، وجعَل الآخذَ أُهْبَةَ المُسافِرِ كالكائِنِ على جَناحِ ذلكَ الطَّائرِ يُنْتَظِرُ نُهوضَهُ[٦] ويُرْقِب[٧] تحليقُه. ومما يؤكّد ذلك قولُهم للإنسانِ الذي تكثُر أسفارُه ويطولُ حَلّه وتَرْ حالُهِ

---

(١) في الترمذي رقم ٣٢٦١ عن النبي ﷺ: «وألزمهم كلمة التقوى»[الآية ٢٦ من سورة الفتح] قال: لا إله إلا الله». وانظر تفسير القرطبي ١٦: ٢٨٩.

(٢) النَّضَد: الجبل، والأمين: الذي يأمن من يستند إليه من أن يؤتى من وراء ظهره.

(٣) قال في تاج العروس (جنح): «ويقولون نحن على جناح السفر، أي نريده، وهو أيضاً مجاز».

(٤) الغرض: هو ما ينصب هدفاً لاصابته بالبندقية أو غيرها، ومقرطسه: أي مصيبة هدفها لأن القرطاس هو ما ينصب هدفاً أيضاً، فالقرطاس يسمى هنا غرضاً وهو في الوقت نفسه قرطاس، ويقال: رمى فقرطس إذا أصاب الهدف.

(٥) المطار: مصدر ميمي من طار؛ أي الذي هَم بالطيران.

(٦) يقال نهض الطائر إذا بسط جناحيه ليطير، ومصدره النهض والنهوض، وكانت في طبعات الكتاب السابقة (ينتهض نهوضه)، وقد أثبتنا هنا ينتظر بدلاً من (ينتهض) وهو تصحيف صوابه ما أثبتناه؛ أي ينتظر المتهيء للسفر نهوض الطائر.

(٧) يُرْقَب: أي ينتظر فهو من عطف المرادف، وهذا كثير في كلام الشريف.

« ما هو إلا طائرٌ طَيّار » عِبارةً عن التردّدِ في السّفرِ وكثرةِ الانزِعاجِ عن الوطن.

[١١٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [١]: « **النَّاسُ مَعَادِنُ** ».

وهذه استعارةٌ لأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبّه الناسَ بالمَعادِن التي تكونُ في قراراتِ الأَرضِ فلا يحكَمُ على ظَواهِرَها حتّى يستخرج دفائنُها ويستنبط كوامِنُها فيكون منها اللُّجَين [٢] والنُّضارُ [٣]، ويكون منها النِّفْطُ [٤] والقَار [٥]، **فكذلك النَّاسُ لا يجبُ [٦] أن يُحكَمَ على مَجالِيهم ولا يُقطع على بواديهم حتى** يُخْبَرُوا ويُعْرَفُوا ويُثارُوا ويُجْثَوا، فيُخْرِج البحثُ جواهِرَهُم ويمحص الامتحانُ مَخَابِرهم فيتبّين حِينئذٍ كرمُ النَّحائِز [٧] وطيبُ الغَرائِز وتكشف مِنهم الطّرائقُ ولئيم الخلائقُ.

[١١٤] ومن ذلك قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ [٨] في آخر **خطبةٍ خَطبها** ببطن عَرَفة [٩]، وذلك في حِجّة الوَداع [١٠]:

---

(١) رواه البخاري ٦ : ٧٦ و٦ : ٣٨٥، ومسلم رقم ٢٦٣٨ و١٨١٨، وأبو داود رقم ٤٨٣٤، وأحمد في المسند ٢ : ٢٤٣ و٢٥٧ و٢٦٠ و٢٦١ و٣٩١ و٣٩٥ و٤٣١ و٤٣٣ و٤٣٨. وانظر مسند الشهاب ١ : ١٤٥ و٢٥٤.

(٢) اللجين: الفضة.

(٣) النضار: الذهب.

(٤) النفط: الزيت الذي يستخرج منه البترول.

(٥) القار: القطران.

(٦) لا يجب: أي لا يلزم، يقال وجب الشيء: لزم.

(٧) النحائز: جمع نحيزة: وهي الغريزة والطبيعة.

(٨) رواه مسلم رقم ١٢١٨، وأبو داود رقم ١٩٠٥ و١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩٠٩، والنسائي ٥ : ١٤٣ و١٤٤، وابن ماجه رقم ٣٠٧٤.

(٩) عَرَفَة: هي عرفات، وهي قرية فيها مزارع وخضر ومباطح وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة.

(١٠) حجّة الوداع كانت سنة عشر هجرية.

« أَلَا إنّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تحت قَدَمِي مَوْضُوعٌ ».

وهذا القولُ مجازٌ والمرادُ به إذلالُ أمرِ الجاهليّة، وحَطُّ أعلامِها، ونقضِ أحكامِها كما يُستَذَلُّ الشَّيءُ الموطوءُ الذي تدوسُه الأَخامِصُ[1] السّاعِيةُ والأقْدامُ الواطِئَةُ، فلا يَبقى منه مرفوعٌ إلا وُضِعَ ولا قائِمٌ إلا صُرِعَ.

[١١٥] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ في وصيّةٍ وصَّى بها أسامةَ بن زَيد[2] لمّا أراد بَعْثَهُ إلى مُؤْتَة[3] ليثأرَ بأبيهِ[4] زيدٍ في كلامٍ طَويل[5]:

« واعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحتَ البَارِقَةِ ».

وهذا القولُ مجَازٌ، والبارقةُ ها هُنا السُّيوف، وليسَ الجَنّةُ تحتَها على الحقيقةِ؛ وإنّما المرادُ أن الصَّبْرَ تَحْتَها لجهادِ الكافِرين، ودِفاع أعداءِ الدّين يُفضي بالصَّابِرِ إلى دُخول الجَنّةِ ونُزولِ دارِ الأَمَنَة، فلما كانَ ذلكَ سبَب دُخولِها والوُصولِ إلى نَعِيمها جازَ أن يُسمّيَهُ باسمِها. ونظائرُ ذلك كثيرةٌ وقد أشَرنا في كتابِنا هذا إلى بعضِها.

---

(١) الأخامص جمع أخمص: وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

(٢) أسامة بن زيد بن حارثة: صحابي جليل، ولد بمكة، ونشأ على الإسلام، وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً جماً، وهاجر مع النبي إلى المدينة، وأمَّره رسول الله، قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فكان مظفَراً موّفقاً.

(٣) مؤتة: أدنى البلقاء، والبلقاء دون دمشق، وكانت غزوة مؤتة التي استشهد فيها زيد بن حارثة (رض) السنة الثامنة من الهجرة النبوية. وانظر جامع السيرة: ٢٢٠، والواقدي ٢ : ٧٥٥.

(٤) وذلك لأن الرسول ﷺ عقد لزيد بن حارثه، الأمير الشهيد النبوي، حب رسول الله، وأبو حبّه، وما أحبَّ، على الناس في غزوة مؤته، وقدّمه على الأمراء. فلما التقى الجمعان كان الأمراء يقاتلون على أرجلهم. فأخذ زيد اللواء فقاتل وقاتل معه الناس حتى قتل طعناً بالرماح رضي الله عنه.

(٥) رواية دواوين السنة: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». وانظر رواية البخاري للحديث ٦ : ١٠٩ و١١٠، ومسلم رقم ١٧٤٢، وأبو داود رقم ٢٦٣١، وغريب الحديث لابن الجوزي ١ : ٦٧ وفيه: «الجنة تحت البارقة، يعني: السيوف»، وفتح الباري ٦ : ٣٣، وانظر أيضاً الفائق والنهاية واللسان والتاج (برق). ورواية الشريف أخذها من كتاب المغازي للواقدي ٣ : ١١١٨، والوصية بتمامها فيه فانظرها.

[١١٦] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الكتابِ المكتوبِ بينَهُ وبين قُرَيش في صُلْحِ الحُدَيبية[١]:

« لا إِسْلَالَ ولَا إغْلالَ وإنَّ بَيْنَنا عَيْبَةً مكفُوفَةً ».

وهذه استعارةٌ. والمرادُ بالعَيبةِ المكفوفةُ السِّلْمُ الذي يَضُمّ النَّشْر ويجمَعُ الأَمر؛ كأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّه حالَ السِّلم من أَنَّها تحجزُ بين الفريقينِ عن شَنِّ الغارات، وتكفُّ أَيديَهُم عن المُجاذَباتِ، بالعَيْبَةِ المُشَرَّجةِ[٢] التي لا تُنْشَر مَطَاوِيها[٣] ولا يُتَنَاهَبُ[٤] ما فِيها.

وقد يجوزُ أن يكون مَعْنى ذلكَ على قَوْلِ مَنْ قالَ إنّ الإسلالَ السَّرقة، والإغلال الخيانة: أنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَبَّه الصُّلْحَ الواقِعَ بينَهُم في أنّ أَموالهم تكونُ بهِ محروسةً وخزائنَهم محفوظةً بالعَيْبَةِ التي قد اسْتُوثِق من أشْراجِها فلا يصلُ إليها خائِنُ ولا يَقْدِرُ علَيها سارِق. والمعنيان متقاربان. ويقال رجل مُسِلٌّ مُغِلٌّ: أي صاحبُ مَسلَّةٍ وهي السَّرِقةُ، ومَغَلّة: وهي الخيانة. وقولُه تَعالى[٥]: ﴿ وَمَا كانَ لِنَبِيٍّ أن يَغُلّ ﴾ قرأْنا على شُيوخِنا القُرّاء لأَبي عمرو[٦]

---

(١) رواه أبو داود رقم ٢٧٦٦، وأحمد في المسند ٤: ٣٢٥، والمغازي للواقدي ٢: ٦١١، وانظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (عيب وغلل، وغريب الحديث لابن منظور ٢: ١٣٧.

والحديبية هي قرية صغيرة سميت باسم بئر هناك عند مسجد الشجر، والحديبية على تسعة أميال من مكة، وفيها عقد الرسول ﷺ الصلح المسهور بصلح الحديبية وذلك في السنة السادسة الهجرية.

(٢) العيبة: الحقيبة، والمشرَّجة: المربوطة المشدودة التي لا يخرج ما فيها.

(٣) المطاوي جمع مطوية: أي الشيء المطوي في الحقيبة.

(٤) التناهب: الأخذ.

(٥) الآية ١٦١ من سورة آل عمران، وانظر تفسير القرطبي ٤: ٢٥٤.

(٦) هو أبو عمرو بن العلاء، زَبَّان بن عمار التميمي المازني البصري: من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة ١٥٤ هـ. (غاية النهاية ١: ٢٨٨، ومعرفة القراء الكبار ١: ١٠٠، والسير ٦: ٤٠٧).

وابن كَثِير[1] وعاصِم[2] ﴿ يَغُلّ ﴾ بفتح الياءِ وضَمِّ الغَين[3]: أي ما كانَ له أن يَخُون، وقرأ بقيَّةُ القُرَّاءِ السَّبعة ﴿ يُغَلّ ﴾ بضمّ الياء وفتح الغين[4]:

أي ما كانَ له أن يُخانَ، ويجوزُ أن يُرادَ بذلك أيْضاً: ما كانَ لهُ أن يُخَوَّنَ أي يُنْسَب إلى الخِيانة. وقد قالَ بَعْضُهم[5]: المرادُ بالإسلالِ هاهُنا سَلُّ السُّيوفِ، وبالإغلال لُبْسُ الدُّروع، وهٰذا القولُ غير معروفٍ والقولُ الأَوَّلُ هو القولُ السَّدَد والصَّحيح المُعْتَمد.

[١١٧] ومن ذٰلك قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام في الرَّحِم[6]:

« هِي شُجْنَةٌ مِنَ اللّهِ » وفيها لُغَتان[7]: شُجْنَةٌ وشِجْنَة، وهٰذا القَوْلُ مَجازٌ؛ لأنّ أصْلَ الشّجنة: اسمٌ لِشُعبةٍ من شُعَبِ الغُصن المُتَّصِل بالشَّجرة[8]. ويُقال

---

(١) هو عبدالله بن كثير الداري المكي، أبو معبد: أحد القراء السبعة، وكان قاضي الجماعة بمكة، وكانت حزمته العطارة، ويسمون العطار دارياً فعرف بالداري. وهو فارسي الأصل، مولده ووفاته بمكة سنة ١٢٠ هـ. (غاية النهاية ١ :٤٤٣، ومعرفة القراء الكبار ١ :٨٦، والعقد الثمين ٥ :٢٣٦، والسير ٥ :٣١٨).

(٢) عاصم بن أبي النجود بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء، أبو بكر: أحد القراء السبعة، من التابعين، من أهل الكوفة، وكان ثقة في القراءات، صدوقاً في الحديث، وتوفي بالكوفة سنة ١٢٧ هـ. (غاية النهاية ١ : ٣٤٦، ووفيات الأعيان ٣ : ٩، والسير ٥ : ٢٥٦.

(٣) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ٢١٨، وحجة القراءات ١٧٩.

(٤) انظر ابن مجاهد: ٢١٨، وحجة القراءات ١٨٠.

(٥) انظر الفائق ٣ : ٧١، والنهاية واللسان والتاج (سلل وغلل).

(٦) رواه البخاري في كتاب الأدب، والترمذي رقم ١٩٢٥، وأبو داود رقم ٤٩٤١، وأحمد في المسند ١ : ١٩٠ و٣٢١ و٢ : ١٦٠ و٢٩٥ و٣٨٣ و٤٠٦ و٤٥٥، وانظر مجمع الزوائد ٨ :١٧٨، وغريب الحديث: ١ :٢٠٩، وغريب الحديث لابن الجوزي ١ : ٥٢٠.

(٧) انظر غريب الحديث ١ :٢٠٩، وابن الجوزي ١ :٢٥١، والشّجنة: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق. وجعلها في القاموس وشرحه مثلثه، وعلى ذلك اقتصر الشريف على ضم الشين وكسرها، وترك لغة الفتح، متابعة لأبي عبيد في غريبه.

(٨) انظر غريب الحديث ١ : ٢٠٩.

شَجَرٌ مُتَشَجِّنٌ: إذا التفَّ بعضُه بِبَعض، ومنـهُ قولُهم[1]: الحـديثُ شُجُونٌ وذو شُجُـونٍ؛ أي ذُو شعب تتشَعَّبُ فيذكـرُ بعضُها بَعْضـاً، ويُجَرُّ أوّلُ آخِـراً. وقيـلَ أيضاً: إنَّ الشُّجونَ هي الشِّعَابُ المُتَّصِلَةُ بالأَودية. فيجوزُ أن يكونَ الحَدِيثُ شبه بها لكثرةِ طُرقِه ومَداخِله، وتعلُّقِ أواخِره بأَوائِله. والمُراد بالشّجنةِ هـاهُنا تَشْبيـهُ الرَّحِم بالشُّعْبةِ المُتَّصِلة بالشَّجَرَةِ؛ فهي بعضٌ مِنها ومنتسِبَةٌ إليها. فكذٰلِكَ الرَّحِمُ يجب صِلَتُها عَلَى مَنْ وَجب عليه حَقُّهـا وضَرب إليـهِ عِرْقُهـا. ويَجُوز أَيضـاً أن يكونَ إنّما شُبِّهت بِشُجونِ الوادِي لِتَعَلُّقِها بِهِ وإضافَتِها إليهِ كما قُلْنـا في شُجونِ الحَديث.

وقوله: « من الله » المرادُ أنّ اللَّهَ ـ سبحانَـهُ ـ جعل حَقّهـا واجباً وذِمـامَها لازماً. وقد يجوزُ أن يكونَ المُراد بذٰلك أن اللَّهَ سُبْحَانَـهُ يُثَبِّتُ واصِلَها ويَـرعَى راعِيَها، فكأنَّها مُتَعَلّقَةٌ بـه تَعالى على طَـريقِ التّمثيلِ لا عَلى طـريقِ التَّحقيق، ليعظّم تعالى حَقّها بترهيبِ قاطِعها وتَرغيب واصِلها.

[١١٨] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2]:

« الوَلَدُ لِلفِرَاشِ وَلِلعَاهِرِ الحَجَرُ ».

وهذا مجازٌ على أَحد التَّأويلين. وهو أَن يكونَ المُراد أن العاهِرَ لا شيءَ له في الولدِ؛ فَعَبَّر عن ذٰلكَ بالحَجَر: أي لَهُ من ذٰلك ما لا حَظّ فيهِ، ولا انتفاعَ به، كمـا لا يُنْتَفعُ بـالحجرِ في أكثـرِ الأَحوال؛ كـأنّه يـريدُ أَنّ لَـهُ من دعواهُ الخَيْبَـةَ

---

(١) انظر جمهرة الأمثال ١/ ٣٧٧ ومجمع الأمثال ١/ ١٩٧ والمستقصى ١/ ٣١٠ والفاخر ٥٩ وغريب الحديث ١/ ٢٠٩ وابن الجوزي ١/ ٥٢١ واللسان والتاج (شجن). وقال ابن الجوزي: «أي يمسك بعضه بعضاً».

(١) رواه البخاري ١٢: ١١٣ و٥: ٢٧٨، ومسلم رقم ١٤٥٦ و١٤٥٨، والترمذي رقم ١١٥٧ و٢١٢١ و٢١٢٢، وأبو داود رقم ٢٢٧٣ و٦٥٣٥، والبنسائي ٦: ١٨٠ و١٨١، ومالك ف يالموطأ ٢: ٧٣٩ وابن ماجه ١: ٦٤٧. وانظر فتح البـاري ١٢: ٢٨، والمسنـد ٢: ٢٣٩ و٢٨٠ و٣٨٦، ومسنـد الشهاب ١: ١٩٠.

والحِرمان؛ كما يقولُ القائلُ لغيره، إذا أرادَ هٰذا المَعْنى: ليس لَكَ من هٰذا الأمر إلا الحَجَرُ، والجَلْمَدُ[1] والتُّرابُ والكِثْكِث[2]. أي: ليسَ لك منهُ إلا ما لا محصولَ لَهُ ولا مَنْفَعَةَ فيه.

ومما يؤكّد هٰذا التأويلَ ما رواهُ عَمرو بن شُعَيب[3] عن أبيه عن جَدّه عن النبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال[4]: «الوَلَدُ للفراشِ وللعاهر الأَثْلَب» والأَثْلَبُ: التُّراب المختَلِطُ بالحِجارة[5].

وهذا الخبر يحقّقُ أنّ المُرادَ بالحَجرِ هاهُنا ما لا يُنْتَفعُ بهِ كما قُلنا أوّلاً. ومما يصدّقُ ذٰلك قولُ الشّاعر[6]:

كِلانا يا مُعاذُ يُحِبّ لَيْلى ... بِفِيَّ وفيكَ من لَيْلى التُّرابُ[7]
شَرِكْتُكَ في هَوَى مَنْ كانَ حَظِّي ... وحَظُّك من تَذَكُّرِها العَذابُ

---

(١) الجلد والجلمود: الصخر.

(٢) الكثكث: التراب وفتات الحجارة.

(٣) عمرو بن شعيب بن محمد بن صاحب رسول الله ﷺ عبدالله بن عمرو بن العاص، أبو إبراهيم السهمي القرشي، الإمام المحدّث، فقيه أهل الطائف ومحدثهم، وكان يتردد كثيراً إلى مكة، وينشر العلم، وله مال بالطائف وبها توفي سنة ١١٨ هـ. (العقد الثمين ٦: ٣٩٦، وتهذيب التهذيب ٨: ٤٨، والسير ٥: ١٦٥).

(٤) رواه أحمد في المسند ٢: ١٧٩ و١٨٠ و٢٠٧، وانظر التاج (ثلب).

(٥) في التاج (ثلب): «الإثلب بكسر الهمزة واللام وفتحها، والفتح أكثر: الحجر، وقيل التراب، وقيل: رقاق الحجارة، والأثلم كالأثلب، عن الهجري قال: لا أدري أبدلٌ أم لغة».

(٦) هو مجنون ليلى، قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري: وهو شاعر غزل، من المتيمين، من أهل نجد، ولم يكن مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد، وكان الأصمعي ينكر وجوده، ويراه اسماً بلا مسمى. (الأغاني ٢: ١، والسمط ٣٥٠، والخزانة ٤: ١٧٠، وفوات الوفيات ٣: ٢٠٨).

وينسبان أيضاً لمزاحم بن الحارث العقيلي كما في ديوان مجنون ليلى ٣١٦، وهو شاعر غزل بدوي، من الشجعان كان زمن جرير والفرزدق. وتوفي سنة ١٢٠ هـ. (انظر الأغاني ١٩: ٩٧، وخزانة البغدادي ٦: ٢٦٩ و٣٧٣).

(٧) انظر البيتين في ديوان مجنون ليلى ٣١٦ مع ثالث، وهو: =

أرادَ: ليسَ لنا مِنها إلا ما لا نَفْعَ بِهِ ولا حَظَّ فيه كالتُّرابِ الذي هٰذه صِفَتُه. وأمّا التّأويلُ الآخَرُ الذي يُخْرِجُ الكلامَ عن حَيْزِ المجازِ إلى حَيِّزِ الحَقيقةِ فهو أن يكونَ المُرادُ أنَّهُ ليسَ للعاهِرَ[١] إلا إقامَةُ الحَسدِّ عَليه، وهو الرَّجْمُ بالأحجار فيكون الحَجرُ هاهُنا اسْماً للجِنْسِ لا للمعهود. وهذا إذا كانَ العاهِرُ مُحْصَناً، فإنْ كان غَيْرَ محصنٍ فالمُراد بالحَجَر هاهُنا ـ على قولِ بعضِهم ـ: الإعنافُ بِهِ والفِلْظَةُ عَليه بتوفيةِ الحَدّ الذي يَسْتَحِقُّه من الجَلْدِ له.

وفي هذا القولِ تعسُّفٌ واستكراهٌ، وإن كانَ داخلاً في باب المَجازِ؛ لأَنّ الفِلظة على مَنْ يُقامُ الحدُّ عليهِ إذا كانَ الحدُّ جَلْداً لا رَجْماً لا يعبَّر عَنها بالحَجَر، لأنّ ذٰلك بُعْدٌ عن سننِ الفَصاحة ودُخولٌ في باب الفَهاهة[٢] فالأَوْلى إذاً الاعتمادُ على التّأويلِ الأَوَّلِ لأنّهُ الأَشْبَهُ بطريقهمْ والأَلْيَقُ بمقَاصِدهم.

[١١٨] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣]:

لقد خَبَلَتْ فؤاد له ثم ثنّت   بقلبي فهو مخبول مصابُ

ورواية الثاني فيه: «وحظل من من مودّتها العذاب» ونسب الأول المجنون بني عامر (مجنون ليلى، في تزيين الأسواق ١١٧ مع بعض التغيير في روايته.

ونسبهما محقق ديوان المجنون لمزاحم بن الحارث العقيلي متابعاً في ذلك صاحب الأغاني حيث نسبهما مع الثالث لمزاحم بن الحارث العقيلي، انظر الأغاني ٢: ١٠ علماً بأنه نسبهما بعد قليل ٢: ٥٤ لمنادٍ من الجبل.

وقال الأصبهاني ٢: ١٠: «كان معاذ بن كليب مجنوناً، وكان يحب ليلى، وشَرِكَهُ في حبها مزاحم بن الحارث العقيلي، فقال مزاحم يوماً للمجنون: (ثم أورد الأصبهاني الأبيات، وقال: قال: فيقال: إنه لما سمع هذه الأبيات التبس وخولط في عقله».

(١) العاهر: الزاني.

(٢) الفهاهة والفهة والفهفة: العيّ وعدم الفصاحة.

(٣) رواه مسلم رقم ١٣٤٣، والترمذي رقم ٣٤٣٥، والنسائي وانظر الموطأ ٢: ٩٧٧. ووعثاء السفر: تعبه ومشقته وشدّته.

والكآبة: الحزن، والمنقّلب المرجع، وذلك أن يعود من سفره حزيناً كئيباً، أو يصادف ما يحزنه في =

« اللَّهُمَّ إنا نَعُوذُ بك من وَعْثَاءِ السَّفَر وكَآبةِ المُنْقَلِب والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ وسُـوءِ المَنْظَرِ في الأَهْلِ والمَالِ ».

وفي هذا الكلام مجازان:

أحدهُما: قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « وَعْثاءِ السَّفـر »، وهي (**فَعْلاء**) من الـوَعْث، وهو ضـدُّ الجَدَد[1]، والسَّيْـر فيـه يَشُقّ على القـدم والمَنْسِم[2]. فجعَل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طولَ السَّفرِ وشُقّتَهُ وتكالِيْفَهُ ومَشقَّتَهُ بمنـزلةِ الـوَعْثاءِ التي قاطِعُها تَعِبٌ والسّاري فيها نَصِبٌ.

والمجازُ الآخَرُ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّـلامُ: « والحَوْرِ بعـد الكَوْر»[3] أي انتشارِ الأمورِ بعد انضمامِها وانفرَاجِها بعد التِأمِها؛ وذلك مأخوذٌ من حَوْرِ العِمامة بعد كَوْرِها، وهو نَقْضُها بعد لَيِّها، ونَشْرُها بعد طيِّها. وقد قِيل: إنّ معناهُ: القِلّة بعد الكَثرة والنُّقصان بعد الزِّيادة، فكأنَّهُ تَعَوَّذَ من الانتقالِ عن حالٍ حَسنةٍ إلى حال سَيِّئة؛ وعلى ذلكَ قولُ الشاعر[4]:

= أهل ومال ونحو ذلك. والمنظر: هو ما ينظر إليه من أهله وماله وحساله. والحَـوْر: النقصـان والرجوع، والكون، من رواه بالنون: فهو مصدر كان يكون كوناً، من كان التامة، دون المناقصة، يعني: من النقصان، والتغيير بعد الثبات والاستقرار، ومن رواه بالراء، فهـو الـزيادة، من تكوير العمامة، يعني: من الانتقاص بغد الزيادة والاستكمال.

(١) الجدد: الطريق السالك السهل المنبسط الذي لا وعورة فيه.

(٢) يريد أنه يشق على قدم الإنسان وعلـى المنسـم، وهـو خف البعير، أي أنـه شاق علـى الإنسـان والحيوان.

(٣) انظر الحاشية السابقة رقم (٢).

(٤) هو سُبَيْع بن الخطيم يمدح زيد الفوارس الضَّبيّ، كما في اللسان والتاج (حور). وهو من تيم عبد مناة ومن بطن منهم يقال له: بنو رفاعة، وهو شاعر وفارس جاهلي عاصر بعض الإسلاميين. وكان فارس نخلة وشهد يوم جزع طلال.

قال عنه الامدي: «شاعر محسـن». انظـر المـؤتلف والمختلف ١٥٩ و١٦٥، وشـرح اختيارات المفضل ١٥٢١ ـ ١٥٢٩ والنقائض ١٠٦٨، وأسماء خيل العرب ٤١.

واستَعْجَلُوا عن شَديدِ المَضْغ فابْتَلَعُوا
والذمُّ يبقَى وزادُ القومِ في حَوْرِ[1]

أي في نُقصان[2]، والمَعْنَيان مُتَقاربان، وقد رُوِيَ هذا الكلامُ على وجهٍ آخر، فقيل[3]: « من الحور بعد الكون » بالنون، من قولهم: حارَ إذا رجَع، يقولون كان على حالٍ جميلة، فحارَ عنها: أي رجَع عما كان عليه منها.

والرواية الأولى أعْرَفُ عند أهلِ اللّسانِ وأشبَهُ بِمُزَاوجة الكَلام.

[١٢٠] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للشارِب في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضّة[4]: « **إنّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نَارُ جَهَنَّمَ** ».

---

(١) البيت في المؤتلف والمختلف ١٦٠ من قصيدة قالها سبيع بن الخطيم في زيد الفوارس الضّبي، وكانت بنو حرب ضبة أخذت إبله فاستنقذها زيد وردّها عليه، ورواية البيت فيه:
فاسْتَعْجَلُوا عَنْ حَثِيْث المَضْغِ فَاسْتَرَطُوْا. . . .
وهو أيضاً في الصحاح واللسان والتاج (حور)، وفي المقاييس ٢: ١١٧ عجزه. وروايته في كتب اللغة: ـ
واسْتَعْجَلُوا عَنْ خَفِيْف المَضْغِ فَازْدَرَدُوْا. . . .

(٢) في التاج (حور): «أي في نقص وذهاب. يريد: الأكلُ يذهب والذّمُّ يبقى ».

(٣) الذي في صحيح مسلم رقم ١٣٤٣ (الكون، بدل (الكور). وقال النووي في شرح مسلم: «هكذا هو في معظم النسخ من صحيح مسلم (بعد الكون)، بالنون ، بل لا يكاد يوجد في نسخ بلادنا إلا بالنون، وكذا ضبطه الحفاظ المتقنون في صحيح مسلم. . . وممن ذكر الروايتين جميعاً: الترمذي في جامعه (رقم ٣٤٣٥)، وخلائق من المحدثين، وذكرهما أبو عبيد (غريب الحديث ١: ٢٢٠)، وخلائق من أهل اللغة وغريب الحديث، قال الترمذي بعد أن رواه بالنون ـ: ويروى بالراء أيضاً؛ ثم قال: وكلاهما له وجه، قال: يقال: هو الرجوع عن الإيمان إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية. . . . ». وانظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (وعث، كور، كون)، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢: ٣٠٣.

(٤) رواه البخاري ١٢: ١٩٩ و٢٠٠، ومسلم رقم ٢٠٦٥، وابن ماجه ٢: ١١٣٠، ومالك في الموطأ ٢: ٩٢٤ ـ ٩٢٥، والدارمي: ٢٥، وأحمد في المسند ٦: ٩٨، ٣٠١ و٣٠٢ و٣٠٤. وانظر غريب الحديث ١: ٢٥٣، وابن الجوزي ١: ١٥٠ والفائق والنهاية واللسان والتاج (جرجر)، والغريبين ١: ٣٤٤.

برفعِ النَّار، والأكثر من الروايات على نَصبها، وهذا القولُ مجَازٌ؛ لأنَّ نارَ جَهَنَّمَ على الحقيقةِ لا تُجَرْجِرُ في جَوْفِه، والجَرْجَرةُ: صوتُ البَعيرِ عند الضَّجَرِ أو الدَّأب [١]؛ قال امرؤُ القيس يصف طريقاً [٢]:

علـى لاحِبٍ لا يُـهْتَـدَى بـِمَـنَـارِهِ إذا سـافَهُ العَـوْذُ الذفـافِيُّ جَرْجَـرا [٣]

ولكنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جَعَـل صوتَ جَـرْعِ الإنسانِ للمـاءِ في هٰذهِ الأواني المخصوصةِ لوقوعِ النَّهي عِن الشُّـربِ فيها، واستحقـاقِ العِقابِ على استِعْمالِها، كَجَرْجَرةِ نارِ جَهَنَّم في بطنِه على طَريقِ المَجاز؛ إذ كانَ ذَلكَ مُفْضِياً بهِ إلى حُلولِ دارِها واصطلاءِ نارِها، نعوذُ بالله.

ولفظ الخبر (يُجَرْجِرُ) بالياء، والوجْهُ أن يكونَ تُجَرْجِرُ بالتّاء على قـولِ من رَواه برفع النّار، ولكنّهُ لما دخَل بين فعلِ المؤنّث وفاعِله الذي هو النّار لفظٌ آخَرُ حَسُنَ تذكيرُ الفِعل للبُعْدِ بَيْنَهما كما قال الشاعر [٤]:

* لَقَدْ وَلَدَ الأخيطلَ أُمُّ سَوْءٍ * [٥]

---

(١) وقال النووي في شرح مسلم ١٤ : ٢٧ : «اتفق العلماء من أهل الحديث واللغة والغريب وغيرهم: على كسر الجيم الثانية في (يجرجر)، واختلفوا في قوله «نار جهنم» فنقلوا فيها: النصب والرفع وهما مشهوران في الرواية، وفي كتب الشارحين وأهل الغريب واللغة، والنصب هو الصحيح المشهور الذي جزم به الأزهري وآخرون من المحققين، ورجحه الزجاج والخطابي والأكثرون، ويؤيده الرواية الثالثة: «يجرجر في بطنه ناراً في جهنم» ورويناه في (مسند أبي عوانة)، وفي الجعديات (ناراً) من غير ذكر جهنم».

(٢) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني أكل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماني الأصل، توفي نحو سنة ـ ٨٠ ق. هـ ـ.

(٣) انظر ديوان امرء القيس.

(٤) هو جرير وقد سلفت ترجمته ص ٧١.

(٥) انظر ديوان جرير ١ : ٢٨٣، وتمام البيت:

=

وقد رُوِيَ في خبرٍ آخَر: «كأنّما يُجَرْجِرُ في بطنِه ناراً ».

فالإنسان هاهُنا فاعِلٌ والنّار مَفْعُوله. وعلىٰ هٰذه الرِّواية فالمُرادُ كأَنّما يَجُرُّ في بطنه ناراً، فقال (يُجَرْجِرُ) طلباً لتضعيفِ اللَّفْظِ الدالِّ على تكثيرِ الفِعل، كما جاءَ في التنزيل[1] ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيْهَا هُم والغَاوُونَ﴾، والمرادُ: فكُبُّوا؛ فيجوزُ على هذا أن يُقال: جَرَّ وجَرْجَر كما يُقال: كَبَّ وكَبْكَبَ؛ وإن كانَ الوجُه أن يقالَ: جَرَّرَ، وقد جاءَ في كلامِ العربِ[2]: جَرْجَر فلانٌ الماءَ إذا جَرَعَهُ مُتَواتراً لَهُ صوتٌ كصوتِ جَرْجَرةِ البَعير.

فيكونُ المرادُ على هٰذا القول كأنّما يتجَرَّعُ نارَ جَهَنَّم. وهذا أَصَحُّ **التّأويلين**. فأما آنِيَةُ الذَّهبِ والفِضَّةِ فلا يحلُّ عندنا الأكلُ فيها ولا الشُّرب مِنها، ولا يَجُوز أيضاً استعمالُها في شيءٍ مما يُؤَدّي إلى مَصالِحِ البَدن نحو الادِّهانِ وإتّخاذ المِيْلِ[3] للاكتحالِ، والمِجْمَر للبَخور[4].

وكنت سألتُ شيخنا أبا بكر محمّد بن مُوسىٰ الخَوارَزْميّ[5] رحمه الله عند انتهائي في القراءة عليه إلى هذه المسألةِ من كتابِ الطَّهارة، عن المِدْخَنة إذْ لا خلافَ في المِجْمَرة، فقال: القياسُ أنها غيرُ مكروهةٍ لأنّها تُستعمل على وجهِ

= لقد ولد الأخيطل أم سوءٍ على بابِ اسْتِها صلب وشامُ

(١) الآية ٩٤ من سورة الشعراء، وانظر تفسير القرطبي ١٣ : ١١٥.

(٢) انظر التاج (جرر) و١٠ : ٤٠٦ من طبعة الكويت.

(٣) الميل: المكحلة.

(٤) في التاج (جمر): «والمجمر، كمنبر: الذي يوضع فيه الجمر بالدُّخته. وفي التهذيب: قد يؤنث كالمجمرة، قال: من أنثه ذهب به إلى النار، ومن ذكره عنى به الموضع. جمعهما مجامر. وقال أبو حنيفة: المجمر: العود نفسه».

(٥) سبقت الإشارة إليه، وهو شيخ المؤلف الشاعر الشريف الرضى. وتوفي أبو بكر سنة ٤٠٣ هـ. (انظر الوافي بالوفيات ٥ : ٩٣).

التَّبَعِ للمِجْمَرَةِ، فهي غيرُ مقصودةٍ بالاستعمالِ، لأنَّ المجمرةَ لو جُرِّدَت من غيرِها في البخورِ لقامَت بنفسِها، ولم تحتجْ إلى المِدْخَنة مضافةً إليها، فأَشْبَهت الشُّرْبَ في الإناءِ المُفَضَّضي إذا لم يضع[1] فاه على موضع الفضة، وفي هذه المسألة خلافٌ للشّافعي[2] لأنّه يكرهُ الشُّرْبَ في الإناءِ المفضّض[3]، وذهبَ داوُد الأَصْفَهانيّ[4] إلى كراهة الشُّربِ في أَوانِي الذَّهَبِ والفِضَّة، دونَ غيره من الأَكْلِ والاستعمالِ، في مصالح الجِسْمِ مُضِيّاً علىٰ نَهْجِهِ في التَّعَلُّقِ بظاهِرِ الخبرِ الواردِ في كراهَةِ الشُّرْبِ خاصَّة[5].

وليس هٰذا موضعُ استِقْصاءِ الكلامِ في هٰذه المَسْأَلة، إلّا أنّ المعتمدَ عليهِ في كراهةِ استعمالِ هذه الأَواني الخبرُ الذي قَدَّمْنا ذِكْرَهُ لِما فِيهِ من تَغليظ الوَعِيد. وقد روي عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنه قال[6]:

«مَنْ شَرِبَ بها في الدنيا لم يَشْرَبْ بها في الآخِرَةِ»، فتثبتُ بِهٰذين الخَبرَيْنِ وما يَجْرِي مجراهُما كراهَةُ الشُّرب فيها، ثم صارَ الأكلُ والادِّهانُ والاكتحالُ مَقِيساً على الشُّربِ بعلّةِ أنّ الجميعَ يُؤَدّي إلى مَنافِعِ الجِسم.

[١٢١] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقد سُئِلَ عن ليلةِ القدْر[7].

---

(١) أي شارب الماء.

(٢) هو محمد بن أدريس بن العباس الهاشمي القرشي المطلبي؛ أبو عبدالله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة. توفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ.

(٣) أي المصنوع من الفضة.

(٤) سبقت الأشارة إليه.

(٥) قال في المهذب ١ :١٨ ويكره استعمال أواني الذهب والفضة لما روى حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وهل يكره كراهية تنزيه أو تحريم قولان قال في القديم كراهية تنزيه لأنه إنما نهى عنه عنه للسرف والخيلاء والتشبه بالأعاجم وهذا لا يوجب التحريم وقال في الجديد يكره كراهية تحريم وهو الصحيح لقوله ﷺ «الذي يشرب في آنية الفضة إنما تجرجر في جوفه نار جهنم».

(٦) لم نجد هذا الحديث في ما بين يدينا من دواوين السنة المطبوعة.

(٧) كذلك لم نجده في ما بين يدينا من دواوين السنة المطبوعة.

« هِيَ لَيْلَةٌ إِضْحِيانَةٌ كَأَنَّ قَمراً يَفْضَحُهَا »، وهذه استعارَةٌ؛ لأنّ حقيقةَ الفَضْح كشفُ القَبيح، وهو أَن يُكْشف على الإنسان رِيبةٌ أو تُثْني[1] عليه سَوءَةٌ؛ ولكنّ القمر، لما كان كاشِفاً للسُّدْفَةِ[2] وصادعاً للظلمة أجراه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام مَجْرى الثّاني للسَّوءَةِ المُخْفاةِ، والكاشفِ للرِّيبةِ المُغَطَّاة، وهذه من محاسِن الاستعارات.

وقال الشاعر في فَضح الصُّبحِ للظلام[3]:

يـا رَبَّ كلِّ غابِقٍ ومُصْطَبِحْ   وربَّ كلِّ شَيْطَنِيٍّ منسرح[4]

أرسلْ على حَوْفاء في الصبح الفَضِحْ   حُوَيْرِياً مثل قضِيب المُجْتَدِحْ

* مَتى نَضَتْ من كعبها عِرْقاً يُرِحْ *

قوله « حُوَيْرِياً »[5] تصغيرُ حارٍ، يريد حَيّة طال بقاؤه[6] حتى حار أي رجع من غلظ وعظم إلى دقة خَلْقٍ وجسم، فصارَ كقضيبِ المُجْتَدِح، وهو المِجْدَحُ: الذي يُحَرَّكُ به الشَّرابُ والسَّويق[7] وما يجري مجراهما.

---

(١) تثني عليه: أي تجمّع وتعد عليه من العدد والجمع، وأصلها أن تكون ثانية بعد أولى، ولكن المراد بها هنا مطلق السوءة، ولو كانت الأولى.

(٢) السُّدْفَةُ: الظلمة.

(٣) الرجز في اللسان والتاج بلا نسبة، وهي مما أنشده شمر.

(٤) البيت الثالث والرابع في اللسان والتاج (حرى) وروايتهما:

انْعَتْ على الجَوفاء في الصُّبْحِ الفَضَحْ   حُوَيْرِياً مثلَ قضِيْبِ المُجْتَدِحْ

(٥) في المطبوع: «حُوَيْرِنا»، وهو خطأ صوابه حُوَيرياً. (بالياء المثناة التحتية). في اللسان: الحَارِيَةُ: الأفعى التي قد كبرت ونقص جسمُها من الكبر، ولم يبق إلا رأسها ونَفَسُها وسُمُّها. والذكر: حَارٍ.

(٦) كان حقه (طال بقاؤها) لأن الحية مؤنثة، ويجوز أن يكون ذكر باعتبار الثعبان، أو أن في النسخ تصحيفاً.

(٧) السَّويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سُمّي بذلك لانسياقه في الحَلْق، وجمعه أسْوِقَةٌ.

ومن كلامهم[1]: « رَماه الله بأَفْعىً حارِيَة » يريدونَ هذا المَعْنى[2]، وقوله « يُرِح » أي يُميت، ومثل ذلك قول العَجّاج[3]:

« أراحَ بَعْدَ الغَمِّ والتغمغم »[4]

أي أَماتَ اللّهُ بعد الكَرْبِ والخناق. وقيل يجوز: أن يكونَ قولُه يُرِحْ عائداً على العِرْقِ لا على الحَيّةِ؛ كأنه قالَ: مَتى نضتْ منها عرقاً يحدثْ فيه جُرحاً[5] إذا قَيَّح كانت عنه رائِحَةٌ خبيثَةٌ. والقول الأَوَّلُ أَسَدُّ، وعليه المُعتمد.

[١٢٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[6] للضَّحَّاك بن سُفْيان الكِلَابيّ[7] وقد بَعَثَه مَصَدِّقاً[8]: « خُذْ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ ».

وهذه استعارَةٌ على أصلِ وضْعِها في كلامِ العَرب؛ لأنّهم يُسَمُّونَ صِغَار الإبلِ حَشْواً وحاشِيةً، كأنّهم يُشَبّهونَها بحَشْوِ الشّيءِ الذي يتأتّى ذلكَ فيهِ

---

(١) في الأساس: «تقول: بليت بأفعالِ جارية كأفعى حارية».

(٢) أي يريد من أنها دقيقة الجسم من كثرة سمها، كأن سمها أثر في جسمها لشدته فنقص جسمها.

(٣) هو عبدالله بن رؤبة بن لبيد السعدي التميمي، أبو الشعثاء، العّجاج: راجز مجيد، من الشعراء. ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها، ثم أسلم، وهو من المعمّرين وأول من رفع الرجز، وشبهه بالقصيد، توفي نحو سنة ٩٠ هـ.

(٤) انظر ديوان العجّاج.

(٥) كان الأولى الرفع، أو جعل الفعل (يحدث) بالتاء بدلاً من الياء، ولعل في نسخ الكتاب تصحيفاً.

(٦) رواه البخاري في فضائل الصحابة ٨، وأحمد في المسند ٥ : ٧٢، وانظر أيضاً النهاية واللسان والتاج (حشا) وقال أبي الأثير: «هي صغار الإبل، كابن المخاض، وابن اللبون، واحدها حاشية. وحاشية كل شيء جانبه وطرفه..».

(٧) الضحاك بن سفيان بن عوف الكلابيّ، أبو سعيد: صحابي بطل فارس شجاع، كان نازلاً بنجد، وولاه الرسول ﷺ على من أسلم هناك من قومه، ثم اتخذه سيافاً، فكان يقوم على رأسي النبي ﷺ متوشحاً بسيفه، وكانوا يعدونه بمئة فارس، وله شعر، مات شهيداً سنة ١١ هـ. (الإصابة ترجمة ٤١٦١، وأسد الغابة ٣ : ٤٧).

(٨) المصدّق: الذي ينتدب لجمع الصدقات الواجبة في الأموال (الزكاة). وقد بعث الرسول المصدّقين بعد غزوة الطائف، انظر في ذلك ابن سعد ٢ : ١٦٠ و١٦٢.

كالمِرْفَقة والحِشيَّةِ[1] لأنّها غيرُ مُعْتَدٍّ بِها كما أن الحَشْوَ[2] غيرُ مُعْتَدٍّ بـه، وإنّما الاعتدادُ بما هو في ضِمنه. ومن هٰذا الموضع سَمَّوا الرُّذّال والطَّغَامَ[3] من النّاس حَشْواً.

وقد يَجُوز أن يكونُوا إنما سَمَّوها بذلك تشبيهاً بِحَشْوةِ الإنسان[4] الّتي هي حَوَايا جَوْفِه وأمعاءُ بَطْنِه.

يقولون: طَعَنه فانتثرت حَشْوَتُه، أو ضربه فخرجَتْ حَشْوَتُه.

وإنما قيل لها حَشوة، حَطّاً لها عن مَنزلة ما هو أعلى قَدْراً منها من كَرائِم أَعضاءِ الإنسان التي يشتملُ عليها جَوْفُه، كالقَلبِ والنِّياطِ[5] والكَبِد والفُؤاد.

وقد يجوزُ أن يكون إنما سمّوها بذٰلكَ تشبيهاً لها بِحَـواشي الثَّوبِ[6] في أنّها كالتَّبَعِ لهُ، وغيرُ قائمةٍ بذاتِها دُونه، وكذلك صِغارُ الإبل تابعةٌ لِكبارِها وغيرُ قائمةٍ بأنفُسِها، وعلى هذا المَعنى تسمِيتُهم رَدِيءَ المال ورُذاله من الإبل وما في مَعنـاهُما شَـوًى تشبيهاً لـه بَشَوى الإنسـان[7] والفَرسِ وغيـرِه من الحَيوان ذي الأَربع؛ وهو الأَطرافُ دون كرام الأعضاءِ، وشرائِفِ **الأحناء**[8]. قال الشاعر[9]:

---

(١) الحشية: الفراش المحشو. والمِرْفَقه والمِرْفَق: المتكأ، والمخدَّة.

(٢) الحشو هو ما بداخل الشيء المحشو.

(٣) الرُّذال: الرديء. والطّغام جمع واحده: الطغامة: أوغاد الناس.

(٤) الحُشوة من الشاه: جوفها وأمعاؤها، أو جميع ما في بطنها عدا الشحم.

(٥) النياط: الفؤاد. وقيل: عرقٌ متصل بالقلب من الوتين.

(٦) حواشي الثوب: جوانبه وأطرافه.

(٧) الشوى من الإنسان: كل ما ليس بمقتل من الأطراف وغيرها. والشوى: رُذَال الإبل والغنم وصغارها.

(٨) الأحناء جمع حِنو (بكسر الحاء ويُفخ، كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحِجاج واللحي والضلع)..

(٩) هو أبو يزيد يحيى العقيلي كما في السمط ٢: ٨٢٨ و ٨٨٥، والمعاني الكبير ١: ٣٩٧.

أكَلنَا الشَّوَى حتى إذا لَم نَجِدْ شَوىً   أشرنا إلى خَيْراتها بالأصابع[1]

أي أكلنا رُذال إبلنا، فلمّا أنفذْناها عطَفنا على خِيارها، وأشَرْنا إلى خِيارها، فكأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَهى أن يأخُذَ المُصَدِّق من كرائِم الإبِل وعَقائِلها[2]، وأمرَه بالعُدول إلى حَشْوِها وأراذِلها رِفقاً بأصحابِها وحُنُوّاً علىٰ أربابها.

[١٢٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

« بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ يَنْطِقُ الرُّوَيْبِضَةُ »[3].

وهذه استعارةُ لأنّـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ أرادَ أمـام السَّاعـة، فقال: بين يديها، تقريباً لهذه الحالِ من قيامِ السّاعةِ لأنّه لو قال: قبلَ السَّاعة لمَا أفاد ذٰلك من القُـرب منها مـا أَفاد قـولُه بين يَـديهـا، لأنّـك إذا أردتَ التّقـريب على مَن اسْتَرشدَكَ مكاناً تطلبه، أو إنساناً تتبعه قلت له: هو بَيْنَ يَديك، أي قريبٌ منك؛ ولو قلت: هو أمـامَك، لاحْتَمـل البُعد والقُـرب كما أَنّ (قبـل) يحتملُ البُعـد

---

(١) البيت في النوادر ١٨٦، والمعاني الكبير ١ : ٣٩٧، والسمط ٢ : ٨٢٨ و ٨٨٥، والجمهرة ١ : ١٨١. وبغير عزو في البيان ٣: ١٦٩، والأضداد ١٩٩، والأمالي للقالي ٢: ٢٠٥، والمخصص ١٤ : ٢٩، واللسان والتاج (شوى). وهو في حماسة الخالديين ٢ : ٢٢٢ للشمردل بن حنان اليربوعي. وفيه:

« ونحر ناقة كريمة كانت له لسنة أجدبت عليه. . . » وفي اللسان بعد البيت: « يقول: إنه نحر ناقة في حَطْمة أصابتهم، وهي السنة المجدبة؛ يقول: نحر الناقة خير من الجوع ».

(٢) الواجب في الصدقة أوساط النعم لأكرائها ولا معيبها، ويجب على جامع الزكاة أن يتجنب نفائس الأموال حتى لا يتسبب في حقد أصحابها وشحّهم بزكاتها.

(٣) رواه ابن ماجة ٢ : ١٣٤٠، وأحمد في المسند ٢ : ٢٩١ و ٣ : ٢٣٨. وهو طرف من حديث طويل فيهما، وهو: « سيأتي على الناس سنوات خدّاعات. يصدّق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق. ويؤ تمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين. وينطق فيها الرويبضة (قيل: وما الرويبصة؟ قال: الرجل التافه، في أمر العامة). وا نظر غريب الحديث لابن الجوزي ١ : ٣٧٥، والفائق والنهاية واللسان والتاج (ربض). وإضافة الخداعات (في الحديث) إلى السنوات مجازية والمراد أهل السنوات. والرويبضة: تصغير رابضة، وزيادة التاء للمبالغة.

والقُرب، هٰذا على الأغلب والأكثر؛ وقد يجوزَ أن يكونَ قولُك: (أمامك) و (بين يديك) عبارة عن مُرادٍ واحِد.

وقالوا في (الرُّوَيْبِضَة) هو امرؤ السّوءِ، التّافه، وقالوا: هو الفُوَيسِقُ الخامل.

[١٢٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلاَم: في كَلامٍ وَصفَ بِهِ عدّةً من قبائل العرب « **وغَطَفانُ أَكَمةُ خَشْناءُ تَنْفِي النَّاسَ عنها** ».

وهذا القولُ مَجازٌ، وذٰلك أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّه غَطفان لاشتِداد شَوْكَتِها واتّقادِ جَمْرَتِها بالأَكَمةِ الشّاقّةِ التي تَزِلّ الأَقْدامُ عنها، وتنقَطِعُ أَطماعُ الرّاقين[٢] دُونها، فجعلَ امتِناع النّاسِ من التَّعرُّضِ لَها بِمنزلةِ مَنْعِها لهم من التَّطَرُّق إِليها.

[١٢٥] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في كلامٍ ذَكر فيه أمرأ القَيْس[٣] ابن حُجْر: « **يَجِيءُ يومَ القِيامَةِ مَعَهُ لِوَاءُ الشُّعَرَاءِ إِلى النارِ** ».

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥ : ٣٤٦، وروايته عنده: « وغطفانُ أَكَمَةٌ خَشّاءٍ تنعي الناس عنها ».
وقال الزبيدي في التاج (خشش): « والخشاء بالفتح: أرض غليظة فيها طينٌ وحصىً، . . . . . وقيل: هي الأرض التي فيها رمل، وقيل: طين، وقال ثعلب: هي الأرض الخشنة، والجمع خشاوات وخشاشيّ ».
وغطفان هو ابن سعد بن قيس عيلان بن مغد. قال ابن حزم (جمهرة أنساب العرب ٢٤٤): وفي غطفان البيت؛ أي الكثرة والعدد.
والأكمة: التل أو الموضع يكون أكثر ارتفاعاً من غيره وهو غليظ.
(٢) أي الصُّعَّاد على الجبال وغيرها. ورقى الأكمة: صعد فيها.
(٣) هذا الحديث آخر قصة طويلة يذكرها الإخباريون عن امرىء القيس، وتجدها في الشعر والشعراء ١ : ١٢٦، وعيون الأخبار ١ : ١٤٣، ورواها صاحب الأغاني ٨ : ٢٠٠، ونقلها ياقوت في معجم البلدان (ضارج)، وقال الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر معلقاً على هذا الحديث (الشعر والشعراء ١ : ١٢٧): « وهي مشهورة عند الأخباريين والأدباء ولكنها غير معروفة عند المحدثين، وهم الحجة فيما ينسب إلى رسول الله ﷺ من الأخبار فإني لم أجد أحداً منهم رواها أو أشار إليها =

وهذا القَوْلُ مجازٌ؛ وذلك لأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُرِد أنّ امرأَ القيس يحمـلُ لواءَ الشُّعـراء على الحقيقـة، وإنّمـا أَراد أنّـه يجيءُ يـومَ القيـامـةِ على مُقَدّمتهم، ويدخلُ النّارَ قَبْلهم، كما كانَ في الدُّنيا مُتَقَدِّماً لَهُم، ومُقَدَّماً عليهم.
وإنما عبَّر عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن هٰذا المَعنى بحَمْلِ اللّواءِ لأنّ حامِـلَ اللِّواءِ في الجَحافِلِ المَجْرُورة يكونُ مُقَـدِّماً مَتْبُـوعاً ونـابِهاً مَشهـوراً يَطأُ النّـاسُ على قَدمِهِ، ويتلاحقُون على آثارِ تَقَدُّمه.

[١٢٦] ومن ذلك قوله عليه السلاة والسلام[1]:

« ما من جُرْعَةٍ يَتجَرَّعُهَا الإنسانُ أعظمُ أجراً عند الله من جُرْعـةِ غَيْظٍ في اللّهِ ».

وهذا القولُ مَجازٌ، والمرادُ بجرعةِ الغَيْظِ هـا هُنا الصَّبْـرُ عند الاهتِيـاج، والكَظْمُ عند الانزِعاج، وتَركُ اتّباع نـوازِع النَّفْسِ، إلى ما تَـدْعُو إليـه في تِلك الحال من شفاءِ غيظٍ، أو تنفيسِ كَرْبٍ، أو إطلاقِ عِقَالٍ، أو فِعلٍ، مُراقبةً للّه سُبحانه، وتَنَجُّزاً لثوابِهِ، واحِتجازاً عن عِقابه.

وشبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تلك الحالِ بالجُرْعَةِ لأنّ الإنسانَ كأنَّهُ بالكظْمِ

= إلا حديث « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » فقد رواه أحمد في المسند ٢ :٢٢٨ من حديث أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وهـو حديث ضعيف جداً، ذكره ابـن كثير في التـاريخ ٢ :٢١٨ عن المسند، وقال: هذا منقطع، وورد من وجه آخر عن أبي هريرة، ولا يصح من غير هذا الوجه ».

ورواه أيضاً البزاز، كما في مجمع الزوائد ٨ :١١٩، وجمع الفوائد ٢ :١٦٨. وإسناده عند أحمد « ثنا هشيم ثنا أبو الجهم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة » وأبو الجهيم هذا يذكر في بعض كتب الرجال باسم « أبو الجهم الأيادي » وهو مجهول... الخ.

(١) رواه ابن ماجه ٢ :١٤٠١، وروايته فيه: « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله، من جرعة غيظ، كظمها عبد ابتغاء وجه الله ».

لهَـا والصَّبْرِ عَليْهـا قد ضـاقَ بها مَـرارةً، وأَساغ مِنْهـا حَرارةً؛ وعلى ذلـك قَولُ الشّاعر[1]:

شَـرِبْنـا الغيظَ حتى لـو سُقِينا دمـاءَ بني أميَّـةَ مـا رَوِينَـا[2]!

وقـد رُوي هذا الخَبـرُ على خلافِ هٰـذا اللَّفْظِ، وهو قَـولُه عليـه الصلاة والسلام[3]: « **ما تَجَرَّع عبدٌ جُرْعَةً أحبَّ إلى الله من جُرْعَةِ مُصيبةٍ يَرُدُّها بحُسْنِ عَزاءٍ، أو جُرْعَةِ غيظٍ يَرُدُّها بحِلْمٍ** ».

[١٢٧] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسّلامُ في خبـرٍ طَويـلٍ رُوي عن أنسِ بن مالك سمِعَـهُ منه صلّى اللّهُ عليـه وآلِه في ذِكـر منافِـع كثيرٍ من بُقُـولِ الأرضِ ومَضارِّها، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عند ذِكر الجرْجِير:

« **فوالذي نَفْسُ محمدٍ بيَدِهِ ما مِنْ عَبْدٍ بَاتَ في جَوْفِه شيءٌ من هٰذه البَقْلةِ إلّا باتَ الجُذَامُ يُرَفْرِفُ على رَأْسِهِ حتى يُصْبحَ إمَّا أن يَسْلَم وإمَّا أَن يَعْطَبَ** ».

وهذا القولُ مَجازٌ لأنّ الدّاءَ المخصـوصَ الذي هـو الجُذامُ لا يَصِحُّ أن يوصَفُ بالرَّفْرَفةِ على الحَقيقةِ لأنّه عَرَضٌ من الأَعْرَاض.

وإنما أرادَ عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ أنَّ البـائتَ على أَكلِ هٰـذهِ البَقْلةِ يكونُ

---

(١) هو عبدالله بن همّام بن نبيشة بن رباح السّلولي، من بني مرّة بن صعصعة: شاعر إسلامي، أدرك معاوية، وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك، أو بعده، وأخباره كثيرة. ويقال: إنه هو الذي بعث، يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية. وكان يقال له العطار » لحسن شعره. مات نحو سنة ١٠٠ هـ. (الشعر والعشراء ٢: ٦٥١، والسمط ٢: ٦٨٣، والخزانة ٩: ٣٥).

(٢) البيت في أنساب الأشراف ٤: ١ ص ٢٩٣ وروايته فيه هي:

حُشينـا الغَيْظَ حَتّـى لو شَرِبْنا دِمَـاءَ بنـي أُمَيَّةَ ما رَوِيْنا

(٣) رواه أحمـد في المسنـد ٢: ١٢٨ و ١: ٣٢٧، وانظـر الفتـح الـكبير ٣: ٨٨، وكنـز العمـال ٣: ٥٨١٩.

علىٰ شَرَفٍ من الوُقوعِ من الجُذام لشدَّة اختصاصِها بتوليدِ هٰذه العِلّة؛ فإمّا أن يدفعها اللّٰهُ تعالى عنه فَتُدْفع أو يُوقعه فيها فيَقع. وإنّما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « يُرَفْرِفُ على رأسِه » عبارةً عن دُنوِّ هذه العِلَّةِ منه، فيكونُ بمنزِلة الطّائر الـذي يُرفرفُ على الشَّيءِ إذا هَمَّ بالنُّزول إليهِ والوُقوع عَليه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١٢٨] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١] :

« **وهَلْ يَكَبُّ الناسَ علىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائدُ ألسِنَتِهِمْ** » .

وفي رواية أُخرى « عَلَى مَنَاخِرِهِمْ في النّارِ . . » ، وهٰذه من الاستعاراتِ العَجيبةِ ، والمرادُ بها أنّ أكثر معاثِرِ الأقدام ومصارعِ الأنام إنّما تكونُ بجرائِرِ ألسِنَتِهم علَيهم ، وعواقِبِ الأَقوال السّيئةِ التي تُؤثَرُ عنهم ، هٰذا في الدّار الدُّنيا وعلى المُتعارَفِ بين أَهلها والمتعالَمِ من مَجاري عاداتِها ؛ فأمّا في الدّارِ الآخرةِ

(١) رواه الترمذي رقم ٢٦١٩ ، وابن ماجة ٢ : ١٣١٤ ، وأحمد في المسند ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ . وهو طرف من حديث طويل ، وروايته فيها :
« ثكلتك أمّك يا معاذ : وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » ،
ومعاذ هو معاذ بن جبل الصحابي رضي الله عنه .
وثكلتك : أي فقدتك . وهو دعاء عليه بالموت ظاهراً . والمقصود التعجب من الغفلة عن هذا الأمر .
ويكَبُّ : من كبَّه ، إذا صرعه .
وحصائد ألسنتهم : بمعنى محصوداتهم . على تشبيه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل . فكما أن المنجل يقطع من غير تمييز بين رطب ويابس وجيد ورديء ، كذلك لسان المكثار في الكلام ، بكل فن من الكلام ، من غير تمييز بين ما يحسن ويقبح .

فَيُؤخَذُون فيها بآثامِ الأَقوالِ كما يُؤخذون بآثامِ الأَفعال فيُكَبُّون على مناخِرهم في أطوارِ العَذاب وبين أطباق النيران، نعوذُ باللَّه منها. والعبارةُ عن هذه الحالِ بحصائِد الأَلسِنَةِ من أحسَنِ العِبارات لأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّه ما **تَحْذِفُ**[1] **بِهِ ألسِنَتُهم من الأَقوالِ المَذْمُومَةِ التي تَسُوء عَواقِبُها ويعودُ عليهم وبالُها بالزَّارِع** الذي يَسْتَوبِئُ[2] عاقبةَ زَرْعِه، والغَارِسِ الذي يَستمِر[3] ثمرةَ غَرْسِه. وهذا كقولِ القائلِ لِمَنْ أُخِذَ بجريرةٍ وعُوقب على جَريمة: احْصُدْ ما زَرعْتَ! واستوف أجْرَ ما غَرَسْتَ!

[١٢٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« **تَدُورُ رَحَا الإِسلامِ لِسَنَةِ كذا** ».

وهذا مجازٌ، والمرادُ أنّ الإسلامَ على هذا العَهْدِ يضطربُ في قَرارِه ويَقْلَق في نِصابه بالوُلاة الذين يَتنكَّبُون واضحَ السَّبيل وتَنْتَقِضُ علىٰ أيديهم مِرَرُ الدِّين، فشبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الإسلامَ بالرَّحا السّاكنة في مُسْتَقَرِّها القائمة على قُطْبِها، فإذا كان الوَقْتُ الذي وقعَ الإيماءُ إليه دارتْ دَوْرَ هَرْجٍ واضطراب، لا

---

(١) ما تحذف به ألسنتهم: أي ترمي به، يقال حذفه بحجر: إذا رماه به. وقد جعل الشريف الرضي الأقوال المذمومة كأنها حجارة يقذف بها اللسان.

(٢) استوبأ المكان: وجده وبيئاً، أي ذا وباء وهلال. ومعنى استوبأ عاقبة زرعه، أي لم يحمده.

(٣) أي يجدها مُرّة، كأنه ذاق ثمره من غرسه فوجدها مُرّة.

(٤) رواه أبو داود رقم ٤٢٥٤، وأحمد في المسند ١: ٣٩٠ و ٣٩٣، والحاكم ٣: ١١٤ و ٤: ٥٢١. وانظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (رحى). وغريب الحديث لابن الجوزي ١: ٣٨٧. ورواية الحديث فيها: « تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين.. أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين ـ فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن لم يقم لهم دينهم: يقم لهم سبعين عاماً، قال أي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، راوي الحديث: قلت: ممّا بقي، أو مما مضى؟ قال: مما مضى ».
وقال ابن الجوزي ١: ٣٨٧: « وقال الحربي: وروي تزول وهذا أجود لأن المعنى: تزول عن استقرارها فإن كانت الرواية سنة خمس ففيها قدم أهل معد وحصروا عثمان. وإن كانت سنة ستٍّ ففيها خرج طلحة والزبير إلى الجمل، وإن كانت سنة سبع ففيها كانت صِفِّين ».

دورَ قوَّةٍ واستِتباب. ودَوْرُ الرَّحا يكونُ عبارةً عن حالينِ مُختلفتين[1]: **إحداهما** مَذْمُومة، والأُخرى محمودة.

المذمومة: هي الحالُ بُنِي الخَبرُ عليها، وعلى ذلك كانَ قولُ عثمان بن حُنيف[2] الأنصاريّ رحمه الله يومَ الجَمل[3]، وكانَ في حَيِّز أميرِ المُؤمنين عليٍّ عليه السّلام، وقد رأى استِحْرارَ القَتْلِ واستِلْحام الأمرِ[4]: «دارتْ رَحا الإسلامِ وَرَبِّ الكعبة!». أرادَ أنّ الناكثين بيعة أمير المؤمنين علَيه السَّلام وهم أصحابُ الجَمل وقد أَزعَجُوا الإسلام عن مناطه، وأَزْحَفُوه عن قَراره.

وأما الحال المحمودَةُ، فهي أن يكون دورُ الرَّحا عبارةً عن تَحَرُّكِ جِدّ القَوم، وقُوَّةِ أَمرهم، وعُلُوِّ نَجمهم.

يقال: دارت رَحا بين فُلانٍ، إذا اتَّفَقتْ لهم هٰذِه الأحوالُ المحمُودة ومن هذا القبيل أيضاً العبارةُ بِدَورانِ الرَّحا عن هَزْمِ عسكرٍ لعسكر، وكسرِ فيلقٍ لفيلق.

قال الشاعر[5]:

---

(١) في المطبوع: مختلفين. والصواب ما أثبتناه.

(٢) عثمان بن حُنَيْف بن وهب الأنصاري الأوسي، أبو عمر: والٍ، من الصحابة. شهد أحداً وما بعدها، وولاّه عمر السواد، ثم ولاّه علي (رض) البصرة. ولما نشبت فتنة الجمل (بين عائشة وعليّ) دعاه أنصار عائشة إلى الخروج معهم على عليّ، فامتنع، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به عائشة فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعليّ، وحضر معه الوقعة. ثم سكن الكوفة، وتوفي في خلافة معاوية بعد سنة ٤١ هـ. (الإصابة ترجمة ٥٤٣٧، وأسد الغابة ٣: ٥٧٧، و (السير ٢: ٣٢٠).

(٣) يوم الجمل، يوم من أيام الإسلام مشهود، وكان بين عليّ وعائشة، في مكان يسمى بالخريبة، وهي موضع بالبصرة، وذلك في سنة ٣٦ هـ. وقتل في هذا اليوم عشرة الآف فيهم كثير من أعلام المسلمين، وذوو الغناء والنجدة. انظر تاريخ الطبري ٤: ٤٥٦، وابن كثير ٧: ٢٢٥.

(٤) استحرّ القتل: اشتدّ وكثر. واستلحام الأمر: اشتداده. وانظر كلام عثمان بن حُنَيف في الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر الضبي الأسدي: ١٢٢، وتاريخ الطبري ٤: ٤٦٣.

(٥) هو عدو الله كعب الأشرف الطائي، من بني نبهان: شاعر جاهلي. كانت أمه من بني النُّضير فدان باليهودية. وكان سيداً في أخواله، يقيم في حصن له قريب من المدينة، يبيع فيه التمر والطعام، =

طَحَنَتْ رَحَا بَدرٍ لَمْهلِكِ فِتْيَةٍ
وَلِمثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ الأَدْمُعُ[1]

فهذه حالٌ كانَ دَوْرُ الرَّحا فيها مَحْمُوداً لِمَن دارتْ لَهُ، ومَذْمُوماً لمن دارَتْ عليه. وإنّما قالُوا: دارَت رَحا الحربِ لِجَوَلانِ الأبطالِ فيها، وحركاتِ الخَيلِ تَحتها.

وقد رُوِيَ هٰذا الخَبرُ على وجهٍ آخر، وهو قوله[2]: « تزولُ رَحا الإسلام »، والمُرادُ بذلك أنها تزولُ عن ثَباتها وتميلُ عن مَوضع اسْتِقرارها.

[١٣٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« مَنْ بَايَعَ إماماً فأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وثَمَرَةَ قَلْبِهِ، ونَخِيلَةَ صَدْرِه فلْيُطِعْهُ ما اسْتَطَاعَ ».

فقوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ: «وثَمَرة قَلْبِه» استعارةٌ لأَنَّ المُرادَ بِها خالِصَةُ

= أدرك الإسلام، ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وايذائهم، والتشبيب بنسائهم. وخرج إلى مكة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة، وأمر النبي ﷺ بقتله، فقتله خمسة من الأنصار في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة سنة ٣ هـ. (الروض الأنف ٣: ١٣٩، والمحبر ١١٧ و ٢٨٢ و ٣٩٠، ومعجم الشعراء ٢٣١، والأغاني ٢٢: ١٢٥).

(١) البيت في السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٢ وشرحها الروض الأنف ٣: ١٣٩، وهو من قصيدة طويلة يحرض فيها على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكي فيها أصحاب القليب من قريش، الذين أصيبوا ببدر. ورواية البيت فيهما على الشكل التالي:

طحنَتْ رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تَسْتَهِلُّ وتدمع

ورحى الحرب: معظمها ومجتمع القتال. وتستهل: أي تسيل بالدمع.

(٢) انظر غريب الحديث لابن الجوزي ١: ٣٨٧ والفائق والنهاية واللسان والتاج (رحى).

(٣) رواه مسلم رقم ١٨٤٤، وأبو داود رقم ٤٢٤٨، والنسائي ٧: ١٥٣، وابن ماجه رقم ٣٩٥٦. وهو طرف من حديث طويل.

وصفقة يده: كناية عن البيعة والعهد، وذلك أن العادة في التبايع والبيعة: أن يطرح المشتري يده في يد البائع، وكذلك عند البيعة، ويصفِّق أحدهما يده على الآخر. وهذا هو الأصل.

صَدره. أي بايعه بطاعةٍ صَحيحة، وبِنيّةٍ غير مَدْخُوله، فشبّه علَيه الصَّلاة والسَّلامُ ذٰلك بالثَّمرة لأنّها لُباب كُلِّ شَيءٍ، وخالِصَتُه، وصُفوته، وخُلاصَته.

[١٣١] ومثل ذلك الحديث الآخر عنه عليه الصلاة والسلام[١]:

« **الولَدُ مَبْخَلةٌ مَجْبَنةٌ مَجْهَلةٌ، ثَمراتُ القلوب، وقُرَّاتُ العينِ** ».

أراد عليه الصَّلاةُ والسَّلام أنَّ الأَولاَد خالصةُ القُلوب والأَكباد، كما أنّ الثَّمر خالصة النَّبات والأَشجار. وعِندي في ذٰلك وجهٌ آخَر؛ وهو أنَّ الوَلد من أَبيه بمنزلةِ الثَّمرةِ من الشَّجرة لأنّه منهُ تَفَرَّعَ، وبوساطته ظَهَر وطلَع، فلو قَال: الأولادُ ثمراتُ الرِّجال لكان الفَرضُ صَحيحاً، والمعنى مُستقيماً، إلا أنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أضَافهم إلى القُلوبِ؛ فجعلَهم ثِماراً لها دونَ سائِر الأَعضاءِ غيرها؛ لأنّ القَلْبَ سيّد الأَعضاءِ الرئيسة والأَحناءِ الشَّريفة، فَحَسُنَت حينئذٍ إضافَةُ الولدِ إلىٰ القلبِ خُصوصاً، وإن حَسُنَت إضافته إلى سائِر أعضاءِ الأبِ عُموماً، لأنّه عُصارة مائِه وخلاَصَةُ أَعضائِه.

[١٣٢] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[٢]، وقد سأَلَهُ رَجلٌ[٣] عَمّا شَيَّبَه؟ فقال:

---

(١) رواه ابن ماجه رقم ٣٦٦٦، والطبراني (٢٥٨٧)، والحاكم ٣: ١٦٤، وأحمد ٤: ١٧٢، والبزار (١٨٩٢)، والهيثميّ في مجمع الزوائد ٨: ١٥٥. وانظر مسند الشهاب ١: ٤٩ و ٥٠، ومسند أبي يعلى ٢: ٣٠٥، ومسند عمر بن عبد العزيز للباغندي: ٧٣، وكشف الخفاء ٢: ٤٧٠. وانظر أيضاً كتاب الغريبين ١: ٤٢٩، والنهاية واللسان والتاج (بخل وجبن وجهل).

وقال الهروي: « الولد مجهلة مجبنة مبخلة، يعنون أنه إذا أكثر ولد الرجل جبن عن الحرب، استبقاء لنفسه، وبخل بماله، إبقاء عليهم، وجهل ما ينفعه مما يضرّه، لتقسّم قلبه ».

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٢٩٣، وروايته عنده: « قال أبو بكر (رض): يا رسول الله، قد شبت، قال شيَّبتني هود، والواقعة، والمراسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت ». وانظر أيضاً تفسير القرطبي ٩: ١ تفسير سورة هود، وعلل الحديث للرازي ٢: ١١٠ و ١٣٤، وكشف الخفاء ٢: ٢٠، والمستدرك ٢: ٣٤٣. والنهاية واللسان والتاج (قصف).

وقال ابن الأثير شارحاً للحديث: « أي ذُكر لي فيها هلال الأمم، وقُصّ عليّ فيها أخبارهم، حتى تقاصف بعضها، كأنها ازدحمت بتتابعها ».

(٣) هو أبو بكر الصديق (رض) كما ورد في الحديث قبل قليل.

« هُودُ وأَخواتُها قَصَّفْنَ عَليّ الأُمَمَ ».

وهذا مجازٌ لأنّ أَصْلَ القَصفِ: كَسْرُ الشيء وحَطْمِه.

ومن ذٰلكَ ما حُكِيَ عن بَعْضِ اليَهودِ لمّا قَدِمَ النّبيُّ صلّى اللّهُ عليه وآلـهِ وسلّم المَدِينةَ أَنّ قـال [1]: « تركـت بني قَيْلَة [2] يتقـاصفون بِقُبَـاء [3] على رجل يزعم أنّه نبيّ »، يقولُ من شدة ازدحامهم عليه كأن بعضُهم يكسر بعضاً، ومنه سُمّيت الريحُ الشديدةُ قاصِفاً، لأنّها تَحْطِم الأشجارَ وتَهْدِم الجُدران.

فالمرادُ بقوله عليه الصَّلاةُ والسَّـلام: « قَصَّفْنَ عليَّ الامم » أنّ هُوداً ومـا يجري مجراها من السُّور أُفِيْضَ فِيها ذكرُ مَهالِكَ الأُمَمِ الخالِيَة، ومصارعُ القُرونِ المَـاضية، فنسب عليـه الصَّلاة والسَّـلام إهلاكَهُمْ إلى هٰـذهِ السُّورة لمّـا كانت المُتَرجِمَةَ عن ذِكر هَلاكِهم، والهاتِفة ثانياً بِبَوارِهم على طَريق المَجازِ والاتّساع.

قـوله عليـه الصلاة والسـلام: « قَصّفن عليّ » أي تَلَوْنَ عليّ أَخبـارَ تلكَ المَهـالِكِ وأَنبـاءَ تلك المَعاطب [4]، وهٰـذا مجازٌ آخَـرُ لأنّ السُّـورَ متلوّةٌ وليست بتالية؛ ولكنّهُ لما نسب فعْلَ الهلاكِ إلَيْها وأقامَها مقامَ المُهلِك المُعطِب حَسُنَ أن يُقِيْمَها مقامَ المُتكبِّر المُخْبِر.

---

(١) انظر هذا الأثر في النهاية واللسان والتاج (قصف).

(٢) قَيْله: أمّ الأوس والخزرج. وفي حديث سلمان: ابْنَي قَيْلة؛ يريد الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار. وقَيْلة: اسم أمّ لهم قديمة، وهي قيلة بنت كاهل. (كما في اللسان). وفي جمهرة الأنساب لابن حزم: ٣٣٢: « فولد حارثة بن ثعلبة: الأوس والخزرج، أمهما قَيْلـة بنـت الأرقـم بن عرمو بـن جفنة بن عمرو فريقياء ». وفي النهاية (ابْنَيْ قَيْلَة)، ومثله في التاج واللسان.

(٣) قُباء (بالضم): قرية قرب المدينة. وقباء: اسم بئر فيها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، وفيها مسجد التقوى. وانظر معجم البلدان (قباء). وهي بمّد الهمزة وقعرها.

(٤) المعاطب جمع مَعْطَب: موضع العَطَب.

[١٣٣] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام [١]:

« الرَّحِمُ تَتَكلّمُ بِلِسَانٍ طُلَقٍ ذُلَقٍ تقول: صِلْ مَنْ وَصَلنِي! ».

وقد رُوي أيضاً: « بلسانٍ طُلُقٍ وذُلُقٍ » [٢] بالضمّ في الحَرفين جميعاً.

وهٰذا الكلامُ مجاز، والمراد بذلك أنّ اللَّهَ سُبحانه قَد أَوْجَب على خَلْقِه صِلَةَ الرَّحِم، وأَمرهم بالعِطافَة علَيها والقِيام بالحُقوقِ الوَاجِبة لها. فصارَتْ بظاهِر هٰذه الحَالِ كأَنَّها ناطقةٌ بالحَضِّ على صِلَتِها والدُّعاءِ لِمَنْ وصَلها [٣]. ومن كلامهم: أَطّتْ بِفُلانٍ الرَّحِمُ [٤]. والأَطيط ها هُنا: الصَّوْتُ فيه بعض الحَنين؛ كأنّها دَعته إلى أَن يرعَى ذِمَّتَها، وذكّرته بما يجبُ علَيه لها.

ويقولون: « أرْزَمَتْ إليه الرَّحِمُ وناشَدته الرَّحم » [٥]، وذلك في لِسانهم أشهر من أَن يحتاجَ إلى إقامةِ الشَّواهِد وإيضاحِ الدَّلائل.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢: ١٨٩ و ٣٠٩. وانظر ابن الجوزي ١: ٣٦٣، والفائق (حجن) والنهاية واللسان والتاج (ذلق وطلق). وروايته في الفائق: « إذا كان يوم القيامة جاءت الرحم فتكلمت بلسان طلق ذلق، تقول: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني ».
وقال ابن الأثير في شرح الحديث: « أي فصيح بليغ، هكذا جاء في الحديث على فُعَل بوزن صُرَد. ويقال: طَلِقٌ ذَلِقٌ، وطُلُقٌ ذُلُقٌ، وطليق ذليق، ويراد بالجميع المضاء والنفاذ. وذَلْق كل شيء حَدُّه ».

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) من ذلك ما رواه أبو داود رقم ١٦٩٤، والترمذي رقم ١٩٠٨، وهو: « قال عبد الرحمن بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: ﴿ أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته ـ أو قال: تبتُّه ﴾.
وصلة الرحم: مبَرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم.
وَتَبَتُّهُ: من البتّ: القطع والاستئصال، وقطع الرحم: ضِدُّ صلتها.

(٤) في الأساس: ١: ١٥: « ومن المجاز: أطّتْ بك الرَّحمُ، أي رَقّتْ وحنّتْ ». وانظر أيضاً اللسان والتاج (أطط).

(٥) يقال: أرزمت الناقة: إذا حنّت على ولدها، فاستعمل هذا في الرحم كأنها تحن على صاحبها.

[١٣٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١):

« لا تَمْشُوا عَلَىٰ أعقابِكُمُ القَهْقَرى ».

وهذه استعارةٌ، والمُرادُ لا تَرْجِعُـوا عن دِينكم ولا تَكْفُروا بعـد إيمانكم؛ فتكونُوا كالرَّاجِع على عَقِبه عاكساً لقدمِهِ وناكِصاً بعد تَقَدُّمِه. فهذا وجهٌ.

وقـد يجوز أَن يكـونَ المُـراد لا تُـوَلُّـوا عن الـدِّين راجعينَ وتَلْتَـوُوا عنـه مُنْصَرِفين، فعبّر عن الرُّجوعِ بعد الذَّهـابِ بالـرُّجوعِ على الأَعقـاب؛ لأنّ من عادتهم أن يقولوا رجع فلان على عقبه إذا أدبر عن وجهته أو خالف قصد جهته، والمعنيان متقاربان.

[١٣٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (٢):

« مَنْ أَتَـاكُمْ وأَمْرُكم جُمْـعٌ يريـد أن يَشُقّ عصـاكم، ويُغَـرِق جَمَـاعَتكُمْ فَاقْتُلُوه ».

فقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « يُريدُ أن يَشُقّ عَصاكُم » استعارَةٌ؛ والمُرادُ بِهِ تفريقُ أَمرهم، وتشتِيت جَمعهم، فَشَبَّه ذٰلك بشقِّ العَصا، لأنَّ عن شَقِّها يكـون تَشَظِّيها (٣)، وتطاير الصُّدوع (٤) فيها، قال الرَّاعي (٥):

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣/١٨ و ٣٩ و ٣٥٤.

(٢) رواه مسلم رقم ١٨٥٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٨: ١٦٩، وروايته عند مسلم: « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشقّ عصاكم، أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه ».

(٣) تشظِّيها: تفرقها شظايا وقطعاً صغيرة.

(٤) الصدوع: الشفوق.

(٥) هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري، أبو جندل: شاعر من فحول المحدثين. كان من جلّة قومه، ولُقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. وهو من أهل بادية البصرة عاصر جريراً والفرزدق. وكان يُفضل الفرزدق، فهجاه جرير هجاءً حراً، وتوفي سنة ٩٠ هـ. (الأغاني ٢٤: ٢٠٤، والسمط ١: ٥٠، وخزانة البغدادي ٣: ١٣٤).

فَـتَـشَـقَّـقَـتْ مِـنْ بَـعْـدِ ذاكَ عَـصَـاهُـمُ
شُـقَـقَـاً وغُـودِرَ جَمْعُـهُـم مَـفْـلُولاَ [1]

أي انتشَرت أُمورهمْ وتفرَّقت جُموعهم.

ومِثْلُ ذٰلك من كلامِهم قولُهم: « فَضَّ اللَّهُ مَرْوَتَهُمْ » [2]، وهي الصَّخْرَة، و « فَضَّ اللَّهُ خَدَمَتهم » [3]، وهي الحَلقة.

فكأنهم شبهوا التئام جُموعِهم بالصَّخْرَةِ المَلْمُومَةِ، وشبَّهُوا التِحامَ شُؤونهم بالحَلقة المَأْطُورة [4].

ويجوزُ أن يكونَ لِشَقِّ العَصَا وجهٌ آخَرُ، وهو أن يُراد به فَلُّ شوكَتِهم، وإيهان [5] قُوَّتِهم، لأنّ العَصا لصاحِبها قُوّة يَدْفَع بها، وبَسْطَةٌ يعوّلُ عليها. ألا تَرى إلى قوله تعالى حاكياً عن مُوسىٰ عليه السلام [6]: ﴿ هِيَ عَصَايَ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ فجعل من مَرافِقها الاعتِماد علَيها والهَشّ على الغَنَمِ بها؛ ومِنَ المآرِب الأُخرىٰ التي فيها أن تكونَ آلةً لدِفاعِه، وعُدَّةً لِقراعِه؛ وهي بَعْدُ عَوْنٌ للماشِي وهِدايَةٌ للعاشِي [7] وسَلَاطةٌ للراعي [8].

---

(١) البيت في ديوانه: ١٤٤، وهو من ملحمة الراعي النميري المشهورة، ورقمه فيها (٧٩)، ورواية الديوان هي:

فتصدَّعَتْ من يوم ذاك عصاهُمْ شققاً وأصبح سيفه مسلولا

وانظر تخريج البيت في الديوان.

(٢) المرْوَة: حجر أبيض برّاق، وقيل: هي التي يقدح منها النار.

(٣) في الأساس (فضض): « ومن المجاز: فضّ الله خَدَمَتكم ».

(٤) المأطورة: المستديرة الملتصق بعضها ببعض، ليس فيها فاصل ولا ثغرة.

(٥) إيهان قوتهم: إضعافها.

(٦) الآية ١٨ من سورة طه. وانظر تفسير القرطبي ١١: ١٨٥.

(٧) العاشي: اسم فاعل من عشا يعشو، إذا أساء بصره وضعف.

(٨) المراد الشدة والقوة.

[١٣٦] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ [1] :

« مَنْ لَبِسَ في الدُّنْيا ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوبَ مَذَلَّةٍ » .

وهذه استعارةٌ. والمُرادُ أَنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ يَشْمَلُه بالمَذَلَّةِ حتّى تضفو عليه [2] من جهاتِه وتَلْتَقِيَ عَليه من جَنَباتِه، كما يشمـلُ الثَّوبُ بـدنَ لابِسه فيكـون ساداً لِخَللِه ومُغَطّياً لفَرْجِه.

ومعنى هٰذه المَذلّـة أن يُحَقِّره سُبحـانه في القُلوبِ ويُصَغِّـرَهُ في العُيون، وربّما زِيد في هٰذا الخَبر [3] : « أَلْبسه الله ثوبَ مَذلَّةٍ في الآخِرة »؛ والمَذلَّـةُ في الآخرَةِ هي حرمانُ الثَّوابِ وإنزالُ العِقاب.

[١٣٧] ومن ذلك قَوْلُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام [4] ـ وقد جاء رجلٌ بامـرأتِه يشكُو خُلُقها فأَخذ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ برأسَيْهما وقال ـ:

« اللَّهُمَّ أَرِّ بَيْنَهُما » وهذه استعـارةٌ، والمراد اللهم قَـرِّبْ بَيْنَهُما ولائِمْ بين خُلُقَيْهما. وذٰلكَ مأخوذٌ من الأَرْي وهي الآخِيَّة التي تربطُ الدّابةَ إلَيْها فكأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام دَعا لَهُما أَن يكونَا كالدَّابتَّيْنِ على الآرِيّ، في المُقارَبَة والمُلازمة وعدَمِ النِّفار والمُبَاعدة.

وقد يَجُوز أن يكون ذلك مـأخُوذاً من قـولِهم: أَرَّيْت العُقدة إذا شَـدَدْتَها

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٠٢٩ و ٤٠٣٠ و ٤٠٣١، باختلاف في ألفاظه ورواياته، وابن ماجه ٢: ١١٩٢ و ١١٩٣، وأحمد في المسند ٥١١٤ و ٥١١٥ و ٥٦٦٤، و ٥٦٦٧ و ٦٢٤٥.

ومعنى ثوب شهرة: أي الذي إذا لبسه الإنسان افتضح به، واشتهر بين الناس والمراد به: ما ليس من لباس الرجال، ولا يجوز لبسه شرعاً ولا عُرفاً. وثوب مذلة: من إضافة السبب إلى المسبب.

(٢) الضفا: الجانب والناحية. ولكل شيء ضفوان.

(٣) انظر تعليقنا على الحديث قبل قليل، لأن الحديث جاء بروايات مختلفات.

(٤) الحديث في غريب الحديث ٣/ ١٩٦ واللسان والتاج والفائق والنهاية (أرّ) وكتاب الغربيين ١/ ٤١ وابن الجوزي ١/ ٢١. وقال أبو عبيد: « وبعضهم يروي هذا الحديث عن النبي ﷺ: إنه دعا بهذا الدعاء لعلي (رض) وفاطمة عليهما السلام ـ يعني قوله: اللهم أرِّ بينهما ـ وكذا الرواية في الفائق.

وأَحكمْتَ عَقْدَها؛ فكأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دعا لَهُما بأن يكونَ عقد الودّ بينهما فتكون أخلاقُهما متوافِقَةً وأحوالُهما مُتَلافِقة.

وقد يجوزُ أيضاً أن يكونَ ذلكَ مأخُوذاً من قولهم: أَرَى فلانٌ بالمكان إذا قامَ به، فكأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دعَا لَهُما بأن يَثْبُتا على الأُلفةِ ويَدُوما على المَودّة[1].

والتَّأَرِّي أَيضاً: التوقُّع للشيء والانتظار له. قال الشاعر[2]:

لَا يَتَأَرَّى لِمَا فِي القِدْرِ يَرْقُبُهُ
ولا يَعَضُّ علىٰ شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[3]

[١٣٨] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هجاء شُعَراءِ الإسلام لمشركي قُرَيش[4]:

---

(١) ترك الشريف الرضي معنى من معاني الأري، هو أليق بهذا الحديث، وهو: أريت الدابة إلى الدابة: أي انضمت إليها وتآلفا في المعلف، أي اللهم ألف بينهما حتى ينضّما إلى بعضهما كالدابتين المذكورتين.

(٢) هو أعشى باهلة، عامر بن الحارث بن رياح الباهلي، من همدان: شاعر جاهلي، يكنى أبا قُحفان، أشهر شعره رائية له، في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب؛ أوردها البغدادي برمتها. وقيل اسمه عمر. (الخزانة ١ : ١٧٦، والسمط ١ : ٧٥، والمؤتلف والمختلف ١١).

(٣) البيت من رائية أعشى باهلة، وهي أصمعية، وانظر ديوانه: ٢٦٨، والخزانة ١ : ١٨٤، واللسان والتاج (صفر وأري)، وغريب الحديث للهروي ٣ : ١٩٦.
وللصاغاني رأي في رواية البيت انظرها في التكملة (صفر، ٣ : ٧١)، حيث جعل الإنشاد فيه تداخل والبيت عنده ملفق من بيتين. ولا يتأرى: لا يتحبس ويتلبّث، يقال: تأرى المكان إذا أقام فيه، أي لا يلبث لادراك طعام القدر.
يمدحه بأن همته ليست في المطعم والمشرب وإنما همته في طلب المعالي، فليس يرقب نضج ما في القدر إذا هم بأمر له شرف، بل يتركها ويمضي.
والشرسوف: طرف الضلع. الصفر: دويبة مثل الحية تكون في البطن تعتري به من شدة الجوع؛ وأراد أنه لا صفر في جوفه فيعض، يصفه بشدة الخلق وصحة البنية.

(٤) انظر هذا الحديث ورواياته في المسند ٦/ ٣٨٧ والترمذي رقم ٢٨٥١ في الأدب، والنسائي ٥/ ٢٠٢ =

« فوالذي نَفْسِي بيَدِهِ لكأنّما يَنْضَحُونَهُمْ بالنَّبْلِ »،

وقد يجوزُ أن يكونَ ذٰلكَ مَأخُوذاً من قولهم: نَضَحَ الشجرُ يَنْضَحُ نَضْحاً إذا تَفطَّر[1] للتَّوْرِيق، فكأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: شَقِّقُوا جُلودَهم بِنَبْلِكُم كما تتشقّق أَلِحْيَةُ[2] الشَّجر عن طوالِع أوراقِه ونَواجِم أفنانه[3].

[١٣٩] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقد كَسا أُسامةَ بن زيد قُبْطِّية[4] فكسَاها امرأتهُ، فقالَ له عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[5]:

« أخافُ أنْ تَصِفَ حَجْمَ عظامِها ».

وهٰذه استعارةٌ والمرادُ أَنّ القبطيَّةَ بِرقَّتِها تَلْصِق بالجِسم، فتبين حَجْمَ الثَّديينِ والرَّادِفَتَيْنِ وما يَشِذّ من لَحمِ العَضُدين والفَخِذَين، فيعرفُ النّاظرُ إليها مقاديرَ هٰذه الأعضاءِ حتى تكونَ كالظّاهِرة لِلَحْظهِ[6] والمُمكنةِ لِلَمْسِه، فجعلَها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهٰذِه الحالِ كالواصِفَةِ لما خَلْفَها والمُخْبِرَة عَمّا اسْتَتَرَ بها.

= في الحج، والسيرة ٢/ ٣٧١ والآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي ٥/ ١٠٣ والأغاني ٤/ ١٣٦ وفي التاج (نضح): « ومن المجاز نضح فلاناً بالنبل نضحاً: رماه ورشقه. ونضمناهم نضماً فرقّناه فيهم كما يفرّق الماء بالرش ».

(١) تفطر: تشقق.

(٢) ألحية جمع لحاء: وهو قُشر الشجرة وغلافها الخارجي.

(٣) الأفنان جمع فنن: وهو الغصن المستقيم من الشجرة.

(٤) القُبْطِيَّةُ: ثياب من كتّان بيض دقاق، كانت تنسج بمصر، وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس، وتجمع على قَبَاطِيّ، وقُبَاطِيّ.

(٥) رواه أحمد في المسند ٥: ٢٠٥، والبيهقي في السنن ٢: ٢٣٤. وانظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (قبط)، وفي الفائق والنهاية (قبط): « ومنه الحديث: أنه كسا امرأة قُبطيّة، فقال: مُرْها فلتتخذ تحتها غلالة لا تصف حجم عظامها». وقال الزمخشري: « هي ثياب مصر».

(٦) أي لنظره.

وهٰذه من أحْسَنِ العِبارات عن هٰذا المعنى .

وهٰذا الفَرَضَ رَمى عُمَرُ بنُ الخَطّاب (رض) في قولِهِ[1] : « إيّاكُمْ ولُبْسَ القَبَاطِيّ ، فإنّهـا إلا تَشِفّ تَصِفُ » ؛ فكانَ رسـولُ الله صلّى اللّهِ عليهِ وآلِـه أبـا عُذْرِ[2] هٰذا المعنى . ومَنْ تبعه فإنّما سَلك نهجَه وطَلع فَجّه[3] .

[١٤٠] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[4] :

« **لَا تَقْضِيَةَ في ميراثٍ إلا فيما حَمَلَ القَسْم** » .

وهٰذه استعارةٌ والمرادُ بالتَّعْضِيـةِ التَّفْريقُ ؛ مِن قـولهم : عَضى الجَزُور إذا نَحَرَها، وقَسَم أعضاءَها وفَرّق أشلاءَهـا . فشَبَّه عليـه الصَّلاةُ والسَّـلام المِيراث المُقْتسم بالأَعضاءِ المُتَفَرِّقة ، والأَشلاءِ المُوزّعة ، ومعنى : **إلا ما حَمَل القَسْم** : أي ما احْتَمَل إذا قُسِم أَعضاءً ، وفُرّق أجزاءً ، أَلّا يكونَ ذٰلـك مُضِرّاً بـه ومُفْسِداً

---

(١) في النهاية والفائق واللسان والتاج (قبط): « ومنها حديث عمـر (رض): لا تُلْبسوا نسـاءكم القَبَاطيّ، فإنه إلاّ تَشِفّ فإنه يصف » .
وقال الزمخشري: « أي إن لم يُرِ ما وراءه فإنه يصف خَلْقها لرِقّته » .

(٢) العذر والعذرة والعذارة: البكارة، ويقال فلان أبو عذر، على هذا المعنى، وأبو عذرته، بمعنى هو السابق إليه، لأن الذي يفتض البكر ويزيل عذرها، هو أول من يقربها فشبه هذا بهذا.
وجاء في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٢٤٩ : « يقال: فلان أبو عذرة هذا الكلام، أي هو الذي اخترعه ولم يسبقه إليه أحد. وهو مستعار في قولهم: هو أبو عذرتها، أي هو الذي افتضّها، ويقال: إن المرأة لا تنسى أبا عُذْرتها » .

(٣) الفَجّ: الطريق الواسع بين جبلين، والمراد مطلق الطريق، أي سار على نهجه .

(٤) رواه الدارقطني في سننه ٤ : ٢١٩ ، والحديث عنده كما يلي:
« لا تقضية على أهل الميراث إلاّ ما حمل القسم». وانظر أيضاً غريب الحديث لابـن الجـوزي ٢ : ١٠٤ ، والفائق والنهاية واللسان والتاج (عفى)، وقال ابن الأثير في النهاية: « هو أن يموت الرجل ويدع شيئاً إن قسم بين ورثته استَضرّوا أو بعضهم، كالجوهرة والطيلسان والحمّام ونحـو ذلك، في التعضية: التفريق » .

له، وما لا يَحتملُ التسم كالحَمّام[1] من العقارِ والدُّرّة[2] من العُروض، وما في مَعْنى هٰذين الجِنسين من المالِ الموروث.

وعلى ذلك قولُ الشّاعر [3]:

* ولَيْسَ دِيْنُ اللَّهِ بالمُعَضَّا * [4]

أي ليس الدّين بالمُفَرّق المُوَزّع، ولكنّهُ المضمومُ المُجتمع.

[١٤١] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسلام في كلام [5]:

« وَلا تُسَلِّطْ عليهم عدُوّاً من سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ » [6].

وهذه استعارةٌ، والمرادُ بالبيضةِ هاهُنا مجمعُ أُمّته عليهِ الصَّلاة والسّلامُ، وموضعُ سُلطانِهم، ومُستَقرُّ دَعوتهم.

---

(١) الحمّام: هو المكان المعد للاستحمام. وتقسيمه لا يجوز لأنه يُفسده، فإذا جعل مكان الحمام وحده، ومكان النوم وحده، لم يصلح المكان أن يكون حمّاماً.

(٢) الدُّرَّة: هي الحجر الكريم وتقسيمه يُفسده، لأنه ينقص قيمته، ومن العلوم أن الدُّرَّة كلما كبر حجمها زاد ثمنها.

(٣) هو رؤ بة بن العجاج بن رؤ بة التميمي السعدي، أبو الجحّاف: راجز من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وكان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية، وقد أسنّ، وذلك سنة ١٤٥ هـ. (الأغاني ٢٠ : ٣٤٤، وخزانة البغدادي ١ : ٩١، والسير ٦ : ١٦٢).

(٤) البيت في ديوان رؤ بة: ٨١، وهو في مقاييس اللغة ٤ :٣٤٧، وتفسير غريب القرآن ٢٣٩ . وانظر تفسير القرطبي ٥٩١٠ في تفسير الآية ٩١ من سورة الحجر، وهي قوله تعالى: ﴿ الـذين جعلـوا القرآن عضين ﴾. ﴿ وليس دين الله بالمعضًى ﴾ أي بالمفرق. والبيت في اللسان بدون نسبة.

(٥) رواه مسلم رقم ٢٨٨٩ ، والترمذي رقم ٢١٧٧ ، وأبو داود رقم ٤٢٥٢ ، وابن ماجه رقم ٣٩٥٢، وأحمد في مسنده ٥ : ٢٧٨ و٢٨٤ . وانظر أيضاً غريب الحديث لابن الجوزي ١ : ٩٧ . وهو طرف من حديث طويل كما ذكر الشريف.

(٦) بيضة الناس في الحديث: مجتمعهم ومعظمهم، وبيضة البلد: وسطه ومعظمه. واستباحهم: جعلهم مباحاً، يأخذهم أمراً وقتلاً، ويتصرف فيهم كيف شاء.

وشبّه ذلك بالبَيْضَةِ لاجتماعِها، وتلاحُقِ أَجْزائِهـا، واستنادِ ظـاهِرهـا إلى باطِنها، وامتناعِ باطِنها بظاهِـرها. وقـد يجوزُ أن يكـونَ المُرادُ بـالبَيضةِ هـاهُنا المِغْفَـر الذي هـو من لأْمةِ الحَـرْب، فكأنَّـهُ عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ شبّـه مكـانَ اجتماعِهم، ومظنّة اتّفاقِهم والتأمِهم ببيضةِ الحَدِيد التي تحصنُ الدِّارع[1]، وتَرُدُّ القَوارِع[2].

وكان شيخُنا أبو الفتح النّحوي[3] رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُول: قولُهم جاؤوا الجَمَّاءَ الغَفير[4]، يريدونَ، بهِ البَيْضة التي هِي المِغفر. وسَمّوها جَمَّاء لِمَلاسَتِها[5]، وغَفيراً لتغطِيتَها[6] كأنّهم بهٰذا الكلامِ يَصِفُون قَوماً بالقُوَّة والاجتِماع، والكثـرةِ والاحتِشاد، فشبّهوا مُوّتهم بالحَديد الذي هو النِّهايةُ في الشدة، وشَبَّهُوا كَثْرَتَهُ في أَنّ بعضَهُم لَيَسْتُر بَعْضاً بالمِغْفَرِ[7] الذي هو غِطَاءٌ لما تَحْتَهُ من شَعر الهامة. وفي هٰذا الكلامِ مسألةٌ من الإعراب، وهي من مَسَائل الكِتاب[8]، وليس كتابُنا هٰذا مُقْتَضِياً لِذكرها فَنتعاطَاهُ، لاسيّما وغَرضُنا فيه اتّباعُ نهجِ الاختِصـار والانحرافُ عن طَرِيق الإكثارِ والإطناب.

---

(١) الدارع: لابس الدرع، وهو قميص من حديد يلبسه المحارب ليقي صدره وظهره من الطعنات.

(٢) القوارع جمع قارعة: وهي الضربات التي تأتيه من الأعداء.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) في التاج (غفر): «ويقال: جاؤوا جمًّاً غفيراً، وجمُّ الغفير، بالإضافة، وجَمَّاءَ الغفير، والجمَّاء الغفير، وجماء غفيراً، ممدود في الكلّ، وجمَّاء الغفير عنه بالقصر، وجمُّ الغفيرة، وجَمَّاء الغفيرة، الثلاثة ذكرهم الصاغاني، والجماء الغفيرة. وجمَّاء غفيرةً، والجم الغفير، ويقـال أيضـاً: جاؤوا جميعاً، شريفهم ووضيعهم، ولم يتخلف أحد، وهم كثيرون».

(٥) لأن من معاني الجماء: الملساء.

(٦) الغفر: الستر، ومن ذلك غفران الذنوب: أي سترها، والمغفر: الدرع لأنه يستر صاحبه.

(٧) انظر الحاشية السابقة، والمغفر أساساً زردٌ ينسـج من الـدروع على قدر الرأس، يلبس تحـت القلنسوة، وجمعه مغافر.

(٨) أي كتاب سيبويه، وإذا أطلق الكتاب انصرف إليه. والمسألة فيه ١ : ٣٧٥ (باب ما يجعل من الأسماء مصدراً). ولم يحله إلا الجمَّاء الغفير، من الأحوال التي دخلها الألف واللام، وهو نادر. وقال: =

[١٤٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[(١)] :

« مَنْ كَسَبَ مَالاً من نَهَاوِشَ أَنْفَقَه في مَهَابِرَ » ، وفي هذا الكـلام مَجازٌ. والمـرادُ بالنَّهـاوش على ما قـالَهُ أهـلُ العَربيّـة اكتسابُ الأمـوالِ من النَّـواحي المَكروهة ، والوُجوهِ المَذْمُومة ، ومن غيرِ حِلِّها ، ولا حَميدِ سُبُلها . وذلكَ مأخوذُ من نَهْشِ الحَيْة كأنَّها تنهشُ من هُنا ومن هُنا لا تَتَّقِي مَنْهَشاً ولا تَجْتَنِبُ مَلْبساً ، وذلك ضدُّ قوله عليه الصلاة والسلام على أَحد التأويلين[(٢)] :

= الغفير وصف لازم للجمّاء. يعني أنك لا تقول: الجماء وتسكت. والجماء الغفير: اسم وليس بفعل، إلا أنه موضوع موضع المصدر، أي ينصب، كما تنصب المصادر التي هي في معناه؛ أي مررت بهم جموعاً غفيراً، كقولك: جاؤوني جميعاً وقاطبة وطرّاً وكافة، وأدخلوا فيه الألف واللام، كما أدخلوها في قولهم: أوردها العراك: أي أوردها عراكاً.

وقد جعله غير سيبويه من العماء مصدراً. وأجاز ابن الأنباري فيه الرفع على تقديرهم. وقال الكسائي: العرب تنصب الجمّاء الغفير في التمام، وترفعه في النقصان.

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب ١ : ٢٧١ - ٢٧٣ . وانظر الفتح الكبير ٣ : ١٦١ ، وتمييز الطيب من الخبيث ١٥٩ ، والأحاديث المشكلة في الرتبة ٢٣٥ ، وسلسلة الضعيفة ١ : ٥٨ ، وفتاوي السبكي ٢ : ٣٦٩ .

وغريب الحديث لابن الجوزي ٢ : ٤٤٣ ، والفائق والنهاية واللسان والتاج (نهبر ونهش وهوش) .

وقال الزمخشري في الفائق (هوش) ٤ : ١١٨ : « من أصاب مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر ».

أي من غير وجوه الحلّ، من التَّهويش وهو التخليط، كأنه جمع مَهْوَش. وروى: تهاوش - بالتاء - جمع تَهْوَاش، قال: -

* تأكل ما جمعت من تَهْوَاش *

وهو من هشت مالاً حراماً، أي جَمَعْتُهُ. والهُوَاش بالضم: ما جمع من مال حلال وحَرَام. وروى: تَهَاوش بالنون، فإن صَحَّتْ فهي المظالم، والإجحافات بالناس، من قولهم: نهشه إذا جهده. والمنهوش: المجهود. قال رؤبة: -

كَمْ مِـنْ خَلِيلٍ وأخٍ مَنْهُـوشِ مُنْتَعِـشٍ بفَضْلِـكم مَنْعُـوش

ويجوز أن يكون من الهوش، ويقضي بزيادة النـون فيكون نظيره قولهـم: نَفَـاطِير ونَبَـاذِير وتَحَارِيب، من الفطر والتَّبْذِير والخَرَابِ، ورجل نِفْرِجَة في معنى فرج، وهو الذي لا يكتم السر. النَّهابر: المهالك. يقال: غَشِيَتْ بي النهابير؛ أي حملتني على أمر شديد، والأصل جمع نُهْبُورة، هو الرجلُ المُشْرِف، وقيل: الهوة.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ١ : ٣٨٤، والخطيب البغدادي في التاريخ ١١ : ٢٩٥، وابن =

[١٤٣] « اطْلُبُوا المالَ مِنْ حِسَانِ الوُجُوهِ ». أي من وُجوهِ المكاسِب الطَّيّبةِ التي يحسُنُ الطَّلَبُ مِنها، ولا يُذَمُّ التَّعَرُّضُ لَها.

وقال أبو عُبيدة(١): هو مَهاوِش بالميم؛ يُريد أخذَ المال من التَّلَصُّص نحو لُصوص بني سعد(٢). وقال غيرُه: ذلكَ مأخوذٌ من الهَوْش. يُقال: تَهاوش القومُ إذا اخْتَلطُوا. ومنه قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣): « إيّاكُمْ وهَوْشَاتِ الأَسواق » أي اخْتِلاطها وفَسادها. والميم زائدة في بِناء الكَلمة.

والمعنى راجعٌ إلى ما قَالَهُ أبو عُبيدة؛ لأنّ الأموالَ المأخوذةَ من التَّلصُّص موصوفةٌ بالاختِلاط في أَنْفُسِها، والآخذُ لها موصوفٌ بالتَّخْلِيط فيها.

وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أَنْفَقَهُ في نَهَابِرَ: أي في الوُجوهِ المُحَرَّقَةِ التي يَضِيعُ الإنفاقُ فيها، ولا يعودُ إليه نفعٌ مِنها.

وذلكَ مأخوذٌ من نَهابِر الرَّمل، واحدتُها نُهْبُورة(٤)، وهي وَهَداتٌ تكونُ بينَ الرِّمال المُستَعظَمة إذا وَقَع البَعيرُ فيها استَرْخَتْ قَوائِمُه، ولم يكد يتخلَّصُ مِنها.

= الجوزي في الموضوعات ٢: ١٦٣، وروايته عندهم: -
« اطلُبُوا الخيرَ عِندَ حِسَانِ الوُجوهِ »

(١) انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ٤: ٨٦. وقد روي الحديث بالميم أي (مهاوش)، وقال: « وبعض الناس يرويها: من أصاب مالاً من نهاوش - بالنون؛ ولا أعرف هذا، والمحفوظ عندنا بالميم ».

(٢) كذا: ولم نجده في غريب الحديث.

(٣) ليس من كلام سيد المرسلين، وإنما هو من أحاديث عبد الله بن مسعود (رض)، كما في غريب الحديث لأبي عبيد ٤: ٨٤. ونص الحديث فيه: « إياكم وهَوْشات الليل وهو شات الأسواق - وبعضهم يقول: هيشات السوق ».
وانظر الفائق ٤: ١١٩، والنهاية ٥: ٢٨٢ (هوش).

(٤) في التاج (نهبر): « الواحدة نُهْبُرَةٌ ونُهْبُورَةٌ بضمهما، وكذلك نهبور ».

ويقال[1]: حُفَرٌ بين الآكامِ يَصْعُبُ السُّلوك بها وتكثُر المَعاثِر فيها، فكأنّهُ عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّهَ ما يُكْسَبُ من الحَرامِ ويُنفَقُ في الحَرامِ بالشَّيءِ الواقِع في عُجْمة الرَّملِ[2] لا يُرْجَى وُجوده، ولا ينشدُ مَفقودُه؛ ومع ذلك فقد أُرْصِدَ لِمُنْفِقةِ أَليمُ العَذاب، وعظيمُ العِقاب!

[١٤٤] ومن ذلكَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام في كتابٍ كتبَهُ لبعضِ الوُفود[3]:

« لاَ يُبَاحُ مَاؤُهُ ولاَ يُعْقَرُ أَرْعَاؤه ».

وهذه استعارةٌ؛ والمرادُ بهِ: لا يُقطَعُ ما فيه من شَجرٍ أَوكلأٍ إلّا بإِذن صاحِبه، فشبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام ما يُقْطَعُ من الشَّجرُ بما يُعْقَرُ[4] من الإبل. وذلكَ من التَّشبيهاتِ الواقعةِ والتَّمثيلاتِ النَّافِعة لأَنَّ سُقوطَ الشَّجرِ عَنْ قَطْعِها كَسُقوطِ البَدَنَةِ عن عَقْرِها.

[١٤٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

---

(١) في التاج (نهبر): « يعني بالنهابير أموراً شداداً صعبة. شبَّهها بنهابير الرمل لأن المشي يصعب على من ركبها. أو النهابير: الحفر بين الآكام ».

(٢) أي ما تعقَّد من الرمل أو كثرته.

(٣) الحديث في أسد الغابة ٢ : ٢٨ في ترجمة (حصين بن مشمت بن شداد التميمي).
قال ابن الأثير: « وشرط عليه النبي ﷺ فيما أقطعه إياه: لا يعقر مرعاه، ولا يباع ماؤه، ولا يمنع فضله، ولا يعضد شجره ».
وانظر أيضاً الفائق والنهاية واللسان والتاج (عقر). والحصين بن مشمت: صحابي، وفد على النبي ﷺ فبايعه على الإسلام، وصدّق إليه ماله، وأقطعه عدة مياه. انظر أسد الغابة ٢ : ٢٨، وتجريد الذهبي ١ : ١٣٢.

(٤) عقر الدابة أو البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقوا ويتمكن من ذبحه.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك ٤ : ٣٤١، والبيهقي في السنن ١٠ : ٢٩٤. وانظر الفتح الكبير ٣ : ٣٠٨، وكنز العمال ١٠ : ٢٩٦٢٤ و٢٩٦٣٨، والنهاية واللسان والتاج (لحم).
وقال ابن الأثير في شرح الحديث: « وفي رواية كلحمة الثوب ـ قد اختلف في ضم اللحمة وفتحها، فقيل: هي في النَّسَب بالضَّم، وفي الثوب بالضَّم والفتح. وقيل الثَّوب بالفتح وحْدَه. وقيل: النَّسَب والثَّوبُ بالفتح، فأَمَّا بالضّم فهو ما يصاد به الصَّيْد. ومعنى الحديث المخالَطَة في =

« الوَلاءُ لُحْمَةٌ كلُحْمَةِ النَّسَبِ لا يُباعُ ولا يُوهَبُ ».

وهـذه استعارةٌ. لأنَّـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ جعَـل التحامُ الـوَليِّ بـوليِّـهِ كالتحامِ النَّسِيب بنسيبِهِ في استحقاقِ المِيراث، وفي كثيرٍ من الأَحكام.

وذلك مأخوذٌ من لُحْمَةِ الثَّوب وسُداه [١]، لأَنَّهما يصَيران كالشَّيءِ الواحِد بما بَيْنَهُما من المُداخَلة الشَّديدةِ والمُشابَكة الوَكِيدة، ويقالُ: لُحْمَةُ البازِي [٢]، ولحمةُ النَّسب، ولُحمة الثـوّب: واحد؛ وهي المُشـابَكةُ والمُخَـالطةُ، إلا أَنَّهم فَرَّقُوا بين اللَّفظين ليكونَ ذلك تَميزاً للمُسَمَّيين [٣].

[١٤٦] ومن ذلكَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ [٤]:

« المُؤْمِنُ مُوْهٍ رَاقِعٌ »، وهذه استِعارَة.

والمـرادُ أَنّ المُؤمن إذا أساءَ أَحسن وإذا أَخْـطَأ يذَم. فكـأَنّه يُـوهِي دينَـهُ بمعصيتِهِ، ويَرْقَعُه بتَوْبَتِهِ. فشَبَّهه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بِمَنْ يخرقُ ثَوباً، ثم يُبادِرُ رَقْعَ ما خَرَق، ورَتْق ما فَتق.

[١٤٧] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ [٥]:

= الولاء، وأنها تجري مجرى النَّسَب في الميراث، كما تخالطه اللُّحْمة سدى الثـوب حتـى يصيرا كالشيء الواحد، لما بينهما من المُداخَلة الشديدة ».

(١) لحمة الثوب: هي الخيوط التي تنسج بالعرض، وسداه: هي الخيوط الممدودة بالطول فتجيء الخطوط العرضية، وهي اللحمة، فتتداخل فيها وتتشابك حتى إنها بعد نسجها لا تعرف السدى من اللحمة لشدة تشابكها وتماسكها.

(٢) لحمة البازي: البازي هو الصقر، ولحمته ما يطعمه من اللحم، ولحمة النسب هي القرابة.

(٣) كأن الشريف يقول: إنهم فرَّقوا بين اللفظين بفتح أحدهما وضم الآخر، وذلك أنه لا يجوز في لحمة النسب إلا الضم، وأما غيرها فيجوز فيه الفتح والضم.

(٤) قال العجلوني في كشف الخفاء ٢ : ٤٠٧ : « وراه البيهقي والطبراني عن جابر مرفوعاً وهو ضعيف، والمعنى أنه يخرق دينه بالذنب، ثم يرفعه بالتوبة ». وروايته عنده: « المؤمن واهٍ راقعٌ، وسعيد من هلك على رَقْعِهِ». وأنظر أيضاً ابن الجوزي ١ : ٤٠٩، والنهاية واللسان والتاج (رقع).

(٥) رواه مسلم رقم ١٨٥١، وروايته: « من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة ولا حجّة له، ومن مات ليس في عنقه بيعة: مات ميتة جاهلية ».

« مَنْ خلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللّهَ ولا حُجَّة لَهُ » .

وهـذه استعارةٌ . والمُـرادُ بخلْعِ اليَد هـاهُنا الخـروجُ عن طاعـةِ الإمـامِ العادِل، فشبّه عليه الصَّلاةُ والسّلامُ من يَخْرُج عن طَاعَةِ سُلطانِـه بالأَسِيـر الّذي نَزَع يَدَهُ من رِبْقَتِهِ[1] ، وأَخْرَج عُنقَّهُ عن جامِعَيه[2] ، فكأنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَقام لوازِمَ الطّاعةِ في الأَعناق مقامَ الجَوامِع في الأَيدي والرِّقاب، وجعل الخارج منها كالمارق من رِبْقة الأسر، والناصل[3] من مَثناة الحبل .

[١٤٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4] :

« مَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الآخِرةَ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ غِنَاهُ في قلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَـا وَهِي رَاغِمَةٌ » .

وهذه استعارة، والمراد أتته الدنيا من حيثُ لا يطلبُها ودرَّتْ عليهِ مَنافِعُها من حيثُ لا يَحْتَسِبُها، فأقامُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مـواتاةَ الـطَّلبِ من غيرِ طلبٍ مقامَ إتيانها راغِمةً، وإقبالِها عَليه ضَارِعة .

وأَصلُ الرغم أَن يُلْصَقَ الأَنفُ بالرَّغام، وهو التُّراب، وقيل: الرَّمْل . وليسَ يـكـادُ يـكـونُ ذلـكَ إلا عـن غـايـةِ الـخُـشـوعِ ، ونِـهـاية الخضُوع .

---

(١) الربقة : القيد الذي يكون في رقبة الدابة .
(٢) الجامعة : القيد الذي يكون في اليد .
(٣) الناصل : الخارج، ومثناة الحبل : القيد المثني على اليد ونحوها .
(٤) رواه ابن ماجة ٢ : ١٣٧٥، من حديث طويل وروايته فيه هي: « من كانت الدنيا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْه أَمْرَهُ، وجعل فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ في الدُّنْيا إلاَّ مَا كُتِبَ له . وَوَمْن كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَأتتهُ الدُّنيَا وَهِيَ رَاغِمَـةٌ » . وأتتـه الـدنيا وهـي راغمـة أي مقهـورة . والحاصل أن ما كتب للعبد من الرزق يأتيه لا محال إلا أنه من طلب الآخرة يأتيه بلا تعب . ومن طلب الدنيا يأتيه بتعب وشدّة .

[١٤٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« عليكُمْ بِسُنَّتي وسُنَّةِ المَهْدِيِّين مِنْ بَعْدِي، وعَضُّوا عَلَيْها بالنَّواجِذِ ». وهذا مَجازٌ. والمرادُ أَن اقْطَعُوا عليها وقِفُوا عِندها، ولا تَتجاوُزُوها إلى غيرها. كما أنّ منْ شدّد العضّ بنواجِذه على الشَّيءِ الذي يتأتّى فيه القَطْعُ قَطَعه. والنّواجِذُ أَقْصى الأَضْراسِ، وهي أَقْواها وأَمْضاها.

وقد يجوزُ أَن يكون المرادُ الأمرَ بِلُزوم سُنّته عليه الصَّلاةُ والسَّلام كما أَن العاضَّ بنواجذِه على الشَّيءِ الذي لا يَتأَتّى فيه القَطْعُ يَلْزَمُه أَشدَّ اللزوم لِقُوَّةِ العَوازم واستحصافِ اللَّوازِم.

[١٥٠] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ[٢]:

« حبُّكَ الشيءَ يُعْمى وَيُصِمّ »، وهذا مجازٌ؛ لأنَّ الحبَّ للشيء على الحقيقةِ لا يُعْمِي ولا يُصِمُّ، وإنما المراد: أَنّ الإنسانَ إذا أَحبّ الشَّيءَ أَغْضى عن مواضعِ عُيوبِهِ كأنّه لا يَنْظُرها، وأَعرض عن الملاوِم والمَعاتِب من أَجْله كأنه لا يسْمَعُها. فصَار مِن هٰذا الوجهِ كالأَعمى لِتغاضِيه والأَصَمّ لتغابيه.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٦٧٨، وأبو داود رقم ٤٦٠٧، وابن ماجة ١ : ١٦، والدارمي ١ : ٤٤، وهو في المسند ٤ : ١٢٦ و١٢٧. وانظر شرح هذا الحديث مفصلاً في (جامع العلوم والحكم) للحافظ ابن رجب الحنبلي. وروايته في دواوين السنة هي: « أوصيكم بتقوى الله، والسَّمعِ والطَّاعة، وإن عبداً حبشياً، فإن من يعش منكم بعدي فيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهدِّيينَ، تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإياكم ومُحدثاتِ الأمور، فإن كل مُحدثَةٍ بدْعةٌ، وكل بدْعَةٍ ضَلاَلَة ». والمهديُّ: الذي قد هداه الله إلى الحق. والنواجذ: الأضراس التي بعد الناب، جمع ناجذ، وهذا مثل في شدة الاستمساك بالأمر، لأن العضّ بالنواجذ عضٌّ بمعظم الأسنان التي قبلها والتي بعدها.

(٢) رواه أبو داود رقم ٥١٣٠ في الأدب، وأحمد في المسند ٥/ ١٩٤ و٦/ ٤٥٠ وانظر مسند الشهاب ١/١٥٧.

[١٥١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1] :

« تَنَامُ عَيْنَايَ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي » .

وهذا القولُ عند المحقّقين من العُلماءِ مَجازٌ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام لو كان قلبُه لا ينامُ على الحَقيقةِ كقلوبِ النّاسِ لكان ذلك من أكبر مُعجزاته وأبهر آياته، ولوجب أَن تتظاهـر الأَخبارُ بنقلِه كمـا تظاهَـرَتْ بنقلِ غيـرِه من أَعلامِـهِ ودلالتِه.

ومما يحقّقُ قَولنا ما روَاه عبدُالله بن عَبّاس رحمهما الله من أَنّه صلّى اللّهُ عَليهِ وآلِه، نام وَنَفَخَ فصلّى ولم يتَوضّ، فقيل له عليه الصلاة والسّلام في ذلك، فقال[2] : ليس الوضوءُ على مَنْ نام قاعِداً إنّما الوضوءُ على من نَام مُضطجعاً » .

وفي بعضِ الرّوايات أَو مُتَوَرِّكاً، فإنّه إذا نامَ كذلـك استَرْخَت مفـاصِلُه. فبيّن عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنه لو نامَ مُضطجعاً لَلزِمَهُ الوضوءُ لاسترخاءِ مفاصِله، فلو كان قلبُه لا يَنامُ لما وجَب عَليه الوُضوء إذا نَامَ مُضطجعاً كما لا يجبُ عَليه إذا نَامَ قاعداً.

وقد يجوزُ أَن يكونَ المُرادُ بقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام: « تنامُ عَيْنَاي ولا يَنامُ قَلبي » أنه لا يعتقدُ من حالِ نومِه من الرُّؤيا الفاسِدة والمناماتِ المُتَضـادَّة مما يعتَقِدُّه غيرُه من سائر البَشرِ، فيكون في حُكم المُستيقظ وبمنزلة المُتَحَفِّظ.

١٥٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3] :

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٢١ وانظر الفتح الـكبير ٢/ ٣٨ وكنـز العمـال ١١/ ٣١٩٠٠ و٣٢٢٤٩.

(٢) انظر الخبر والحديث مفرّقاً في ابن ماجة ١/ ١٦٠ و١٦١ والموطأ ١/ ٢١ ونسبه إلى سيدنـا عمـر (رض) والمسند ١/ ٢٥٦.

(٣) انظر مسند الشهاب ٢ :٩٥، والفتح الكبير ١ :٤٩٢، وكنز العمال ٣ :٧٨٤٣، وغريب الحـديث لابن الجوزي ٢ : ٨٠ و١٥٢، والفائق والنهاية واللسان والتاج (عرر وغرر).

« **إيَّاكُم وَالمُشَارَّةَ فإنَّها تُحْيِي العُرَّة وتميتُ الغُرَّة** ».

وبهذه استعارةٌ عجيبةٌ والمُراد بها أَنّ مشارَّة النّاسِ تُظْهِرُ المَعايِب، وتُخفي المَناقب؛ لأنّ المُهاتِرَ المُشَاغِبَ لا يقدرُ لمخاصمهِ على مثلبةٍ[1] إلا بحثَها، ولا يجدُ له منقبةً[2] إلا دفَنها، فكأنَّه يميتُ محاسِنَهُ ويُحيِي مساويه وجعل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الغُرّة في مكانِ المَنْقَبةِ لتجمّلِ الإنسانِ بنشرِها، وجَعل العُرّة في مكانِ المَثْلَبةِ لتهجّنِ الإنسانِ بِكَشْفِها. وقد قيل إن المُرادَ بالغُرّة هاهنا النَّفِيسةُ من المالِ. ومنه قولُ الشّاعر[3]:

* غَريرُ التِّلادِ مُنِيلُ الطَّعَامِ *

أَراد بغرير التِّلاد كرائم المَال، والمرادُ بالعُرّة: البلاءُ والهَلاكُ. مأخوذٌ من العرة، وهي قُروح تصيبُ الإبل، وهذا القول ذكَرَهُ أَبو عبيدة[4]، والقولُ الأَوّل أشْبَهُ بظاهِرِ الكلامِ وأبعدُ من الاعتِسافِ والاستِكْراه.

ومما يؤكّدُ ذلكَ ما رُوي عن جَدّنا الصادقِ جَعفر بن محمد[5] عَلَيْه وعلى آبائِه السَّلامُ أنه قال[6]: إيّاكُم وتَعْدادَ العُرَّة فإنّها تكشِفُ العَورةَ، وتُورِثُ المَعرَّة.

---

(١) المثلبة: المنقصة.

(٢) المنقبة: المفخرة والمحمدة.

(٣) لم نعرفه، ولم نجد البيت في مصادرنا.

(٤) انظر غريب الحديث لأبي عبيد ٤: ١٨، وفي التاج (عرر): « وقال بعضهم: العُرّ، بالضم: قروح مثل القوباء تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها، يسيل منها مثل الماء الأصفر، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض، تقول منه: عُرّت الإبل فهي معرورة».

(٥) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي أبو عبد الله، الملقّب بالصادق: سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. وكان من أجلاّء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. مولده ووفاته سنة ١٤٨ هـ بالمدينة المنورة. (وفيات الأعيان ١: ٣٢٧، وحلية الأولياء ٣: ١٩٢، وصفة الصفوة ٢: ٩٤).

(٦) انظر سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٣ ففيه كلام يشبه هذا القول، وهو من وصية يوصي بها ابنه موسى الكاظم.

فهذا كالبَيانِ لِذلك الإجمال، والإخراج من ذاكَ الاحتمال.

[١٥٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1] :

« دَبَّ إليكم دَاءُ الأُمَمِ من قبلكم: الحسدُ والبغضاءُ، وهي الحالقةُ: حالقةُ الدِّين لا حالقةُ الشَّعَرْ ».

وهذه استعارةٌ. والمرادُ بالحالِقَةِ هاهُنا المُبِيرة المُهْلِكة: أي هذه الخَلَّةُ المذمومةُ تُهلك الدِّينَ وتَسْتأصِلُه كما تَسْتأصِلُ الموسىٰ الشَّعَر، والمِقْراضُ الوَبَرَ. وعلى هٰذا قولُ الشَّاعر[2] :

أَرْسِلْ عليهِمْ سَنَةً قاشُورَهْ　　　تحتلقُ النَّاسَ احتلاق النُّوْرَهْ[3]

أي تُبير النّاسَ[4]، فتأتي على نُفوسهم، أو تأتي على أموالهم من الإبل والشِّياه، فتكونُ كأنَّها قد أتت على نُفوسهم بإتيانِها على ما هُو قوامُ نُفوسِهم. وإنما جعل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ البغضاءَ حالقةً للدّين لأنّها سببُ التَّفانِي والتّهالُك والإيقاعِ في المَعاطِب والمَهالِك، والدّاعي إلى سَفكِ الدَّمِ الحَرامِ، واحتمالِ أعباءِ الآثام.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٤١٢، وأحمد في المسند ١ : ١٦٥ و١٦٧، والبيهقي في السنن ١٠ : ٢٣٢، وروايته عندهم: « دَبَّ إليكم داء الأُمَمِ قَبْلَكم: الحسدُ البغضاء، وَهي الحَالِقةُ أما إنِّي لا أقول: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكن تحلق الدِّين، والَّذي نَفْسِي بيدِهِ، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تَحابُّوا، ألا أدلكم على ما تَتَحَابُّونَ به؟ أفشوا السلام بينكم ».

(٢) هو الكذاب الحرمازيّ؛ عبدالله بن الأعور أحد بني الحرماز بني مالك ابن عمرو بن تميم، وقيل له: الكذاب، لكذبه. وكان شاعراً فحلاً وراجزاً مجيداً وهجاءً مقذعاً. (الشعر والشعراء ٢ : ٦٨٤، والمؤتلف والمختلف ٢٥٧)..

(٣) الرجز في اللسان والصحاح والأساس (تلب، قشر، حلق، بدون نسبة، ومثله في المقاييس ٥ : ٩١، والجمهرة ٢ : ٣٤٧ و٣ : ٣٨٩. ونسب له في البيت ٣ : ٢٧٦ مع ثلاثة أبيات أخر، كما نسبه للكذاب الحرمازي الصاغاني في عبابه (قشر). ورواية البيتين في كتب اللغة والبيان هي:

فابعثْ عليهم سنةً قاشُوْرَهْ　　　تحتلقُ المال احتلاق النُّوْرَه

(٤) تبير الناس: تهلكم.

[١٥٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1]:

« قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتَابِ ».

وهـذه استعارةٌ؛ لأَنَّـه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ جعَـل ضروبَ العِلْم بمنـزلةِ الإبلِ الصِّعابِ التي تَشْرُد إنْ لم تُعْقَل، وتَنِدُّ إنْ لم تقيد، وجعـل الكتاب لهـا بمنزلة الأقياد[2] المانعة والعُقُل[3] اللازمة.

ومن هنـاك أيضاً سَمّـوا مثـلَ شكـلِ الخَطّ تقييـداً، فقـالـوا: خَطٌّ مقيَّـدٌ بالشكل؛ كأنه حُفِظَ عَليه إيضاحُه في إفهامِه، ولولا الشّكـلُ لَضلّ بيـانُه وأُنكـر عِرفانَه. ومما يشبه ذٰلكَ: الحالُ التي من أَجلِها سُمّي العَقْلُ عَقلاً، وهو عندنـا اسمٌ لعلومٍ مخصوصةٍ يطولُ بتعدادِها الكِتاب.

منها العلمُ بمجاري العَاداتِ. ومنها العلمُ بالمُشَاهداتِ، وهو أَقوىٰ هٰذهِ العُلوم وأَوْلاها بالتَّقديم؛ لأنّ الإنسانَ إذا لم يَعلم بالمُشاهداتِ لم يَصحّ أَن يعلمَ شيئاً غيرَها من المعلُومات.

ومنها العلمُ بأن الشّيء لا يخلُو من وجودٍ أَو عدمٍ، والموجود لا يخلُو من

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ١ :١٠٦ عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: « قيّدوا العلم، قلت: وما تقييده؟ قال: كتابته ».
وأما رواية الشريف فقد نسبها مرة لسيدنا عمر بن الخطاب (رض) وأخرى لسيدنا أنس (رض) كما في الجزء الأول ص١٠٦. وأنظر أيضاً الفتح الكبير ٢ : ٣٠٦، وكشف الخفاء ١ : ١٢٩. وروى الترمذي حديثاً بمعناه وهو: -
« كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله ﷺ، فيسمع من النبي ﷺ الحديث، فَيُعْجِبُهُ ولا يَحْفَظْه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، إني لأسمع منك الحديث ولا أحفظه، فقال رسول الله ﷺ: استعن بيمينك، وأومأ بيده إلى الخط». رواه الترمذي برقم ٢٦٦٨.

(٢) الأقياد: جمع قيد ويجمع أيضاً على قيود، غير أن أقياداً جمع قلة، وقيود جمع كثرة.

(٣) العقل: جمع عقال: وهو الحبل الذي تربط به الدابة.

حُـدوثٍ أو قِدَم، وأن الجسمَ لا يَجُـوز أن يكونَ في مكـانين في وقتٍ واحِـد، والجِسْمَين لا يصحّ كونهُما في مكانٍ واحدٍ في حالٍ واحدة.

ومنها العلمُ بقبحِ كَثيرٍ من المُقَبِّحات[1]: كنحو الظُّلم والكَذِب الذي ليسَ فيه جَرُّ منفعة، ولا دَفْعُ مَضَرَّة، والأَمرِ بالقبيح، وكفرانِ النّعمة.

ومنها العلمُ بحسن كثيرٍ من المُحَسّنات[2]: كنحو إرشادِ الضَّالّ، وبَذْلِ الأَفضال. ومنها العلمُ بوجوبِ كثيرٍ من الواجِبات: كنحو الإنصاف والعدلِ، وشُكرِ المُنعم، وتركِ الظُّلم.

ومنها العلم بتعلّقِ الفِعْلِ بالفاعِلين، والاضطرار عند أَحوالٍ مَخْصُوصـة إلى كثيرٍ من قُصودِ المُخاطَبين.

ومنها معرفة ما يمارِسهُ الإنسانُ من الصَّنائع المُقـاطاة، والحِرَفِ المُعاناة. ومنها مَعْرِفَةُ ما يَسْمَعُه من مُخبر الأَخبـار إذا كانَ المخبـرونَ عدَداً مَخْصُـوصاً، وكانُوا عالِمين بما أَخْبَرُوا به اضْطِراراً. وقد تـركنا ذكـرَ كثيرٍ من هـذه الأَقسامِ عُدولاً إلى جانبِ الاختِصار.

وذكر لي قاضي القُضاة أَبو الحَسن عبدُ الجَبّار بنُ أَحمـد[3] عند قـراءتي عليه ما قَرأتُه من كتابه الموسُوم «بـالعُمَدِ في أُصـول الفقه»[4] أنّ هـذه العُلومَ

---

(١) المقبحات: جمع مقبحة، وهي ما يعدّه الناس قبيحاً، أو الخصلة التي يعدها الناس قبيحة.

(٢) المحسّنات جمع محسنة: وهي ما يعدّه الناس حسناً.

(٣) سلفت ترجمته.ص ٤٢.

(٤) ويعرف أيضاً باسم (الاختلاف في أصول الفقه). وقد تصحَّف اسم هذا الكتاب في بعض طبعات الكتاب إلى (العمدة) وهو تصحيف ظاهر. كما تصحف في بعضها الآخر إلى (في أصول النقد) وهو خطأ ظاهر. انظر (تاريخ التراث العربي) المجلد الأول ج ٤: ٨٣.

المخصوصَة إنّما سُمّيت عَقْلاً لأنها تعقلُ عن فِعل المُقَبَّحات، وذٰلكَ لأنّ العالِمَ بها إذا دَعَتْهُ نفسُه إلى ارتكابِ شيءٍ من المُقَبَّحات منعَه علْمُه بقبحِه من ارتكابِه والإقدامِ على طَرْقِ بابِه، تَشبيهاً بعقالِ النَّاقةِ المانِع لها من الشُّرودِ، والحائل بَيْنَها وبين النُّهُوض، ولهٰذا المعنى لم يوصف القديمُ تَعالى بأنّهُ عاقِلٌ لأنّ هٰذه العلوم غيرُ حاصلةٍ له إذْ هو عالم بالمعلوماتِ كُلّها لِذَاتِه.

قال: وقيل أيضاً: إنما سُمّيت هٰذه العُلوم المَخْصُوصة عَقلاً، لأنّ ما سِواها من العُلومِ يَثْبُت بِثَباتِها، ويستقرُّ باستقرارها تَشبيهاً بعقالِ النّاقَةِ الذي به تثبتُ في مَكانِها. ولمثل ذٰلك قيل: مَعْقِل الجبلِ، للمكان الذي يُلجأ إليه ويُعْتَصم به؛ ولهُ سُمّيت المرأةُ عَقيلةً، وهي التي يَمْنَعُها شرَفُ بيتها، وكرمُ أصلها، وقُوّةُ حَزْمِها من الإقدام على ما يَشِيْنُها، والتَّعَرُّضِ لما يَعِيبُها. والكلامُ في تفضيل هذه العلوم، وبيان ما لأجلِه احْتِيج إلى كُلِّ واحدٍ منها يطولُ؛ وليسَ هٰذا الكتابُ من مَظانّ ذِكرِه ومَواضِع شَرْحِه.

[١٥٥] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[١]:

« **سيَحْرِصُونَ بَعْدي على الإمَارَةِ، فَنعمَتِ المُرضِعُ وبِئْسَتِ الفَاطِمُ** ».

وهذه استعارةٌ؛ كأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أقام الإمارةَ في حَلاوَةِ أوائلها، ومرارةِ أواخِرها مقامَ المُرْضِع التي تحسنُ الرَّضاع، وتُسِيء الفِطام، وهذا من أَوْقَعِ التَّشْبيه وأحْسَنِ تمثيل؛ لأنّ مداخلَ الإمارةِ محبوبَةٌ، ومَخارِجَها مَكْرُوهَةٌ لما في الدَّاخِل إليها من قَضاءِ الأرب، وعُلوِّ الرُّتَب، ولِمَا في المَخارِج عنها من طُرق السّوء وشمات[٢] العَدُوّ.

---

(١) رواه البخاري ١٣: ١١١، والنسائي ٨: ٢٢٥ و ٢٢٦، وأحمد في السمند ٢: ٤٤٨ و ٤٧٦.
وروايته عندهم:
« إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة ».

(٢) الشَّمات والشَّماتة: الفرح ببليّة العدوّ.

[١٥٦] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[١] :

« **لاتُغَالُوا بِمُهُورِ النِّساءِ، فإِنَّمَا هي سُقْيا اللَّه سُبْحَانَهُ** » .

وهذه استعارة؛ والمرادُ إعلامُهم أَنّ وفاقَ النّساء المنكوحات، وكَونهنّ على إرادات الأزواجِ ليسَ هو بأن يُزادَ في مُهورِتهنّ[٢] ، ويُغالىٰ بصَدُقَاتِهنّ[٣] ، وإنّما ذلك إلى اللّهِ سُبحانه، فهي كالأحاظِي[٤] والأقسامِ والجُدودِ والأرزاق؛ فقد تكونُ المَرأةُ منزورة الصَّداق[٥] ، واقعةً بالوِفاق، وقد تكونُ ناقِصة المِقَة[٦] ، وإن كانت زائدة الصَّدقة.

فشبّه ذلك عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بِسُقيا اللّهِ يُرْزَقُها واحِدٌ ويُحْرَمُها آخَر، ويصابُ بها بَلدٌ، ويُمْنَعُها بَلد.

وهذه من أحسن العِبارات عن المَعْنَى الذي أَشرنا إليهِ ودَلّلْنا عَليه.

[١٥٧] ومن ذٰلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في جُملةِ كلامٍ ضَربه مَثَلاً[٧] :

« **إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الإسْلاَمَ دَاراً، والجَنَّةَ مَأْدُبَةً، والداعيَ إليها محمداً صلّى اللّهُ عليهِ وآله** » .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢ : ١٧٦ . وينسب هذا القول إلى سيدنا عمر بن الخطاب كما في كنز العمال ١٦ : ٤٥٧٩٩ .

(٢) المهورة جمع مهر بزيادة التاء فيه للمبالغة كأنه مصدر.

(٣) الصَّدُقات جمع صَدُقَة وهي المهر، قال تعالى: ﴿ وآتوا النساء صَدُقاتهن نِحلة ﴾ .

(٤) الحَظّ: النصيب وهو الجدّ والبخت، وجمعه حظوظ وأحاظٍ، وأحْظٍ. وجمع الجمع أحاظِ. والأقسام جمع قِسْم. والجدود جمع جَدّ وهو الحظ.

(٥) أي قليلة الصداق.

(٦) المقة: الحبّ.

(٧) رواه الدارمي ١ : ٧ في المقدمة، وهو طرف من حيث طويل، وروايته عنده: « أتى النبي ﷺ فقيل له: لتنم عينك، ولتسمع أذنك، وليعقل قلبك، قال: فنامت عيناي، وسمعت أذناي، وعقل قلبي، قال فقيل لي: سيد بنى داراً فصنع مأدبة، وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي داخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد. قال: فاللّه السيد ومحمد الداعي، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة » .

وهذا الكلامُ مجازٌ لأنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَقام الإسلام مقامَ الدَّارِ المُنْتَجعة[1]، والجَنَّةَ مقامَ المَأدُبَةِ المُصْطَنعة[2]، والنَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مقام الدَّالِّ عَليها والدَّاعي إليها. وإنّما شبّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الإسلامَ بالدَّارِ من حيثُ كان[3] جامعاً لأَهْلِه حامِياً لِمَنْ فِيه، وشَبّهَ الجَنَّةَ بالمَأدُبَةِ من حيثُ كانت مُجتمع الشَّهواتِ، ومنتجَع اللَّذات، وشَبّه نفسَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالدَّاعِي إليها من حيثُ كان المرشدَ إلى الإسلام، والهادِيَ للأنام، صلّى اللَّهُ عليهِ وآله الطّيّبين الأخيار.

[١٥٨] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[4]:

« **أنا النَّذِيرُ والموتُ المُغِيرُ** ».

وهٰذه من الاستعاراتِ النّاصِعة، والمَجازات الوَاضِحة، لأَنّ الاستعارة على ضَرْبَين: ظاهرةٌ تُعْرَفُ بجلِيَّتِها[5]، وغامِضَةٌ يُضْطَرُّ إلى استنباط خَبِيَّتِها[6]، فكأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شبّه الموتَ الذي يطلعُ الثَّنايا، ويطلبُ البرايَا بالجَيْشِ المُغير الذي يهجمُ هجومَ السَّيل، ويطرقُ طروقَ اللَّيل، وشبّه نفسَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام بالنّذيرِ المُتَقَدِّم أمامه، يحذِّر الناسَ من فَجْئِه لِيُعِدُّوا العَتَاد، ويَتزَوَّدُوا الأَزْواد.

وهٰذا لقول منه عليه الصلاة والسّلام تصديق لقول الله سبحانه فيه[7]:

---

(١) المنتجعة: أي المقصودة لطلب النجعة، أي الطعام، وأصل انتجع: طلب الكلأ.

(٢) أي المصنوعة المقامة للناس المدعوين إليها.

(٣) الضمير في كان يعود إلى الدار لأنها تذكر وتؤنث ولكن تذكيرها قليل.

(٤) رواه القضاعي في مسند الشهاب ١: ٢١٨، وأبو يعلى ١: ٢٨١، وروايته عندهما: « يا بني هاشم، يا بني قعيّ، أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد ». وانظر أيضاً كنز العمال ١٦: ٤٣٧٥٠.

(٥) أي بوضوحها وظهورها لا تحتاج إلى إعمال فكر، ولا إلى روية في فهم معناها.

(٦) الخبيّة: أصلها الخبيئة، فهي فعيلة بمعنى مفعولة، أي يضطر سامعها إلى إعمال فكره ليستنبط المعنى المخبوء فيها.

(٧) سورة سبأ: ٤٦. وانظر تفسير القرطبي ١٤: ٣١١.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ ﴾.

وقد تكلمنا على هذه الآية في كتابنا الموسوم بمجازات القرآن [1]. ويقال إنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية أتى على أبي قُبَيْس [2] ونادى [3]: يا صَبَاحاه [4]، فلما اجتمع الناس إليه قال لهم يا معشر قريش: لـو كنت مخبركم بـأن جيشاً يـطلع عليكم من هذه الثّنيـة أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قـالوا: أجـل والله، ما علمناكَ إلا صادقاً مصدَّقاً. قال: فإنّي نذيرٌ لكم بينَ يديْ عذابٍ شَديد.

فلمّا سَمِعُوا ذلك انفضُّوا عنهُ ارتِكاساً في الغوَاية واتّباعاً للضَّلالَة.

ولقد أحسنَ صلّى اللّهُ عَليه وآلهِ ضَرْبَ المثلِ لهم وسَلكَ الطَّريقَ الأَخْضَر في حِياشَتِهم [5] وتقريبِ الأمرِ عَليهم، ولكنْ عَشُوا عن النُّور الأَبْلَج، وأَبَوْا غيرَ الطّرِيق الأعْوَج.

[١٥٩] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلامُ في وصف الفرس الذي جاء سابقاً [6]:

---

(١) انظر مجازات القرآن: ٢٦٧.

(٢) أبو قبيس: وهو اسم الجبل المشرف على مكة، وكان في الجاهلية يسمّى الأمين، لأن الرُّكن كان مستودعاً فيه أيام الطُّوفان، وهو أحد الأَخْشَبَيْن. انظر معجم البلدان (أبو قبيس).

(٣) رواه البخاري ٨: ٣٨٥ في تفسير سورة الشعراء، ومسلم رقم ٢٠٨، والترمذي رقم ٣٣٦٠. وانظر أيضاً فتح الباري ٨: ٣٨٥، وتفسير القرطبي ٨: ٣١٢ و ٢٠: ٢٣٤. وتفسير الطبـري ٣٠: ٢١٨، ومسند أحمد ٤: ١٨٦ ط دار المعارف وأسباب التدول للواحدي: ٢٠٧.

(٤) يا صباحاه بسكون الهاء، وهي كلمة يقولها المنهوب والمستغيث؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، ويسمون الغارة يوم الصباح.

(٥) حاشى الصياد الصيد؛ إذا جاءه من حواليه ليصرفه إلـى الحبالـة التـي يقـع فيهـا. والمعنـى: أن الرسول ﷺ سلك الطريق الأخصر في جذبهم إلى الإسلام.

(٦) رواه البخاري ٦: ٤٤، ومسلم رقم ٢٣٠٧، وأبو داود رقم ٤٩٨٨، والترمذي رقم ١٦٨٥، وابن ماجة ٢: ٩٢٦، وأحمد في المسند ٣: ١٤٧ و ١٦٣ و ١٧١ و ١٨٠ و ١٨٥ و ٢٠٢. وانظر أيضاً غريب الحديث لابن الجوزي ١: ٥٧، وكتاب الغريبين للهروي ١: ١٣٥، والفائق والنهاية واللسان والتاج (قرف وبحر). ورواية الترمذي: « ركب النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة يقال له: منـدوب، فقال: ما كان من فزع، وإن وجدناه لبحراً ».

« إنه لَبَحْرٌ »، وهذا مجاز ربما طعن بعض الجهّال بِمَناديح كلامِ العرب في هذا القول بأن يقول: كيف شبّه عليه الصلاةُ والسّلامُ سرعةَ جري الفرس بالبحر، والبحرُ راكدٌ لا يَجري وقائمٌ لا يَسري؟!

فجوابه أن يقال: إنما شبّه عليه الصّلاة والسّلام اتّساعُه في الجري باتساعِ ماء البحر ألا تراهُم يقولونَ: إنّه لواسع الحُضْر[1] وَوَسَاع الخطو[2] يريدون هذا المعنى. والبحرُ في كلامِ العَرب الشيءُ الواسع، ومن هناك سمّوا البلدة المتّسعة الأقطار بحراً، وقد يجوز أن يكون المرادُ بتشبيهِه بالبحرِ أنّ جريَهُ غزيرٌ لا ينفد كما أنّ ماءَ البحر كثير لا يَنْضُب.

ويقال للفرس الكثير الجري: بَحْرٌ وفَيْضٌ وسَكْبٌ[3]. وعلى هذا قول الشاعر[4]:

* وفي البحور تَغْرَقُ البُحُورُ *

قيل أراد الخيل السابقة التي تسبقها خيل أسبق منها، فقد بان أن التشبيه واقع موقعه، وأن الطاعن فيه لم يفهم غرضه.

[١٦٠] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[5]:

---

(١) الحضر: ارتفاع الفرس في عدوه، أي واسع مسافة ارتفاعه عن الأرض أثناء عدوه وجريه.

(٢) أي واسع الخطو، فوساع بمعنى واسع.

(٣) قال الزبيدي في التاج ١٠:١١٢ (بحر) « قال الأصمعي: يقال: فرس بحر وفيض وسكب وحَثٌّ، إذا كان جواداً، كثير العدو ».

(٤) لم نجده فيما بين أيدينا من مصادر.

(٥) رواه الترمذي رقم ٢٠١٩، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣: ٢٦١، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢: ٢١٢، ومسند أحمد ٤: ١٩٣ و ١٩٤، والفائق والنهاية واللسان والتاج (ثرثر وفهق وشدق، ووطأ). ورواية الحديث عن الترمذي هي:
« إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون =

« أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وأَقْرَبِكُمْ منِّي مَجَالِسَ يَـوْمَ القِيَامَـةِ؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً المُـوَطَّئونَ أَكْنَـافاً الّـذِينَ يَأْلَفُـونَ ويُؤْلَفُونَ. أَلَا أُخْبِـرُكُمْ بِأَبْغَضِكم إلَيَّ، وأَبْعَدِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ الثَّرْثَارُونَ المُتَفَيْهِقُونَ ».

فقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: « الثَّرثارون المُتَفيهقون »؛ استعارةٌ. والمراد به الذين يُكثرون الكلام، ويتعمّقون فيه طلبـاً للتكلّف، وخُروجـاً عن القَصد، وتباعداً عن الحقّ، وأصلُ الثرثار مأخوذٌ من العينَ الثرثارة، وهي الواسعةُ الأرجاء الغـزيرة المــاء. يقال: عين ثَـرّة وثرثـارة، وبذلـك سُمّي الثرثـار، وهو النّهـر المعروفُ بالشام، وقال الأخطل[1]:

لَـعَـمْــرِي لَــقَــدْ لَاقت سُـلَيمٌ وعــامــرٌ
عـلىٰ جـانِبِ الـثَّـرْثــارِ راغِيَــةَ الـبَـكْــرِ[2]

قال المبرَّد[3]: وليست الثَّرَّة عند النحـويين البصريين من لفظ الثـرثارة، ولكنها في معناها.

= والمتشدقون فما المتفيهقون، قال المتكبرون ».
والثرثارون هم الذين يكثرون في الكلام تكلفاً وخروجاً عن حدّ الواجب.
والمتفيهقون: هم الذين يتوسّعون في الكلام، ويفتحـون به أفواههـم، مأخـوذ من الفهـق وهـو الامتلاء.
والمتشدقون: هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحاً، وتعظيماً لنطقهم.

(١) سبقت الإشارة إليه.
(٢) انظر ديوان الأخطل: ١٨٦.
- أي لاقوا ما لاقت ثمود من الهلاك.
(٣) هذا الكلام أول كتاب الكامل ١: ٦.وفيه:
« قال أبو العباس: وليست الثرة عند النحويين البصريين من لفقة الثرثار ولكنها في معناها، ويجب أن تكون من الثرة ثرثارة ».
وقال سيّد بن علي المرصفي معلقاً على هذا الكلام:
- « يريد أن الثرة، من ثرّت العين تثرّ، بتثليث الثاء - ثرّاً وثرارة: غزر ماؤها. وهو ثلاثي لا يؤخذ من الزائد عليه بل الأمر بالعكس ». انظر رغبة الآمل من كتاب الكامل ١: ٢٣. =

وقوله عليه الصلاة والسلام: « **المُتَفيهقون** » يريد به ما يريد بقوله:
« **الثّرثارون** »، ومتفيهق متفيعل من قولهم:
فهِق الغَدِيْرُ يَفهَقُ إذا كثر ماؤه، وطمّت جَمّاته[1].

[١٦١] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام في وصية[2] لمُعاذِ بن جَبَل[3]:

« **وَأَمِتْ أَمَر الجاهليّةِ إلّا ما حَسُنَ** ».

وهذه استعارة والمراد توصيته بأن يحيل أمر الجاهلية بنقض أحكامها وخفض أعلامها حتى ينسى ذكرها ويعفو أثرها، فتكون كالميت الذي نسي ذكره وانقطع خبره.

[١٦٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[4]:

« **الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الخطيئة** ».

وهاتان استعارتانِ [أحدهما] قوله عليه الصلاة والسلام:
« الصومُ جُنّة ». والمراد أنّ الصائم الذي يخلص في صومه، ويستكمل آخر يومه يكونْ بالإخلاص في ذلك الصوم كأنه قد لبس جُنّة من العقاب، وأخذ

= والمبرّد هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزديّ، أبو العباس: وكان إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦ هـ. (إنباه الرواة ٣: ٢٤١، ونزهة الألبا ٢١٧، وتاريخ بغداد ٣: ٣٨٠).

(١) طمّت: أي زادت وملأت، والجّمات: المياه الجارية في الغدير؛ أي إذا زاد ماؤه.

(٢) لم نجد هذه الوصية في مصادرنا.

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي: صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. مات في طاعون (عمواس) سنة ١٨ هـ. (الإصابة ت ٨٠٣٩، وأسد الغابة ٤: ٣٧٦، والسير ١: ٤٤٣).

(٤) رواه الترمذي رقم ٢٦١٩ في الإيمان، وابن ماجة ٢/ ١٣١٤ في الفتن، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣١ و ٢٣٦ و ٢٣٧ وهو طرف من حديث طويل، وبعده عند الترمذي: « كما يطفيء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين.... ».

أماناً من النّار. وللصومِ مزيّةٌ على سائرِ العِبادات في هذا المعنى، وإن كانت إذا أُدّيت على شروطها بهذه الصفة.

وذلك أن الصّيامَ لا يظهر أثرُه بقولة اللّسان ولا فِعل الأَرْكان وإنما هو نِيَّةٌ في القلوب وإمساكٌ عن حركات المَطعم والمَشرب.

فهو يقع بين الإنسان وبين اللّهِ خالصاً من غيْر رياء ولا نِفاق، وسائرُ العبادات وضروب القرب والطاعات وقد يجوز أن يفعل على وجه الرياء والسُّمعة دون حقائق الإخلاص والطاعة.

وقال لي أبو عبدالله محمد بن يحيى الجُرْجانيّ الفقيه[1]:

عند أصحابنا أن الصلاة أفضل من الصيام لأنها تتضمن ما في الصيام من الإمساك، وفيها مع ذلك الخشوع وتلاوة القرآن، وقال النبي عليه الصلاة والسّلام[2]: « **لا يَزَالُ البَدَنُ في جِهَادِ الشَّيْطَان ما دام في صَلاَتِهِ** »، فجعل الصلاة أيضاً تتضمن معنى الجهاد.

فأما ما روى في الخبر من أنه عليه الصَّلاة والسلام قال حاكياً عن الله تعالى[3]: ﴿**كلُّ عَمَلِ ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأَنا أجْزِي به**﴾.

---

(١) محمد بن يحيى بن مهدي، أبو عبدالله الجرجاني: فقيه من أعلام الحنفية. من أهل جرجان، وسكن بغداد، وكان يدرس فيها بمسجد قطيعة الربيع. وتفقه عليه أبو الحسن القدوري وأحمد بن محمد الناطفي وغيرهما. توفي في بغداد سنة ٣٩٨ هـ. (تاريخ بغداد ٣: ٤٣٣، والجواهر المضيئة ٢: ١٤٣).

(٢) لم تجده في مصادرنا.

(٣) رواه البخاري ٤: ٨٨، ومسلم رقم ١١٥١، وأبو داود رقم ٢٣٦٣، والترمذي رقم ٧٦٤، والنسائي ٤: ١٦٢. وانظر الموطأ: ١: ٣١٠، وابن ماجة ١: ٥٢٥ و ٢: ١٢٥٦، والمسند ٢: ٢٧٣ و ٤٤٣ و ٤٧٧، والسنن الكبرى للبيهقي ٤: ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٢٧٠ و ٢٧٣ و ٢٧٤.

وإنما خصّ الصوم والجزاء عليه بنفسه عزّ وجلّ وإن كانت العبادات كلها له، وجزاؤها منه، لأن جميع العبادات التي يتقرب بها العباد إلى الله عز وجل، من صلاة وحجّ، وصدقة، وتبتُّل، واعتكاف، ودعاء، وقربان وهدي، وغير ذلك من أنواع العبادات، قد عَبَد المشركون بها آلهتهم، =

فليس ما فيه من تفضيل الصوم بدالٍّ على أن غيره من العبادات ليس بأفضل منه، وإنما وجه اختصاصه بالذِّكْر من بين العبادات على التّعظيم له لأجْل ما قدّمنا منا ذكره من أنه لا يفعل إلا على محض الإخلاص، ولا يتأتّى في حقيقته شيءٌ من الرّياء والنّفاق، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال[1]: « لَيْسَ فِي الصَّوْمِ رِيَاءٌ »، وهذا بيان للمعنى الذي تكلمنا عليه.

وحكى عن سفيان بن عيينة[2] في تفسير هذا الخبر أنه قال: الصوم هو الصبر، لأن الإنسان يصبر عن المطعم والمشرب والمنكح، وقد قال تعالى[3]: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. يقول فصواب الصوم ليس له حساب يعلم من كثرته على قدر كلفته ومشقته.

والاستعارة الأخرى قوله عليه الصَّلاة والسّلام: « والصدقة تطفىء الخطيئة »، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الخطيئة بمنزلة النار من حيث كانت مفضية إلى عذاب النار، وجعل الصدقة مطفئة لها إذا كثرت، فأثرت في سقوط عقابها.

وهذا القول يصحّ على طريقة من يقول بالموازنة[4]، فإذا كان عقاب

= وما كانوا يتخذونه من دون الله أنداداً، ولم يسمع أن طائفة من طوائف المشركين في الأزمان المتقادمة عبدت آلهتها بالصوم، ولا تقرّبت إليها به، ولا دانتها به، ولا عرف الصوم في العبادات إلا من جهة الشرائع، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿ الصوم لي ﴾ أي: لم يشاركني فيه أحد، ولا عبد به غيري، فأنا حينئذ أجزي به على قدر اختصاصه بي، وأنا أتولّى الجزاء عليه بنفسي، لا أكله إلى أحد غيري من ملك مقرّب أو غيره.

(١) انظر كنز العمال ٣: ٧٤٩٣.

(٢) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي: محدث الحرم المكيّ، من الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكة. كان حافظاً ثقة، واسع العلم، كبير القدر، وكان أعور. توفي بمكة سنة ١٩٨ هـ. (تاريخ بغداد ٩: ١٧٤، وابن خلكان ٢: ٣٩١، والعقد الثمين ٤: ٥٩١).

(٣) الآية ١٠ من سورة الزمر. وانظر تفسير القرطبي ١٥: ٢٤٠.

(٤) القول بالموازنة رأي لبعض المعتزلة، ومعناه: أن السيئة توازن الحسنة فتسقط السيئة بالحسنة، أي

الخطيئة مائة جزء، وكان ثواب الصدقة خمسين جزءاً سقط من أجزاء العقاب بقدر أجزاء الثواب. فكأن الصدقة بنقصانها من قدر العقاب قد أطفأت وقْدَته، وكسرت سَوْرته، وكان أبوها هاشم[1] يختار في الإحباط والتكفير الموازنة، وكان أبو عليّ [2] يقول:

إن الزائد يسقط الناقص من الثواب والعقاب، لا على طريق الموازنة، ولا يجوز أن يتساوى ما يستحقّ على الطاعة وما يستحقّ على المعصية.

لأنهما لو تساويا لسقطا، فلم يكن المكلف مستحقاً لحمد ولا ذمّ، ولا مستوجباً لثواب ولا عقاب، وقُدَّامنا الإجماع من ذلك،

فالأمة مجمعة على أن كلّ من كلفه الله سبحانه في الدار الدنيا فهو في يوم المعاد في إحدى الدارين مثاباً أو معاقباً.

ويبين ذلك قوله سبحانه [3]: **«فَرِيقٌ في الجنَّةِ وفرِيق في السَّعِير»**،

= يسقط عقاب هذه بثواب تلك، ولكن الرأي الراجح أن الحسنات يذهبن السيئات لا على طريق الموازنة، بل قد تسقط حسنة واحدة سيئات كثيرة، وقد لا تعدل حسنات كثيرة سيئة واحدة، وإنما تقدر الحسنة بما فيها من عموم الخير وتقدر السيئة بما فيها من فظاعة الشر.

(١) هو أبو هاشم المعتزلي، عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائيّ، من أبناء أبان مولى عثمان: عالم بالكلام، من كبار المعتزلة. له آراء انفرد بها، وتبعته فرقة سميت (البهشمية) نسبة إلى كنيته: (أبي هاشم)، وتوفي في بغداد سنة ٣٢١ هـ. (وفيات الأعيان ٣: ١٨٣، وتاريخ بغداد ١١: ٥٥، والمنتظم ٦: ٢٦١).

(٢) هو أبو عليّ الجُبَّائيّ، محمد بن عبد الوهاب بن سلام: كان رأساً من رؤوس المعتزلة، وشيخ علماء الكلام في عصره. وإليه نسبة الطائفة (الجبّائية)، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب. نسبته إلى جُبَّى (من قرى البصرة)، اشتهر في البصرة، ومات بها سنة ٣٠٣ هـ، ودفن بجُبَّى. ومن تلامذته: أبو الحسن الأشعري، وابنه هاشم عبد السلام. (وفيات الأعيان ٤: ٢٦٧، والوافي بالوفيات ٤: ٧٤، والبداية والنهاية ١١: ١٢٥).

(٣) الآية ٧ من سورة الشورى. وانظر تفسير القرطبي ١٦/ ٦ والكشاف للزمخشري ٣/ ٤٦١.

والكلام على تفصيل هذه الجملة يخرجنا عن غرض الكتاب، ويدخلنا في باب الإطناب.

[١٦٣] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[١]: لكَعْب بن عُجْرة[٢]:

« يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَة: الناس غَادِيَانِ، فغادٍ مُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وغادٍ بائعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا ».

وهذه استعارة، والمراد أن أحدهما عصم نفسه من اتباع الشهوات، وركوب الموبقات، وقام بوظائف الواجبات فأمن ضرر العقاب ونقاش الحساب.

فكأنه ابتاع نفسه بذلك فأعتقها واستشلاها[٣] واستنقذها، والآخر أَتْبَعَ نفسَه هواها[٤]، وأوردها رداها بالتَّهَوُّك[٥] في المغاوي، والارتكاس[٦] في المهاوى، والتقاعس[٧] عن الواجبات، والإسراع إلى المقبحات؛ فكأنه باع نفسه بذلك فأوْبَقَها وعرضها للهلكة فأوردها.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣: ٣٢١ و ٣٩٩.

(٢) هو كعب بن عجرة بن أمية الأنصاري السالمي المدني: صحابي، من أهل بيعة الرضوان، شهد المشاهد كلها، وسكن الكوفة وتوفي بالمدينة سنة ٥٢ هـ. (الإصابة ت ٧٤١٣، وأسد الغابة ٤: ٢٤٣، والسير ٣: ٥٢).

ومبتاع نفسه (في الحديث): أي مشتر نفسه فمعتقها من العذاب، كما يشترى الإنسان العبد فيعتقه من الرق والعبودية.

والغادي: هو المسافر في وقت الغدوة وهي أول النهار، أو ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس؛ والمراد هنا: الناس صنفان أو نوعان سائران في الحياة على طريقتين مختلفتين.

وموبقها: مهلكها، يقال: أوبق نفسه: أهلكها، فهو موبقها: أي مهلكها.

(٣) استشلاها: دعا لينجيها من الضيق والهلال.

(٤) أي جعل نفسه تابعة لهواها.

(٥) التهوك: التهوّر والسقوط في هوّة الردى.

(٦) الارتكاس: الوقوع. ويقال: ارتكس في أمر: وقع ولم ينج.

(٧) التقاعس: الرجوع وعدم الإقدام.

وهذه من أحسن العبارات عن المطيع الناجي بطاعته، والعاصي الهالك بمعصيته.

[١٦٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[١]:

« إن من أشـراطِ الساعـة سُوءَ الجِـوَارِ، وقَطِيعَـةَ الأرحـامِ، وأَنْ يُعـطَّلَ السَّيفُ من الجهاد، وأن تُخْتَل الدنيا بالدِّين ».

والكلمة الأخيرة داخلة في باب المجاز، والمراد بها النهي عن طلب منافع الدنيا وحُطامها، واستدرار أحلابها وموادها، بإظهـار الورع، وإبـطان الطمـع، فكأن الإنسان بذلك يَخْتِلُ الدنيا ليرمى ثغرتها[٢]، ويصيب غِرَّتها[٣]. كالصائد الـذي يَخْتِلُ[٤] الـوحش بضـروب الحِيَـل حتى يعْلق في حبـالـه، وينشب في اشراكه، وعلى ذلك قول الكُمَيْت بن زيد[٥]:

وإني عَلَى حُبِّيـهِمُــو وتَـطَلُّعِي إلى نَصْرِهِمْ أَمْشِي الضَّراءَ وأَخْتِلُ[٦]

وقـد يجوز أن يكـون المراد، وأن يختـل أهلَ الـدنيا بـالـدِّين، فحـذف

---

(١) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (ختل).

(٢) الثغرة: هي نقرة النحر الذي إذا وصلت إليها السهام قتلت.

(٣) الغرّة: الغفلة.

(٤) يختله: يخدعه.

(٥) الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي، أبو المستهلّ: شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة. اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، منحازاً على بني هاشم، كثير المدح لهم.

(٦) البيت في هاشميات الكميت، انظر شرح هاشميات الكميت لأبي رياش القيسي: ١٧٩، وقال أبو رياش في شرح البيت:
« يقال: فلان يمشي الضراء لفلان، إذا كان يدبُّ له ويختله، والخمر مثله ».
والختل: المكر.
أبو عمرو: اختل لا أجاهر بحبهم لأني أقذف ».

المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه على مثال قوله سبحانه[1] «**واسْئَلِ القَرْيَةَ**» وهذا النوع من الكلام لا يحصى كثرة.

[١٦٥] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام في كلام طويل[2]:

« **وَلاَ تَكلّمِ اليومَ بكلامٍ مُعْتَذِرٌ مِنْهُ غَداً واخْزُنْ لِسَانَك** ».

وهذه استعارة، والمراد بخَزْن اللسان حفظ فلتاته، وكَفّ جُمَحاته حتى لا يسرع إلى ما تسوء مغبته، ولا تُؤمن عاقبته، فأقام عليه الصلاة والسلام ضبط اللسان عن ذلك مقام الخَزْن له، فأجراه مُجرى المال الذي يحفظ فلا ينفق إلا في الوجوه المفسدة، والمخارج المضرّة، ولا يكون إنفاقه إلا فيما جرّ منفعة، أو دفع مضرّة.

[١٦٦] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام من جملة كلام[3]:

« **العِلْمُ خَليلُ المُؤْمِنِ، والحِلْمُ وَزِيرُهُ، والعَقْلُ دَلِيلُه، والعَمَلُ قَيِّمُهُ، واللِّينُ أخُوه، والرِّفقُ والدُه، والصَّبْرُ أمِيرُ جُنُودِهِ** ».

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف، وتمامها: ـ « واسأل القرية التي كنا فيها والعبر التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ». وانظر تفسير القرطبي ٩: ٢٤٥، ومجازات القرآن: ١٧٣.

(٢) رواه ابن ماجة ٢: ١٣٩٦، وأحمد في المسند ٥: ٤١٢، ورواية الحديث عند ابن ماجة هي: ـ
« جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! علّمني وأوجز. » قال: « إذا قمت في صلاتك، فصلِّ صلاة مودِّع. ولا تكلَّمْ بكلام تعتذر منه، واجمع اليأس عما في أيدي الناس ».
وأوجز في الحديث، أي اقتصر على خلاصة الأمر ليكون أسهل للضبط. أو أدّ ذلك العلم المطلوب بكلام مختصر، موجز لفظاً، جامع للعلم الكثير معنى.
ومودّع: أي كن كأنك تصلي آخر صلاتك.
ويعتذر منه: أي يحتاج منه إلى الاعتذار.
واجمع: أي اعتقد واعزم.

(٣) رواه القضاعي في مسند الشهاب ١: ١٢٢. وجاء الحديث عنده بطريقين، أحدهما يشبه رواية الشريف مع بعض التقديم والتأخير. والثانية هي: ـ
« العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبر أخوه، والصبر أمير جنوده ». وانظر الفتح الكبير ٢: ٢٥٠، وكنز العمال ١٠: ٢٨٦٦٣ و ١٥: ٤٣٥٥٧.

وهذه الألفاظ كلها مستعارة، ونحن بتوفيق الله نتكلم عليها، ونبين مواضع الاستعارة منها.

فالمراد بقوله عليه الصَّلاة والسّلام: « العلم خليل المؤمن » أنه يأنس به من الوَحْشة، ويسكن إليه في الوَحْدة كما يأنس الخليل بخليله ويسكن الحميم إلى حميمه.

والمراد بقوله عليه الصّلاة والسّلام: « والحلم وزيره » أنه يقـوى به على الأمـور، ويوازره على كـظم المكروه، والمـراد بقـولـه عليـه الصـلاة والسـلام « والعقـل دليله » أنه بـالعقل يهتـدي في ظلم المشكلات، وينجـو من مضايق الغمرات، فهو كالدليل الذي يُرْشِد في المضالّ، ويجنب عن المزالّ.

والمراد بقوله عليه الصّـلاة والسّلام: « والعمـل قيّمه » أن العمـل يثقّف ميله، ويقوّم زلله ويَسُدّ خَلله، فهو كالقيّم الـذي يأتي لمصـالح مـا يقوم عليـه ومراشد ما يوكل إليه، والمراد بقوله عليه الصّلاة والسّلام: « واللين أخـوه » أن **اللين يفيد مؤاخاة الإخوان ومخالصتهم، ويحفظ عليه صفاءهم ومودّتهم، فجعله** عليه الصلاة والسلام أخاه من حيث كان سبباً لاجتـلاب الإخوان إليـه، وحفظ المودات عليه.

والمرادُ بقوله عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ: « والـرِّفْقُ والده » كـالمرادِ بقـولِه: واللّين أخوه، لأنّ الرِّفْقَ يقبلُ إليه بالقُلوب، ويَظْأَرُ عليه كوامِنَ الصُّدور، فيصيرُ كلُّ واحدٍ في الحُنُوِّ عليه، والميلِ إلَيهِ، كـالوالِـد الرَّؤوف، والجَـدِّ العَطُوف. والمرادُ بقوله عليه الصَّلاةُ والسّلام: « والصَّبْرُ أَميرُ جُنودِه » أنّ الصّبْرَ مِلاكُ أمْرِه، وشدّادُ أَزره. وبه تُبلَغُ الآراب، وتُدرك المَحابّ، فهو كأميرِ جُنده الذي يَقْوى بهِ على أَعدائِه، ويصلُ به إلى أَغْـراضِه وطَلبـاته. وقـد يجوزُ أن يكـونَ المُراد أنّ الصَّبْرَ رأسُ خِلاله، ورئيسُ خِصاله، فهو مُتقدّمٌ عَليها، وكالأميرِ لسائِرهـا، كما أنّ الأميرَ مُتَقَدِّمٌ على رَعِيَّته، ولهُ شأنٌ على من في طَبقنه.

[١٦٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في جملة كلام[١]:

« **والمُهْلِكَاتُ شُحٌّ مُطَاعٌ[٢]، وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسه** ».

فقوله عليه الصّلاة والسّلام: « شُحٌّ مُطاعٌ » استعارة كأنه أقام الشحّ مقام الآمر بالإمساك، والمخوِّف من عواقب الإنفاق، وأقام البخيل مقام المطيع لأمره، والمتصرّف على حكمه.

وقد بَيّن عليه الصَّلاةُ والسَّلام ذلك في خُطْبَةٍ له[٣]، فقال: « **وإيّاكم والبُخْلَ فإنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ. أَمَرَهُم بالقَطِيْعَةِ فَقَطَعُوا وأَمَرهم بالفُجُورِ[٤] فَفَجَرُوا** ». فَبيّن عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كيف يكونُ البُخْلُ آمِراً مُطاعاً، وقائداً مَتْبُوعاً.

وهذه أيضاً استعارةٌ أُخرى لأنّ البُخْل على الحَقيقةِ لا يكونُ آمِراً ناهِياً، ولا قائداً مُخاطباً. والمرادُ بقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « أَمرهم بالقَطِيعةِ فَقَطَعُوا » أَنّ البُخلاءَ يضِنّون بمالِهم على أَهل الحَاجةِ من أقربائهم، وأُولي الخَلَّةِ من ذَوِي أَرحامِهم، فيكونونَ بذلكَ قاطِعين للرَّحِمِ القَريبة، وعاقّين لأعراقِ الوَشِيجة[٥]. والمرادُ بقوله عليه الصَّلاة والسلام: « وأَمَرَهُم بالفُجورِ فَفَجَرُوا »: أن البُخل حَسَّن لهم مَنْعَ الأموالِ من الإنفاقِ في الحقُوق، وإسلاكِها سُبلَ المَعْرُوف، فأَجْرى عليهم لهذِهِ الحالِ اسْمَ الفُجور.

---

(١) رواه الترمذي (برقم ٣٠٥٨) في « التّفسير ». وأبو داوود في سننه (برقم ٤٣٤١) في « الملاحم ». أو ابن ماجة (برقم ٤٠١٤) في الفتن. وانظر: مجمع الزوائد ٧: ٢٨٢.

(٢) الشُّحُّ: البُخْلُ الشديد. وطاعته: التمادي في البخل والانقياد له.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الزكاة (رقم ١٦٩٨).

(٤) الفُجور: العِصيان والفسق.

(٥) الوشيجةُ: القرابةُ المشتبكة المتّصلة.

[١٦٨] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[1]:

« **الكلمةُ الحِكْمَةُ[2] ضالّةُ الحكيم حَيْثُما وَجَدَها فهوَ أَحَقُّ بِها** ».

وهـذه استعارةٌ وذلـك أنه عليـه الصَّلاة والسَّـلام جعل الكلمـة الحكيمة للحكيم بمنزلة الضالَّة التي هو ناشد لها[3] وساعٍ في طلبها، لأنها أشبه بحكمته وأولى بالانضمام إلى أخواتها في قلبه، فحيثما سمعهـا من قائـل غير حكيم أو مرشدٍ غير رشيد، فهو أحقّ بالحيازة لها والغلبة عليها.

ويشهد بذلك ما روى في الحديث الآخر:

« **إنّ الكَلِمَة الحكيمةَ تكونُ في قلبِ المُنافِق، فلا تزالُ تَنْزِعُ حتّى تَلْحَق بصواحِباتِها في قلبِ المُؤمن** ».

فكأنَّها جُعلت في قلبِ المُنافق بمنزلةِ الغَريبـة التي هي في غيرِ وَطَنِهـا، ومعَ غيرِ أَهْلِها، وجُعلت في قلبِ المُؤمن بمنزلةِ المُستَقِرَّة في الوطنِ والسّاكنـةِ إلى السَّكن وهٰذه أيضاً استعارةٌ أُخرى.

[١٦٩] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام في خطبة له [4]:

« **ألا وإنّ الـدُّنْيا قَـدِ ارتَحَلَتْ[5] مُـدْبِـرَةً، وإنّ الآخـرةَ قـد ارْتَحلتْ[6] مُقْبِلَةً** »، وهذه استعارةٌ لأنّه عليه الصَّـلاةُ والسَّلامُ جَعَـلَ الدُّنيـا بمنزلـةِ الهارِبِ المُوَلّي، والآخرةَ بمنزلةِ الطّالِبِ المُجَلّي[7].

---

(١) رواه الترمذي في العلم (رقم ٢٦٨٧). ورواه ابن ماجة في الزهد (برقم ٤١٦٩).

(٢) في النسخ المطبوعة: « الكلمة الحكيمة» والمثبت ممّا روي في السُّنن.

(٣) نشد الضالة: طلَبها وسألَ عنها.

(٤) رواه البخاري في الرّقاق (١١ : ٢٠١)، وتمام الحديث فيه « ولكل واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا؛ فإنّ اليوم عملٌ ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عَمل.

(٥) « قد ارتحلت» أي ركبت الرّاحلة، والمراد هنا: قاربت على الانتهاء، ومثله ارتحَلَتْ مُقبلة ».

(٦) في بعض المطبوع: ارتجلت مقبلة (بالجيم)، وهو تصحيف.

(٧) المجلّي الذي ينظرُ ببصره إلى من يطلبه.

وذلكَ من أحْسَنِ التَّمْثِيلاتِ وأوْقَعِ التَّشْبِيهات، لأَنّ أبناءَ الدُّنيا بمثابةِ الهاربين من علائقِ الحِمام، وبَوائق[1] الأيّام، والموتُ ـ الذي هُو مِن أَسبابِ الآخِرَةِ ـ: بمنزلة المُغِير على الأَرواحِ، والهاجمِ على الآجالِ. وهٰذه الصّفةُ مُستمرّةٌ للدُّنيا في شَبابِها قبل أَنْ تَهْرَم، وفي ابتداءِ مُدَّتِها قَبْلَ أَن تَتَصرّم[2]؛ لأنّ كونَ الموتِ طالِباً لأهلِها، ومُبَدِّداً لِشَمْلِها، معلومٌ من أَوَّلِ إنشائها وتَصْوِير أبنائِها.

وقد يجوزُ أن يكونَ المُرادُ بارتحالِ الدُّنيا مدبرةً معنىً آخرُ يختصُّ بِحالِ الدُّنيا في أَواخِرِ مُدَّتِها وعندَ تَناهِي غَايَتِها.

وهو أَنْ تُوْصَفَ بِتَصَرُّمِ الأمد ونُقصانِ العَدد كما يقولُ القائِلُ: قد ارْتَحل عُمْرُ فُلان. وقد أَدْبَرت مُدَّةُ فلانٍ: إذا مَضى عُنفوانُ أَيّامه، وقَرُبَت أوقاتُ حِمامه.

ويُرْوَى هٰذا الكلامُ على تَغيِيرٍ في أَلفاظِه لأَميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب[3] عليه الصَّلاة والسَّلامُ؛ وقد أَوردناهُ في كتابِنا الموسومُ «بِنَهْج البلاغة»[4]، وهو المشتملُ على مختارِ كلامِه عليه السَّلام: في جَميعِ المَعاني والأَغراضِ والأَجناسِ والأَعْراض.

---

(١) البوائق جمعُ بائقة: الداهيةُ أو الشرُّ.

(٢) تتصرّم: تنقطع نهائيّاً.

(٣) أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي: أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وابن عمر النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلاماً بعد خديجة، ولد بمكة، وقتل بالكوفة سنة ٤٠ هـ. (الإصابة ت. ٥٦٩، وحيلة الأولياء ١: ٦١، الرياض النضرة ٢: ١٥٣).

(٤) انظر نهج البلاغة ص٧١ وروايته: «فإن الدنيا أدبرت، وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع...». وآذنت: أعلمت، أشرفت باطلاع: أقبلت علينا بغتة ونال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: قوله: =

[١٧٠] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلام[١]:

« الاحْتِبَاءُ[٢] حِيطانُ العَرَبِ، والعَمائِمُ تِيْجَانُ العَرب ».

وهاتان استعارتَانِ عَجيبتان؛ فأمّا قوله عليه الصّلاة والسّلام: « الاحتباءُ حيطانُ العَرب » فإنّما أرادَ بِهِ أنَّها إذا استعملت الحبوةَ[٣] في قُعودِها قامت لها مَقامَ الحِيطان في الاستناد إليها والاعتمادِ عَلَيْها كما تَتسانَدُ الظُّهُور إلى الجُدرانِ، أو كما يَسْتَرْوِحُ الجَرابُ إلى الأَجْذال[٤]. وأَما قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: « والعَمائم تيجانُ العَرب » فإنّما أَراد أنّ بهاءَ العرب يكونُ بِعَمائمها كما يكونُ بهاءُ مُلوكِ العَجم بِتيجانِها، فإن العمائم تخصّ الهامة، وتتمم القامة، وتفخم الجلسة، وتوقر الجملة. حتى إن العرب لتقول على المتعارف بينها: ما سَفِهَ مُعْتَمٌّ قط.

ولهذا المعنى فسر قول الفرزدق[٥]:

إذا مالكٌ ألقَى العِمامَةَ فاحْذَرُوا ... بَوَادِرَ كَفَّيْ مالِكٍ حينَ تُعْصَبُ[٦]

= وقال علي بن أبي طالب: ارتحلت الدنيا مدبرة. . . إلخ: هذه قطعة من أثر لعلي جاء عنه موقوفاً ومرفوعاً » في كلام طويل فاطلبه ثمة.

(١) رواه العجلوني في كشف الخفاء ٢ : ٩٤. وعدد رواته ثم قال: وكله ضعيف.

(٢) الاحتباء: ما يُحْتبى به من ثوب وغيره جمعه حُبىً أي جمع بين ساقية وظهره بثوب ونحوه أو بيديه.

(٣) الحِبْوة: الاحتباء.

(٤) الجراب جمع أجرب، أي الإبل الجربي، والأجذال جمع جِذْل، وهي أصول الحطب العظام، وكذلك هي ما على شماريخ النخل من العيدان تحتك به به الإبل الجربي لتستريح من أكل الجرب في أجسامها.

(٥) هو همام بن غالب التميمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق: شاعر من الطبقة الأولى من أهل البصرة، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، وتوفي في بادية البصرة سنة ١١٠ هـ (الشعر والشعراء ٤٤٢، والأغاني ١٩ : ٢).

(٦) البيت في ديوان الفرزدق ١ : ٣٠، وفيه (حِيْنَ يَغْضَبُ). وهو أول بيتين في مدح مالك بن المنذر بن الجارود العبدي: وكان والياً، وأميراً على شرطة البصرة أيام الفرزدق. انظر: رغبة الأمل ٥ : ١٦٩. وعصب الكفين: شدهما بالعصابة، وهذا كناية عن قوتهما وشدتهما.

أراد أنه إذا ألقى العمامة طاش حلمه، وخيف سطوه، وما دام مُعْتَمّاً، فهو مأمون الهفوة، ومغمود السطوة، على مجرى عادتهم، وعُرْف طريقتهم، وقد فسر أيضاً قول الآخر(١):

أنــا ابــنُ جــلا وطَــلّاعُ الـثَّـنَـايــا ... مَتَـى أضَـعِ العِمَـامَـةَ تَعْـرِفـوني(٢)

على مثل هذا المعنى فكأنه توعدهم عند إلقاء العمامة ببادرته، وأن يُفِيض عليهم ما يَسْتَجِمه(٣) من مثابة(٤) سطوته. وقوله: تعرفوني، ليس يريد العرفان الذي هو ضدّ الإنكار، وإنما أخرجه مخرج الوعيد وأطلعه مطلع التهديد كما يقول القائل لغيره إذا أراد هذا المعنى: ستعرفني أو تعرفني، والمراد ستعرف عقوبتي أو أما تعرف غضبي وسطوتي.

[١٧١] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسلام(٥):

« المُجاهدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ »، وهذا مجاز، والمراد من امتنع عن مواقعة المعاصي المُوبقة، واستعصم من الخطايا المردية، فجعله عليه الصّلاة والسّلام بمنزلة من بَرَز له قرن ينازله، وعدوّ يقابله، لما يعاينه من المشقة في مغالبة نوازع

---

(١) هو سحيم بن وثيل الرياحي: شاعر مخضرم، عاش في الجاهلية والإسلام. كان شريفاً في قومه، نابه الذكر، له أخبار مع زياد بن أبيه، ومفاخرة مع غالب بن صعصعة والد الفرزدق، مات نحو سنة ٦٠ هـ. أشهر شعره أبيات مطلعها هذا البيت (أنا ابن جلا وطلاع الثنايا). (الخزانة ١ :٢٤٢، والسمط ١ :٥٥٨، وشرح أبيات المغني ٤ :١٠.

(٢) الأصمعيات ص١٧، والخزانة ١ :٢٣٤، والسمط ١ :٥٥٨، ومعاهد التنصيص ١ :٣٣٩ وأوضح المسالك ٣ :١٤٩، والصبّان ٣: ٢٦٠، ومجالس ثعلب ١٧٦.

(*) ابن جلا: يعني أنا ابن الواضح المكشوف، يقال للرجل إذا كان عالي الشرف لا يخفى مكانه (هو ابن جلا).

(٣) يستجّمه: أي يخزنه ويدّخره.

(٤) المثابة: (من البئر) مبلغ جموم مائها، وما أشرف من الحجارة حولها، أو موضع طيّها، أي ما يخزنه مما اجتمع من سطوته.

(٥) رواه الترمذي (برقم ١٦٢١)، وأبو داود (برقم ٢٥٠٠) وأحمد في المسند ٦ :٢٠ و٢٢ وقال الترمذي: وحديث فضالة حديث حسن صحيح.

قلبه ودواعي نفسه، وما يَعْرُكه من أديمها [1] ويعْلُكه من شَكيمها [2].

[١٧٢] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسلام في خطبة طويلة [3]:

« والنَساءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ ».

وهـذه من أحاسن الاستعـارات، وذلك أنـه عليه الصـلاة والسّلام جعـل النساء من أقوى ما يصيد به الشيطان الرجال، فهن كالحبائل المبثوثة، والأشراك المنصوبة، لأنهن مظانّ الشهوات، ومقاود الخطّيات، وبهن يُسْتَخَفّ الركينُ [4]، ويُسْتَخْون الأمين [5].

[١٧٣] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام في كلام [6]:

« والشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الجُنُونِ ».

وهذا القول مجاز، والمراد أن الشبـاب يحسِّن القبيح، ويسفـه الحليم، ويحل مُسْكة المتماسك، ويكون عُذراً للمتهالك، فمن هذه الوجوه يشبّه صاحبه بالسكران من الخمر، والمغلوب على العقل، ومن هناك قيل: الشبـاب كسَكرِ الشّراب [7].

---

(١) عرك أديم نفسه: ولكه، ومعناه: أنه هذبها وذللها.

(٢) الشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس في اللجام، وعلك الفرس الشكيمة: تلويكه في فمه، وهذا معالجة له وتليين، كأن الإنسان يلين نفسه حتى تقبل على غير عادتها.

(٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣: ١٨٤. وتتمته: « الخمر جماع الإثم، والنساء، حبائل الشيطان، وحب الدينار رأس كل خطيئة» وجماع الإثم: جماع الأمر والشيء، أي مجمعه ومظنته. والحبائل: الإشراك التي للصائد.

(٤) الركين: الرزين الوقور. (٥) يُسْتَخْوَن الأمين: أي يُرَى خائناً.

(٦) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢: ٥. وفيه: « الشباب شعبة من الجنون، والنساء حبالة الشيطان». انظر الفتح الكبير ٢: ١٨١.

(٧) السَّكَر: بفتح السين والكاف: النبيذ، وقيل: شراب يتخذ من التمر والكُسْب والآس وهو أمرُّ شراب في الدنيا، ويقال: السَّكَر: كل ما بسكر، ومنه قول الرسول ﷺ: « حُرِّمت الخمرُ بعينها، والسَّكَر من كل شراب » رواه النسائي ٨: ٣٢٠ و٣٢١ في الأشربة. والمعنى في قول الشريف: إن الشباب كغياب العقل بالشراب.

وعلى ذلك قول الشاعر[1] :

إنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ والشَّعْرُ الأَسْوَدَ ما لم يُعاضَ كان جُنُونَا[2]

[١٧٤] ومن ذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام[3] :

« **ألَا إنَّ الغضَبَ جَمْرَةٌ تَوَقَّدُ في جَنْبِ ابْنِ آدَمَ، أَلَمْ تَرَوْا إلى حُمْرة عَيْنَيْهِ وانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ**[4] . **في حديث طويل** » .

وهذه استعارة كأنه عليه الصّلاة والسّلام جعل اهتياج الطبع، واحتدام الغيظ بمنزلة الجمرة التي تتوقد في جوف الإنسان، فيظهر أثر اتقادها في احمرار عينيه، واختناق وريديه. فلا تزال كذلك حتى يطفئها بَرْدُ الرضا، أو عواطف الحلم والبُقْيا[5] .

[١٧٥] ومن ذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام[6] :

« **العِلْمُ رَائِدُ، والعَدْلُ سَائِقٌ، والنَّفْسُ حَرُونٌ** » .

وهذا الكلام مجاز، وذلك أنه عليه الصّلاة والسّلام شبّه علم الإنسان بالرائد الذي يتقدم أمام الحي فيدلّهم على المنزل الوسيع، والمرعى المَرِيع،

---

(١) هو أبو الوليد حسان بن ثابت الخزرجي الأنصاري: الصحابي، وشاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وكان من سكان المدينة وبها توفي سنة ٥٤ هـ. (الإصابة ١ : ٣٥٥، الأغاني ٤ : ١٣٤، ابن سلام ١ : ٢١٥، الشعر والشعراء ١ : ٣٠٥).

(٢) ديوان حسان ١٨٠ . ويروى البيت لابنه عبد الرحمن بن حسان (انظر الحيوان ٣ : ١٠٨). وما لم يعاص: أي ما لم يعص، وهو من المعاصاة أي العصيان. وجاء في المطبوعة (ما لم يعاض)، وحاول الناشر أن يتمحل لها تخريجاً عجيباً، علماً أن الأصول جميعها نصت على ذلك.

(٣) من حديث أخرجه الترمذي (برقم ٢١٩٢) في الفتن، وهو حديث طويل كما ذكر الشريف الرضي وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) الأوداج مفردها وَدَج، وهو عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة.

(٥) البُقْيا: البقاء، أي لولا عواطف البقاء؛ أي الحياة.

(٦) لم نجده فيما بين أيدينا من مراجع الحديث.

لأن العلم يأخذ بصاحبه إلى المَنَاجِي[1] ويعدل به عن المغاوي[2]، وشبّه العقل بالسائق لأنه يَحُثُّ الإنسان على سلوك النهج الأسلم، ويحمله على الذهاب في الطريق الأقوم، وشبّه النفس بالدابة الحَرون[3] لأنها تتقاعس[4] عن مراشدها[5]، وتُلْذَع[6] بسوط الأدب حتى تسلك طرق مصالحها.

[١٧٦] ومن ذٰلك قوله عليه الصلاة والسلام[7]:

« **كُلُّ وَاعِظٍ قِبْلَةٌ** ».

وهذا القول مجاز، والمراد أمر الناس بالإقبال على الواعظ لهم، والمتكلم بما يأخذ إلى الرشاد بأزمّتهم إصفاءً إلى كلامه، وتفهماً لمقاصد خطابه، كإقبالهم على القِبلة التي يصلون إليها ويتوجهون نحوها، ولا يجوز لهم الانحراف عنها.

[١٧٧] ومن ذٰلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[8]:

« **نِعْمَ وَزِيرُ الإيمَان، العِلْمُ. ونِعْمَ وَزِيرُ العِلْمِ، الحِلْمُ. ونِعْمَ وَزِيرُ الحِلْمِ، الرِّفْقُ. ونِعْمَ وَزِيرُ الرِّفْقِ، اللِّينُ** ».

وهذا الكلام مجاز، والمراد كل خَلّة من هذه الخلال المذكورة توازر صاحبتها، وتعاهد قرينتها وتَقْوَى كل واحدة منها بأختها، كما يُوازر الرجل

---

(١) المناجي جمع منجاة: وهي مكان النجاة.

(٢) المغاوي جمع مغواة: وهي مكان الغواية.

(٣) الدابة الحرون: هي التي تقف حين طُلِب جريها، ورجعت القهقري. والحران خاص بذوات الحافر.

(٤) تتقاعس: تتأخر وتتراجع.

(٥) المراشد جمع مرشد: وهو مكان الرشد ضد الغي.

(٦) اللذع (في الأصل): وصنع طرف الميسم، وهو المكواة التي تكوى بها الدواب على الدابة وقد استعمله الشريف الرضي هنا في الضرب الشديد بالسوط، وهو استعارة.

(٧) لم نجده فيما بين يدينا من دواوين الحديث.

(٨) لم نجده فيما بين أيدينا.

صاحبه على الأمر يطلبه، والعدوّ يُحاربُه، فيشتدّ متناهما [1]. وَتَستَحْصِفُ قواهما [2].

[١٧٨] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام [3]:

« زادُ المُسافرِ الحُدَاءُ، والشِّعْرُ ما لم يَكُنْ فيهِ إخناء » [4].

وهذا القول مجاز، والمراد أن التعلل بأغاريد الحُداء، وأناشيد القريض يقوم للمسافرين مقام الزاد المبلِّغ في إمساك الأرقاق [5] والاستعانة على قطع المسافات، وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر [6] بقوله:

* إنَّ الحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ القِرَى [7] *

[١٧٩] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام [8]:

« مَنْ عَدَّ غداً مِنْ أَجَلِهِ فَقَدْ أَسَاءَ صُحْبَةَ المَوتِ ».

وهذا القول مجاز، لأنه عليه الصَّلاة والسَّلام أقام الموت للإنسان مقام العشير المحالم [9] والرفيق الملازم، وجعل من اغترّ بطول أجله واتساع مَهَله بمنزلة من أساء صحبة ذلك الرفيق المصاحب والخليط المقارب، إذا كان الأولى

---

(١) المتن: الظهر، والمعنى أن الوزير يشد أزر من يعاونه، فيكون التعاون شداً لظهر الإثنين.

(٢) تستحصف قواهما: أي تصير قواهما محكمة لا يسهل نقضها.

(٣) لم نجده فيما بين يدينا من كتب الحديث.

(٤) الإخناء: الإفحاش.

(٥) الأرماق جمع رمق: بقية الحياة.

(٦) هو الشماخ بن ضرار المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. من طبقة لبيد والنابغة، وكان أرجز الناس على البديهة، شهد القادسية. وتوفي في غزوة موقان سنة ٢٢ هـ. (الإصابة ت ٣٩١٣، والأغاني ٩: ١٦٨، والخزانة ٣: ١٧٧).

(٧) ديوان الشماخ ٤٦٧، والبيت من أرجوزة يمدح بها عبدالله بن جعفر بن محمد الصادق.

(٨) انظر الفتح الكبير ٣: ٢١٢ نقلاً عن البيهقي في شعب الإيمان عن أنس

(٩) العشير المحالم: الملاطف المسلّي.

أن يعتقد أنه غير مفارق له، وأن المدى غير منفرج بينه وبينه، وعلى ذلك قول الشاعر[1]:

* والمَنَايَا قلائِدُ الأَعْنَاقِ[2] *

[١٨٠] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[3]:

« أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ ، وَعَلِيٌّ بَابُها، وَلَنْ تُدْخَلَ المَدِينَةُ إِلَّا مِنْ بَابِها ».

وهذا القول مجاز لأنه عليه الصَّلاة والسَّلام شبّه علمه بالمدينة المحصّنة التي لا يطمع طامع في دخولها، ولا الوصول إليها إلا من بابها، وأقام عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام لتلك المدينة مقام الباب الذي يفتتح من جهته، ويوصل إليها من ناحيته.

[١٨١] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[4]:

« لِكُلِّ شَيْءٍ وَجْهٌ، وَوَجْهُ دِينِكُمُ الصَّلاَةُ، فَلاَ يَشِينَنَّ أَحَدُكُمْ وَجْهَ دِينِهِ، وَلِكُلِّ شيْءٍ أنْفٌ، وأَنْفُ الصَّلاَةِ التَّكْبِيرُ ».

---

(١) للحارث بن وَعْلة، وتُنسب إلى العتّابي كلثوم بن عمرو، وهي أبيات كثيرة أولها:

ما غناءُ الحِذَار والإشفاقِ.

والحارث بن وعلة الجَرْمي: شاعر جاهلي، من فرسان قضاعة، شهد يوم الكلاب الثاني (بين جبلة وشمام)، فإذا كان يوم الكلاب الثاني بعد الإسلام، فقد أدرك الحارث الإسلام وكان مخضرماً. (السمط ٥٨٥، الأغاني ٢٢: ٢١٦). وأما كلثوم بن عمرو العتّابي: فهو شاعر مجيد، وكاتب حسن الترسل، وهو من أهل الشام وكان ينزل قنسرين، وسكن بغداد، واتصل بالبرامكة واختصّ بهم، مات سنة ٢٢٠ هـ. (تاريخ بغداد ١٢: ٤٨٨، فوات الوفيات ٣: ٢١٩، الأغاني ١٣: ١٠٧.

(٢) بهجة المجالس ١: ٢٥٣. والمنايا جمع منية: وهي الموت، والقلائد جمع قلادة: وهي ما يزين به العنق.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٢٥) في المناقب، ولفظه عند الترمذي: أنا دار الحكمة وعلي بابها ورووا أيضاً الحاكم ٣: ١٢٦ من حديث ابن عباس وجابر. انظر كشف الخفاء ١: ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٤) لم نجده فيما بين يدينا من كتب الحديث.

وهذا القول مجاز، والمراد أن الصلاة يعرف بها جملة الدِّين كما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان؛ لأنها أظهر العبادات، وأشهر المفروضات، وجعل أنفها التكبير لأنه أول ما يبدو من أشراطها ويُسمع من أذكارها وأركانها.

[١٨٢] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام (١) :

« **أَطْعِمُوا اللَّهَ يَطْعِمْكُمْ** ».

وهذا القول مجاز لأنه سبحانه قال: **«وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ»** (٢) والمراد أطعموا فقراء الله الذين أمركم بإطعامهم، وجعلكم سبباً لأرزاقهم يجازكم على ذلك بجزيل الثواب، ويكثر لكم من الأخلاف (٣) والأعواض (٤) .

[١٨٣] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام (٥) :

« **العِلْمُ خَزَائِنُ، ومِفْتَاحُها السُّؤَالُ، فَاسْأَلُوا رَحمكُمُ اللَّهُ فإنَّهُ يُؤْجَرُ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، والمجِيبُ، والمُسْتَمِعُ، والمُحِبُّ لَهُمْ** ».

وهذا القول مجاز، والمراد تشبيه العلم في قلوب العلماء بالخزائن المستبهمة (٦) ، والأبواب المستغلِقة، وإنما تُستفتح بسؤال السائلين، ويُستخرج ما فيها ببحث الباحثين.

[١٨٤] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام (٧) :

« **المَوتُ رَيحَانَةُ (٨) المُؤْمِنِ** ».

---

(١) لم نجده فيما بين يدينا من كتب الحديث.

(٢) الأنعام ٦ الآية ١٤.

(٣) الأخلاف جمع خلف: وهو ما يخلفه الله على المنفق بدل ما أنفق.

(٤) الأعواض جمع عوض: وهو ما يعوض الله للمنفق عما أنفق.

(٥) انظر كشف الخفاء ٢ : ٨٥، والفتح الكبير ٢ : ٢٥٠ مع خلاف في رواية الحديث.

(٦) الخزائن المستبهمة: المستغلقة لا يدريلأ كيف يؤتى.

(٧) لم نجده فيما بين يدينا من كتب الحديث.

(٨) الريحانة: واحدة الريحان، وهو نبات ذو رائحة عطرة محبوبة.

وهذا القول مجاز، والمراد أن المؤمن يستروح إلى الموت تَغَوثاً[1] من كروب الدنيا وهمومها ورَوْعاتها وخطوبها، كما يستروح[2] الإنسان إلى طيب المشمومات، ونظر المستحسنات.

[١٨٥] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام[3] :

« الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ وَعَمُودُ الدِّينِ ».

وهذا القول مجاز، والمراد أن المؤمن يستدفع بالدعاء كيد الكائدين، وظلم الظالمين؛ فيقوم له مقام السلاح الذي يُريق الدماء، ويَغُلّ الأعداء. وجعل عليه الصلاة والسلام الدعاء عمود الدين لأنه لا يصدر إلا عن قلب المخلص الأوّاب، لا الشاكّ المرتاب، والإخلاص قطب الدّين الذي عليه المدار، وإليه المَحَار[4].

[١٨٦] ومن ذلك قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام من كلام في وصف النعاء[5] :

« وَمِنْهُنَّ رَبِيعٌ مُرْبَعٌ[6] وَغُلٌّ قَمِلٌ ».

وهذا القول مجاز، والمراد تشبيه المرأة الحسناء المستونقة[7] بالربيع

---

(١) لم نجد كلمة (تغوثاً) في كتب اللغة، فلعل الصواب (تغويثاً) مصدر غوّث بمعنى طلب الغوث والمعونة.

(٢) يستروح: يجد الراحة والاطمئنان.

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء ١ : ٤٨٥، وورد أيضاً في الفتح الكبير ٢ : ١١٥ وتمامه عندهما: « نور السموات والأرض ».

(٤) المحار: المرجع.

(٥) انظر النهاية لابن الأثير ٣ : ٣٨١ و٤ : ١١٠.

(٦) مربع: منبت الثمر.

(٧) المستونقة: التي توافق زوجها، وتعاشره بإحسان.

المُزْهِر والرّوض المنوّر، وتشبيه المرأة الشوهاء المستثقلة بالغُلّ[1] الـذي يُثقل الرقاب، ويطوِّل العذاب. وجعله عليـه الصلاة والسـلام مِمِّلاً[2] ليكـون أعظم لعذابه، وأبلغ في مكروه المبتلى به.

[١٨٧] ومن ذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام[3]:

« إِنَّ المَسْجِدَ لَيَنزَوِي[4] مِنَ النُّخَامَةِ[5] كما تَنْزَوِي الجِلْدَةُ فِي النَّارِ »:

يقال انزوت الجلدة إذا انقبضت واجتمعت.

وهذا الكلام مجاز، وفيه قولان:

[أحدهما]: أن المسجد يتنزه عن النُّخـامة، وهي البصقـة، بمعنى أنه يجب أن يكرم عنها، وألاّ يُبتذل بها.

فإذا رؤيت عليه كانت شائنة له وزارية عليه، فكان معها بمنزلة الرجل ذي الهيئة يشمئز مما يهجنه[6] وينقبض عما يدنسه، وأصل الانزواء: الانحراف مع تقبض وتجمّع.

---

(١) الغلّ: القيد في الرقبة، لا في الرجل. يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو يديهما وضرب الحديث مثلاً للمرأة السيئة الخلق الكثيرة المهر، لا يجد بعلها منها مخلصاً.

(٢) قملاً: أي ذا قمل، وكانوا يغلون الأسير بالقِدّ وعليه الشَّعَر، فيقمل فلا يستطيع دفعه عنه بحيلة، وبهذا يصير عذاب المغلول عذابين، وألمه ألمين: ألم القيد، وألـم القمل الـذي يأكل جسـده. وقيل: القِمل: القِذر، وهو من القمل أيضاً.

(٣) ذكره الغزالي في الاحياء في كتاب قواعد العقائد في أواخر الفصل الثاني وقال العراقي: لم أجد له أصلاً. ورواه ابن أبي شيبـة في المصـنف ٢ : ٣٦٦، ورواه أيضـاً عبـد الـرزاق في (مصنفـه) ١ : ٤٣٣، وسعيد بن منصور في (سننه)، والبخاري في (تاريخه).

(٤) ينزوي: ينضمُّ وينقبض، وقد بين الغزالي في (الإحياء) أن هذا من قبيل الاستعارة والرمز.

(٥) النُّخَامَةُ: ما يلفظه الإنسان من البلغم.

(٦) يهجنه: ينقص قدره، ويجعله قبيحاً معيباً مرذولاً.

والقول الآخر: أن يكون المراد أهل المسجد، فأقيم المسجد في الذكر مقامهم لما كان يشتمل عليهم، وعلى ذلك قول الشاعر[1]:

* واستَبَّ بعدك يا كُلَيْبُ المجْلِسُ[2] *

والمراد أهل المجلس لأن الاستتاب لا يكون بين القاعات والجدران، وإنما يكون بين الإنسان والإنسان، فالمعنى أن أهل المسجدِ يَنْقَبِضون من النُّخامة إذا رأوها فيه ذهاباً عن الأدناس، وصيانةً له عن الأدران.

[١٨٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« مِنَ القَتْلَى رَجُلٌ قَرَفَ[4] عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايا حتى إذا لَقِيَ العَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَتِلْكَ مَضْمَضَةٌ[5] مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخطاياهُ؛ إنَّ السَّيْفَ مَحَّاءٌ للخطأ ».

وهذا الكلام مجاز لأن السّيف على الحقيقة لا يمحو شيئاً من الذنوب

---

(١) هو مهلهل عدي بن ربيعة، أبو ليلى التغلبي: شاعر من أبطال العرب في الجاهلية ولقب مهلهلاً؛ لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي رَقَّقه، مات نحو سنة ١٠٠ ق.هـ. (الشعر والشعراء ١ : ٢٩٧ - خزانة الأدب ٢ : ١٤٢، والسمط ١ : ٢٦).

(٢) الحيوان ٣ : ١٢٨، وديوان المعاني ١ : ٢٠٤، والصناعتين ١٩٤ وكليب هو أخو المهلهل التغلبي، وكان سيداً فارساً من الشجعان الأبطال، قتله جساس بن مرّة البكري سنة ١٣٥ ق. هـ، وبسببه ثارت حرب البسوس (أطول حرب عرفت في الجاهلية) بين بكر وتغلب. (نهاية الأرب ١٥ : ٣٩٧، النقائض ٩٠٥، شرح العيون ٩٢).

- والمراد بالمجلس؛ أهل المجلس. كما ذكر الشريف، والمعنى: تشاتم أهل المجلس بعدك يا كليب، لأنك كنت رئيسهم الذي يحفظ كرامة المجالس. وصدر البيت: أودَى الخيارُ مِنَ المعاشر كلهم.

(٣) أورده أحمد في المسند ٤ : ١٨٥.

(٤) قرف على نفسه: بغى عليها وظلمها.

(٥) المضمضة: تحريك الماء في الفم بالإدارة فيه، والإناء وغيره: غسله. وفي كل منهما تنظيف وغسل.

ولكن القتل بالسيف لما كان سبباً للشهادة التي يستحق بها دخول الجنة، وحقيقتها شهادة الملائكة للقتيل بأنه من أهل الجنة إذا بذل مهجته في طاعة الله مجتهداً ووَطّن نفسه على ألم الجراح والثبات للقاء صابراً محتسباً كان السيف كأنه قد محا ما سلف من ذنوبه.

وليس يبلغ الإنسان إلى هذه المنزلة في طاعة الله تعالى من بذل النفس للقتل وتوطينها على الهُلْك في الأغلب الأكثر إلا وهو تائب من جميع الذنوب التي توجب العقاب وتحبط الثواب فتكون الشهادة حينئذٍ دالة على أنه من أهل الجنة، وسببها السيف، فكأنه قد محا ذنوبه أي أزالها وأبطلها.

وعلى ذلك قول الشاعر[1]:

فلا تُكْثِروا فيها الضّجَاجَ[3] فَإِنَّهُ ... مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابنُ دَارَةَ أَجْمَعَا[2]

أي أزاله وأبطله.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «فتلك مضمضةٌ محَتْ ذُنوبه».

مجاز آخر كأن القتل غسله من دَرَن الذنوب.

---

(١) هو الكميت بن معروف الأسدي: شاعر مخضرم، عاش أكثر حياته في الإسلام مات نحو سنة ٦٠ هـ. (المؤتلف والمختلف ٢٥٧، معجم الشعراء ٢٣٨، طبقات فحول الشعراء ١٨٩).

(٢) خزانة الأدب ٢: ١٢٩، معجم الشعراء ٢٣٨، المؤتلف ٢٥٧، أسماء المغتالين ١٥٧.

(٣) الضجاج: المشاغبة والمشارة.

- ابن دارة: هو سالم بن دارة: شاعر مخضرم، وقد أدرك الجاهلية والإسلام، وكان رجلاً هجاء، وبسببه قتل. انظر أخباره في الخزانة ٢: ١٢٥، أسماء المغتالين ١٥٦، والشطر الثاني من البيت أصبح مثلاً يضرب للرجل يُجازَى على المكروه أكثر منه. انظر جمهرة الأمثال ٢: ٢٨٨، المستقصى ٣٠٩. وينسب البيت في بعض الكتب للكميت بن ثعلبة الفقعسي الأسدي: وهو شاعر مخضرم أيضاً، وعُرف بالكميت الأكبر، تمييزاً له عن حفيده الكميت بن معروف، وعن الكميت بن زيد، وكان الكميت الأكبر هجّاءاً مقذعاً. الإصابة الترجمة ٧٥٠٠، الخزانة ٧: ٥٢٣.

قال ابن السِّكِّيت[1]: يقال مصمصت الإناء ومضمضته بالصاد الضاد إذا غسلته[2]، ويقال أيضاً: ماص الثوب بالصاد غير معجمة إذا غسله.

[١٨٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه[3]:

« أَتَّبِعُونِي تَكُونوا بُيُوتاً »،

وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام لم يرد بيوت الشَّعْر وبيوت المَدَر[4] على الحقيقة. وإنما أراد أنكم تكونون لعلوّ أقداركم، واشتهار أخباركم بيوتاً: أي شعوباً تقف نسبة أولادكم عندكم، ولا تتجاوزكم إلى من فوقكم، وهذا لا يكون إلا لنباهة الأب الأدنى، واستغنائه بالنباهة عن الأب الأعلى كما يقال لمن ينسب إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: علويّ، ويستغني أن يقال: هاشمي أو مَنَافيّ[5]، وكما يقال لمن كان من ولد عمر عمرى ولا يقال عَدَوِيّ[6]. ونظائر تلك كثيرة.

---

(١) هو يعقوب بن إسحاق، ابن السكيت: إمام في اللغة والأدب، أصله من خوزستان (بين البصرة وفارس)، ومات ببغداد سنة ٢٤٤ هـ. (وفيات الأعيان ٦:٣٩٥، نزهة الألباء ١٧٨، وإنباه الرواة ٤ : ٥٠).

(٢) انظر تاج العروس ١٨ : ١٦٢. وقال الأزهري في الحديث: وعندي معناه؛ أي مطهره وغاسلة، وقد تكرر العرب الحرف، وأصله معتّل، أي فهو من المص. والمص: الغسل اللين، والدلك باليد، ويقال منه ماص يمص. وقال الزبيدي ١٨ : ١٦٢: « وقيل الفرق بينهما، أن المصمصة بطرف اللسان، والمضمضة بالفم كله.

(٣) لم نجده فيما بين يدينا من كتب الحديث.

(٤) المَدَرُ: الطين اللزج المتماسك، والقطعة مَدَرَةٌ، وأهل المدر: سكان البيوت المبنية، خلاف البدو سكان الخيام.

(٥) نسبة إلى عبد مَنَاف بن عبد المطلب بن هشام، أبو طالب القرشي: والد علي (رضي الله عنه) وعم النبي ﷺ وكافله ومربيه ومناصره. (طبقات ابن سعد ١ :٧٥، تاريخ الخميس ١ :٢٩٩، الخزانة ٢ :٦٥).

(٦) نسبة إلى عَدِيّ بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي العدناني: من نسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (اللباب ٢ :١٢٦، جمهرة الأنساب ١٤٠).

وإنما سميت المناسب[1] المخصوصة بيوتاً لاشتمالها على ضروب الرجال المتصلين بها والمضافين إليها تشبيهاً بالبيت المبنى في اشتماله على الدعائم والعِمَاد والأوتاد والأطناب[2] لشهرته ونجابته.

ونظير الخبر المذكور من الشعر قول الطائي الأكبر[3] في صفة الفرس:

هَذَّبَ في جِنْسِهِ ونال المَدَى ... بِنَفْسِهِ فَهْوَ وَحْدَهُ جِنْسُ[4]

أراد أن نسله ينسب إليه، ولا يتجاوز به إلى من وراءه من آبائه وأماته[5]، كما يقال هذا الفرس من نسل ذي العُقّال[6].

ومن نِتاج ذي الجَمَّازة[7] وما أشبههما.

[١٩٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الكلام الذي تكلم به يوم الغدير[8]:

« وأسألُكم: عَنْ ثَقَلَيّ كَيْفَ خَلَفْتُمُونِي فيهما، فقيل له: وما الثّقَلان يا

---

(١) المناسب جمع نسب على غير قياس مثل مَشَابه وملامح ومحاسن وغير ذلك اللسان (شبه).

(٢) الأطناب جمع طُنُب: وهي الحبال التي يشد بها الخباء والسرادق، ونحوهما من بيوتات العرب.

(٣) هو حبيب بن أوس بن الحارث، أبو تمام: الشاعر المشهور. (وفيات الأعيان ٢ : ١١، نزهة الألباء ١٥٥، تاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨).

(٤) البيت في ديوان أبي تمام: ٢٢٦ من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب. وقال شارح ديوانه الخطيب التبريزي في شرحه للبيت: « يقول: هو كريم الجنس وقد زادت فراهته، حتى صار بنفسه جنساً تنسب إليه الخيول، كما تنسب إلى غيره من الخيل المذكورة.

(٥) الأمات: جمع أمّ، كما تجمع في المشهور على أمهات، وقيل: إن الجمع الأول لمن لا يعقل والثاني لمن يعقل.

(٦) ذو العُقّال: فرس لحوّط بن أبي جابر الرياحي، وهو أبو داحس. وهو أيضاً فرس للنبي ﷺ أنظر أسماء خيل العرب للغندجاني ١٠٥ و١٠٩.

(٧) الجمّازة: فرس عبد الله بن حَنْتَم، وكان أكرم خيول العرب (أسماء خيل العرب للغندجاني ٦٤). ولا يوجد بين أسماء الخيل من يسمى بـ (ذي الجمّازة) ولعله وهم من الشريف الرضي.

(٨) المقصود به حديث غدير خُمّ، وخُمّ: اسم موضع غدير خُمّ، وهو بين مكة والمدينة بالجحفة، وقيل: هو على ثلاثة أميال من الجحفة. انظر معجم البلدان (خُمّ) ٢ : ٣٨٩.

رسول الله؟ فقال الأكبر منهما كتاب الله سَببٌ[1]، طَرَفٌ منه بيد الله، وطَرَفٌ بأيديكم».

هذه رواية زيد بن أرقم[2]. وفي رواية أبي سَعيد الخُدْرِيّ[3]:

«حَبْلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، والأصغر منهما عِترتي أهل بيتي، إنهما لن يفترقا حتى يَرِدا عَلَيَّ الحوضَ[4]».

فإن الكلام يعود على الثَّقَلَيْن[5]. وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام شبّه كتاب الله بالحبل الممدود بين الله وبين خلقه يَعْصم منهم من اعتصم به، ويَسْتنقذ من المهاوى والمعاطب من اعتلق بطرفه وليس هناك يد على الحقيقة تعتصم المتعلق بها وتستشيل[6] المتورِّط[7]، وإنما ذلك على التمثيل والتشبيه، لأن المستنقذ من الورطة والمُنْهَض من السقطة في الأكثر إنما يجتذِب بيده ويستعين بسببه فأخرج عليه الصلاة والسلام كلامه على العرف والمعروف والأمر المعهود.

ومن روى حبلان ممدودان وأراد بأحد الحبلين العترة فالمعنى أنه عليه

---

(١) سبب: حبل.

(٢) انظر المسند ٤:٣٦٨. ومناقب أمير المؤمنين ١٥٦ و١٥٧، الغدير ١:١١ - وزيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري: صحابي غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد صفين مع الإمام علي، ومات بالكوفة سنة ٦٨ هـ، تهذيب التهذيب ٣: ٣٩٤، السير ٣:١٦٥.

(٣) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي: صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة، غزا اثنتين عشرة غزوة، وتوفي في المدينة سنة ٧٤ هـ (تهذيب التهذيب ٣:٤٧٩، الوافي ١٥: ١٤٨، السير ٣:١٦٨).

(٤) مناقب أمير المؤمنين ١٥٦ - ١٥٧، الغدير ١:١١، الترمذي رقم ٣٧٩٠ في المناقب.

(٥) الثَّقَلان مثنى ثَقَل: وهو الشيءَ النفيس الخطير.

(٦) تستشيل: أي ترفعه إلى أعلى من ورطته.

(٧) الورطة: الأرض المنخفضة والبئر والهلكة والهوة الغامضة العميقة، وكل أمْر تعسّر النجاة منه، وهي اسم المرّة. والمتورط: الواقع في الورطة.

الصلاة والسلام أقام عترته مقام الحبل الممدود الذي يكون عصمة المستعصم ونجاة المستلم كما قلنا في القرآن.

وهذا الخبر بتمامه هو خبر يوم الغدير الذي يقول فيه صلى الله عليه وآله[1]:

« مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأخذُلْ من خَذَله وانصر من نصره ».

وقد رواه من مشهوري الصحابة عشرة أولهم أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الصادق المصدّق، وزيد بن أرْقَم، وحُذَيفة بن أُسَيْد[2]، والبَرَاء بن عازب[3]، وسعد بن أبي وَقَّاص[4]، وأبو هُرَيْرة[5]، وجابر بن عبدالله[6]، وأبو

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٧١٤ في المناقب، ورواه أيضاً أحمد في المسند ٤ : ٣٦٨ و٣٧٠ و٣٨٢ وهو حديث صحيح.

(٢) حُذَيْفة بن أُسيد بن خالد الغفاري، أبو سُرِيحة: صحابي، كان ممن بايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، وتوفي بالكوفة. (الاستعاب ١ : ٣٣٥، أسد الغابة ١ : ٤٨٩، تهذيب التهذيب ٢ : ٢١٩).

(٣) البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة: قائد صحابي من أصحاب الفتوح، أسلم صغيراً وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة، وتوفي بالكوفة سنة ٧١ هـ. (الإصابة ١ : ١٤٢، أسد الغابة ١ : ١٧١، السير ٣ : ١٩٤).

(٤) سعد بن أبي وقاص، مالك بن أهيب القرشي الزهري، أبو إسحاق: الصحابي الأمير، فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، مات بالعقيق، ودفن بالمدينة سنة ٥٥ هـ (الإصابة الترجمة ٣١٨٧، التهذيب ٣ : ٤٨٣، تهذيب ابن عساكر ٦ : ٩٣).

(٥) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له، وكان أكثر مقامه في المدينة، وتوفي فيها سنة ٥٩ هـ. (الإصابة الكنى ت١١٧٩، الاستيعاب ٤ : ١٧٦٨، أسد الغابة ٦ : ٣١٨).

(٦) جابر بن عبدالله الخزرجي الأنصاري السلمي: صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، غزا تسع عشرة غزوة، مات في المدينة سنة ٧٨ هـ. (الإصابة ١ : ٢١٣، أسد الغابة١ : ٢٥٦، السير ٣ : ١٨٩).

أيوب خالد بن زيد[1]، وأنس بن مالك[2]، وبُرَيْدة بن الحُصْيب الأسلمي[3]

فأما زيد بن أرقم، وبُرَيْدة بن الحُصَيْب فقد رُوي عنهما في هذا الخبر: «من كنت وليه فعليّ وليه» ووافقهما ابن عباس[4] على ذلك، وأخبرنا بهذه الرواية خاصة - وهي أشهر الروايات - أبو عبيدالله محمد بن عمران المَرْزُباني[5] قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد بن عَرَفة الواسطي[6] قال:

حدثنا عُبَيدالله بن جرير بن جَبَلة قال: حدثنا مُسْلِم بن إبراهيم[7] قال:

---

(١) خالد بن زيد، أبو أيوب الأنصاري: صحابي شهد المشاهد، وكان شجاعاً صابراً تقياً محباً للغزو والجهاد، مات غازياً، ودفن في أصل حصن القسطنطنية سنة ٥٢ هـ. (الإصابة ١: ٤٠٥، الاستيعاب ٢: ٤٢٤، السير ٢: ٤٠٢).

(٢) أنس بن مالك البخاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة: صاحب رسول الله وخادمه. مولده بالمدينة، وأسلم صغيراً، وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض، ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة. فمات فيها سنة ٩٣ هـ. (أسد الغابة ١ : ١٥١، تهذيب ابن عساكر ٣ : ١٤٢، السير ٣ : ٣٩٥).

(٣) بُرَيْدَة بن الحُصَيْب بن عبدالله بن الحارث الأسلمي: من أكابر الصحابة استعمله النبي على صدقات قومه، وسكن المدينة، وانتقل إلى البصرة، ثم مرو، فمات بها سنة ٦٣ هـ. (أسد الغابة ١ : ٢٠٩، الإصابة ١ : ٢٤١، السير ٢ : ٤٦٩).

(٤) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبر الأمة، الصحابي الجليل، ولد بمكة، شهد مع علي (رض) الجمل وصفين، وكفّ بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها سنة ٦٨ هـ. (الإصابة ت ٤٧٧٢، أسد الغابة ٣ : ٢٩٠، السير ٣ : ٣٣١).

(٥) محمد بن عمران بن موسى، أبو عبدالله المرزباني: إخباري مؤرخ أديب، أصله من خراسان ومولده ووفاته ببغداد، كان مذهبه الاعتزال، قالوا عنه: كان جاحظ زمانه، توفي سنة ٣٨٤ هـ. (وفيات الأعيان ٤ : ٣٥٤، تاريخ بغداد ٣ : ١٣٥، السير ١٦ : ٤٤٧).

(٦) إبراهيم بن محمد بن عرفة العتكي الأزدي الواسطي، المشهور بنفطويهْ: إمام حافظ ونحوي علامة، أخباري فقيه مسند في الحديث ثقة، مات سنة ٣٢٣ هـ. (تاريخ بغداد ٦ : ١٥٩، معجم الأدباء ١ : ٢٥٤، الإنباه: ١/ ١٧٦، السير ١٥ : ٧٥.

(٧) مسلم بن إبراهيم، أبو عمرو الأذي الفراهيدي: محدث البصرة في أيامه، كف بصره في آخر حياته، وكان قصاباً، قال أبو حاتم: هو ثقة صدوق، مات سنة ٢٢٢ هـ. (الجرح والتعديل ٨ : ١٨١، تهذيب التهذيب. السير ١٠/ ٣١٤).

حدثنا نُوح بن قَيْس[1] قال: حدثنا الوليد بن صالح[2]، عن ابن امرأة زيد بن أرقم، عن زيد ابن أرقم أخبرنا بذلك أبو عبيد الله المَرْزُبانيّ في جملة ما أخبرنا به رواياته ومصنفاته، وعلى هذه الرواية تخرج اللفظة من الاحتمال وتكون أقرب إلى المعنى المراد؛ لأن وليّ النبي صلى الله عليه وسلم أولىٰ به من غيره وأحق بالاستيلاء عليه من كلٍّ من لم يضْرب فيه بمثل حقه.

وقد روى عِمْرانُ بن حُصَين[3] عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال[4]: « عليٌّ وَليُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بعدي ».

وفي هذا الخبر تصريح بأنه من بعده وليُّ الأمر وواليه والقائم مقامه فيه كما قال الكُميت بن زيد[5] في ذلك:

---

(١) نوح بن قيس بن رباح، أبو روح الطَّاحيّ الحُدَّانيّ البصري: محدّث ثقة صدوق، وثقة أحمد بن حنبل، وأثنى عليه يحيى بن معين، مات سنة ١٨٤ هـ. (الأنساب ٨: ١٧٠، تقريب التهذيب ٢: ٣٠٨، التهذيب ١٠: ٤٨٥).

(٢) الوليد بن صالح النخّاس الضبّيّ، أبو محمد الجَزَري، نزيل بغداد: محدث ثقة صدق (تهذيب التهذيب ١١: ١٣٧، تقريب التهذيب ٢: ٣٣٣، تاريخ بغداد ١٣: ٤٤٢) - وقد تحرف (صالح) في طبعات الكتاب السابقة إلى (صُبَيْح) وهو تحريف قبيح. صوابه ما أثبتناه عن كتاب « مناقب أمير المؤمنين » للحافظ أبي الحسن علي بن محمد الواسطي الجُلاّبي. الشهير بابن المغازلي - ٤٨٣ هـ ص٢٩. وانظر الغدير ١: ٣٧.

(٣) عمران بن حُصَيْن بن عبيد، أبو نُجَيْر الخزاعي: من علماء الصحابة، وكان قاضياً على البصرة وهو ممن اعتزل حرب صفين، توفي بالبصرة سنة ٥٢ هـ. (الاستيعاب ٣: ١٢٠٨، أسد الغابة ٤: ٢٨١، السير ٢: ٥٠٨).

(٤) أخرجه الترمذي رقم ٣٧١٢، وما ذكره الشريف الرضي طرف من حديث طويل آخره « وهو وليُّ كلّ مؤمن بعدي ».

(٥) الكيمت بن زيد الأسدي، أبو المستهلّ: شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها، وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، منحازاً إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، أشهر شعره « الهاشميات » وهي عدة قصائد في مدح الهاشميين، توفي سنة ١٢٦ هـ. (الأغاني ١٧: ١ - ٤٠، السمط ١: ١١، السيرة: ٣٨٨).

ونِـعْمَ وَلِـيُّ الأَمْـرِ بَعْـدَ وَلِـيِّـهِ ومُنْتَجَعُ التَّقْوى ونِعْمَ المـؤَدِّبُ [1]

والكلام في هذا المعنى يطول. وليس كتابنا هذا من مظانّ استقصائه ومواضع استيفائه.

وفي هذا الخبر أيضاً مجاز وذلك تسميته عليه الصلاة والسلام الكتاب والعترة بالثَّقلين، وواحدهما ثَقَل، وهو متاع المسافر الذي يصحبه إذا رحل ويَسْتَرْفِق به إذا نزل، فأقام عليه الصلاة والسلام رفيقه في السفر ورفاقه في الحضر، وجعلهما بمنزلة المتاع الذي يخلفه بعد وفاته، فلذلك احتاج إلى أن يُوصي بحفظه ومراعاته.

وقال بعض العلماء: إنما سميا ثَقَلين لأن الأخذ بهما ثقيل [2].

وقال بعضهم: إنما سميا بذلك لأنهما الحُدّتان اللتان يعوّل في الدين عليهما ويقوم أمر العالم بهما، ومنه قيل للإنس والجن ثَقَلان لأنهما اللذان يَعْمُران الأرض ويُثقلانها [3]. ومن ذلك قول الشاعر [4]:

تَقـومُ الأرضُ مـا عُمِّـرْتَ فيهـا وتَبْقَى مـا بَقِيتَ بهـا ثقيـلا [5]
لأنـك مَـوْضِـعُ القِسْطاسِ منها فَـتَمْـنـعُ جـانبيـهـا أن يَـزُولاَ

---

(١) البيت في « شرح هاشميات الكميت، لأبي رياش القيسي » ص٨٢.

(٢) هو ثعلب كما في اللسان (ثقل) وزاد عن ثعلب: « والعمل بهما ثقيل ».

(٣) انظر اللسان (ثقل). وجمع البيان للطبرسي ٥ : ٢٠٤، الكشاف ٤ : ٤٧ ، القرطبي ١٧ : ١٦٩).

(٤) هو زهير بن أبي سُلْمى ربيعة بن رباح المزني: حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة، وكانت وفاته سنة ١٣ ق. هـ. (الأغاني ١٠ : ٢٨٨، خزانة الأدب ٢ : ٢٩٠، معاهد التنصيص ١ : ٣٢٧).

(٥) البيتان في أمالي المرتضى ١ : ٩٧ منسوبان إلى زهير في خبر طريف، وليسا في ديوان زهير في جميع طبعاته.

[١٩١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لبعض أزواجه[١]:

« أحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ اللَّهِ فإنَّهَا قلّما نَفَرَتْ عن قوم فكادت تَرْجِعُ إليهم ».

وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل النِّعَم المتفاضلة على الإنسان بمنزلة الضيف النازل، والجار المجاور الذي يجب أن يُعَدَّ قراه، ويُكْرم مثواه، وتُصَفّى مشاربه، وتُؤَمّن مساربه[٢]، فإن أُخيف سِرْبه، ورُنِّق شِرْبه[٣]، وضُيِّعت قواصيه[٤]، واعتُميت[٥] مقاربه كان خليقاً بأن ينتقل، وجديراً بأن يَسْتَبدِل، فكذلك النعم إذا لم يجعل الشكر قِرَى نازلها، والحمدُ مهادَ منزلها، كانت وَشِيكةً بالانتقال، وخليقة بالزِّيال[٦].

وفي رواية أخرى: « أحسنوا جوار نعم الله فإنها وَحْشِية » وباقي الخبر على لفظه. فعلى هذه الرواية كأنه عليه الصلاة والسلام شبه النعم بأوابد الوحش التي تقيم مع الإيناس وتنفر مع الإيحاش، ويصعب رجوع شاردها إذا شرد، ودُنُوّ نافرها إذا بعد.

[١٩٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد سمع مؤذناً يقول[٧]:

---

(١) الحديث في الفتح الكبير ١ : ٥٢. وزوجته هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

(٢) السرب: الفريق من الطير والحيوان، ويقال: سرب من النساء على التشبيه بسرب الظباء، والنفس، والقلب. يقال: هو آمن السرب، وآمنُ في سربه: آمن النفس والقلب، والمسارب: جمع سَرَب وسِرْب على غير قياس بمعنى المذاهب، أو ما للرجل من أهل ومال.

(٣) رنّق: تحيّر وتكدّر، والشِّرب: الماء يشرب، مورد الماء، أي كُدّر ماؤه الذي يرده للشرب.

(٤) القواصيّ جمع قاصية، والقاصية من الناس والبقاع: المتنحية البعيدة، ومن الشاء: المنفردة عن القطيع البعيدة منه.

(٥) اعتميت مقاربه، أي: قصدت مقاربه، والمقارب جمع مَقْربه: وهي المنزل، أي، قصدت منازله.

(٦) الزِّيال: المفارقة، أي جديرة بالمفارقة. اللسان (زيل).

(٧) أخرجه أبو داود رقم ٥١٥ في الصلاة، والنسائي ٢ : ١٣ في الأذان، وأحمد بن المسند ٢ : ١٣٦ و٤ : ٢٣٤.

«أشهد أن لا إلـه إلا اللَّهُ فقال: صَـدَّقَكَ كُـلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ »، وهـذا الكلام مجاز، لأن الرطب واليابس من الشجر والأعشاب والماء والتراب لا كلام لهمـا ولا روح فيهما.

وإنمـا أراد عليه الصـلاة والسلامِ أن تصـديقهما بلسـان الخَلْق لا بلسان النطق. فجميع المخلوقات شاهدة بأن لا إله إلا اللَّهُ سبحانه بما فيها من تأثيـر الصِّبغة [1] وإتقان الصنعة، وشواهد الصانع الحكيم، والمقدِّر العليم.

فهي من هذه الوجـوه متكلمة وإن كـانت خرسـاء، ومُفْصحة وإن كـانت عجماء. وعلى هذا المعنى خرج قول الشاعر [2]:

وفِـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ   تَـدُلُّ عـلى أنّـه واحـدُ [3]

[١٩٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [4]:
« **الحسَدُ يأْكلُ الحَسَناتِ كما تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَب** ».

وهـذه استعارة، والمـراد أن الحسد يخـرج بصـاحبـه إلى الإقـدام على المعـاصي والارتكاس في المهـاوى، فيلِغ في الدمـاء الحـرام، ويحتـطب في حبائل الآثام، ويشرع في نقل النعم من أماكنها وإزعاجها عن مواطنها.

فيكون عقاب هذه المخطورات مُحْبِطاً لحسناته ومُسْقِطاً لثواب طاعـاته، على المذهب الذي أشرنا إليه فيما تقدم.

---

(١) الصِّبْغة: ما يصبغ به، والهيئة المكتسبة بالصِّبْغ، وصبغة الله: الفطرة التي خلـق عليهـا النـاس، والدين الذي شرعه الله لهم.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم بن سُويد العيني العَنَزي بالولاء، أبو إسحاق؛ الشهير بأبي العتاهية، ويعد من مقدّمي المولدين، من طبقة بشار، وأبي نواس وأمثالها، توفي في بغداد سنة ٢١١ هـ. (الأغاني ٤ : ١، ابن خلكان ١ : ٢١٩، تاريخ بغداد ٦ : ٢٥٠).

(٣) ديوان أبي العتاهية ١٠٤، والمحاسن والمساويء ٢ : ٥٠).

(٤) أخرجه أبو داود، رقم ٤٩٠٣ في الأدب، ورواه أيضاً ابن ماجة رقم ٤٢١٠.

فيصير الحسد الذي هو السبب في استحقاق العقاب، وإحباط الثواب كأنه يأكل تلك الحسنات، لأنه يذهبها ويُفْنيها، ويسقط أعيانها، ويُعَفّيها. وإنما شبهه عليه الصلاة والسلام في أكله الحسنات بالنار التي تأكل الحطب؛ لأن الحسد يجري في قلب الإنسان مجرى النار لاهتياجه واتقاده وإرماضه [1] وإحراقه.

ومن هنا قال بعضهم [2]: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، نَفَسٌ يَتَصَعّد، وزَفِيرٌ يتردَّدُ، وحُزْنٌ يَتجدَّدُ.

[١٩٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في عهد كتبه لعماله على اليمن [3]:

« **فَإنَّ هَذا القُرآنَ جَبْلُ الله المَتِينُ، فِيهِ إقَامةُ العَدْلِ، وَيَنابِيعُ العِلْمِ، وَرَبِيعُ القُلُوبِ** ».

وفي هذا الكلام ثلاث استعارات:

(**أولاهن**): قوله عليه الصلاة والسلام: « فإنَّ هذا القُرآن حَبْلُ اللَّهِ المَتِينُ »، وقد تقدم كلامنا على نظيرها [4] وبّينا لأي معنى شبه القرآن بالحبل المْمدُود بين الله سبحانه وبين خلقه في أنه عِصمةٌ لِمُستعصِمهم ومُسْكةٌ لِمُسْتَمْسِكِهِم.

---

(١) الإرماض: شدّة الحرارة.

(٢) هو ابن المقفع، انظر عيون الأخبار ٢ : ٩.

(٣) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٠٨ في ثواب القرآن، ورواه أيضاً الدارمي ٢ : ٤٣٥، ورواه أحمد في المسند رقم ٧٠٤. وهو حديث طويل، هذا طرف منه، مع خلاف في روايته.

(٤) في الحديث: « وأسألكم عن ثقليّ كيف خلفتموني فيهما، فقيل له: وما الثقلان يا رسول الله؟ فقال: الأكبر منهما كتاب الله سبب. طرفٌ منه بيد الله، وطرف بأديكم». في الكلام الذي تكلم به يوم الغدير.

(والاستعـارة الثانية): قوله عليه الصلاة والسلام في صفة القرآن « وينابيع العلم » وذلـك أنه صلى الله عليـه وآله شبَّـه ما يفتحـه القرآن لمتفهميـه ويبينـه للناظرين فيه من أبواب العلم وطرقه ويَفْتُقُه من أكمَّتِهِ[١] وغُلُفِهِ[٢] بينابيـع الماء المتفجرة وعيونه المستنبطة، ولأن العلم أيضاً ينقع الغليل بعدُ الشك المُحَيِّر كما يُبْرِد الماء الغُلّة بعد العطش المبرِّح.

فلذلك شبهه عليه الصلاة والسلام بغيون الماء وينابيع الرِّواء[٣].

(والاستعارة الثالثة): قوله عليه الصـلاة والسلام، « وَرَبيـعُ القُلوبِ. »، وذلك أنه جعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع للإبل الراعية؛ لأن القلوب تنتفع بتدبر القرآن وتأمله، كما تنتفع الإبل بتحمض[٤] الربيع وتنقّله[٥]، فهـذا غـذاء للأرواح كمـا أن ذلك غـذاء للأجسـام، وقد يجـوز أن يكون المـراد أن القلوب تنفرج بحكم القرآن وآدابه كما تنفـرج العيون بـأنوار الـرّبيع وأعشـابه، والرّبيع: اسم للغيث في الأصل، ثم صار اسماً عندهم لما ينبت عن الغيث من أفانين[٦] النَّوْر والعشب، ألا ترى إلى قول الشاعر، وهو يريد الغيث:

أنت رَبيـعي والـرَّبيـعُ يُنْتَـظَرْ وخَيْـرُ أنْـواءِ الـرَّبيـعِ مـا بَكَـرْ[٧]

---

(١) الأَكِمَّة: جمع كِمام، وكُمّ كلّ نَوْر وعاؤه.

(٢) الغُلُف جمع غلاف، وهو الصوان، وما استمل على الشيء ككمان الزهر اللسان (غلف).

(٣) الرواء: من الماء العذب، والكثير المروي.

(٤) الحَمْض: كل نبت حامض أو مالح يقوم على ساق، ولا أصل له، وهو للماشية كالفاكهة للإنسان.

(٥) تنقل الربيع: أي انتقال الإبل من مكان إلى مكان حيث يكثر فيه المرعى.

(٦) الأفانين، جمع أُفْنُوّ: وهو النوع من الفن، والمعنى من أنواع الزهر الأبيض.

(٧) الأنواء جمع نوء: وهو في الأصل النجم الذي يطلع في السماء فيصحب طلوعه ريح ممطرة، والمراد به هنا المطر. وبكر: جاء مبكراً في أول الربيع، لأنه يجيء على حاجة إليه، وشوق بعد طول جفاف.

وهذا كما سموا الغيث سماء، لأن نزوله يكون من جهة السماء. قال الشاعر[1]:

إذا سَقَطَ السَّمَاء، بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابا[2]

أراد إذا سقط الغيث، ثم قال: رعيناه؛ فرد الكلام على ما ينبت عن الغيث من الرّعى الجميم[3] والكلأ العميم، ومثل هذا في كلامهم كثير مستفيض، والربيع أيضاً: النهر الصغير[4]، وفي الحديث: « وما سَقَى الربيع »[5]، وجمعه أربعاء على وزن أنصباء[6].

[١٩٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في هذا العهد وهو يذكر أوقات الصلاة[7]:

« والعَصْرَ إذَا كانَ ظِلُّ كُلِّ شيءٍ مِثْلَهُ وَكَذلِكَ مَا دَامَتِ الشَّمْس حَيَّةً، وَالعِشَاء إذَا غَابَ الشَّفَقُ إلى أَنْ تَمْضِى كواهِلُ اللَّيلِ ».

---

(١) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، معوّد الحكماء: شاعر في أشراف العرب في الجاهلية. (المجد ٤٥٨، ألقاب الشعراء ٢ : ٣١٣، السمط ١٩٠، الخزانة ٩ : ٥٥٥).

(٢) المقاييس ٣ : ٩٨، الخزانة ٩ : ٥٥٥، واللسان (سمو).

(٣) الجميم: الكثير، يقال: شيء جمّ وجميم: بمعنى كثير، والرِّعْي: النبات الذي يرعى، وما ترعاه الماشية.

(٤) التاج (ربع)، وفيه: « والربيع: الجدول، وهو النهر الصغير ».

(٥) رواه أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤٦٤، وتمام الحديث: « أنّ أحدهم كان يشترط ثلاثة جداول، والقُصارة، وما سَقَى الربيع، فنُهُوا عن ذلك ».

(٦) وهذا قول ابن السكيت، كما نقله الجوهريّ (الصحاح، ربع) ومنه الحديث « أنهم كانوا يَكْرُون الأرض بما يَنْبُتُ على الأَرْبِعاء، فَنُهِي عن ذلك » أي كانوا يكرون الأرض بشيء معلوم، ويشترطون بعد ذلك على مكتريها، ما ينبتُ على الأنهار والسواقي. انظر اللسان والتاج (ربع).

(٧) انظر النهاية لابن الأثير ١ : ٤٧١ و٤ : ٢١٤، وانظر الترمذي رقم ١٥٠ ومعنى الشمس حية: أي صافية اللون لم يدخلها التغير بدنوّ المغيب؛ كأنه جعل مغيبها لها موتاً، وأراد تقديم وقتها.

ـ وكواهل الليل: أي أوائله إلى أوساطه، تشبيهاً لليل بالإبل السائرة التي تتقدم أعناقها وهواديها، ويتبعها أعجازها وتواليها. والكواهل: جمع كاهل، وهو مقدم على الظهر.

وهاتان استعارتان: أولاهما قوله عليه الصلاة والسلام: « ما دامت الشمس حيَّة » والمراد بحياة الشمس ها هنا كونها في بقية من الاحمرار من قبل أن يفضي إلى الحؤول[1] والاصفرار، ومن هناك قالوا: شمسٌ مريضة إذا ولّى احمرارها، وأقبل اصفرارها، وعلى هذا قول الشاعر:

لَـدُنْ غُـدْوَةً حَـتَّـى نَـزَعْـنَ عَـشِـيَّـةً
وَقَـدْ مـاتَ شَـطْرُ الشَّمْسِ والشـطر مُـدْنَفُ[2]

فجعل نصفها ميتاً لمّا تصرَّم أكثر ضيبائها، وجَعَـلَ نِصْفَها مُـدْنفا لمـا كان من التصرم على شَفا، ومثل ذلك قول الراجز[4]:

* والشَّـمْـسُ قد كَادَتْ تكُون دَنَفاً *

أي قد قاربت أن تُشفى على الغروب كما يشفى الدنف المريض على الخفوت، فجعلهـا دنفاً مبـالغة في وصفهـا بنقصـان اللون وحُؤول الضـوء[5] على أصـل وصفهم لها بالمرض.

ولوصفهم الشمس بالموت في أشعارهم وجه آخر، وهو أنهم إذا أرادوا أن يصفوا يوم الحـرب باشتـداد الحر، واسـوداد الأفق للقتام[6] المتـراكب والنقع

---

(١) الحؤ ول مصدر حال: بمعنى تحول وتغير.

(٢) الشطر: نصف الشيء، ويستعمل في الجزء منه، والمدنف: المريض.

(٣) تصرم: ذهب وانقضى، وشفا كل شيء: حرفه ونهايته، أي لمـا كان نصفهـا الآخـر علـى حافـة الغروب.

(٤) هو العجاج عبدالله بن رؤ بة السعدي التميمي، أبو الشعثاء: راجز مجيد، من الشعراء، وهو أول من رفع الرجز، وشبهه بالقصيد، وكان لا يهجو، وهو والد رؤ بة الراجز المشهور أيضاً، مات نحو سنة ٩٠ هـ. (الشعر والشعراء ٢: ٥٩١، شرح شواهد المغني ١: ٤٩، ديوان العجاج ٢: ٢٢٧).

(٥) حؤ ول الضوء: تغيره، واستحالته في الإحمرار إلى الإصفرار.

(٦) القتام: الغبار، وريح ذات غبار كريهة، والمتراكب: المتراكم.

المتعاظل[1] يقيمون تغيُّب الشمس، واحتجابها مقام انقراضها وذهابها، (والاستعارة الأخرى) قوله عليه الصلاة والسلام: « إلى أن تمضى كواهل الليل »، والمراد إلى أن تمضى أوائله فسماها كواهل تشبيهاً لليل بالمطايا السائرة التي تتقدم أعناقها وهواديها.

ويتبعها أعجازها وتواليها، ومن هناك قالوا في الساري ليلاً: « اتخذ الليل جملاً »[2] ويقولون: « ركب الليل »[3] «وامتطى الليلَ» لما جعلوه بمنزلة الظهر المركوب والبعير المرحول[4].

[١٩٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:
« مَفَاتِيحُ الجَنَّةِ لَا إِلٰهَ إِلّاَ اللَّهُ ».

وهذه استعارة، والمراد أن هذا القول به يوصل إلى دخول الجنة، فجعله عليه الصلاة والسلام بمنزلة المفاتيح التي يستفتح بها الأغلاق ويستفرج[6] الأبواب، وأراد عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة وما يتبعها من شعائر الإسلام، وقوانين الإيمان، إلا أنه صلى الله عليه وآله عبر عن جميع ذلك بهذه الكلمة، لأنها أول لتلك الشعائر وسائرها تابع لها ومتعلق بها، فهي لها كالزِّمام القائد،

---

(١) النقع: الغبار الساطع. والمتعاظل: المتشابك.
(٢) من أمثال العرب، ويضرب مثلاً للرجل يجدُّ في طلب الحاجة، وقال آخرون: معناه: ركب الليل في حاجته، ولم ينم حتى نالها. (أنظر جمهرة الأمثال ١ :٨٨، المستقصى ١ :٣٤، اللسان (جمل).
(٣) جمهرة الأمثال ١ :٨٨.
(٤) المرحول: المتخذ راحلة مركوبة عليها الرحل.
(٥) رواه أحمد في المسند ٥ :٢٤٢ . قال الهيثمي: رجاله ثقات ، وفيه انقطاع. انظر الأحاديث المشكلة في الرتبة ٢٣١ .
(٦) يستفرج: أي يستفتح، لأن الفرجة هي الفتحة في الجدار ونحوه، واستفرج الأبواب معناه: استفتاحها.

والمتقدم الرائد، وذلك كما يعبر عن حروف المعجم ببعضها، فيقال ألف، باء تا، ثا، والمراد جميعها، وكذلك يقولون هو في أبجد ويريدون سائر هذه الحروف، إلا أن هذه الحروف لما كانت أولة لباقيها، ومتقدمة لما يليها، حسن أن يعبر بها عن جميعها.

[١٩٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في وصية لمُعاذ بن جَبَل[١] لما بعثه إلى اليمن:

« وَصَلِّ الظُّهرَ بَعْدَ ما يَتَنَفّسُ الظِّلُّ وتَبْرُدُ الرِّيَاحُ ».

وهذه استعارة، والمراد بعدما يزيد امتداد الظل من قولهم تَنَفَّس النهار[٢] إذا أخذ بالطول ومنه قوله تعالى: ﴿والصُّبْحِ إذا تَنَفَّس﴾[٣] أي إذا زاد ضياؤه وانتشرت أنواره.

وقد استقصينا الكلام على ذلك في كتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن[٤]. وأصل هذه مأخوذ من تنفس الحيوانات وهو امتداد الريح الحارة من تجاويف صدورها عند ترويح رئاتها عن قلوبها بانقباضها، وانبساطها، وانضمامها، وانفراجها.

[١٩٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[٥]:

---

(١) معاذ بن جَبَل الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، بعثه رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك، قاضياً، ومرشداً لأهل اليمن، واشترك في غزوة الشام، وتوفي عقيماً بناحية الأردن سنة ١٨ هـ. (الإصابة ت ٨٠٣٩، وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦، حلية الأولياء ١ : ٢٢٨).

(٢) اللسان (نفس) وفيه: «تنفس النهار وغيره: امتّد وطال، ويقال للنهار إذا زاد: تنفّس».

(٣) التكوير ٨١ : ١٨، انظر القرطبي ١٩ : ٢٤٠.

(٤) انظر «تلخيص البيان في مجازات القرآن» ص ٣٦٠.

(٥) أخرجه أبو داود رقم ٤٣٧٥، وأخرجه أحمد بن المسند ٦ : ١٨٦، انظر كشف الخفاء ١ : ١٨٣. وقال الماوردي في المراد من عثراتهم، وجهان: أحدهما الصغائر، والثاني أول معصية زلّ فيها مطيع.

« أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَإِنّ أَحَدَهُمْ لَيَعْثُر، وَإِنَّ يَدَهُ بِيَدِ اللَّهِ يَرْفَعُهَا ».

وهذا القول مجاز والمراد بذكر يد الله هاهنا معونة الله ـ تعالى وتقدس ـ ونصرته، فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد: أن أحدهم ليعثر وأن معونة الله من ورائه تُنهضه من سَقْطته وتُقيله من عَثْرته، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لما جاء بلفظ العِثار أخرج الكلام بعده على عرف العادات؛ لأن العادة جارية أن يكون المنهض للعاثر والمقيم للواقع إنما يستنهضه بيده ويستعين عليه بجَلده، والمراد بذي الهيئات هاهنا ذوو الأديان لا ذوو الملابس الحسان، كما يظن من لا علم له؛ لأن هيئة الدين وظاهره أحسن الهيئات والمظاهر وأفخم المعارض والملابس.

[١٩٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« جِبْرَائِيلُ نَامُوسُ اللَّهِ »،

وهذا القول مجاز؛ وأصل الناموس المكان الذي يستجِنُّ فيه الصائد عن الوحش لئلا تراه فتنفر عنه، ومن ذلك سمى من يجعله الإنسان موضع سره ومستودع نَفْثه ناموساً، يقال منه نَمّس يُنَمِّس نمساً ونامسه منامسة[٢]، فكأنه عليه الصلاة والسلام إنما شبهه بذلك لأنه يستخفى بما يؤديه عن الله سبحانه إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أوامر الله التي تقيد القلوب بحبائل الخوف والرجاء وتجتذبها بعلائق الوعد والإيعاد تشبيهاً بالصائد الذي يَخْتِل صيده حتى يصيب غِرّته ويقتحم غفلته، وقد قال بعضهم: إن الناموس في كلام بعض

---

(١) الناموس: صاحب السرّ، أي سر الملك، وعمَّه ابن سيده. وقال أبو عبيد: هو الرجل المطلّع على باطن أمرك المخصوص بما تستره من غيره. (التاج، نمس).

(٢) نَامَسَهُ مُنَامَسَةً ونماساً: سارَّهُ، أي: تكلم معه سراً.

العرب اسم للنمام [1]، فكأن جبرائيل عليه السلام هو الذي يظهر أمر الله لأنبيائه لا على الوجه المذموم الذي يقصده نسان النمام ويعتمده ناقل الكلام.

وقال بعضهم: الناموس من أسماء العِلْمِ [2] فيكون في الخبر إذا حملناه على هذا الوجه تقديرُ مضاف حذف لدلالة الكلام عليه، والحذف: إنما يحسن في الكلام إذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى كقوله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالعِيرَ الّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [3]، فلما كانت القرية، والعِيرُ: لا تُسْأَلان، ولا تجيبان عُلِم أن المطلوب غيرهما وأنه المضاف إليهما، ولا يجوز على هذا جاء زيد وأنت تريد غلام زيد لأن المجيء قد يكون من الغلام كما يكون من صاحب الغلام، فلا دليل في مثل هذا على المحذوف كما كان في الوجه الأول [4].

[٢٠٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [5]:

« بَلَغَنِي عَنْ فُلاَنٍ كلام تَشَذّرَ لِي عَنْ إيعَادٍ ».

---

(١) انظر تاج العروس (نمس). قال الزَّبيدي: «والناموس: النَّمَّام، كالنَّمَّاس، كشداد، وقد نمس، إذا نمّ».

(٢) (الناموس): وعاء العِلْمِ، وضبطت في المطبوعات (العَلَم)، بمعنى الراية، وهو خطأ انظر اللسان، والتاج (نمس).

(٣) الآية ٨٢ من سورة الكهف.

(٤) انظر مجازات القرآن ١٧٣، وتفسير القرطبي ٩: ٢٤٥.

(٥) من أحاديث علي بن أبي طالب (رض)، انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٣: ٤٧٣، وفيه «وقال أبو عبيد: في حديثه عليه السلام، يوم الجمل، وغاب عنه سليمان بن صُرَد، فبلغه عنه قول، فقال سليمان: بلغني عن أمير المؤمنين ذَرْوٌ من قول تشذّر لي به من شتم، وإيعاد فِسْرت إليه جواداً».

- والذِّرْو من الحديث: ما ارتفع إليك، وترامى من حواشيه وأطرافه، من قولهم: ذرا إليّ فلان؛ أي ارتفع وقصد.

فوصْف الكلام بالتشذُّرِ مجاز، وأصل التشذر أن الناقة إذا أُلقحت عَقَدَتْ ذنبها ونصبته على عجزها قال الشاعر[1]:

لَهَـا ذَنَبٌ كـالْقِنْـوِ قَـدْ مَـذِلَتْ بِـهِ   وأَسْمَـحَ لِلتَّخْـطَارِ بَعْـدَ التَّشَـذُّرِ[2]

فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن الكلام الذي سمعه أعرب له عما في ضمنه من الوعيد. كما أن تشذر الناقة بذنبها دليل على لقاح بطنها، ويجوز أن يكون المراد صفة ذلك الكلام بالارتفاع والعلو والاشتطاط والغلو تشبيهاً بذنب الناقة إذا عقدته لاقحة[3] ورفعته شامذة[4].

[٢٠١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

« الإِيمَانُ هَيُوبٌ ».

وفي هذا الكلام مجاز لأن فيه تقدير كلام محذوف، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: « صاحب الإيمان هَيُوبٌ »، والعرب تقول: البَابُ لئيمٌ، أي مُغْلِق الباب دون الأضياف، والمراد أن صاحب الإيمان بما معه من حواجز إيمانه، وبصائر إيقانه يهاب تطرق الحُوب[6] ومواقعة الذنوب، فلا يقدم عليها إقدام المُرْتَكِس الهاوي والضالّ الغاوي.

---

(١) البيت في كتاب «النوادر في اللغة» ص١٨٢ بلا نسبة.

(٢) «التَّشذُّرُ: إذا لقمت الناقةُ عقَدَتْ ذنبها ونَصَبَته على عَجُزِها من التَّخَيُّلِ فذاك التَّشَذُّرُ. والمذل: أن لا تحرك ذنبها».

- القنو: الكباسة، وهي الشمروخ يكون فيه البلح، وأسمع: لان. والتخطار: الضرب يميناً وشمالاً.

(٣) لاقحة، أي رفعت ذنبها حال كونها لاقحة، أي رفعت ذنبها دليلاً على أنها لقحت.

(٤) شمذت الناقة: لقحت فشالت بذنبها.

(٥) قال في التاج (هيب): «وفي حديث عُبَيْد بن عُمَيْر: الإيمان هُيوبٌ، أي يهاب أهله، فَعُولٌ بمعنى مفعول. (انظر الفائق ٤ :١٢٣ (ونسبه لابن عباس (رض) والنهاية ٥ : ٢٨٥ والأساس (هيب)).

(٦) الحوب: الذنب والإثم.

[٢٠٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« **الاستغفارُ مَهْدَمَةٌ[٢] لِلذُّنُوبِ** ».

فوصْفُ الاستغفار بأنه يَهْدِم الذنـوب مجاز، لأن المعـاصي الكثيرة لمـا كانت كالبناء في تراكب أجزائها، واستغلاظ جرابها، كان استغفار النادم وإقلاع النائب، كأنهما هدم لذاك البناء من أساسِه وكَبٌّ له على أم رأسه.

---

(١) أورده السيوطي في الفتح الكبير ١ : ٥٠٦ نقلاً عن مسند الفردوس للديلمي. ولفظه عنده: «الاستغفارُ مَمْحَاةٌ للذنوب».

(٢) المهدمة: مفعلة في الهدم، فهي مصدر ميمي، أي هدم للذنوب.

بسم الله الرحمن الرحيم

[٢٠٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [١] :

« مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيء كأَذَنِهِ [٢] لنبيٍّ يَتَغَنَّى [٣] بالقرآن » .

وهذا القول مجاز، والمراد ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبيٍّ يداوم تلاوة القرآن. فيجعله دأبه وديدنه وهِجِّيراه [٤] وشغله، كما يجعل غيره الغناء مُسْتَرْوَحِ [٥] حزنه ومستفسَح قلبه [٦]، ليس أن هناك غناء به على الحقيقة.

---

(١) رواه البخاري ٩ : ٦٠ ـ ٦١، ومسلم رقم ٧٩٢، وأبو داود رقم ١٤٧٣. والنسائي ٢ : ١٨٠، وهو عندهم: «أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ . قال: ما أَذِنَ الله لشيء، ما أذن لنبي: أن يتغنّى بالقرآن، يجهر به» وله روايات أخر. ورواية الشريف مطابقة لما جاء في صحيح مسلم ٢ : ١٩٢ .

(٢) في بعض المطبوعات: كإذنه، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. (انظر صحيح مسلم ٢ : ١٩٢، واللسان (أذن).

(٣) قال ابن الجوزي: «اختلفوا في معنى قوله «يتغنى » على أربعة أقوال.
أحدهما: تحسين الصوت، والثاني: الاستغناء، والثالث: التحزن، قاله الشافعي والرابع: التشاغل به، تقول العرب: تغني بالمكان : أقام به. انظر تعليق محقق جامع الأصول على هذا الحديث ٢ : ٤٥٥ ـ ٤٥٧.

(٤) الهجّيرى: الدأب والعادة، وما يولع بذكره.

(٥) المستروح: اسم مكان بمعنى الراحة.

(٦) المستفسح: اسم مكان بمعنى الفسحة.

وهذا كما يقول القائل: قد جعل فلان الصوم لذّته، والصلاة طربته، إذا أقامهما مقام شغل غيره باللذّات وطربه إلى المستحسنات. وقد قيل إن المراد بذلك تحزين القراءة ليكون أشجى للسامع، وآخذ بقلب العارف، فسمىٰ هذه الطريقة غناء على الاتساع لأنها تقود أزمّة القلوب، وتستميل نوازع النفوس[1].

وإلى ذلك ذهب عليه الصلاة والسلام بقول: « زَيِّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالقُرْآنِ »[2]، في حديث آخر، وليس المراد بذلك تلحين القراءة وتطريبها، فإن الأخبار قد وردت بذمّ هذه الطريقة، حتى ذكر عليه الصلاة والسلام في أشراط الساعة أموراً عدّدها، ثم قال: « وَأَنْ يُتَّخَذَ القُرآنُ مزامير »[3].

وقال بعضهم: معنى يتغنى بالقرآن، أي يذكر القرآن، من قولهم تغنى فلان بفلان إذا ذكره في شعره إما هجاء وإما مدحاً[4].

فأما الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالْقُرْآنِ »[5]. فليس المراد به هذا المعنى، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام ليس منا من لم يستغن بالقرآن عما سواه، وتغنى هاهنا بمعنى استغنى، وهو تفعل من الاستغناء لا من الغناء.

قال العَجّاج:

أرى الغواني قد غنِينَ عَنّي ... وقلن لي عليك بالتَّغَنّي[6]

(١) انظر فتح الباري ١٠: ٤٤٥.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ١٤٦٨ في الصلاة، ورواه أيضاً النسائي ٢: ١٧٩ و١٨٠ في الصلاة وأخرجه الدارمي ٢: ٤٧٤، وأحمد في المسند ٤: ٢٨٣ ـ ٢٨٥، وابن ماجة رقم ١٣٤٢، وصححه ابن حبان والحاكم.

(٣) رواه أحمد في المسند ٣: ٤٩٤ و٢: ٢٢.

(٤) انظر في ذلك ما قاله ابن حجر ١٠: ٤٤٦ ـ ٤٤٩.

(٥) رواه البخاري ٩: ٦٠ و٦١، ومسلم رقم ٧٩٢، وأخرجه أبو داود رقم ١٤٧١ في الصلاة وأحمد في المسند رقم ١٤٧٦. وابن ماجة رقم ١٣٣٧.

(٦) ديوان العجاج ١: ٢٧٨.

أي استغنين عني وقان لي استغن عنا كما استغنينا عنك.

وهذا عند موت الشباب وانقضاء الآراب[1].

ويؤكد ذلك الحديث الآخرُ وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعطِي أفضل مما أُعطى فقد عظم صغيراً وصغَّر عظيما »[2].

ولو كان المراد بالتغني في هذا الخبر ترجيع الصوت بالقرآن لكان من لم يقصد هذه الطريقة في تلاوته ويعتمدْها في صلاته داخلاً تحت الذم ومقارفاً للذنب؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قال: ليس منا من لم يتغن بالقرآن، فبان أن المراد به الاستغناء لا الغناء.

[٢٠٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« **لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ** »،

وهذا مجاز. وذلك أن العرب كانت إذا قرعتها القوارع ونزلت بها النوازل وحطمتها السنون الحواطم وسُلِبت كرائم اعلاقها من مال مثمّر، أو ولد مُؤَمَّل، أو حميم مُرَجَّب[4]. ألقت الملاوم على الدهر فقالت في كلامها وأسجاعها وأرجازها وأشعارها استقاد[5] منا الدهر، وجار علينا الدهر، ورمانا بسهامه الدهر، كقول القائل منهم وهو عَدِيّ بن زيد[6]:

---

(١) الآراب جمع إرْب. وهي الحاجات.

(٢) انظر كنز العمال ١: ٢٣٥٠. وروايته.

«من قرأ القرآن، فرأى أن من خلق الله أعطي أفضل مما أعطي، فقد صغّر ما عظّم الله وعظّم ما صغر الله».

(٣) رواه البخاري ١٠: ٤٦٥، باب لا تسبوا الدهر، ومسلم رقم ٢٢٤٦، ومالك في الموطأ ٢: ٩٨٤. وأبو داود رقم ٥٢٧٤.

(٤) المرجّب: المعظّم، والحميم: الصديق.

(٥) استقاومنا: أخذ منا القود، وهو القصاص، أو انتقم منا، أو جار علينا.

(٦) عديّ بن زيد العبادي التميمي: شاعر، من دهاة الجاهليين، من أهل الحيرة، ويحسن العربية =

ثم أَمْسَــوْا كـعِبَ الــدَّهْــرُ بِـهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْـرُ يُودِي بـالرِّجَـال[1]

وكقول الآخر[2]:

* أكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرِبْ [3] *

وكقول الآخر[4]:

* وَالدَّهْرُ غَيَّرَنا وَمَا يَتَغَيَّرُ [5] *

والأشعار في ذلك أكثر من أن نحيط بها أو نأتي على جميعها.

فكأنه عليه الصلاة والسلام قال لا تذموا الذي يفعل بكم هذه الأفعال فإن الله سبحانه هو المعطي والمنتزع، والمغيِّر والمرتَجِع، والرائش [6] والهائض [7]، والباسط والقابض، وقد جاء في التنزيل ما هو كشف عن هذا المعنى وهو قوله

= والفارسية، والرمي بالنشاب، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، قتله النعمان في سجنه بالحيرة سنة ٣٥ ق. تقريباً. (الأغاني ٢ : ٩٧، والسمط ١ : ٢٢١، الخزانة ١ : ٣٤٤).

(١) ديوانه: ص ٢٠٢ ويودي بالرجال: يهلكهم.

(٢) هو النابغة الجعدي قيس بن عبدالله، أبو ليلى العامري: شاعر مفلق، صحابي، من المعمرين؛ أدرك صفين، وشهدها مع علي ثم سكن الكوفة، مات في أصبهان، وقد كف بصره، وجاوز المئة، وهو من مخضرمي الجاهلية، والإسلام، وكانت وفاته نحو سنة ٥٠ هـ (الإصابة ت ٨٦٤١، السمط ١ : ٢٤٧، الأغاني ٥ : ١ - ٣٣).

(٣) ديوان النابغة الجعدي ٩٢، وهو فيه:

سألتنــي عن أنــاسٍ هلكوا شربَ الدهــر عليهــم، وأكلْ

انظر (الكامل للمبرد ١ : ٢١٨، ورغبة الآمل ٣ : ٢٥، وانظر المستقصى ٢ : ٢٨٣ ومجمع الامثال ١ : ٥٧، المعاني الكبير ١٢٠٨، الاقتضاب ٢٩١).

(٤) بهجة المجالس ٢ : ٢٣٠، وعيون الأخبار ٢ : ٣٢٣ بلا نسبة.

(٥) وصدره وروايته في بهجة المجالس ٢ : ٢٣٠، وعيون الأخبار.

الدَّهــرُ أبلانــي، ومــا أبليته والدهــر غيرّنــي ومــا يتغيّرُ

(٦) الرائش: أي معطي المال والمتاع؛ لأن الريش هو المال والمتاع.

(٧) هاض العظم يهيضه: إذا كسره بعد أن كان سليماً، والمراد أن الله هو الذي يصيب الناس بالمصائب.

تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1]،

فصرح تعالى بذمهم على اعتقادهم أن الدهر يملِّكهم ويهلكهم ويعطيهم ويسلبهم، ودل بمفهوم الكلام على أنه سبحانه هو المالك للأمور والمصرِّف للدهور.

[٢٠٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« الصَّوْمُ في الشِّتَاءِ الغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ ».

وهذه استعارة. وذلك أنهم يقولون هذه غنيمة باردة إذا حازوها من غير أن يلْقَوا دونها حَرَّ السلاح[3] وألم الجراح، لأنه ليس كل الغنائم كذلك بل في الأكثر لا تكاد تنال إلا باصطلاء نار الحرب ومألم[4] الطعن والضرب، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل صوم الشتاء غنيمة باردة، لأن الصائم يجوز فيه الثواب الجزيل والخير الكثير بلا معاناة مشقة ولا ملاقاة كُلْفة لِقَصر نهاره وعدم أواره[5]، وقد قيل أيضاً إنما وصف الصوم في الشتاء بأنه غنيمة باردة لبَرْد النهار الذي يقع الصيام فيه، وأنه بخلاف نهار الصيف الذي يشتد فيه العطش وتطول المخامص[6]، ويقصر ليله عن القيام بوظائف العبادة التي تُحمد عقبى، وتقرّب إلى الله زلفى.

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الجاثية، وانظر تفسير القرطبي ١٦: ١٧٠ - ١٧٢.

(٢) انظر كنز العمال ٨: ٣٦١٩، وقال العجلوني في كشف الخفاء ٢: ٤٣. «رواه الطبراني بسند فيه ضعيف عن أنس، ورواه الديملي عنه بلفظ: الصوم في الشتاء غنيمة العابدين».

(٣) حرّ السلاح: شدّته من قولهم: استمرّ القتل أي اشتدّ.

(٤) المألم: مصدر ميمي بمعنى الألم.

(٥) الأوار: حرّ النار، والشمس واللهب والعطش.

(٦) المخامص، جمع مخمصة، وهي المجاعة أي الجوع.

والشتاء على خلاف هذه الصفة لقصر نهار الصائم وطول ليل القائم.

[٢٠٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« اتَّقُوا اللَّهَ في النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ في أَيْدِيكُمْ عَوَانٍ

وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام جعل النساء عند أزواجهن بمنزلة الأُسَراء، وذلك لأن المرأة تجري على أحكام الرجل في الصدور والورود، والوقوف، والخُفوف، فهي راسفة في أقياد حصره[٢]، وناشبة[٣] في حبائل نهيه وأمره.

ومن هنا قيل فلانة في حبال فلان إذا كان بعلها، للعلة المقدم ذكرها. والعاني الأسير والجمع عُناة، والأسيرة عانية والجمع عَوَانٍ.

وقد يقال للأسير أيضاً الهَدِيّ. وقال المُتَلمِّس[٤] في قتل عمرو بن هند[٥] طَرَفة بن العبد[٦] بعد أن سجنه زماناً:

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٢١٨، وأبو داود رقم ١٩٠٥ و١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩٠٩. والنسائي ٥: ١٤٣ و١٤٤، وابن ماجة في رقم ٣٠٧٤.

(٢) راسفة: سائرة سيراً غير منطلق، والأقياد جمع قيد.
والحصر: المنع؛ أي أن الرجل يمنع زوجته في الانطلاق في غير ما يراه نافعاً لها، ومصلحاً لأمرها.

(٣) ناشبة: أي داخلة، والحبائل جمع حبالة؛ وهي ما ينصبه الصياد للصيد، والمراد هنا حدود الأمر والنهي.

(٤) هو جرير بن عبد العزّى ـ أو عبد المسيح ـ من ربيعة، الملقب بالمتلمس: شاعر جاهلي، من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد، وكان ينادم عمرو بن هند (ملك العراق) ثم هجاه وفرّ إلى الشام، ومات ببصري نحو سنة ٥٠ ق. ه. (الأغاني ٢٤: ٢٥٩، ومعاهد التنصيص ٢: ٣١٢، المسط ١: ٢٥٠).

(٥) عمرو بن المنذر اللخمي: ملك الحيرة في الجاهلية. عرف بنسبته إلى أمه هند، ويلقب بالمحرّق الثاني، واشتهر في وقائع كثيرة مع الروم والغسانيين، وأهل اليمامة، قتله الشاعر عمرو بن كلثوم؛ أنفة وغضباً لأمه من خبر طويل (سرح العيون ٤٣١ ـ ٤٣٥، والأغاني ٢٢/١٥٦ ـ ١٩٨، والأعلام ٥: ٨٦).

(٦) طَرَفه بن العبد البكري، أبو عمرو: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في بادية البحرين واتصل =

كـطُرَيفَةَ بن العَبْـدِ كـان هَـدِيَّهم ضـربـوا صَميمَ قَـذَالِـهِ بمُهَنَّـدِ[1]

قيل إنما سميت المـرأة المنقولـة إلى زوجها هَـدِيّاً لأنهـا بمنزلـة الأسيرة عنده[2] وقيل: بل سُمِّيت بذلك لأنها تُهْدى إلى زوجها، فهي فعيل في موضع مفعول، فهدِيّ في مكان مَهْدِيّ. يقـال: هَدَيْتُ المـرأة إلى زوجها **أهديها** هِدَاءً[3]، وهو من الهَدَاة وليس من الهَديّة، لأنه لا يقال من الهَدِيّة إلا أهديت. وقد قيل إن في بعض اللغات أَهْدَيْتُ المرأة[4]، واللغة الأولى هي المعتـد بها والمعمول عليها.

[٢٠٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

« **اسْتَعِيذُوا باللَّهِ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إلى طَبَعٍ** ».

وهذا مجاز والمراد أن الطمع يصير بصاحبه إلى معايب الأفعال ومدانسها، ويوقعه في مذامّها ومناقصها. والطَّبَع الدَّنَس والعيب[6].

يقال: فلان طبع كدِنِس وجَشِع. فلما كـانت عواقب الـطمع صـائرة إلى

= بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، قتله المكعبر بأمر من عمرو بن هند نحو سنة ٦٠ ق. هـ تقريباً. (السمط ١: ٣١٩، معاهد التنصيص ١: ٣٦٤، الخزانة ٢: ٣٦٦).

(١) ديوان المتلمس. ص ١٨٧.

(٢) اللسان (هدي).

(٣) اللسان (هدي).

(٤) يقال: هديت المرأة، وأهديتها بمعنى واحد، وهو إهداؤها إلى زوجها.

(٥) رواه أحمد في المسند ٥: ٢٣٢ و٢٤٧، وروايته فيه:

«استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع يهدي إلى غير مطمع، ومن طمـع حيث لا مطمع» وهو عن أبي هريرة. (انظر كنـز العمـال ٣: ٧٥٧٧، الفتـح الـكبير ١: ١٧٩، النهـاية ٣/١٢٢).

(٦) في التاج (طبع): « الطَّبْع، بالكسر: الصدأ يركب الحديد، والـدَّنَس والوسـخ يغشيان السيف، ويحرَّك فيهما، ج أطباع» «ومن المجاز: الطَّبَعَ: الشين والعيب، في دين أو دنيا عن أبي عبيد، وفي الحديث: ««استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع» بينهما جناس تحريف ».

مَدَارانِ[1] الطَّبَع جعل عليه الصلاة والسلام الطَّمَع كأنه هادياً إليها ودليلاً عليها، على المجاز والاتساع.

والطَّبَع على سمعته من شيخنا أبي الفتح النحوي[2] رحمه الله مأخوذ من الطابع، وهو الخاتم كأنه يسم صاحبه بالمعايب ويشهره بالمثالب، فيكون كالخاتم الذي يظهر رسمه ويؤثر وَسْمه.

[٢٠٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث مشهور للرجل الذي تَفَوَّت ابنُه عليه مالَه ففرَّقه وبذّره[3]:

« **أُرْدُدْ عَلَى ابْنِكَ مَالَهُ فإنّما هُوَ سَهْمٌ مِنْ كِنَانَتِكَ** ».

وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل ابن الرجل بمنزلة السهم الذي في كنانته. ولذلك وجهان:

أحدهما: أن يكون إنما شبّهه بالسهم من سهامه، لأن الأب سبب نَشْئه وتربيته ووَلي تثقيفه وتأديبه كما أن النابل[4] باري السهم ورائشه[5] ومثقفه ومقوّمه[6].

---

(١) المدارن: الأوساخ.

(٢) عثمان بن جني الموصلي ـ ٣٩٢ هـ.

(٣) انظر النهاية ٣: ٤٧٧، والتاج (فوت). قال ابن الأثير «هو من الفوت: السبْق، يقال: تَفَوَّت. فلان على فلان في كذا، وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرف فيه، ولما ضُمِّن معنى التغليب عُدِّي بعلى».

والمعنى أن الابن لم يستشر أباه، ولم يستأذنه في هبة مال نفسه...»

ـ وجاءت (تفوّتَ) في بعض الطبقات (يُفَوِّتُ) وهو خطأ، والصحيح وما أثبتناه عن النهاية والتاج.

(٤) النابل: صانع النبل، وهو السهم، ومعنى باري السهم: الذي يبريه، أي يدبب رأسه ويضع فيها النصل.

(٥) رائش السهم: الذي يضع فيه الريش.

(٦) مثقفه هو مقدمه، ومعدله، لأنه عوج.

والوجه الآخر: أن يكون المراد أنه بمنزلة السهم في كنانته من حيث كان في حِضْنه وحاصلاً تحت ضِبْنه[1]، وأنه متى شاء صرّفه في آرائه كما أن صاحب السهم متى شاء رمى به في أغراضه. ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام: « اردد عَلَى ابنك » أي استرجع ما فرَّقه من ماله في وجوه التبذير ومظانّ التبديد فَرُدّه إلى مِلْكه استظهاراً له[2] وإشبالاً له[3]، إذ ليس له أن يفْتَات عليك بمال ولا يعصيك في حال.

[٢٠٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« **الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فأَحَبُّهُمْ إليهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ** ».

أخبرنا بهذا الحديث أبو القاسم عيسىٰ بن عليّ بن عيسى بن داود بن الجراح[5] في جملة ما أخبرنا به من الأحاديث.

قال: حدثنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البَغَويّ[6] في سنة سبع وثلثمائة قال: حدثنا أَحمد بن إبراهيم المَوْصليّ[7] قال: سمعت

---

(١) الضِّبْن: المكان الذي يغطيه العضد من الذراع، أي ما بين الإبط والكشح.

(٢) استظهاراً له: أي تقوِيَةِ الابن قوة للأب.

(٣) الإشبال: العطف والإعانة.

(٤) انظر كنز العمال ٦: ١٦١٧١ و١٦٠٥٦ و١٦١٧٠، والفتح الكبير ٢: ١٠٥، وكشف الخفاء ١: ٤٥٧.

(٥) عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو القاسم: كاتب عارف بعلوم الأوائل، من أهل بغداد، وبها مات سنة ٣٩١ هـ. (السير ١٦: ٥٤٩، تاريخ بغداد ١١: ١٧٩، ميزان الأعتدال ٣: ٣١٩، الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٦).

(٦) عبدالله بن محمد بن عبد العزيز المرزبان، أبو القاسم البَغَويّ: حافظ للحديث من العلماء، وكان محدث العراق في عصره، مولده ووفاته في بغداد سنة ٣١٧ هـ. (تاريخ بغداد ١٠: ١١١، لسان الميزان ٣: ٣٣٨، تذكرة الحفاظ ٢: ٢٤٧، معجم البلدان ١: ٤٦٧ بغشور (لأن أصله منها، وهي بين هراة ومرو الروذ، والنسبة إليها بغوي).

(٧) أحمد بن إبراهيم بن خالد، أبو علي الموصلي: حافظ للحديث، إمام ثقة، وكان ظاهر الصلاح =

المأمون في الشَّمّاسيَّة[1]، وقد أجرى الحَلْبة[2]، فجعل ينظر إلى كثرة الناس، فقال ليحيى بن أكثم[3]: أما ترى إلى هذه الأمم، ثم قال: حدثنا يوسف بن عطية[4] عن ثابت[5] عن أنس[6] أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

وقد حدثنا بهذا الحديث أيضاً سهل بن أحمد بن عبدالله بن سهل الدِّيباجيّ[7] عن محمد بن يحيى الصُّولي[8] فيما صنّفه مما رضيه خلفاء بني العباس من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام على خلاف هذه الحكاية.

وهذا القول مجاز لأن عِيال الإنسان من يَعُوله[9] ثِقَلهم ويَهُمَّه أمرهم،

= والفضل، كثير الحديث، مات سنة ٢٣٦ هـ. (تاريخ بغداد ٤ : ٥، تهذيب التهذيب ١ : ٩، السير ١١ : ٣٥).

(١) الشَّمَّاسيَّة: مكان في بغداد، معجم البلدان ٣ : ٣٦١ (الشمّاسيّة).

(٢) الحلْبة: خيل تجمع للسباق من كحلّ أوبٍ، والمراد هنا الخيل التي تجري فيها.

(٣) يحي بن أكثم التميمي الأسيدي المروزي؛ أبو محمد: قاض من نبلاء الفقهاء، علا شأنه أيام المأمون ت ٢٤٢ هـ. (التاريخ الكبير ٨ : ٢٦٣، تاريخ بغداد ١٤ : ١٩١، طبقات المفسرين ٢ : ٣٦٢).

(٤) يوسف بن عطية بن ثابت الصفار الأنصاري السعدي مولاهم، أبو سهل البصري الجفري: محدث، مات سنة ١٨٧ هـ، قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك (تهذيب التهذيب ١١ : ٤١٨، والميزان ٤ : ٤٦٨، التاريخ الكبير ٨ : ٣٨٧.

(٥) ثابت بن أسلم، أبو محمد البُناني، مولاهم البصري: الإمام القدوة، شيخ الإسلام، وكان من أئمة العلم والعمل، والعباد الزاهدين، مات سنة ١٢٧ هـ. (تهذيب التهذيب ٢ : ٢، حلية الأولياء ٣ : ١٨٠، السير ٥ : ٢٢٠).

(٦) أنس بن مالك البخاري الخزرجي الأنصاري، صاحب رسول الله وخادمه - ٩٣ هـ.

(٧) سهل بن أحمد بن عبدالله بن سهل الديباجي، أبو محمد البغدادي: محدث، وكان رافضياً كذاباً زنديقاً، مات سنة ٣٨٠ هـ. (الأنساب ٥ : ٣٩٢، لسان الميزان ٣ : ١١٧).

(٨) محمد بن يحيى بن عبدالله، أبو بكر الصولي، ويعرف بالشطرنجي: نديم، من أكابر علماء الأدب توفي في البصرة سنة ٣٣٥ هـ. (تاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧، لسان الميزان ٥ : ٤٢٧، نزهة الألبا ٢٧٣).

(٩) لأنه يقوم بما يحتاجون إليه من طعام وكساء وغيرها.

والله سبحانه وتعالى لا تَؤده[1] الأثقال ولا تهمه الأحوال، ولكنه سبحانه وتعالى لما كان متكفلاً بمصالح عباده يدِرّ عليهم حَلَب الأرزاق ويَلُمّ لهم شَعَث الأحوال، ويعود عليهم بمرافق الأبدان، ومراشد الأديان شبهوا من هذه الوجوه بالعيال الذين في ضمان العائل، وكفاية الكافل. على طريق الاتساع، وعلى معارف العادات.

[٢١٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« الخمرُ أُمُّ الخبائث، ومَنْ شَرِبَها لم يَقْبَلِ اللَّهُ منه صلاةً أربعين يَوْماً، فإن ماتَ وهي في بطنه مات مِيتَةً جاهلِيَّةً ».

سمعنا هذا الحديث عن عمر بن إبراهيم بن أحمد المقْرِيء أبو حفص الكَتَّانيّ[3] **في جملة ما رواه لنا من الأحاديث قال: حدثنا أبو بكر النَّيْسابوري قال: حدثنا عليّ بن إشْكاب**[4] قال:

حدثنا محمد بن ربيعة[5] قال: حدثنا الحكم بن عبد الرحمن بن أبي

---

(١) أي لا تتعبه الأثقال، يقال: آده الأمر أوداً: بلغ منه المجهود.

(٢) انظر كنز العمال ٥ : ١٣٢٤٦ و١٣١٨٣، الفتح الكبير ٢ : ١٠٦، كشف الخفاء ١ : ٤٥٩ و٤٦٠).

(٣) عمر بن إبراهيم بن أحمد بن كثير الكَتَّاني، أبو حفص البغدادي: مقرىء، محدث، من أهل بغداد، قال الخطيب البغدادي عنه: ثقة توفي سنة ٣٩٠ هـ.

(تاريخ بغداد ١١ : ٢٦٩، غاية النهاية ١ : ٥٨٧، معرفة القراء الكبار ١ : ٣٥٦) - وتصحّف الاسم في المطبوعة إلى (ابن حفص الكِناني - بالنون) وهو خطأ صوابه ما أثبتناه.

(٤) عليّ بن إشْكاب، أبو الحسن البغدادي: محدث فاضل متقن مات سنة ٢٦١ هـ. (تاريخ بغداد ١١ : ٣٩٢، تهذيب التهذيب ٧ : ٣٠٢، السير ١٢ : ٣٥٢)

(٥) محمد بن ربيعة، أبو عبدالله الكلابي: محدث ثقة صدوق، قال يحيى بن معين: محمد بن ربيعة الكلابي ثقة صدوق، وقال غيره: صالح الحديث. (الجرح والتعديل ٧ : ٢٥٢، والمغني في الضعفاء ٢ : ٥٧٩).

نُعْم[1] عن [عباده بن[2]] الوليد بن عُبَادة[3] قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص[4] يقول: قـال رسول الله صلى الله عليـه وآله: « الخمـر أمّ الخبائث » وذكر ما في الحديث وهذه استعارة وإنما سماها عليه الصلاة والسلام أمّ الخبائث على تغليظ النهي عن شربها وتعظيم قدر العقاب عليها، فكأنها جِماع الخبائث المردية، ومعظم الذنوب المُوبقة، كما أن الأمّ جامعة لأولادها، ومتقدّمة عليهم بميلادها، والفائدة في تقديمها على غيرها من المعاصي أن الأغلب في شربها أن يكون طريقاً إلى ارتكاب الكبائر وجرّ الجرائر، فإن السكران قد يحمله سكره على القذف والافتراء، وإراقة الدماء، واستحلال الفروج والأموال، وغيـر ذلك من مقاحم[5] الذنوب ومعاظم العيوب، وكُلُّ هذا فالسكر من أقوى أسبابه وأقرب أبوابه.

[٢١١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6] :

« كُلُّ أَمْرٍ ذي بالٍ لا يُبْدَأُ فيه بحمد اللّه أقطعُ ».

وحدثنا بهذا الحديث عمرُ بنُ إبراهيمَ أبو حفصٍ المقريء قال: حدثنا أبو

---

(١) الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعْم البَجَليّ الكوفي؛ من رجال الحديث، قال عنه النبي ابن معين: ضعيف، وقال غيره: صالح الحديث. (الجرح والتعديل ٣: ١٢٣، المغني في الضعفاء ١: ١٨٤). وكان اسمه في الطبعات السابقة (ابن أبي نُعَيْم) وهو خطأ صوابه ما أثبتناه.

(٢) زيادة من الجرح والتعديل ٣: ١٢٣.

(٣) عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، أبو الصامت الأنصاري: فقيه، محدث حجّة، قال الذهبي: وثقة أبو زرعة. (تاريخ البخاري ٦: ٩٤، الجرح والتعديل ٦: ٩٦، تهذيب التهـذيب ٥: ١١٤، السير ٥: ١٠٧).

(٤) عبدالله بن عمرو بن العاص القرشي: صحابي، من النساك، من أهل مكة توفـي سنـة ٦٥ هـ. (الإصابة ٤٨٣٨، حلية الأولياء ١: ٢٨٣، البدء والتاريخ ٥: ١٠٧).

(٥) المقاحم جمع مقحمة: وهي مهالك الذنوب.

(٦) أخرجه أبو داود رقم ٤٨٤٠، ورواه ابن ماجة رقم ١٨٩٤، وأحمد في المسند ٢: ٣٥٩، وابن علان ٣: ٢٨٨ و٦: ٦٣.

القاسم عبدُالله بنُ محمدٍ البَغَويّ ابن بنتِ مَنِيْع [١] قال: حدثنا داودُ بنُ رُشَيْد [٢] قال: حدثنا الوليدُ بنُ مسلمٍ [٣] عن الأوزاعيّ [٤] عن قُرَّةَ [٥] عن ابن شِهابٍ [٦] عن أبي سَلَمةَ [٧] عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ صلى اللّهُ عليه وآله: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأُ فيه بحمد الله أقطعُ».

وهذا القولُ مجازٌ وإنما شَبَّهَ عليه الصلاةُ والسلامُ الأمرَ الذي تَهُمُّ الإفاضةَ فيه وتَمَسُّ الحاجةَ إلى الكلامِ عليه إذا لم ينظر فيه حمد الله سبحانه وتعالى، بالأقطعِ اليدِ من حيثُ كان قالصاً [٨] عن السبوغِ وناقصاً عن البلوغِ، ومما يقوّي ذلك ما رواه أبو هريرةَ أيضاً قال: قال عليه الصلاةُ والسلامُ [٩] : **«الخُطْبة**

---

(١) انظر: السير ١٤: ٤٤١.

(٢) داود بن رُشَيْد، أبو الفضل الخوارزمي البغدادي: إمام، حافظ، ثقة، توفي سنة ٢٣٩ هـ (تاريخ بغداد ٨: ٣٦٧، تهذيب التهذيب ٣: ١٨٤، السير ١١: ١٣٣).

(٣) الوليد بن مسلم الأموي بالولاء، الدمشقي، أبو العباس: عالم الشام في عصره، من حفاظ الحديث توفي سنة ١٩٥ هـ. (تذكرة الحفاظ ١: ٢٧٨، تهذيب التهذيب ١١: ١٥١، وغاية النهاية ٢: ٣٦٠).

(٤) عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، توفي ببيروت ١٥٧ هـ. (وفيات الأعيان ٣: ١٢٧، حلية الأولياء ٦: ١٣٥، العبر ١: ٢٢٧).

(٥) قرّة بن خالد، أبو خالد، ويقال: أبو محمد السدوسي البصري: جافظ، حجّة، ثقة مات سنة أربع وخمسين ومئة (١٥٤ هـ) (الجرح والتعديل ٧: ١٣٠ تهذيب التهذيب ٨: ٣٧١، السير ٧: ٩٥.

(٦) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزُّهْري القرشي، أبو بكر: أول من دّون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، مات بشَغْب، أخرجه الجماز، وأول حدّ فلسطين سنة ١٢٤ هـ. (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧، والجرح والتعديل ٨: ٧١، السير ٥: ٣٢٦).

(٧) عبدالله بن عبد الرحمن بن عوف، أبو سلمة القرشي الزهريّ: حافظ، محدث ثقة وأحد الأعلام بالمدينة، توفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ (طبقات ابن سعد ٥: ١٥٥، تهذيب التهذيب ١٢: ١١٥، السير ٤: ٢٨٧).

(٨) قلصت شفته: إذا قصرت وانكمشت، ومعنى قالصاً هنا: قاصراً. والسبوغ: الشمول والستر.

(٩) أخرجه الترمذي رقم ١١٠٦ في النكاح، ورواه أيضاً أبو داود رقم ٤٨٤١ في الأدب، وابن حبان في صحيحه رقم ٥٧٩ موارد، وقال الترمذي: حديث حسن، وهو كما قال.

التي ليس فيها شهادةٌ كاليدِ **الجَذْماءِ**»[1] فأقام عليه الصلاةُ والسلامُ نقصانَ الخُطْبةِ مُقامَ نقصانِ الخِلْقَةِ.

ومما يُشبهُ هذا الخبرَ الحديثُ الآخرُ الذي ذكره أبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سَلّامٍ[2] في كتابه: [غريب الحديث]، وهو قوله عليه الصلاة والسلام[3]: « من تعلم القرآنَ ثم نسيه لقي اللّهَ سبحانه وهو أجذمُ » قال: والأجذمُ المقطوعُ اليدِ[4]، واستشهدَ على ذلك بقولِ الشاعرِ[5]:

وما كنتُ إلاّ مِثْلَ قاطعِ كَفِّه   بكَفٍّ له أخرى فأصبح أجذما[6]

واعترض هذا القولَ عبدُاللَّهِ بنُ مسلمِ بنِ قتيبةَ[7] قادحاً فيه وطاعناً عليه، فقال: إنما أُتيَ أبو عُبيدٍ في فسادِ هذا التفسيرِ من قِبَلِ البيتِ الذي استشهده، وليس كلُّ أجذمَ أقطعَ اليدِ وإذا نحن حملنا الحديثَ على ما ذهبَ إليه أبو عبيدٍ رأينا عقوبةَ الذنبِ لا تُشاكلُ الذنبَ لأنَّ اليدَ لا سبَب لها في نسيانِ القرآنِ والعقوباتُ من الله سبحانَه وتعالى تكونُ بحسبِ الذنوبِ كقوله تعالى وتقدَّسَ:

---

(١) اليد الجذماء: التي ذهبت أناملها.

(٢) القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي، بالولاء، الخراساني البغدادي، أبو عبيد، من كبار العلماء بالحديث، والأدب والفقه، من أهل هراة، ولد وتعلم بها، ورحل إلى بغداد ومصر، وحج فتوفي بمكة سنة ٢٢٤ هـ. (تاريخ بغداد ١٢: ٤٠٣، نزهة الألباء ١٣٦، تهذيب التهذيب ٧: ٣١٥).

(٣) غريب الحديث ٣: ٤٨ و٤٩.
وانظر الدارمي (فضائل القرآن، ٣) والمسند ٥: ٢٨٤ و٢٨٥ و٣٢٣ و٣٢٨.

(٤) انظر غريب الحديث ٣: ٤٨.

(٥) هو المتلمس.

(٦) ديوان المتلمس.

(٧) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد: من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين، ولد ببغداد، وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب، إليها وتوفي في بغداد سنة ٢٧٦ هـ. (نزهة الألبا ٢٠٩، لسان الميزان ٣: ٣٥٧، إنباه الرواة ٢: ١٤٣).

﴿ الَّـذِين يَأْكُلُونَ الـرِّبَا لَا يَقُـومُونَ إلّا كما يَقُـومُ الَّـذِي يَتَخبَّـطُهُ الشَّيْـطَانُ مِنَ المسِّ ﴾[1] .

يريد أن الربا الذي أكلوه أثقلَ بطونَهم ، فهم يقومون ويسقطونَ كما يصيب من يتخبطُه الشيطانُ ، ويقول رسولُ اللّٰهِ صلى الله عليه وآله[2] :

« رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي قوماً تُقرَضُ شفـاهُهُمْ بالمقـاريضِ كلما قُـرضت وَفَتْ[3] ، فقال جبرائيل : هؤلاء خطباءُ أمتِك الذين يقولـون ما لا يفعلون لأنهم قالوا بأفواههم فَعُوقِبُوا فيها » .

ومثلُ هذا كثيرٌ قال : والأجذم ههنا المجذومُ[4] يُقالُ : رجـلٌ أجذمُ وقـومٌ جُذَماءُ مثلُ : أحمقَ وحمقاءَ ، وأَنْوكَ[5] ونوكـاءَ ، إلا أن يكونَ رُويَ في حـديث آخرَ : « أنه يُحشرُ أقطعَ اليد » ، أو ما يدلُّ على ذلك فيقـع التسليمُ منا . وإنمـا سُميَ من به هذا الداءُ أجذمَ لأنـه يَقطع أصـابع يـديه وينقص خلقـه ، والجذمُ القطعُ ، وكلُّ شيءٍ قطعته فقد جذمته وجذوته ولهذا قيل للمقطوع اليـدِ أجذمُ ، كما قيل له أقطعُ ، وهذا أشبهُ بالعقوبة ، لأن القرآنَ كان يدفعُ عن جسمِه كلمـةَ العاهةِ ويحفظُ عليه الصحةَ ، ولما نسيه فارقه ذلك ، فنالته الآفةُ في جميعـهِ ولا داءَ أشملُ للبدن من الجذام ولا أفسدُ للخلقة . انقضى كلامُ ابنِ قتيبةَ .

قلت أنا : وقد خَلَّطَ هذا الرجلُ في اعتراضِهِ هذا تخليطاً كثيراً ، لأنه أنكر غيرَ مُنْكَرٍ وطعنَ في غير مطعنٍ . وذلك أن أبا عبيدٍ إنما فسرَ الأجذمَ في الحديثِ بأنه مقطوعُ اليدِ على أصلٍ صحيـح ، وهو ما ذكرناه في الخبرِ الأولِ من أن

---

(١) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة . وانظر تفسير القرطبي ٣ : ٣٤٨ .

(٢) رواه أحمد في المسند ٣ : ١٢٠ و٢٣١ و٢٣٩ من حديث أنس بن مالك ، ورواه أيضاً ابن حبان في صحيحه ، وهو رواية حسنة ، وانظر الفائق والنهاية .

(٣) وَفَتْ : أي تمت وطالت .

(٤) المجذوم : هو المصاب بداء الجذام ، وهو مرض يسود منه العضو ثم يسقط .

(٥) الأَنْوك : الأحمق ، والجمع نوكى مثل سكرى .

الأقطعَ هناكَ كالأجذمِ ها هنا. والمرادُ به أنه يلقىٰ الله تعالى بعد نسيانِ القرآن ناقصاً بعد تمامِهِ كالذي قطعت يدُه فظهرت نقيصةُ أعضائِهِ، وإنْ كان أبو عبيدٍ لم يبينْ هذا البيانَ، فإنه لم يرِدْ غيرَ هذا المرادِ.

وأما قولُ ابنِ قتيبةَ: إنّ عقوبةَ الذنبِ يجبُ أن تكونَ مشاكلةً للذنبِ، وتعلقُهُ بالمثلين اللذينِ أوردَهما فقد غلطَ فيما ظَنَّهُ ووَهِمَ فيما توهَمَهُ، لأن العقوباتِ لا يجب أن تكونَ مقصورةً على الأعضاءِ المباشرةِ للذنوبِ.

وإنما المعاقبُ بها جملةُ الإنسانِ ولو كان الأمرُ على ما ظَنَّهُ لكانَ الزاني، إذا زنىٰ غيرَ مُحْصَنٍ يُضرَبُ ذَكَرُهُ، والقاذفُ إذا قَذَفَ يُجلدُ لسانُهُ لأنهما واقَعا المعصيةَ وباشرا الخطيئةَ.

فلما رأينا هذينِ المذنبينِ يُعاقَبُ منهما غيرُ المواضعِ التي باشرت الذنبَ وواقعت الجُرْمَ علمنا أنْ المقصودَ بالعقوبةِ جملةُ الإنسانِ دونَ أعضاءِ الجسمِ، فأما يدُ السارقِ فلم تكن علّةُ قطعِها أنه باشر بها السرقةَ، ألا ترى أنه لو دخل حرزاً فأخرجَ منه بفمِهِ، دونَ يدِهِ ما يجبُ في مثلِهِ القطعُ فقطعت يدُهُ، ولم يعتبر أخذُهُ الشيءَ المسروقَ بفمِهِ. وأيضاً فلو أخذ في أولِ مرةٍ بيده اليسرى قُطعتْ يدُهُ اليمنىٰ، وإذا سرق ثانيةً بعدَ قطعِ يدِهِ اليمنىٰ قطعتْ رجلُهُ اليسرى ولم تقطع يدُهُ اليسرى وإن باشر السرقةَ بها. وذلك على مذهبِ من يرى استيفاءَ الأعضاءِ الأربعةِ في تكريرِ السرقةِ وهو مذهبُ الشافعيّ، **فبانَ أنه لا يعتبرُ بقطعِ ما باشرَ أخذَ** السرقةِ من أعضاءِ الإنسانِ وسقط ما اعتمد عليه ابنُ قتيبةَ من تشقيقِ[1] الكلامِ.

[٢١٢] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ حينَ قال له حُذَيفةُ بنُ اليَمانِ[2] وقد ذكرَ الفتنَ[3]: « **أفبَعْدَ هذا الشرّ خيرٌ يا رسولَ الله؟ فقال: هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ وجَمَاعةٌ على أَقْذَاءٍ** ».

---

(١) شقق الكلام: أخرجه احسن مخرج وإن لم يكن صحيحاً في نفسه.

(٢) حذيفة بن اليمان: من نجباء أصحاب محمد، وهو صاحب سرّ النبي ﷺ الذي لا يعلمه أحد غيره، =

وفي هذا الكلامِ استعارتانِ إحداهما قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: « هُدْنَةٌ على دَخَنٍ »، وقيل: إن الدَخَنَ في الأصلِ اسمٌ للونِ الذي فيه كُدورةٌ، والصحيحُ أنه مأخوذٌ من الدخانِ للكدرِ أجزائِهِ وارتدادِ ألوانِهِ، فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ شَبَّهَ الهُدْنة التي تؤذنُ بالفتنةِ والسِّلْمِ الذي تنكشفُ عن المحاربةِ بالدخانِ الذي تؤذنُ سواطعُهُ[1] بالنارِ الموقدةِ، وتجلّى عن الجواحِمِ[2] المتضرّمةِ، ويقال: دُخانٌ ودَواخنُ وعثانٌ[3] وعواثنُ، وهما جمعانِ على غيرِ القياسِ[4].

ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالدَّخَنِ ها هنا قَسْطَلُ الحربِ[5] لأنه يشبهُ الدخانَ في الحقيقةِ، فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ قال: هدنةٌ تنكشفُ عن رَهَجِ القِراعِ[6] وغُبارِ المِصَاعِ[7]. وإنما قال: على دَخَنٍ: أي إن تلك الهدنةَ كأنها غطاءٌ تحتَهُ هَيْعةُ الحربِ[8] وزلزالُ الخطبِ، وليس باطنُها كظاهرِها وشاهدُها كغائبِها.

= وكان النبي قد أسرّ إلى حذيفة أسماء المنافقين، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة، ولاه عمر إمرة المدائن فبقي عليها، إلى بعد مقتل عثمان، ومات بالمدائن سنة ٣٦ هـ. وقد شاخ. (أسد الغابة ١ : ٤٦٨، الإصابة ٢ : ٢٢٣، السير ٢ : ٣٦١).

(٣) انظر الفائق للزمخشري، والنهاية لابن الأثير (هدن) و (قذا) و (دخن) وغريب الحديث ٢ : ٢٦٢ و٢٦٣، وأبو داود رقم ٤٢٤٦، والمسند ٥ : ٣٨٦. وقال ابن الأثير: الأقذاء: جمع قَذىً، والقذى: جمع قذاة، وهو ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن، أو وسخ، أو غير ذلك، أراد اجتماعهم يكون على فساد في قلوبهم، فشبّهه بقذى العين، والماء والشراب.

(١) السواطع، جمع ساطعة: أي المرتفعات من قطع الدخان، يقال: سطع الغبار إذا ارتفع.

(٢) الجواحم جمع جحيم: وهي النار الشديدة التأجج، والمتضرمة: الشديدة الاشتعال.

(٣) العثان: الدخان.

(٤) انظر شرح الشافية ٢ : ١٢٩، وانظر اللسان، والتاج (عثن).

(٥) قسطل الحرب: غبار الحرب.

(٦) الرهج: الغبار، والقراع: المقارعة والمضاربة.

(٧) المصاع: النزال والمحاربة.

(٨) هيعة الحرب: أصواتها المفزعة.

والاستعارةُ الأخرى قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ « وَجماعَـةُ علىٰ الأقذاءِ » فكأنه صلّى الله عليه وآله شبّه الاجتماعَ على فسادِ الغيوبِ[1] وتغلّلِ[2] القلوبِ بالعينِ المغضيةِ علىٰ الداءِ المُغْمَضةِ علىٰ الأقـذاءِ. فالظاهرُ سليمٌ، والباطنُ سقيمٌ.

وفي رواية أخرى زيادةٌ في هذا الحديثِ فيها مجازٌ آخرُ، وهي قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[3]: « وَفِتْنَةٌ عمياءُ صَمَّاءُ وَدُعاةُ ضَلَالَةٍ عَلَى أبوابِ جَهَنَّمَ مَنْ أجَابَهُمْ قَذَفُوه فيها ».

فوصْفُ الفتنةِ بالعماءِ والصممِ مجازٌ، والمراد أن أهلَها عُمى عن المراشدِ صُمٌّ عن المواعِظ، فلما كانت الفتنةُ سبباً لعماهُم وصممِهم جاز أن ينسبَ العمىٰ والصممُ إليها دونَهم.

وقد يجوزُ أيضاً أن يكونَ المرادُ أنها تُعْمِي الأبصارَ برهجِ غبارِها وتُصمُّ الأسماعَ بزَجَلِ أصواتِها والقولُ الأولُ أقربُ إلى الصوابِ وأشبهُ بمقاصدِ الكلامِ.

[٢١٣] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ لرجل حَلَبَ ناقةً[4]:

« دَعْ دَاعِي اللَّبَنِ » وهذه استعارةٌ، والمرادُ أمرُهُ أن يُبْقيَ في خِلْفِ[5] الناقةِ

---

(١) الغيوب: الشكوك، كأن كل واحد من المجتمعين يشك في صاحبه، ولا يأمن له. وهذا سبب الفساد، فلذلك قال الشريف على فساد الشكوك.

(٢) تغلل القلوب: امتلاؤها بالحقد حتى يكاد يؤثر فيها.

(٣) رواه أبو داود رقم ٤٢٤٦ (٤: ٩٦) و٤٢٤٤ و٤٢٤٧. انظر أيضاً البخاري ١١: ٣٠ و٣١ في الفتن، ومسلم رقم ١٨٤٧ في الإمارة، وأحمد في المسند ٥: ٣٨٦.

(٤) انظر كنز العمال ١٥: ٤١٦٥٥ و٤١٦٧١ و٤٢٠٤٥، الفتح الكبير ٢: ١١١ عن ضرار بن الأزور.

(٥) خِلْفُ الناقة: ثديها.

شيئاً من لبنها من غير أن يستفرغ جميعَهُ لأن ما يَبْقىٰ منه يَسْتنزِلُ عُفافتَها[1] ويستجمّ[2] دِرّتَها.

فكأنه يدعو بقيةَ اللبنِ إليه ويكون كالمثابةِ له، وإذا استنفذَ الحالبُ ما في الخِلْفِ أبطأ غَزْرُهُ[3]، وقلص دَرُّه[4].

[٢١٤] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[5]

« ما نزل من القرآن آية إلا وَلَها ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، ولِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ، وَلِكلِّ حَدٍّ مُطَّلَعٌ »[6].

وفي هذا الكلام استعارتانِ: إحداهما قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: « ما نَزَل من القرآنِ آيةٌ إلا ولها ظهرٌ وبطنٌ ».

وقد قيل في ذلك أقوال: منها أن يكونَ المرادُ أن القرآنَ يتقلبُ وجوهاً ويحتملُ من التأويلاتِ ضروباً كما وصفه أميرُ المؤمنينَ عليٌّ عليه السلامُ في كلامٍ له، فقال: القرآنُ حَمّالٌ ذو وجوه[7]، أي يحتمل التصريفَ على

---

(١) العفافة: بقية اللبن في الضرع بعدما حلب أكثره.

(٢) يستحم درتها: يكثر إدرارها، وإنزالها اللبن.

(٣) الغزر: الكثرة.

(٤) قلص: قلّ، والدر: نزول اللبن في الضرع.

(٥) انظر غريب الحديث للهروي ٢: ١٢، والتاج (ظهر) و (طلع)، والنهاية (حدًّ) و(طلع).
قال ابن الأثير: أي لكل مصعد يصعد إليه من معرفة علمه، وقيل معناه: إن لكل حد منتهكاً ينتهكه. مرتكبه: أي أن الله عز وجل لم يحرم حرمة إلا علم أن سيطّلعها مستطلع.
وقال الزبيدي: قيل الظهر: الحديث والخبر، والبطن: ما فيه من الوعظ والتخدير والتنبيه. وقيل في تفسيره قوله: لها ظهر وبطن، قيل: ظهرها: لفظها، وبطنها: معناها.

(٦) تحرفت في المطبوعات إلى (مقطع) وهو خطأ واضح، وجهل فاضح، صوابه ما أثبتناه.

(٧) في النهاية (حمل): «وفي حديث علي: لا تناظروهم بالقرآن فإنه حَمّال ذو وجوه». أي: يُحمْل عليه كل تأويل فيحتمله. وذو وجوه: أي ذو معان مختلفة.

التأويلاتِ والحملَ على الوجوهِ المختلفاتِ، وقد ذكرنا هذا الكلامَ في كتابنا الموسوم بنهج البلاغة.

ومن ذلك قولُ القائلِ: قلبتُ أمري ظهراً لبطن[1]: أي صرفتُهُ وأدرتُهُ ليبينَ لي منه وجهُ الرأيِ فأتبعُهُ، وطريقُ الرشدِ فأقصدُهُ.

وأنشدنا أبو الفتحِ النحويُ رحمه الله قولَ الشاعرِ[2]:

أمـا تـرَانِي قـالبـاً مِجَنِّـى أَقْلِبُ أمْـرِي ظَهْـرُهُ لـلِبَـطْنِ

قَدْ قَتَلَ اللَّهُ زِياداً عَنِّى[3]

وكان رحمه اللَّهُ يقولُ في قولِه: «قد قَتَلَ اللَّهُ زياداً عني» سرٌّ لطيفٌ، وهو أنه أقامَ قتلَهُ مُقامَ عَزلَه فكأنه قال قد عزلَ اللَّهُ زياداً عنى لأنه إذا قُتِل فقد زال سلطانُه وأُمِنَتْ سَطَوَاتُهُ.

وقال آخرون: الظهرُ تنزيلُ القرآنِ وكلامُهُ، والبطنُ تأويلُهُ وإحكامُهُ. وقال بعضُهمْ: معنى الظهرِ ها هنا ما قصّه اللَّهُ سبحانَه علينا في القرآنِ من أنباءِ القرونِ وأخبارِ الملوكِ وما أوقعَهُ بهم من سطواتِهِ وأنزلَه بهم من نقماتِهِ لمّا جمحوا في أعنةِ الطغيانِ وأَبْعدوا في مذاهبِ البغي والعدوانِ. وجميعُ ذلك أحاديثُ قصَّها سبحانه علينا، فهي في الظاهرِ أخبارٌ منه لنا. وأما المرادُ بالباطنِ

---

(١) انظر أساس البلاغة، والتاج (ظهر).

(٢) هو الفرزدق، وقد سبق التعريف به.

(٣) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٨٨١، وليس فيه البيت الثاني.

والأشموني ٢ : ٩٥، والمغني ٨٩٩، وشرح أبياته للبغدادي ٨ : ٨٦. واللسان (قتل)، والتاج (ظهر وفي المحتسب ١ : ٥٢ برواية قالياً، بالياء بدل الباء. وانظر أيضاً التمام ١٩٧، والخصائص ٢ : ٣٠٩ و٣١٠.

ـ وجاء في المطبوعات: (قِبل، بالباء) وهو خطأ واضح. والبيت الأخير من شواهد النحاة على تعديه قَتَل بعن لأن فيه معنى صرف فكأنه قال: قد صرف الله زياداً، وقوله: قالباً مجني أي أفعل ما شئت لا أتروّع، ولا أتوقع.

فإنه سبحانه جعل تلك الأنباءَ المقصوصةَ والامثالَ المضروبةَ عظةً ينبّهُ بها على طريقِ الرشدِ، ويحذّرُ معها مصارعَ البغي ، فيُتَنَاهى عما كان السببُ في إهلاكِ القرونِ الماضيةِ والامم الخاليةِ. وذلك مَثَلُ مخبرٍ أخبرنا عن إيقاع السلطانِ بجماعةٍ من الجناةِ. فقومٌ قتلهم لمّا قتلوا، وقومٌ قطعهم لما سرقوا، وقوم جَلَدَهُم لما سكِروا، فظاهُر ذلك أنه أنقالٌ[1] لنا عن هذه الأفعالِ الواقعةِ بمستحقيها من الحياة، والباطنُ أنه وعظٌ وتنبيهٌ لعقولنا على أن مَنْ أَقدمَ منا على مثل تلك المحظوراتِ أُنزل به مثلُ تلك العقوباتِ. وقد مضى فيما تقدّمَ من كتابنا هذا كلامٌ مختصرٌ على نظيرٍ لهذا الخبرِ[2] إلا أننا في هذا الموضعِ شرحنا ذلك فضلَ شرحٍ وبسطناه فضلَ بسطٍ.

و[الاستعارة الأخرى] قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: « وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ وَلِكُلِّ حَدٍّ مُطَّلَعٌ ».

قال بعضُهم، معنى المطلِع ها هنا قومٌ يعملونَ به، ورُوي عن عبدالله بن مسعود[3] أنه قال: ما من حرفٍ أو قال آيةٍ إلا وقد عمل بها قومٌ، اوْلَها قومٌ سيعملون بها. وقال بعضهم: المراد بالمطلع ها هنا المأتى الذي يؤتىٰ منه حتى يُعلَم تأويلُ القرآنِ من جهتِهِ.

وقال بعضُهم: المطلعُ هو المُنْحَدَرُ من المكانِ المُشْرِف إلى المكانِ المنخفضِ، وقد يكونُ أيضاً المصعدَ من المكانِ المنخفضِ إلى المكان المشرفِ، فهو من الأضدادِ على هذا التقديرِ[4]، فكأن الإنسانَ يكونُ في

---

(١) أنقال: جمع نقل بمعنى المنقول، أي أخبار منقولة لنا عن السابقين.

(٢) في حديث مرور النبي ﷺ ليلة الإسراء على جماعة تقرض شفاههم، وكلما قرضت نبتت. . . الحديث.

(٣) عبدالله بن مسعود، أبو عبد الرحمن الهذلي: صحابي، من أكابرهم فضلاً، وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ. وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، توفي في المدينة سنة ٣٢ هـ. (الإصابة ت ٤٩٥٥، حلية الأولياء ١: ١٢٤، غاية النهاية ١: ٤٥٨).

(٤) انظر التاج (طلع)، وقد فصل في هذه المسألة، واستوفاها بشكل جيد.

التوصلِ إلى علم تأويلِ القرآنِ بمنزلة الراقي إلى الذِّروةِ والصاعدِ إلى النِّجْوَةِ[1]، أو يكونُ في التَولُّجِ[2] على غوامضِهِ بمنزلة الهابطِ من المكان المشتطِّ[3] إلى المكان المنحطِّ[4].

وقال بعضُهم: الحدُّ ها هنا الفرائضُ والأحكامُ، والمطلعُ الثوابُ والعقابُ. فكأنه تعالى جعل لكلِّ حدٍّ من حدودِهِ التي حدَّها من الحرامِ والحلالِ مقداراً من الثوابِ والعقابِ، يلاقيه الإنسانُ في العاقبةِ، ويطلع عليه في الآخرةِ. ومن ذلك ما يكثر على الألسنةِ من ذكر هولِ المطلعِ إنما يرادُ به ما يشرفُ الإنسانُ عليه بعدَ الموتِ من أعلامِ الساعةِ وأشراطِ القيامةِ.

وعندي في ذلك وجه آخر: وهو أن يكونَ المرادُ أنِ لكلِّ حرفٍ حدّاً يجبُ على التالي أن يقفَ عندَهُ ويتعرفَ مغزاهُ ومغيَبهُ. فإنه إذا فعل ذلك أفضى به ذلك الحدُّ إلى مطلعٍ يشرفُ منه على حقيقة المعنى وجليةِ المغزى. فكأن الوقوفَ عند تلك الحدودِ والتمهلَ عليها والتثبتَ فيها يفضي بالإنسان إلى مطالعِ معرفتِها ومفاتِقِ أَكِمَّتِهَا فيكون كطالع الثنيّة في الإشراف على ما تحتها والإدراك لما استَجَنَّ عن الناظر قبل الإيفاء عليها. وهذا القول من استنباطي وما أظن أحداً قَرَعَ بابَهُ وطلع نِقابَهُ[5] قبلي.

[٢١٥] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[6]:

---

(١) النِّجوة: المكان المرتفع.

(٢) التولّج: الدخول.

(٣) المشتطّ: البعيد والمراد هنا المرتفع.

(٤) المنبطّ: المنخفض.

(٥) طلع نقابه: ارتقى، لأن النقاب جمع نقب، وهو الطريق في الجبل، وقد سبق هذا التفسير في هذا الكتاب في قوله ﷺ في الطاعون: «أرجو ألا يطلع إلينا نقابها» أي نقاب المدينة المنورة.

(٦) الموطأ ٢ : ٧٤٣، والترمذي رلاقم ١٣٧٨، ورواه أيضاً أبو داود ٢ : ١٥٨ و١٥٩ في الخراج والفيء والإجارة.

« من أَحْيا أَرْضاً مَيِّتَةً[1] فهي له وَلَيْسَ لِعرْقٍ[2] ظالمٍ[3] حَقٌّ ».

وهـذا مجازٌ والمـرادُ به أن يجيءَ الـرجلُ إلى أرضٍ أحيـاها مُحْيٍ قبلَه فيغرسَ فيها غرساً أو يحدثَ فيها حَدَثاً[4]، فيكونَ ظالماً بما أحدثه وغاصباً لحقٍ لا يملِكُهُ. وإنما أضافَ عليه الصلاةُ والسلامُ الظلمَ إلىٰ العِرْقِ لأنه إنما ظلمَ بغرسِ عِرْقِهِ فنسب الظلمُ إلى العرقِ دونَ صاحبِهِ. ذلك كما قال: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ: أي يُنامُ في هذا ويُصامُ في هذا[5].

وروي سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ[6] عن هشامِ بنِ عُرْوةَ[7] عن أبيه عُروةَ بِنِ الزبيرِ[8] قال: العروقُ أربعةٌ، عِرْقانِ ظاهرانِ، وعِرْقانِ باطنانِ. أما الظاهرانِ: فالغرسُ والبناءُ، وأما الباطنانِ: فالتِّبْرُ والمَعْدِنُ.

---

(١) الأرض الميتة: التي لا تنبت، وإحياؤها سقيها ورعيها، وتعهدها حتى تنبت، أو البناء فيها حتى تصير ذات منفعة بعد أن كانت عديمتها.

(٢) العرق الظالم: أن يغرس الرجل في أرض غيره، فيستحقها بذلك.

(٣) في رواية الأكثرين بتنوين (عرق) وظالم، نعت له، وهو راجع، إلى صاحب العرق، أي: ليس لذي عرق ظالم، أو إلى العرق، أي: ليس لعرق ذي ظلم، ويروي بالإضافة، ويكون الظالم صاحب العرق، فيكون المراد بالعرق الأرض قال الحافظ: وبالأول جزم مالك والشافعي والأزهري، وابن فارس وغيرهم، وبالغ الخطابي، فغلط رواية الإضافة.

(٤) كأنه يضع عليها سوراً، أو يحفر فيها حفراً لوضع الجدار، أو يكون غيره قد سواها ومهدها وحفر للجدار، فيأتي هذا ويضع الجدار أو غير ذلك.

(٥) انظر سيبويه ١: ٣٣٧، وانظر المقتضب ٢: ١٧٩.

(٦) سفيان بن عيينة، أبو محمد الهلالي الكوفي: محدث الحرم المكي، من الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكة، وتوفي بها سنة ١٩٨ هـ، وكان حافظاً ثقة، واسع العلم، كبير القدر. (تاريخ بغداد ٩: ١٧٤، وحلية الأولياء ٧: ٢٧٠، وتذكرة الحفاظ ١: ٢٤٢).

(٧) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، أبو المنذر القرشي الأسدي: تابعي، من أئمة الحديث (تاريخ بغداد ١٤: ٣٧، ميزان الأعتدال ٢: ١٩٤، مرآة الجنان ١: ١٣٠٢).

(٨) عروة بن الزبير بن العوام، أبو عبدالله الأسدي القرشي: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. (وفيات الأعيان ٣: ٢٥٥، تهذيب التهذيب ٧: ١٨٠، السير ٤: ٤٢١).

وربما وُرِيَ هذا الخبرُ على الإضافةِ فيكونُ ليس لعرقِ ظالمٍ حقٌّ ، فإن كانت هذه الروايةُ صحيحةً فقد خرجَ الكلامُ من حيّزِ الأستعارةِ ودخلَ في بابِ الحقيقةِ .

[٢١٦] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ :

« اللهم ألْمُمْ[١] شَعَثَنا » .

وهذه استعارةٌ والمرادُ اللهم اجمعَ كلمتَنـا ، وانظِمْ مـا تشتتَ من أمرِنـا ، وتبددَ من شَمْلِنا ، فـأقام عليـه الصلاةُ والسـلامُ تفرقَ الكلمـةِ وانصداعَ الأمـورِ الملتئمةِ مُقامَ العودِ[٢] المتشعثِ الذي كَثُرَ تَشَظِّيهِ[٣] ، واستطارت الصدوعُ فيه ، وقد مضى الكلامُ على نظيرِ هذه الكلمةِ .

[٢١٧] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[٤] :

« قَلِّدُوا الخَيْلَ[٥] ولا تُقَلِّدُوها الأَوْتارَ »[٦] .

وهذه استعارةٌ على أحدِ التأويلينِ ، وهو أن يكونَ المرادُ النهيَ عن طلبِ

---

(١) الفائق (لمم) والنهاية (شعث) و (لمم) وانظر أيضاً = اللسان والتاج (شعث ولمم).

(٢) العود : قطعة الخشب .

(٣) الذي كثر تشظيه : أي الذي ذهبت منه قطع واحدة بعد الأخرى ، حتى أصبح له شظايا ، أي قطع منفصلة عنه . والمتشعث : أي لم الشعث بمعنى جمع المتفرق ، وقد استعمل هذا في جمع شمل المسلمين .

(٤) أخرجه أبو داود رقم ٢٥٥٣ ، والنسائي (خيل ، ٣) وأحمد في المسند ٣ : ٣٥٢ ؛ ٤ : ٣٤٥ .

(٥) تقليد الخيل ، أي وضع شيء في أعناقها ، أو وضع الشيء تعلم به أنها خيل كذا ، أي خيل فلان ، أو خيل الجهاد ، أو نحو ذلك . ومعنى الحديث : أن وضع القلادة في أعناق الخيل جائز ما عدا الأوتاد .

(٦) الأوتار لها معنيان : إما أن تكون جمع وِتْر ، بمعنى الثأر ، وإما أن تكون جمع وَتَر ، وهو الخيط ، أو السير الذي يشدّ به القوس ، وقد ذكر الشريف الرضي المعنيين .

أوتارِ الجاهلية على الخيلِ بشَنِّ الغاراتِ وشبِّ النائراتِ ومعنى: لا تقلدوها، أي لا تجعلوها كأنها قد قُلّدت دَرْكَ الوترِ فتقلدتْهُ وضُمِّنَتْ أخذَ الثارِ فتضمنته. وذلك عبارةٌ عن فَرْطِ جِدّهم في الطلبِ، وحرصِهمْ على الدَّرْكِ.

فكأنه عليه الصلاةُ السلامُ قال: «قلّوا الخيلَ طلبَ اعداءِ الدينِ والدفاعَ عن المسلمين، ولا تقلدوها طلبَ أوتارِ الجاهليةِ، ودخولَ مصارعِ الحميةِ» وإذا حُملَ الخبرُ على التأويلِ الآخرِ خرجَ عن أن يكونَ مجازاً، وهو أن يكونَ المرادُ النهيَ عن تقليدِ الخيلِ أوتارَ القِسيِّ.

وقيلَ في وجهِ النهيِ عن ذلك قولانِ:

أحدُهما: أن يكونَ عليه الصلاةُ والسلامُ إنما نَهىٰ عنه، لأنَّ الخيلَ ربما رعت الأكلاء[1] والأشجارَ، فَنَشِبَتِ[2] الأوتارُ التي في أعناقِها ببعض شُعَبِ ما ترعاه من ذلك فخنقها أو حبستها على عدمِ المأكلِ والمشربِ حتى تقضيَ نحبَها.

والوجه الآخر: أنهم كانوا في الجاهلية يعتقدونَ أن تقليدَ الخيلِ بالأوتارِ يدفعُ عنها حُمّةَ عينِ العائنِ[3]، وشرارةَ نظرِ المستحسنِ، فيكونِ كالعُوَذِ[4] لها والأحرازِ عليها، فأراد عليه الصلاةُ والسلامُ أن يعلَمهم أن تلك الأوتارَ لا تدفعُ ضرراً، ولا تصرف حذراً. وإنما اللّهُ سبحانَهُ وتعالى الدافعُ الكافي، والمعيذُ الواقي.

ومما يقوي هذا التأويلَ ما رُوي من أمره عليه الصلاةُ والسلامُ بقطعِ

---

(١) الأكلاء جمع كلاء، وهو الحشيش الذي ينبت في الأرض فترعاه الخيل.

(٢) نشبت: اشتبكت وتعلقت.

(٣) العائن: الحاسد، وحُمّةُ عينه: أثر عينه الحامي.

(٤) العُوَذ جمع العُوْذة: التميمة التي توضع لإنسان أثر الحسد والأحراز، جمع حِرْز، وهو هنا بمعنى العوذة السابقة، فهو من عطف المترادف.

الأوتارِ من أعناقِ الخيلِ[1] . ولتقليد الخيلِ وجهٌ آخرُ، وهو أن العرَبَ كانت إذا قَدَرَتْ وَظَفِرَتْ قَلَّدَتِ الخيلَ العمائمَ. وذُكِر أن معاويةَ بنَ أبي سفيان[2] لما تغلَّب على الأمرِ ودخَل الكوفةَ بعدَ صلحِ الحسنِ بنِ عليٍّ[3] عليهما السلامُ فعل ذلك بخيلِهِ، فقالت أمُّ الهَيْثمِ بنتُ الأسودِ[4] :

أَقَرَّ عَيْنِي أَنْ جَاءَتْ مُقَلَّدَةً   خَيْلُ الشآمِينَ في أعناقِها الخِرَقُ

[٢١٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاةُ والسلامُ[5] :

« **ضَالَّةُ المُؤْمِنِ حَرْقُ النارِ** ».

وهذا مجازٌ لأنَّ الضالَّةَ علىٰ الحقيقةِ ليست بحرقِ النارِ، وإنما المرادُ أخذُ ضالّة المؤمنِ، والاشتمالِ عليها، والحَوْلِ بينَه وبينَها يُسْتَحَقُّ به العقابُ بالنارِ. فلما كانت الضالّةُ سبَبَ ذلك حسنَ أن تسمىٰ باسمِهِ لأنَّ عاقبةَ أخذِها يؤلُ إلى حريقِ النارِ، ويفضي إلى أليمِ العقابِ. وقد نهى رسولُ الله صلى اللَّهُ عليه وآلِهِ وسلَّمَ عن أخذِ ضوالِّ الإبلِ وهَوَامِيها. والهوامي الضائعةُ[6] . قال الشاعرُ:

هَمَتْ نَعْلُها بالسَّيْلَحَيْنِ وَأَوْفَضَتْ   بِوَادِي ثُمَيْلٍ عَنْ جَنِيْنٍ مُسَبَّدِ[7]

---

(١) انظر سنن أبي داود ٣ : ٤ ، رقم ٢٥٥٢ ، والحديث عنده : لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة . من وتر ، ولا قلادة إلا قطعت ، قال مالك : أرى أن ذلك من أجل العين . وانظر المسند ٤ : ٤٠٨ و٤١٦ .

(٢) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب القرشي الأموي : مؤسسي الدولة في الشام ، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار ـ ٦٠ هـ .

(٣) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو محمّد : خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم ، وثاني الأئمة الإثني عشر عند الإمامية ، مات بالمدينة سنة ٥٠ هـ .
ـ تصالح (رض) مع معاوية سنة ٤١ هـ ، وسمي هذا العام (عام الجماعة) لاجتماع كلمة المسلمين فيه . (الإصابة ١ : ٣٢٨ ، تهذيب التهذيب ٢ : ٢٩٥ ، تهذيب ابن عساكر ٤ : ١٩٩) .

(٤) أمّ الهيثم بنت الأسود النخعية : امرأة فاضلة ، وشاعرة مبدعة ، كانت في أيام علي (رض) ولها رثاء في الإمام علي (رض) كثير . (مقاتل الطالبيين ٤١ و٤٣ ، الحماسة البصري ١ : ١٩٨) .

(٥) أخرجه الترمذي رقم ١٨٨٢ ، ورواه أيضاً أحمد والنسائي . وابن حبان ، وهو حديث حسن .

(٦) انظر صحيح مسلم ٥ : ١٣٥ و١٣٧ ، الترمذي ٣ : ٦٤٦ رقم ١٣٧٢ ، والمسند ٤ : ١١٥ و١١٦ .

(٧) ديوان عمرو بن أحمر ص٥٠ ، وقد تصحف البيت في الطبعات السابقة .

أي ضاعت بفل هذه الناقةِ بهذا الموضعِ المذكورِ، وذلك لا يكونُ إلا عند تقطعِ هلبِها[1] وإجحافِ السيرِ بها.

[٢١٩] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[2] :

« **إنَّ هذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيه برْفقٍ ولا تُبَغِّضْ إلى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْرَاً أَبْقَى** ».

ووصفُ الدينِ بالمتانةِ ها هنا مجاز، والمرادُ أنه صعبُ الظهرِ شديدُ الأسرِ. مأخوذٌ من مَتْنِ الإنسانِ، وهو ما اشتدَّ من لحمِ منكبيهِ، وإنما وصفَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ بذلك لمشقةِ القيام بشرائطهِ والأداءِ لوظائفِهِ، فأمر عليه الصلاةُ والسلامُ أن يدخلَ الإنسانُ أبوابَهُ مترفقاً، ويرقى هضابَهُ متدرجاً ليستمرّ على تجشّمِ متاعبِهِ، ويمرنَ على امتطاءِ مصاعبِهِ، وشبَّهَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ العابدَ الذي يُحْسِرُ مُنّتَهُ[3]، ويستنفدُ طاقَتَهُ، بالمُنْبَتِّ، وهو الذي يُغِذّ[4] السيرَ، ويَكُدّ الظهرَ[5] منقطعاً من رُفْقتِهِ[6]، ومنفرداً عن صحابتِهِ، فَتَحْسِرُ[7] مطيّتَهُ، ولا يقطع شُقَّتَهُ[8]. وهذا من أحسنِ التمثيلاتِ وأوقعِ التشبيهاتِ.

ومما يقوّي المرادَ بهذا الخبرِ ما كشَفْناه عن حقيقةِ الخبرِ الآخرِ عنه عليه

---

(١) الهَلْب: متابعة الجري، والمراد تقطع جريها ، وأجحف بها السير: أضرّبها.

(٢) رواه أحمد في المسند ٣: ١٩٩، وانظر كنز العمال ٣: ٥٣٧٧ و٥٣٥٠ و٥٣٥١، والفتح الكبير ١: ٤٢٥.

(٣) يُحْسر: أعيا، رالمنة، القوة؛ والمعنى يعيي قوته ويضعفها.

(٤) يُغِذُّ: يسرع.

(٥) يكدّ الظهر: يتعبه؛ والمراد بالظهر الدابة.

(٦) أي سابقاً لهمُ بسبب إسراعه.

(٧) تحسر مطيّته: لا يصل إلى غرضه.

(٨) لا يصل إلى غرضه.

الصلاةُ والسّلامُ وهو فيما رواهُ بُرَيْدةُ بنُ الحُصَيْبِ الأَسْلَميُّ [1] قال: قال عليه الصلاةُ والسلامُ [8]:

« عليكم هَدْياً [3] قاصداً [4] فإنه مَنْ يُشادَّ [5] هذا الدينَ يَغْلِبْهُ » [2].

[٢٢٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [6] :

« **إذا سافرتُم في الخِصْبِ فأَعْطُوا الرُّكُبَ [7] أسِنَّتَهَا** » [8].

وفي روايةٍ أخرى: « فأعطُوا الركابَ أسنانَها » [9] . وهذه استعارةٌ، والمرادُ بالأسنةِ هاهنا على ما قاله جماعةٌ من علماءِ اللغةِ الأسنانُ، وهو جمعُ الجمعِ لأنّ الأسنانَ جمعُ سنٍّ، والأسنةُ جمعُ الأسنانِ.

والرُّكُب جمعُ الرِّكابِ، فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ أمرهُمْ أن يمكّنوا

---

(١) بُرَيْدة بن الحُصَيْب بن عبدالله بن الحارث الأسلمي: من أكابر الصحابة أسلم قبل بدر، شهد فتح مكة وسكن المدينة وانتقل إلى البصرة ثم إلىٰ مرو فمات بها سنة ٦٣ هـ. أسد الغاب ١: ٢٠٩ والإصابة ١: ٢٤١ والسير ٢: ٤٦٩ وتصحف اسم أبيه في المطبوعات إلى (الحُطَيْب) وهو خطأ واضح وجهل فاضح.

(٢) انظر كنز العمال ٣: ٣٠٥ والفتح الكبير ٢: ٢٤٢. ورواه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن عن بُرَيْدة.

(٣) الهَدْي: الطريقة والسيرة.

(٤) القاصد: المستقيم، والمراد به هنا الزموا طريقاً قصيراً في سبيل الوصول إلى أغراضكم.

(٥) أي من يجالد الدين يغلبه الدين وتصحفت في بعض الطبعات إلى (يشار، بالراء) وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.

(٦) رواه مسلم برقم ١٩٢٦ والترمذي برقم ٢٨٦٢ وأبو داود برقم ٢٥٦٩ وروايته عندهم: « إذا سافرتم في الخصب، فأعطوا الإبل من الأرض..... » أما رواية الكتاب فتجدها في النهاية والفائق (ركب) و (سنن) والتاج (ركب) وانظر أيضاً غريب الحديث للهروي ٢: ٦٩.

(٧) الرُّكُبُ: هي جمع ركاب، والركاب هي الإبل التي يسار عليها.

(٨) أسنّتها: أي أسنانها ومعنى ذلك: أمكنوها من الرعي. وانظر شرح الحديث في النهاية لابن الأثير.

(٩) انظر تاج العروس (ركب) ٢: ٥٢٣ طبع الكويت، وفيه الروايتان. قال الزَّبيدي: « وقال ابن الأعرابي: الرُّكُبُ لا يكون جمع ركاب، وقال غيره: بعير ركوبٌ وجمعه رُكبٌ ».

ركابَهم زمانَ الخِصْبِ من الرّعْي في طرقِ أسفارِهم، وعند نزولِهِمْ وارتحالِهِمْ، فكَنَىٰ عن ذلك بإعطائِها أسنانَها، والمرادُ تمكينُها من استعمالِ أسنانِها في اجتذابِ الأكلاءِ، وامتشاطِ[1] الأعشابِ. فكأنهم بتمكينها من ذلك أعطوها أسنانَها. وهذا كما يقول القائلُ لغيرِهِ: أعطِ الفرسَ عنانَها، وأعط الراحلةَ زِمامَها: أي مكّنْها من التوسعِ في الجري، ومَدِّ العُنَقِ في الخطوِ.

وعندي في ذلك وجهٌ آخرُ وهو أن يكونَ المرادُ مكّنُوا الركابَ في الخصبِ من أن تسمنَ بكثرةِ الرعي؛ لأنهم قد عبّروا في أشعارِهِمْ عن سِمَنِ الإبلِ وبَدْنِها[2] بالسلاحِ تارةً، وبالأسنةِ تارة، قال الشاعرُ[3]:

ولا تَأْخُذُ الكُومُ الجِلادُ سِلاَحَها لَهُ، عِنْدَ صِرّاتِ الشِّتاءِ الصَّنابِرُ[4]

أي لم يمنعه سمنُ إبلِهِ وشارتُها[5] في عينِهِ من أن ينحَرَها لأضيافِهِ، ويبذلَها لطُرّامةٍ، فجعل السمنَ لها كالسلاحِ الذي تدافعُ به عن نحرِها، وتماطلُ به عن عَقْرِها، وقد قال الآخرُ في مثل ذلك، ويعني الإبلَ:

* خَايَلْتُ فِيها وَلَمْ تَأْخُذْ أَسِنَّتَهَا[6] *

---

(١) امتشاط الأعشاب: رعيها، كأن الدابة تدخل أسنانها بين أجزاء النبات فتمشطها.

(٢) يقال: بدن بدناً: أي كبر جسمه وصار بديناً.

(٣) هي الشاعرة ليلى الأَخْيَلِيَّة ابنة عبدالله بن الرحال، من بني عامر بن صعصعة شاعرة فصيحة ذكية جميلة، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحُمَيّر، وفدت على الحجاج مرات وكان يكرمها ويقرّبها، ماتت في ساوة ودفنت هناك نحو سنة ٨٠ هـ الأغاني ١١: ٢٠٤ والسمط ١: ١١٩ وفوات الوفيات ٣: ٢٢٦.

(٤) البيت في الحماسة الشجرية ١: ٣١٣ والأغاني ١١: ٢٢٦ ـ ٢٣١ من قصيدة وهو السابع فيهما، والمعاني الكبير ١: ٣٩١ وبلاغات النساء ١٧١ والشعر والشعراء ١: ٤٥١.

(٥) الشارة: الحسن والجمال.

(٦) خايلت فيها: رجوت فيها اللبن واستحقاق الذبح مع أنها لم تكبر ولم تبلغ المدى الذي تذبح عنده.

ومن أبياتٍ لإياسِ بن سَلْم الأَسْلميّ [1] يمدحُ بها النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ:

وأبيـك حـقّـاً إن إبْـلَ مُـحَـمَّـدٍ عُـزْلٌ تَـنَـاوَحْ أنْ تَـهُـبَّ شَـمَـالُ
وإذا رأيْـنَ لَـدَى الفِـنَـاءِ قَـرِيـبَـةً فـاضتْ لَهُنَّ عَلى الخُـدُودِ سِجَـالُ

يقول: إن إبلَهُ مبذولةٌ عند نزولِ النازلِ وطروقِ الطارقِ، فلا يمنعُهُ من عقرِها رُوَاؤُها [2] وشَارَتُها، فكأَنها عُزْلٌ لا سلاحَ معها.

كما جعل الشاعرُ الأولُ هذه الحالَ بمنزلةِ السلاحِ لها، وأراد بقوله: إذا رأين لدى الفناءِ قريبةً: أي رأين رُفْقةً قريبةً بِفناءِ النبيّ عليه الصلاةُ والسّلامُ بكَيْنَ وتناوَحْنَ علماً بأنهنّ يُنحرْنَ لها ويُعْقَرْنَ لأجلهـا. وكذلـك إذا هبت الشمالُ في صميمِ الشتاءِ حاذرنَ العقرَ وانتظرنَ النحرَ.

[٢٢١] وممّا يقوّى ذلك ما جاء في الحديثِ المشهور عنه عليه الصلاةُ والسلامُ وهو قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ [3]:

« إنّ الجَفَاءَ وَالقَسْوَةَ في الفَدَّادينَ إلاّ من أَعْطَى في نَجْدَتها ورِسْلها ».

---

(١) لعلة إياس بن سلمة بن الأكوع الأسلمي المدني. قال ابن حجر: « ذكره ابن عبد البرّ في الصحابة وقال: مدح النبي ﷺ بشعر وفيه نظر قلت: إن كان هو الذي روى عنه أبو العميس فليست له صحبة لأنه ولد في زمن عثمان... وقد سبق ابن عبد البرّ إلى ذلك المرزباني في (معجمه) لكن لم يصرح بأن له صحبة، بل قال في ترجمته: هو القائل يمدح النبي ﷺ:

سمـح الخليقـة ماجـد وكلامه حقّ وفيه رحمـة ونكال
أولاد قِيلـةَ حولـه في غابة كالأسـد ترفـأ حولهـا الأشبال

وقال الصفدي: « روىٰ عن أبيه، روىٰ له البخاري وسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة. ووثقه ابن معين. وتوفي سنة ١١٩ هـ. الإصابة ت٣٧٦ والوافي ٩: ٤٦٢ والسير ٥: ٢٤٤.

(٢) الرواء: الحسن والزينة.

(٣) رواه البخاري ٦: ٣٨٧ ومسلم برقم ٩٢ والترمذي برقم ٢٢٤٤ والمسند ٢: ٢٥٨ و٣: ٣٣٢ وغريب الحديث١: ٢٠٢-٢٠٤ والفائق(فدد). والفدّادون: الفلاحون والحرّاثون والجمّالـون والرعيـان والبقّارون والحمّارون.

والفدّادون هاهنا على أصح الأقوالِ هم أصحابُ الإبلِ الكثيرةِ. فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ قال: إلا من أعطى من إبله في حالِ كثرةِ شحومِها وشارةِ جسومِها، وسمّى ذلك نَجْدةً لها على ما قدمنا القولُ فيه؛ لأنها إذا كانت في تلك الحالِ كانت كالمانعةِ لصاحِبها من نحرِها نفاسةً بها وشُحّاً عليها. فكانت شارتُها كالمنجدةِ لها، والسلاحِ الذي تدفع به عن أنفسِها. وقد قيل في رِسْلها هاهنا قولانِ: أحدُهما: في حالِ كثرةِ ألبانِها موافقةٌ لقولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: في نجدتِها إذا كان ذلك بمعنى حسنِ شارتِها.

والقولُ الآخرُ: أن يعطيها في حالٍ يهونُ عليه إعطاؤُها فيها، وهي حالُ نقصانِ شحومِها وخفّةِ جسومِها من قولهم: تكلم فلان بكذا على رِسْلِه، أي والكلامُ هَيِّنٌ عليه، فهو متمهلٌ فيه غيرُ عِجلٍ وساكنٌ غيرُ غَلِقٍ[1] فكأنَّ المعنى إلا من أعطاها في حالتي كرامِتها وهوانِها واستقباحِها واستحسانِها كقولك في حال العسرِ واليسرِ وعند الطّوْعِ والكَرْهِ. والقولُ الأولُ هو المعتمدُ.

[٢٢٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« **أنا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ، قيل: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: لَا تَراءَى[3] ناراهما** ».

وهذه استعارة، وقد قيل في ترائي النارين قولان:

أحدهما: أن يكونَ المرادُ أنّ المسلمَ لا ينبغي له أن يساكنَ المشركَ في بلادٍ فيكون منه بحيث إذا أَوْقَد كلُّ واحدٍ منهما ناراً رآه الآخرُ فجعل الترائي

---

(١) غير غلق: غير مكره، والمراد هنا غير المعجل، أو غير المدفوع إلى الإسراع في الكلام.

(٢) رواه الترمذي برقم ١٦٠٤، وأبو داود برقم ٢٦٥٤ والنَّسائي ٨: ٣٦ وانظر غريب الحديث ٢: ٨٨ والفائق (رأي).

(٣) التّرائي: تفاعل من الرؤية يقال: تراءى القوم إذا رأىٰ بعضهم بعضاً. وتراءى لي الشيء؛ أي ظهر لي حتى رأيته وتراءى القوم الهلال؛ إذا رأوه بأجمعهم.

للنارينِ وهو في الحقيقةِ للموقدِينَ. والأصلَ في ذلك المداناة والمقابلة بقـولِ القائلِ: دُور بني فلانٍ تتناظرُ: أي تتدانىٰ وتتقـابلُ. ويقـولـونَ للمسترشدِ: إذا أخذتَ في طريقٍ كذا فنظرَ إليك الجبلُ فخذْ عن يمينِهِ أو عن يسارِهِ، والمرادُ إذا قابَلَكَ الجبلُ، فنظرْتَ إليه فجعلوا النظرَ له[1] لأنهم أقاموا الجبلَ مُقامَ الرَّئِيَّةِ[2] الناظرِ، والرفيقِ المسايرِ، وقال الشاعرُ[3]:

سَلِ الـدَّارَ مِنْ جَنْبَيْ حِبِـرٍّ فَـواهبٍ إلى ما رَأى هَضْبَ القُلَيْب المُضَيَّحُ[4]

وهَضْبُ القُلَيبِ والمُضَيَّحُ: موضعانِ متقاربانِ فجعلهما لتجاذبِهما كأنهما يتراءيانِ، ومثلُه قولُ الآخرِ: حيث يرى الدَّيْرَ المنارُ.

والوجهُ الآخرُ: أن يكونَ المرادُ بالنارِ هاهنا نارَ الحربِ لأنهم يكنونَ عن الحربِ بالنارِ لما فيها من رَهَجِ المِصَاعِ[5] ووَهَجِ القِرَاعِ[6]، ومن ذلك قـولُ الشاعرِ:

هُمَـا حَيَّان يَصْطَلِيـانِ حَـرْبـاً رداءَ المـوتِ بينهـمـا جـديـدا

وعلى هذا المعنى جاء التنزيلُ بقولِهِ تعالى: ﴿**كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَربِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾[7]، فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ قال: « ونـاراهما مختلفـانِ » أي

---

(١) أي للجبل. أي أن الناظر هو الجبل.

(٢) الرَّئِيَّة: الرائية، وهي الناظرة.

(٣) هو تميم بن أبيّ بن مقبل، أبو كعب العجلاني: شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وأسلم، عاش نيفاً ومئة سنة وعدّ في المخضرمين، وكان يهاجي النجاشي الشاعر. وتوفي سنة ٣٧ هـ تقريباً. الشعر والشعراء ١: ٤٥٥ وطبقات فحول الشعراء ١: ١٥٠ والإصابة ١: ١٩٥.

(٤) البيت في ديوان ابن مقبل ص٢٣. وحبر وواهب: جبلان في ديار بني سُلَيمْ. وقوله « إلى ما رأى » أي قابلَ وناظر، وإذا قابل الجبلُ فهو يراه، إذا قام مقام الناظر الذي ينظر إليه؛ والعرب تقول: هذه الجبال تتناظر، إذا كان بغضها قبالة بعض.

(٥) الرَّهَج: الغبار، والمِصَاع: النزال والقتال.

(٦) الوهج: شعاع النار ونحوها، والقراع: المضاربة بالسيوف.

(٧) الآية ٦٤ من سورة المائدة، وانظر تفسير القرطبي ٦: ٢٤٠.

حرباهما متباينانِ، هذه تدعو إلى الهدى والرشادِ، وهذه تدعو إلى العَمَى والضّلالِ، وقد يجوز في ذلك عندي وجهٌ آخرُ، وهو أن يكونَ المرادُ لا يجتمعُ سِرْباهُما[1] ولا يختلطُ سَرْحَاهُما[2]، والنارُ عندهم اسمٌ لِسماتِ الإبلِ، يقولونَ على هذه الإبلِ نارُ بني فلانٍ: أي وسمُهم، وعلى هذا قولُ بعضِ خُرَّابِ[3] الإبلِ في ذكرِ أذوادٍ[4] استلبَها. وأرادَ عرضها ليبيعَها[5]:

يَسْأَلُني البَاعةُ ما نِجَارُها ... إذْ زَعْزَعُوهَا فَسَمَتْ أبصارُها[6]

فكُلُّ دارٍ لأُناسٍ دَارُها ... وكلُّ نارِ العالَمِين نارُها

أي هي مأخوذةٌ من قبائلَ شتى، فوسمُهَا غيرُ مُتَّسِقٍ، ونجارُها غيرُ متفقٍ.

وهذا الوجهُ يعود إلى معنى الوجهِ الأولِ، لأنَّ المرادَ أنّ المسلمَ والمشركَ لا يجوزُ اجتماعُهما في دارٍ حتى تجتمَع أذوادُهُما في الرعي وأورادُهُما[7] في الوِرْدِ[8]؛ فقولُه عليه الصلاةُ والسلامُ على هذا الوجهِ: لا يتراءى ناراهما أي لا يختلطُ وسماهُما[9].

وأما الحديثُ الآخرُ، وهو قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[10]: **«لا تستضيئوا**

---

(١) السرب: الجماعة، أي لا تختلط جماعة كل منهما بجماعة الآخر.

(٢) السرح: هو الحال السائم؛ أي لا يقتربان في المرعى.

(٣) الخرّاب: جمع خارب. واللصّ، كسارق وسرّاق، وزناً ومعنىً. وخَرَب: صار لصاً.

(٤) الأذواد: جمع ذود وهو الجماعة من الإبل.

(٥) هو أبان بن لقيط، وكان لصاً خارباً. (فصل المقال ص١٩٠ وأورده البكري في السمط ٧٢٢ بنسبته لبعض اللصوص وانظر الخزانة ٧: ١٤٩.

(٦) الأبيات في جمهرة الأمثال ٢: ١٤٠، وفصل المقال ١٩٠، والسمط ٢: ٧٢٢.

(٧) الأوراد جمع ورد: وهم الذين يردون الماء لسقي دوابهم.

(٨) الورد هنا مصدر ورد الماء؛ بمعنى قصده للسقيا.

(٩) أي لا تختلط إبلهما الموسومة بوسمهما.

(١٠) رواه النسائي ٨: ١٧٣ و١٧٤، ورواه أحمد في المسند، وهو عندهم: «لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا على خواتيمكم عربياً» أي: لا تستشيروهم ولا تعملوا بآرائهم، فشبه الأخذ برأيهم والعمل به بالاستضاءة بالنار.

بنارِ أهلِ الشركِ». فقيل: إن المرادَ لا تستشيروهم في أموركم، فتعملوا بآرائِهم، فترجعوا إلى أقوالِهم، وهذا أيضاً مجازٌ آخرُ، لأنه عليه الصلاةُ والسلامُ شبّه الاسترشادَ بالرأيِ بالاستضواءِ بالنارِ إذا كان فعلُه كفعلِها في تبيينِ المبهمِ، وتنويرِ المظلِمِ.

[٢٢٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاةُ والسلامُ [1]:

« **إنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ** ».

وهذه استعارةٌ، والمرادُ أن أصلَهما من منبتٍ واحدٍ، فهما كالنخلتينِ من الصِّنْوانِ يجتمع أصلُهما ويفترقُ رأساهما، فيكونانِ اثنين في الرؤيةِ، والأصلُ واحدٌ في الحقيقةِ. يقال: صِنْوٌ والجمعُ صِنْوانٌ، مثل: قِنْو والجمع قِنْوانٌ. قال سبحانه: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وقيل أيضاً: الصنوانُ المجتمعُ، وغيرُ الصنوانِ غيرُ المجتمعِ.

[٢٢٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [2]:

« **تَمَسَّحُوا بِالأَرْضِ فإنّها بِكُمْ بَرَّةٌ** ».

وهذه استعارةٌ، والمرادُ بقوله: « فإنها بكم بَرَّةٌ » يرجع إلى أنها كالأمّ للبريةِ لأنَّ خلقَهم ومعاشَهم عليها ورجوعَهم إليها. فلما كانت الأرضُ تسمى أمّاً لنا من الوجوهِ التي ذكرناها كان قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: « فإنها بكم بَرّة » يرجعُ إلى وصفِها بالأمومةِ لأنهم يقولون: الأرضُ ولودٌ؛ يريدون كثرةَ إنشاءِ

---

(١) رواه مسلم برقم ٩٨٣، والترمذي برقم ٣٧٦٤، وأبو داود برقم ١٦٢٣، وأحمد في المسند ١: ٩٤، و٢: ٣٢٢، و٤: ١٦٥، وانظر أيضاً غريب الحديث ٢: ١٥، والفائق (صنو).
والصِّنْو: المثل، وأصله الشجرة يكون أصلها واحداً، ولها فرعان يفترقان عن الأصل الواحد، فكل منهما صِنْوٌ.

(٢) انظر كنز العمال ٧: ١٩٧٧٨، والفتح الكبير ٢: ٣٨، وغريب الحديث ٢: ٢٠، والفائق والنهاية (مسح).
ومعنى الحديث هو أن تباشرها بنفسك في الصلاة من غير أن يكون بينك وبينها شيء تصلي عليه.

الخلق واستيلادِهم عليها، وقال ذو الرُّمـةِ[1] في وصفِ الأمّ ِ بالبـرِّ، وهو يـذكُرُ فِرَاخَ النَّعَامِ :

جاءت مِنَ البَيضِ زُعْراً لا لباسَ لها إلا الـدَّهـاسُ وأمٌّ بَـرَّةٌ وأبُ

والدهاسُ: الرملُ. ولقوله عليـه الصلاة والسـلام: « تمسحوا بـالأرض » وجهانِ :

أحدُهما: أن يكونَ المرادُ التيممُ منها في حالِ الطهارةِ وحالِ الجنابةِ.

والوجهُ الآخرُ: أن يكونَ المرادُ مباشرةَ ترابِها بالجباهِ في حالِ السجـودِ عليها وتعفرِ الوجوهِ فيها، ويكونُ هذا القولُ أمرَ تأديبٍ، لا أمرَ وجوبٍ، لأن من سجدَ على جلدةِ الأرضِ ومن سجدَ على حـائلٍ بينهـا وبين الوجـهِ واحدٌ في إجزاءِ الصلاةِ، إلا أن مباشرتَها بالسجود أفضلُ، وقد رُوي أن النبي عليه الصلاةُ والسـلامُ كان يسجـد على الحمـرةِ، وهي الحصيـرُ الصغيـرُ يُعمـلُ من سعفِ النخلِ ، فبان أن المرادَ بذلك فعلُ الأفضلِ لا فعلُ الأوجبِ. ومما يقرُبُ شَبَهاً من هذا الخبرِ ما رُوي من قولِه عليه الصـلاةُ والسلامُ[2] : « نِعْمَتِ العَمَّـةُ لكُمْ النَّخْلَةُ ». فكأنها لانتفاعِهم بها وتعـويلِهِم على ثمرتِهـا قد قـامتْ مَقامَ القـريبةِ

---

(١) هو غيلان بن عقبة العدوي، أبو الحارث المضري: شاعر من الفحول، وكان مقيماً بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً، وعشق ميّة المنقرية واشتهـر بهـا، وامتـاز شعـره بإجـادة التشبيه. توفي بأصبهان وقيل بالبادية سنـة ١١٧ هـ. الأغانـي ١٧ : ٣٩٨ و١٨٠ : ١ - ٤٧، ومعاهد التنصيص ٣ : ٣٦٠، والخزانة ١ : ١٠٥ وانظر ديوانه ١ ص٢٨٥.

(٢) رواه الترمذي برقم ٣٥٤٦، وأبو داود برقم ١٥١٠، ورواه أيضاً ابن ماجة برقم ٣٨٣٠، وأحمد في المسند ٣ : ٣١٠ و١ : ٢٢٧، وابن حيان في صحيحه برقـم ٢٤١٤ مـوارد، وهـو حديـث صحيح. وروايته عندهم : « أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : رب أعنّي، ولا تعنْ علي وانصرني ولا تنصر علي، وأمكر لي، ولا تمكر علي، وأهدني ويسر الهدي لي، وانصرني علىٰ من بغى عليّ، ربّ اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعاً لك مخبتاً، إليك أوّاهاً، منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل عوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، وأهد قلبي، واسلل سخيمة صدري ». وحوبتي؛ الحوبة والحـوب : الإثـم والذنب.

الحانيةِ وذاتِ الرحمِ المتحفّيةِ، ولم يجعلْها عليه الصلاةُ والسلامُ بمنزلةِ الأمِ للناسِ كما جعلَ الأرضَ في الخبرِ الأولِ لأنهم في الحقيقةِ لم يُخلَقوا منها، ولم يُنسبوا إليها، فجعلها من حيثُ الانتفاعُ بها بمنزلةِ أقربِ الإناثِ القرائبِ من الإنسانِ بعد اللاتي ولَدْنَهُ واللاتي ولَدهُنّ هو، وتلك عمةُ الإنسانِ وخالتُهُ إلا أن أختَ الأبِ أرفعُ منزلةً من أختِ الأمِ، ولذلك جعلها عمةً ولم يجعلها خالةً.

[٢٢٥] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ في دعاءٍ كان يدعو به[1]:

« رَبِّ تَقَبّلْ تَوْبَتي وَاغْسِلْ عَنّي حَوْبَتي »، وهذه استعارةٌ، والحَوْبةُ والحَوْبُ المأثمُ[2]، والمرادُ احطط عني وِزْرِي، وتغمّدْ ذنبي وخطيئتي، ولكن المعصيةَ لما كانت كالدَّرَنِ[3] الذي يصيبُ الإنسانَ، فيفحشُ أثرُهُ، ويقبُحُ منظرُهُ، أقام عليه الصلاةُ والسلامُ إماطةَ وزرِها، وإسقاطَ إثمِها مقامَ غسلِ الأدرانِ، وإماطةِ الأدناسِ، لأن الإنسانَ بعدَها يعودُ نقيَّ الأثوابِ طاهراً من العابِ[4].

وهذا الدعاءُ من النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ على وجهِ التعبدِ والخضوعِ والتطامنِ والخشوعِ، لا أنّ له عليه الصلاةُ والسلامُ حَوْبةً يَسْتَحِطُّ وزرَها ويستغسل دَرَنَها، أو يكونُ قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ ذلك على طريقِ التعليمِ لأمتِهِ كيف يتوبُ العاصي، وينيبُ الغاوي، ويستأمنُ الخائفُ، ويستقيمُ الجانِفُ[5].

والسبب الذي لأجله قلنا إن الأنبياءَ عليهم الصلاةُ والسلامُ لا يجوزُ أن يواقعوا المعاصي، ويقدِمُوا على المغاوي أن الحكيم تعالى إذا أرسلَ رسولاً

---

(٢) المأثم: مصدر ميمي بمعنى الإثم؛ وهو ارتكاب الذنب.

(٣) الدّرن: الوسخ والقذر.

(٤) ألعاب: الوَصْمة وجمعه أعيابٌ، وعيوبٌ.

(٥) يقال جنف فهو جانف؛ أي مال وجار من الطريق المستقيم، جائر.

جنَّبه كلَّ ما ينفرُ عنه، وَيَصْرِفُ عن القبولِ منه، ومعرفة ما يقطعُ على أنـه منفرّ مأخوذٌ من عاداتِ الناسِ ، وكبائرُ المعاصي كُلُّها منفرةٌ لأنها تُخرجُ من ولايةِ الله تعالى إلى عداوتِهِ، وتوجب عاجلَ مَقْتِهِ وعقوبتِهِ.

وفي الصغائرِ خلافٌ ليس كتابُنا هذا موضعَ بيانِهِ وإستقصاءَ حِجاجِهِ، وقد بسطْنَا الكـلامَ على ذلك في بـاب مفردٍ من جملةِ كتـابِنـا الكبيـر في متشـابِـهِ القرآنِ[1] ، فمن أراد استيعابَ معانيه ومعرفةَ الخلافِ فيه، فليقصدْ مطالعَتَهُ من هناك بتوفيقِ اللَّهِ.

[٢٢٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاةُ والسلامُ[2] :

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ وَحْرِ صَدْرِهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَ الصَّبْـرِ[3] وَثَلَاثَـةَ أيامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ».

فقولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ: « وحْرَ صدرِهِ » استعارةٌ، والمرادُ غشُّهُ ودَغَلُه وفسادُهُ ونَغَلُهُ[4] ، وذلك مأخوذٌ من اسمِ دويبَّةٍ يقال لها الوَحَـرةُ وجمعُها وَحَـرٌ، وهي شبيهةٌ بالحِرْباءِ. وقـال بعضُهـم: هي تشبهُ العِـظاءَ، إذا دبَّت على اللحمِ فـأكَل منـه إنسانٌ وَحِـرَ صـدرُهُ، أي اشتكى داءً فيـه[5] ، ويقـال: إنهـا شبيهـةٌ

(١) هو كتاب « حقائـق التـأويل في متشابـه التتـريل » ويشير الشـريف الرضـي إليه دائمـاً في « المجازات النبوية » وفي « تلخيص البيان في مجـازات القـرآن » فيسـميه تارة بالكتـاب الكبير، وتارة باسم حقائق التأويل، ويسميه ثالثة كتابنا الكبير في متشابه القرآن، كما هو هنا.

(٢) رواه أحمد المسند ٥: ٧٨ و٣٦٣، وانظر أيضاً الفائق (وحر). وغريـب الحديث للهروي ٣: ٤٧.

(٣) شهر الصبر: هو شهر رمضان، وصيامه واجب علىٰ كلِّ المسلمين؛ أمّا قوله: ثلاثة أيام من كل شهر (من أوله أو وسطه أو آخره) فهو صيام تطوع ونفل وليس واجباً.

(٤) نَغِلَ الجرح: فسد؛ ويقال: نغلت نيته: ساءت، ونَغِلَ قلبه علىٰ فلان: ضغِن، فهو نغِلٌ وهي نغِلةٌ.

(٥) انظر التاج (وحر) وانظر أيضاً الحيوان ١: ١٤٥، و٥: ٥٣١، و٦: ٣٨٣ و٣٨٥، و٤٠٦، ففيه بيان وتفصيل حول هذه الدّويبة. وانظر أيضاً غريب الحديث ٣: ٤٧. واشتكىٰ داء فيه: أي تسمم من سم الوحرة؛ فيقال وَحِرَ.

بالعيسوبِ الأحمرِ[1] تسكنُ القَلِيبَ والآبارَ. قال الراجز:

فِي كُـلِّ يَـوْمٍ قِـرْبَـةٌ مُـوَكَّـرهْ　　يشـربها مـريّـة كـالـوَحَـرهْ[2]

فشبه عليه الصلاةُ والسلامُ ما يسكنُ في صدرِ الإنسانِ من الغشِ والبلابلِ ويجولُ في قلبِهِ من مذموماتِ الخواطرِ بهذه الدويِّبةِ المنعوتةِ، فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ شبهَ القلبَ بالقَلِيبِ، وشبه ما يستجِنُّ فيه من نَغَلِهِ بما يستجنُّ في القليبِ من وَحَرِهِ.

[٢٢٧] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ[3]:

« **أعوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرجيم من هَمْزِه ونَفْثِهِ ونَفْخِه. فقيل: يا رسول الله ما همزُه ونفثه ونفخه؟ فقال: أما همزه فالمُوتَة[4]، وأما نَفْثُه فالشِّعْر، وأما نَفْخه فالكِبْرُ** ».

وفي هـذا الكـلام استعـاراتٌ ثـلاثٌ: الأولى منهـا الاستعـارةُ من همـزِ الشياطينِ، وأصلُ الهمزِ الغمزُ والدفعُ وكلُّ شيءٍ دفعته فقد همزته، ويروي بيت القُطاميّ[5]:

تَـراهُـمْ يَهْمِـزُونَ مَنِ اسْتَـرَكُّـوا　　ويَجْتَنِبُونَ مَـنْ صَدَقَ المِصَاعا[6]

---

(١) اليعسوب: ذكر النحل أو أميرها أو كبيرها.

(٢) الموكّرة: المملوءة، والمرية: السهلة السائغة. والوحرة: الدويبة المعروفة؛ وهي تأكل من كل شيء؛ فهو مري عندها.

(٣) أخرجه أبو داود برقم ٧٦٤ والترمذي برقم ٢٤٢، وابن ماجة ١: ١٣٩، وانظر غريب الحديث ٣: ٧٧.

(٤) الموتة: الجنون، لأن المجنون ينخسه الشيطان، والهمز والنخس أخوان.

(٥) هو عُمَير بن شُيَيم، أبو سعيد التغلبي، الملقب بالقُطاميّ: شاعر غزل فحل، كان من نصارى تغلب بالعراق، وأسلم، وقال العباسي: إن القطامي أول من لقب « صريع الغواني »، وكانت وفاته نحو سنة ١٣٠ هـ. الشعر والشعراء ٢: ٧٢٣، ومعاهد التنصيص ١: ١٨٠، والسمط ١: ١٣٢.

(٦) البيت في ديوان القطامي ص٣٥، ص٣٥، من قصيدة طويلة يمدح بها « زفر بن الحارث =

ويروى يَغْمُرون، فالهمز على ما فسّره النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ هاهنا المُوتَةُ وهي الجنونُ على الحقيقةِ، فإن الشيطانَ لا سلطانَ له على الإنسانِ ولا يصرعُهُ ويوسوسُ له ويفزعُهُ، وقد صرَّحَ التنزيلُ بذلك، فقال تعالى[1] : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ من سُلْطَانٍ إلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية، فعلمنا أنه لا سلطانَ له على الإنسانِ، إلا بالوساسِ والتخابيلِ، وضروبِ التهاويلِ، فلما كان ما يلحق المجنونَ من الأفزاعِ ويأخُذُه من العُرَواءِ[2] والانزعاجِ، عن وساسِ الشيطانِ جاز أن ينسب ذلك إلى همزِهِ وغمزِهِ على طريقِ المجازِ والاتساعِ في نظائرِهِ.

« والاستعارةُ الثانيةُ » الاستعارةُ من نفثِ الشيطانِ، وهي الشعرُ على ما فسّره النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ، وذلك مخصوصٌ في شعرِ المشركينَ الذين كانوا يهجونَ به رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وخيارَ المسلمينَ، أو ما يجري مجراه من أشعارِ المسلمينَ الإسلاميينَ لأنه عليه الصلاةُ والسلامُ قد قال[3] : « إنّ من الشعرِ حِكَماً »، فلا يجوزُ أن يكونَ هذا القولُ متناولاً لجميعِ الشعرِ عموماً. وموضعُ الاستعارةِ أن الشيطانَ لما كان يزينُ للمشركينَ الطعنَ في أعراضِ المسلمينَ، وكان الشعرُ مما تلفظ به ألسنتُهم شبهُه عليه الصلاةُ

= الكلابي » وروايته فيه:

تراهُم يغمِزون مَنْ استركّوا ويجتنبونَ مَنْ صَدَقَ المصاعا

ومن استركّوا: من استضعفوه، مأخوذ من الرّك وهو الضعف المصاع: المجالدة بالسيوف ـ ومن صدقه: من كان فيه قوياً شديداً فهم يجتنبونه لخوفهم منه.

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم، وانظر تفسير القرطبي ٩: ٣٥٤.

(٢) العرواء: قوّة الحمى ومسها في أول رعدتها؛ وقد شبه المؤلف ما يحدث لمن يهمزه الشيطان، بالرعدة التي تحدث للمحموم.

(٣) أخرجه الترمذي برقم ٢٨٤٨، والبخاري ١٠: ٤٤٥ و٤٤٦، وأبو داود برقم ٥٠١٠ و٥٠١١. وله رواية ثانية في الترمذي برقم ٢٨٤٧.

والسلامُ بالشيءِ الذي تنفثُ[1] به ألسنتُهم، وقد يجوزُ أن يكونَ إنما نسبهُ إلى نفثِهِ لأن الشيطانَ كان نَفَثَه في أفواهِهم، وتكلم به على ألسنتِهم، كما يقولون للمتكلم بالكلمةِ الغاويةِ: ما نطق على لسانِك إلا شيطانٌ. قال الفرزدق[2] في قصيدتِهِ التي يهجو فيها إبليسَ وهي مشهورةٌ:

وإنّ ابنَ إبليسٍ وإبليسَ ألْبَنا ... لهم بعذابِ الناسِ كلَّ غُلامِ[3]
هما نفثا في فِيَّ مِن فَمَوْيهما ... على النّابحِ العَاوي أَشَدُّ رِجَامِ

ويروي لجام، يريدُ بقولِهِ: ألبنا كلَّ غلامٍ، أي سقياهُ اللبنَ، فكأنهما غذياهُ بذلك فذَرَبَ به ونشأ عليه وتعودَهُ، «والاستعارةُ الثالثةُ»: الاستعارة من نفخِ الشيطانِ، وهو على ما فسره عليه الصلاةُ والسلامُ الكبرُ والعجبُ ولا نفخَ هناك على الحقيقةِ، وإنما المرادُ به ما يسوّلُهُ الشيطانُ للإنسانِ من تعظيمِ نفسِهِ واستحقارِ غيرِهِ، وتصغيرِ الناسِ في عينِهِ، فكأنه بهذا الفعلِ ينفخ في رُوعِهِ ما يستشعرُ به أنه أحقُّ من غيرِهِ بالتعظيمِ وأولى بالتفخيمِ تشبيهاً بالشيء الأجوفِ كالزّقِ[4]، وما في معناه لأنه إذا نَفخ فيه انتفخَ بعدَ ضُمْرِهِ[5]، وعظُمَ بعدَ صغَرِهِ، ومن قولِهِمْ للمتكبرِ إذا أسرفَ في الكبرِ، واستطارَ من العُجْبِ: قد نفخَ الشيطانُ في مناخِرِه، يريدونَ به المعنى الذي قدمنا ذكرَهُ.

---

(١) النفث: إخراج النفس مع بعض الريق، فهو نفخ ضعيف وأقل من التفل.
(٢) هو همام بن غالب التميمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق ـ ١١٠ هـ.
(٣) ديوان الفرزدق ٢: ٢١٥ وفيه (هُمَا تَفَلا) بدلاً من (هُما نفثا). وكنى بابن إبليس عن أشياعه، وألْبَنا: سَقَيا؛ أي أرضعا كل غلام بعذاب الناس. وفمويهما: أصلها فموان لهما تثنية فمّ.
والرجام: من رجمه؛ رماه بالحجارة. والنابح: العاوي: يريد به من يهجوه وقد شبه الفرزدق هجوه لأعدائه بالرمي بالحجارة بعد أن شبههم بالكلاب النابحة العاوية.
(٤) الزقّ: القربة الجوفاء التي تمتلىء بالهواء إذا نفخ فيها.
(٥) الضمر: الهزال والنحافة، والمقصود هنا: انتفخ وصار كبيراً بعد أن كان صغيراً.

[٢٢٨] ومن ذلك قولُهُ عليه الصّلاةُ والسّلامُ[١] :

« **العَيْنُ وِكَاءُ السَّهِ[٢] ، فإذا نامت العين استطلق الوِكَاءُ** »[٣] .

وهذه من أحسنِ الاستعاراتِ، والسَّهُ: اسمُ لِلسَّتةِ[٤] . قال الشاعرُ[٥] :

شَــأَتْـكَ قُـعَيْـنٌ غَثُّـهَــا وَسَمِـينُـهَــا وأنت السَّهُ السُّفْلَى إذا دُعِيَتْ نَصْرُ[٦]

فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه السَّتَة بالوعاءِ، وشبّه العينَ بالوِكاءِ، فـإذا نامت العينُ انحلَّ صرارُ[٧] الستهِ، كما أنه إذا زالَ الوِكاءُ دَسَعَ[٨] بما فيه الوعاءُ إلا أن حفظَ العينِ للسَّتهِ على خلافِ حفظِ الوِكاء للوعاءِ، فإن العينَ إذا أُشْرِجتْ[٩] لم تحفظْ ستهها، والأوكيةُ إذا حُلّتْ لم تضبطْ أوعيتَها.

ومن الناس من ينسبُ هذا الكلامَ إلى أميرِ المؤمنينَ عليٍّ عليـه السلامُ،

---

(١) انظر سنن الدارمي (وضوء ٤٨) والمسند ١ : ١١١ و٤ : ٩٧ وغريب الحديث ٣ : ٨١، والفائق ٤ : ٧٧.

(٢) قوله : السَّه؛ يعني حلقه الدُّبر. وقال الزمخشري : السَّه : الأستُ أصلها، سَتَةٌ، فخذ العين كما حذفت من مُذْ، وإذا صغرت ردَّت فقيل: سُتَيْهَة .

(٣) الوكاء : هو الخيط أو السير الذي يشدُّ به رأس القربة؛ فجعل اليقظة للعين مثل الوكاء للقربة، يقـول : فإذا نامـت العين استرخـى ذلك الـوكاء فكان منه الحـديث وقـال الزمخشـري في الحديث: جعل اليقظة للاست كالوكاء للقِرْبة .

(٤) انظر اللسان والصحاح والتاج (سته) .

(٥) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي : أبو شُريح : شاعر تميم في الجاهلية أو من كبار شعرائها . وهو زوج أمِّ الشاعر زهير بن أبي سلمى، عمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام. وكان في شعـره حكمة ورقة، كما كان غزلاً مغرماً بالنساء، توفي نحـو سنـة ٢ ق.هـ. (الأغانـي ١١ : ٧٠ ومعاهد التنصيص ١ : ١٣٢ والشعر والشعراء ١ : ٢٠٢ .

(٦) البيت في ديوان أوس ص٣٨. وشآه يشآه شأواً: إذا سبقه . والسَّه : لغة في الأست، وقُعَيْن أبو قبيلة من بني أسد ويخاطب أوس في البيت رجلاً من بني لُبَيْنَى بن سعد الأسدي، وكان قد هجاه .

(٧) القداد : الرباط، لأن القدّ هو الربط.

(٨) وسع بما فيه : أي دفع بما في داخله.

(٩) أَشْرَج العيبة أو الخباء : شرجها، وشرج الشيء شرجاً : ضمَّ أجزاءه بعضها إلىٰ بعض، وشرج العيبة : أدخل بعض عراها في بعض وشدها.

وقـد ذكر [هُ] محمـدُ بنُ يزيـدٍ المبرِّدُ[1] في الكتـابِ المقتضبِ في باب اللفظِ بالحروفِ[2] . وفي الأظهرِ الأشهرِ أنه للنبيّ عليه الصلاةُ والسلامُ[3] .

[٢٢٩] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ[4] وهـو يسأَلُ عن سحـابةٍ عرضت[5] :

« كَيْفَ تَرَوْنَ قواعِدَها وبَوَاسِقَها وَكَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاها ؟ »

في حديثٍ طويلٍ ، وفي هذا الكلام استعاراتٌ ثلاثٌ ، فإنه عليه الصلاةُ والسلامُ شبّه أصولَها ومناشئَها وطوالعَها ومبادئَها بقـواعدِ البيتِ التي هي أصـلُ بنائِهِ وأولُ إنشائِهِ ، وشبّه فروعَها المستطيلةَ إلى أوساطِ السماءِ ، وأعاليها البعيدةِ عن الآفاقِ ، بفروعِ الشجرةِ الباسقةِ التي هي ملتفُّ أوراقِها ومـزدحـمُ أفنانِهـا ، ويقال : بَسَقَتِ الشجرةُ والنخلةُ تَبْسُقانِ بُسُوقاً إذا طالتا . وكلُّ طويلٍ بـاسقٌ[6] . وفي التنزيل[7] : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » . وشبّه مُسْتَدَارَها في السماءِ عند استوائِها بالرحا المستديرةِ على قطبِها . ومن ذلك قيل رحـا الحربِ ، وهـو الموضعُ الذي يستدار فيه للمعاركةِ والجلادِ والتفافِ الرجالِ بالرجالِ . ومنه قولُ

---

(١) محمد بن يزيد الثمالي الأزدي ، أبو العباس ، المعروف بالمبرّد : إمام العربية في بغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار ، مولده البصرة ووفاته في بغداد سنة ٢٨٦ هـ نزهة الألبـاب ٢١٧ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٣٨٠ ، والسمط ١ : ٣٤٠ .

(٢) ذكره المبرّد في المقتضب مرتين الأولى ١ : ٣٤ ، ونسبه للإمام علي والثاني ١ : ٢٣٣ ، وجعله حديثاً .

(٣) السيوطي في الجامع الصغير ٢ : ٥٩ ، ضعف هذا الحديث برواية الإمام أحمد في مسنده عن علي كرّم الله وجهه ، وصححه برواية البيهقي عن مغاوية ، وضعف الروايتين ابن حجر في بلوغ المرام ص٢٨ . وانظر كشف الخفـاء ٢ : ١٠ ونصـب الـراية ١ : ٤٥ ، والجوهـر النقي لابـن التركمان ١ : ٢٩ .

(٤) انظر الحـديث في غريب الحـديث للهـروي ٣ : ١٠٤ ، والفائـق (قعـد) ٣ : ٢١٢ ، وأراد بالقواعد ما اعترض منها وسفل كقواعد البنيان ، وبالبواسق ما استطال من فروعها ، وبالرحى ما استدار منها .

(٥) عرضت : ظهرت في السماء .

(٦) في بعض الطبعات : « وكلُّ باسق طويل » .

(٧) الآية ١٠ من سورة ق وانظر تفسير القرطبي ١٧ : ٦ .

سليمانَ بنِ صُرَدٍ الخُزاعيِّ [1] في حديث لـه[2]: أتيت عليّاً عليـه السلامَ حين رفَـع يدَهُ عن مـرحى الجملِ [3]، يـريـد عن مَجْثِم[4] تلك الحـربِ بـالمكـانِ المخصـوصِ الذي دارت بـه رحاهـا. وبلغت فيه مُنْتَهـاها، وعلى ذلـك قـولُ الكُمَيْتِ بنِ زَيْدٍ يصفُ السحابَ:

كـأنمـا الـزَّجْـرُ والصهيـلُ بـه مَـرْ حَى مِراسِ الحروبِ ذو اللَّجَبِ[5]

يريد بالزجرِ والصهيلِ حفيفَ ودقِهِ وأزيزَ رعدِهِ. ويحتمل قولُهم: رحا الحـربِ وجهينِ: أحدهما أن يريدوا به اللبثَ والاستقرارَ، والآخرُ أن يريدوا به الجَولانَ والمدارَ، وقد يجوزُ أن يكونَ قولُه عليه الصلاةُ والسـلامُ في السحابـةِ: « كيف ترون رحاها ». يريدُ به صوتَ رعْدِها، كما سألهم عن لَمْعِ بـرقِها، وكثيـراً ما تشبه أصواتُ الرعدِ القاصفةُ بقعقةِ أصواتِ الأرْحاءِ[6] الدائرةِ، ولا يمتنعُ أنْ يعبّرَ عما تسمعه الأذنُ بعبارةِ ما تشاهدُهُ العينُ كما يقولُ القـائلُ لغيـرِهِ إذا سألَـهُ عن سماعِ الغناءِ المطربِ والحداءِ المعجبِ، كيف تـرى هذا الغنـاءَ؟ وكيف ترى هذا الحداءَ؟، وذلك شائعٌ عندَ أهلِ اللسانِ.

[٢٣٠] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[7]:

---

(١) سليمان بن صُرَد السلولي الخزاعي، أبو مطرّف: صحابي ـ ٦٥ هـ. وقد سبقت ترجمته.

(٢) انظر غريب الحديث ٣: ٤٧٥ وبعضه في ٣: ٢١٥ وانظر أيضاً الفائق.

(٣) مرحى الجمل: يعني الموضع الذي دارت عليه رحى الحرب. والعرب تشبه الحرب والقتال فيها بدوران الرحى.

(٤) المجثم: اسم مكان بن جثم بمعنى برك، وشبهت الحرب بالجمل ونحوه.

(٥) ديوان الكميت بن زيد حـ ١ ص١١٥.

(٦) الزجر والصهيل: المقصود بهما الأصوات التي تنبعث من السحابة من خفيف حبات المطر أثناء سقوطها وزمجرة الرعد الذي يصاحب المطر. والمرمى: مصـدر ميمـي بمعنـى دوران الرحـى، والمراس: مصدر مارس والمـراد قتـال الحـروب. واللجـب: الضوضـاء والأصـوات المرتفعـة. الأرحاء، جمع رحى، وتجمع أيضاً على أرْحٍ ورُحيٍّ وأَرْحِيَةٌ. وهي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار على الأعلى على قطب.

(٧) الحديث في المسند ٤: ١٤٥ و١٥٨، وغريـب الحديث ٣: ١٠٦، والفائق والنهاية (طفف).

« كلُّكُمْ بنو آدمَ طَفُّ الصَّاعِ [1] لم تَمْلُؤوه، وليس لأحد على أحدٍ فضلُ إلا بالتَّقْوَى ».

في حديثٍ طويلٍ ، فقولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: « طَفّ الصاع » ساهنا استعارةٌ.

والمرادُ أن كلَّ من كان من ولدِ آدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ فهو ناقصٌ لا يوصفُ بالتمامِ ، ولا يُعطى مزيدَ الكمالِ ، وإنما يتفاضل الناسُ بأعمالِهم، ويُفضّلون بكثرةِ فضائِلِهم. وإنما يوصفُ الإنسانُ بأنه فاضلُ إذا أضيفَ إلى الناقصِ ، وإلا فلا بدّ من نقائصَ تتخلل فضائلَهُ، ومساوٍ [2] تتوسط محاسنَه.

إما بأن يكونَ فاضلاً في حالٍ وناقصاً في حالٍ ، وإما بأن يكونَ قاصراً عما فوقَهُ وزائداً على مَن دونَهُ، وقولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: « طَفُّ الصاعِ لم تملئوه » من العباراتِ العجيبةِ عن هذا المعنى، يريد أن كلكم قاصرٌ عن غايةِ الكمالِ تشبيهاً بطفّ المكيالِ ، وهو أن يقاربَ الامتلاءَ من غيرِ أن يمتلىءَ. يقال: طَفّ المكيالِ وطُفافُه إذا أريدَ به هذا المعنى، وهو ضدُّ الطِّلاعِ [3] والطِّفاحِ [4] ، لأنَّ هاتينِ اللفظتينِ يعبر بهما عن بلوغِ غايةِ الامتلاءِ، واللفظةُ الأولى يعبرُ بها عن الوقوفِ دونَ حدِّ الامتلاءِ. ويقال إناءٌ طَفَّانٌ إذا بلغَ الماءُ أكثَرَهُ ولم يبلغْ غايتَهُ، ولو قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: أنتم بنو آدمَ كطَفِّ الصاعِ

---

(١) ألطف: هو أن يقرب الإناء من الامتلاء من غير أن يمتليء، يقال: هو طفّ المكيال ـ وطفافه ـ إذا كرب أن يملأه، ومنه التطفيف في الكيل إنما هو نقصانه: أي أنه لم يملأ إلىٰ شفته وإنما هو دون ذلك والصاع: مكيال تكال به الحبوب.

والمعنى: كلكم في الانتساب إلى أب واحد متساوي الأقدام في النقصان والتقاصد عن غاية التمام. وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال. ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى.

(٢) مساوٍ جمع مساءة، وأصلها مساويء وسهلت الهمزة بقلبها ياء ثم حذفت الياء للتنوين.

(٣) طِلاع الشيء: ملؤه.

(٤) طفاح الشيء: ملؤه أيضاً. ومن ذلك طفاح الأرض ذهباً: أي ملؤها ذهباً.

خرج الكلامُ عن أن يكونَ مستعاراً لأن دخولَ كافِ التشبيهِ في الكلامِ يخرجُهُ عن بابِ المجازِ مثلُ قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ في حديث[1] : خرجت حين بزغَ القمرُ كأنه فِلْقُ[2] جَفْنةٍ »، ومثل قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ في حديث[3] : « فإن الساعةَ كالحامـلِ المُتِمِّ[4] التي لا يَدْري أَهْلُهـا متى تَفْجَؤُهُم بوِلادِهـا ليلاً أو نهاراً »، ولو قال: والعمرُ فِلْقُ جفنةٍ، والساعةُ حامـلٌ متمٌّ كان الكـلامُ من حيِّزِ الاستعارةِ.

ومن هذا القبيلِ قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[5] : « المؤمنونَ كالبُنْيَانِ يَشُـدُّ بعضُه بعضاً » لو قال: بنيانٌ لكان من قبيل المجاز.

ومثلُه أيضاً قولَـه عليه الصـلاةُ والسلامُ لقـومٍ كانـوا يرفعـون أيديَهم في الصلاة[6] : « مَالِي أَرَاهُمْ يَرْفَعُونَ أيديَهم كأنها أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمُسٍ »[7].

ولو قال: أيديهم أذنابُ خيلٍ شُمُسٍ لكان الكلامُ مستعاراً، ولذلك نظائرُ كثيرةٌ يطول بذكرِهـا الكتابُ، ولم يـرضَ عليه الصـلاةُ والسلامُ بقـوله: « طَفُّ

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١١٧٠، وأحمد في المسند ١ : ١٠١ و٥ : ٣٦٩، وروايته عند مسلم: أيّكم يذكر ليلة طلع القمر وهو مثل شِقّ جَفْنَةٍ؟».

(٢) فلق الجفنة: نصفها، والجفنة: القصعة، وتكون بيضاوية الشكل ومثلها يكون الهلال أي متقوساً دائر الوسط دقيق الأطراف.

(٣) رواه أحمد في المسند ١ : ٣٧٥، وابن ماجة في الفتن (الباب ٣٣) باب فتنة الدجال وهو عنده: « كانت الساعة من الناس كالحامل التي لا يدري أهلها متى تفجؤ هم. . . . ».

(٤) المتمّ: التي بلغت تمام شهرها وتهيأت للولادة، ولكنها لا تعلم ساعة ولادتها بالضبط.

(٥) رواه البخاري ٥ : ٧١، ومسلم برقم ٢٥٨٥، والترمذي برقم ١٩٢٩، والنسائي ٥ : ٧٩ - ٨٠ وهو عندهم: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً ».

(٦) أخرجه مسلم رقم ٤٣٠ وأبو داود رقم ٦٦١ ورقم أيضاً ٩٩٨ و ٩٩٩ و ١٠٠ والنسائي ٢ : ٩٢ و ٣ : ٤ و ٥ وهو طرف من حديث طويل.

(٧) خيل شُمُس: شمس جمع شموس؛ وهو من الدواب ما لا يكاد يستقرّ شَغَباً وبَطَراً، ورجل شموس الأخلاق: عَسِرُها.

الصَّـاعِ » في إرادةِ الغـرضِ الـذي تكلمنـا عليـه في الخبـرِ حتى قـال: « لم تملؤوه » فزاد المعنى إيضاحا، والكلام إفصـاحاً. وفي ضمنِ هـذا القولِ نهى عن الافتخارِ على الناس بالفضائلِ الدينيـةِ دونَ الفضائـلِ الدنيـاوية[1]، وهـو معنى قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ[2]: « ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بالتقوى » لأن فضـائلَ الـدّينِ وُصَلٌ[3] يُتَـوَصلُ بهـا إلى النعيمِ الباقي والـدَّرج العوالى، وفضائل الدنيا لا تعدو غايتها، ولا توصِّل إلى ما بعدها، فهي كالغرس الذي لا يُثمِر، والزاد الذي لا يُبَلِّغ[4].

[٢٣١] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ[5]:

« **اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الأَيْهَمَيْنِ** »[6].

قيل: إنهما السيلُ والحريقُ، وقيل: بل هما السيلُ والجَمَلُ الصَّئولُ[7].

وتسميةُ كلِّ واحـدٍ من هذه الثـلاثةِ[8] بـالأيهمِ مجازٌ، وذلـك أن الأيهمَ هاهنا اسمٌ للشيءِ لا يُمْلكُ دفعُهُ، ولا يُستطاعُ ردُّهُ، ولا له نطقٌ فيكلَّمُ ولا سمعٌ فيُهَجْهَجُ[9]، ولا معقولٌ فيُسْتَعْتَبُ. ومن ذلك قيل للفلاةِ يهماءُ إذا كانت عمياءَ

---

(١) هذا أحد الأوجه الجائزة في النسب إلى الدُّنيا ويجوز فيها أيضاً دنيوي ودُنيً والدُّنا.

(٢) من الحديث نفسه موضوع البحث وأوله: « كلكم بنو آدم طفّ.... ».

(٣) الوصل جمع وصلة، والوصلة والصلة بمعنى واحد.

(٤) الزاد الذي لا يبلغ: هو الزاد الذي لا يكفي المسافر حتى يصل إلى غايته.

(٥) الحديث في غريب الحديث ٣: ١٩ والفائق والنهاية (يهم) ومثله اللسان والتاج.

(٦) تصحف في مطبوعات الكتاب إلى (الأبهمين، بالباء) وهو خطأ صوابه ما أثبتنا.

(٧) في غريب الحديث: « ويقال في أحدها إنه الجمل الصؤول الهائج، وإنما سمي أيهماً لأنه ليس مما يستطاع دفعه ولا ينطق فيكلّم أو يستعتب ولهذا قيل للفـلاة التي لا يهتـدي فيهـا الطـريق: « يَهْماء ».

ومثل هذا الحديث أيضاً قوله صلـى الله عليه وسـلـم: « تعـوذوا بالله من الأعميين... » وهمـا الأيهمان، أي السيل والحريق. انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (عمى).

(٨) الثلاثة أي: السيل والحريق والجمل الصؤول.

(٩) يُهَجْهج: يزجر بالصياح عليه وتخويفه برفع الصوت.

المسالكِ لا يُهتدى بآياتِها، ولا يُستدلُّ بأعلامِها، وقال الأعشىٰ [١]:

ويهماءَ بالليل غَطْشَى الفلا ةِ يُؤْنِسُني صَوْتُ فَيَادِهَا [٢]

والفيّاد: اسمُ طائرٍ، وقيل إنه ذَكَرُ البُوم. ومثلُ تسميتِهم الشيءَ أبهمَ إذا كان على الصفةِ التي ذكرناها ما أنشَدَنا شيخُنا أبو الفتحِ عثمانُ بنُ جِنّي النحويُّ رحمه اللهُ وأظنه من أبياتِ الكتابِ [٣]:

وداهيةٍ يتقيها الرجا لُ مَرْهُوبةُ الحدِّ لا فالُها [٤]

قال والمرادُ بقولِهِ: لا فالها، أي ليس لها جهة واحدة تُتقى منها كما يُتَقى الحيوانُ العادي من جهةِ أنيابِهِ، أو ناحيةِ أظفارِهِ، بل كل جهاتِها محذورٌ، وكل نواحيها مخوفٌ. وقد رُوي في هذا الخبر مكانَ التعوّذِ من الأبهمينِ التعـوّذُ من الأعميينِ والمعنى فيهما متقارِبٌ، لأن الأبهمَ هو الذي لا يُعلمُ كيف يُدْفعُ ومن أي وجهٍ يُضْبطُ والأعمى هو الذي لا يَعْلَمُ عَلام يَرِدُ ولا لأيّ وجهٍ يقصدُ؟

[٢٣٢] ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام [٥]:

---

(١) هو ميمون بن قيس بن جندل، أبو بَصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له: الأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، مولده ووفاته في قرية (منفوخة) باليمامة سنة ٧ هـ.

(٢) ديوان الأعشى: ٧٣.

(٣) كتاب سيبويه ١ : ٣١٦، ونسب البيت في شرح أبيات سيبويه ١ : ٢٠٣ للشاعر عامر بن جُوَيْن الطائي: وهو شاعر جاهلي قديم، وفارس فاتك معمّر، نزل به امرؤ القيس إثر نجاته من غزوة المنذر لكندة، فكاد عامر أن يغدر به. قتله بعض بني كلب في خبر أورده البغدادي في الخزانة. (خزانة الأدب ١ : ٥٧ وأسماء المغتالين ٦ : ٢٠٩ والمعمرون للسجستاني ٥٣.

(٤) البيت في كتاب سيبويه ١ : ٣١٦ وشرح أبياته ١ : ٢٠٣ وهو فيهما:

وداهيةٍ من دواهي المَنو نِ يَحْسَبُها الناسُ لا فالها

والحد: الشدة: أي شدتها وقسوتها، ولا فالها: أي لا فم لها، والمراد بالفم هنا المدخل. والمعنى أنه يريد دفع شرها والتهاب نارها حين أقبلت.

(٥) غريب الحديث للهروي ٣ : ١٢٥، والفائق والنهاية (تحت). وتتمته: « قالوا: يا رسول الله؛ وما الوعول؟ وما التحوت؟ قال: الوعول وجوه الناس وأشرافهم، والتُّحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم ». وقال الزمخشري: شبه الأشراف بالوعول لارتفاع مساكنها.

« لا تَقومُ الساعةُ حتى يَظْهَرَ الفُحْشُ [1] والبُخْلُ، ويُخَـوَّنَ الأمينُ ويُؤْتَمَنَ الخائِنُ، وتَهْلِكَ الوعُولُ وتَظْهَرَ التُّحُوت ».

قال: الوعولُ وجوهُ الناسِ وأشرافُهم [2]، والتحوتُ [3] الذين كانوا تحتَ أقدامِ الناسِ لا يؤبهُ لهم. فقولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ: « الوعولُ والتحـوتُ » مجازانِ على التفسيرِ الـذي ذكرَهُ صلى الله عليـه وآلِهِ، لأنـه شبّه عليـه الصلاةُ والسلامُ الناسَ وجِلّتهم بالوعولِ لأنها تعلو قُلَلَ الجبـالِ، وتكون في شَعفِ [4] الهضابِ، فهي أبداً عاليةُ المنازلِ بعيدةٌ عن المتناولِ.

وقـوله: التحـوتُ وهو جمـع تحتٍ، يـريـدُ بـه الخـاملينَ المغمـورينَ، والقليلينَ الذليلينَ لأنهم الطبقةُ السُّفلى من الناسِ، وهم الذين نزلوا عن غاياتِ العِلْيةِ، وقعدُوا بمهابِطِ الذلةِ، فكأنهم تحتَ أجلةِ الناسِ وأشرافِهِم، والأشرافُ والوجوهُ فوقٌ لهم، وتفسيرُه عليـه الصلاةُ والسـلامُ التحوتُ بـأنهم الذينَ كـانوا تحتَ أقـدامِ الناسِ لا يُعلَمُ بهم مجـازٌ آخرُ، وليس المـرادُ أنهم كانـوا تحتَ مواطىء الأقدامِ على الحقيقـةِ، وإنما المـرادُ أنهم كـانـوا من خمولِ الـذكرِ، وغموضِ القدرِ بحيثُ يشبّهون بالشيءِ الموطوءِ لذلتِهِ، والمنبوذِ لبِذْلتِهِ [5].

[٢٣٣] ومن ذلـك قولُـه عليه الصـلاةُ والسلامُ في الكتـابِ الذي كتبـهُ

---

(١) الفُحش: ما يشتدّ قبحه من الذنوب.

(٢) الوعل في الأصل: التيس الجبلي الذي يسكن أعالي الجبال، وشبّه به الشريف من الناس في أنه بعيد المنال.

(٣) التُّحوت جمع تحت، وهو مقابل فوق، فجعل الناس الذين لا يؤ به لهم نفس التحت وعين السفل.

(٤) شعف الهضاب: أعاليها.

(٥) البذلة: الشيء الذي لا يصان، وهي هنا مصدر بمعنى الابتذال؛ أي لابتذاله.

لصاحبِ دُومةَ[1] وهو المعروفُ بأُكَيْدِرٍ[2] ـ مُنْصَرَفَهُ صلى الله عليه وآلِهِ من غزوةِ تَبُوكَ[3]:

« إنّ لَنا الضَّاحِيَةَ مِنَ البَعْلِ ، ولَكُمُ الضامنة من النَّخْل » .

وفي روايـة أخرى: « إن لنـا الضاحيـة من الضَّحْل ، ولكم الضـامنة من النَّخْل » والضحلُ: الماءُ القليلُ. والروايةُ الأولى أصحُّ . والضاحيةُ من البعلِ: هي النخيلُ التي في ضواحي البلدةِ وصحاريها، والبعلُ: اسمٌ لما شربَ الماءَ بعروقِهِ من الأرضِ ولم يُتعهدْ كغيرِهِ بالسَّقي. قال عبدُ الله بن رَواحةَ[4]:

هُنَـالِـكَ لا أبـالي طَـلْعُ بَعْـل ولا سَـقْيٌ وإن عَـظُمَ الإنـاءُ[5]

ويروى نَخْلُ بَعْـلٍ ، وقولُـه عليه الصـلاةُ والسلامُ: « ولكم الضـامنةُ من النخلِ » مجازٌ، والمرادُ بالضامنةِ هاهنا ما تَضَمَّنتُه القُرى والأمصارُ من النخلِ ، فسماها عليه الصلاةُ والسلامُ ضامنةً، وهي في الحقيقة مضمونةٌ، وهذا موضعُ المجازِ، ومثلُ ذلك قولُ الشاعِر[6]:

---

(١) هي دُوْمة الجنْدل، وهي حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّء كانت به بنو كنانة من كلب. وهي من القربات (معجم البلدان ـ دومة).

(٢) هو أُكَيْدر بن عبد الملك الكندي: ملك دومة الجندل (الجوف) في الجاهلية. أسره خالد بن الوليد وأخذه إلى المدينة ، فقيل أسلم ، ورده الرسول إلى بلاده بعد أن كتب له كتاباً يمنع المسلمين من التعرض لقومه ما داموا يؤدون الجزية ، ولما قبض رسول الله ونقض أكيدر العهد قصده خالد وقتله وفتح دومة الجندل سنة ١٢ هـ. تهذيب ابن عساكر ٣ : ٩١ واللباب ١ : ٥٥٤ وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ١٢٤ .

(٣) غريب الحديث للهروي ٣ : ١٢٦ والفائق والنهاية .

(٤) وتَبُوك: موضع بين وادي القُرى والشّام، بينها وبين المدينة اثنتا عشرة مرحلة وكانت غزوة تبوك سنة ٩ هـ. وهي آخر غزوات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(٥) عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي، أبومحمد: صحابي ، يعدّ من الأمراء والشعراء الراجزين، شهد المشاهد، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة (بأدنى البلقاء من أرض الشام) فاستشهد فيها سنة ٨ هـ. الإصابة ت ٤٦٦٧ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ٣٨٧ وتهذيب التهذيب ٥ : ٢١٢ .

(٦) هو كُثيّر عزّة بن عبد الرحمن، أبو صخر الخزاعي: شاعر، متيمّ مشهور وهو من أهل المدينة ، وأكثر إقامته في مصر، وتوفي بالمدينة سنة ١٠٥ هـ. الأغاني ٩ : ٣ ـ ٣٩ والسير ٥ : ١٥٢ والسمط ١ : ٦١ .

ومُعْتَرِشٍ ضَبَّ العَدَاوَةِ مِنْهُمُ بِحُلْوِ الخَلا حَرْشَ الضِّبابِ الخَوادِعِ[٤]

فجعل الضبابَ خوادعَ، وهي في الحقيقةِ مخدوعةٌ، لأنها تخدعُ بضروبٍ من الحيلةِ حتى تخرجَ من مجاحِرها، وتُسْتَذْلَق[١] من مكامِنها. والخَلا مقصوراً: اسمٌ من أسماءِ الحشيشِ، وهو أيضاً اسمٌ لِحَسَنِ الكلامِ، وهو المرادُ في هذا المكانِ، يقال: إنه يُحسن الخَلا: إذا كان حسنَ الكلامِ.

[٢٣٤] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ في حديث[٢]:

« واسْتَذْكِرُوا القرآنَ فَلَهُوَ أشدُّ تَفَضِّياً من صُدُور الرجالِ من النَّعَم من عُقُلها ».

كذا رواه أبو عبيدٍ[٣]، ورواه أبو عُبَيْدَةَ[٤] « حادثوا القرآنَ بالدرسِ، فلهو أشدُّ تفضِّياً من صدورِ الرجالِ من الإبلِ المُعَقَّلةِ تنزعُ إلى أوطانِها ».

فقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « فلهو أشدّ تفصّياً من صدورِ الرجالِ » مجازٌ، والمرادُ بالتفصّي الذهابُ والتفلّتُ. قال الشاعرُ:

يا حفصُ ما ليُلكَ ذا التفصى والأثرِ البينِ للمُفِصِّ[٥]

٤) ديوان كثير: ٢٣٩.

(١) تُسْتذلق: أي تستخرج، وذلك بصب الماء في حجر الضبّ فيخرج فيحرشه الحارش أي الصائد.

(٢) أخرجه البخاري ٩: ٧٠ و ٧٢، ومسلم رقم ٧٩٠ والترمذي رقم ٢٩٤٣ والنسائي ٢: ١٥٤. وانظر غريب الحديث ٣: ١٤٨.
وتفصِّياً: كل شيء كان لازماً لشيء فَفُصِل عنه، قيل: تفصّى منه، كما يتفصّى الإنسان من البلية. أي: يتخلص منها.

(٣) هو القاسم بن سلاّم الهروي الأزدي الخراساني البغدادي، أبو عبيد من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ومن أهم كتبه (الغريب المصنف) و « غريب الحديث » وعليهما اعتمد الشريف الرضي في أحاديث كتابه ومات أبو عبيد سنة ٢٢٤ هـ.

(٤) هو مَعْمَر بن المُثَنَّى التَّيميّ بالولاء، أبو عبيدة النحوي البصري: من أئمة العلم بالأدب واللغة. وكان إباضياً شعوبياً، من حفاظ الحديث. مولده ووفاته بالبصرة سنة ٢٠٩ هـ. نزهة الأليا ١٠٤ وإنباه الرواة ٣: ٢٧٦ وتاريخ بغداد ١٣: ٢٥٢.

(٥) المفصّ: الذي يريد الفصل بين الشيئين، فيقال: فصى الشيء عن الشيء وفصصه، وفصاه: إذا فصله.

فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ شَبَّه تفلتَ القرآنِ وذهابَهُ من الصدرِ ما لم يُحادَثْ بالتلاوةِ ويُتعهدْ بالقراءةِ بتفلّتِ النعَمِ المُعَقّلةِ[1] من عُقُلِهَا إذا لم يُستظهرْ بإحكامِ عُقُلِها، فأقام عليه الصلاةُ والسلامُ الاستكثارَ من درسِ القرآنِ في أنه يجمعُ مشتتَهُ ويضبطُ متفلتَهُ مقامَ الاستظهارِ بعَقْلِ النعَمِ في أنه يقْصُر متسرعَها[2]، ويحْبِسُ نوازعَها[3].

والكلامُ هاهنا يدلُّ بمفهومِهِ على أنّ القُرآنَ هو المتفصِّي عن الصُّدورِ، والحقيقةُ أنّ القلوبَ هي المتخلّيةُ منه والتاركةُ له، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك جازَ على طريقِ المجازِ أن يُقال: إن القُرآنَ هو التّاركُ لها، والمتفصّي مِنها.

[٢٣٥] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: وقد سُئِلَ عن الإبلِ فقالَ[4]:

« **أعنانُ الشّياطينِ[5] لا تُقْبِلُ إلاّ مُوَلِّيةً ولا تُدْبِرُ إلا مُوَليةً[6] ولا يأْتي نفعُها إلا من جانِبها الأشْأمِ[7]** ».

فقولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ: « أعنانُ الشياطينِ » مجاز؛ والأعنان: النواحي.

ومنه قولُهم: أعنان السماء. أي نواحيها. وقال بعضُهُمْ: الصحيحُ أن

---

(١) المعقّلة: أي التي ربطت بها بالعقال.

(٢) يقصر: يحبس، ومتسرعها: عن الإسراع.

(٣) النوازع: جمع نازعة، وهي المشتاقة إلى المشي والرجوع إلى أوطانها.

(٤) انظر غريب الحديث ٣: ١٥٦ والفائق والنهاية (عنن).

(٥) الأعنان: النواحي؛ جمع عَنَنٍ وعنّ، كأنه قال: كأنها لكثرة آفاتها من نواحي الشيطان في أخلاقها وطبائعها.

(٦) موليه: معرضه ونافرة: أي أنها في جميع أحوالها نافرة.

(٧) ومن جانبها الأشأم: أيْ الشّمال.

عَنان الشيءِ نواحيه؛ فالأولَ قولَ البصريينَ، والثاني قولَ الكوفيينَ[1].

والمراد بقولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: « نـواحى الشياطينِ » على القـولينِ جميعاً المبالغةُ في وصفِ الإبلِ بالأخلاقِ السيئةِ، والطباعِ المستعصيةِ، فكأن الشياطينَ تختلها وتُقرِّها وتنهاها وتأمُرها.

ومما يقوّى ذلك الحديثانِ الآخرانِ في نعتِ الإبلِ، فأحدُهما قولُه عليـه الصـلاةُ والسلامُ[2]: « إن الإبـلَ خلقتْ من الشياطينِ » والحـديثُ الآخرُ قـولُهُ صلّى الله عليه وآله وسلمَ[3]: « إنّ على ذِرْوَةِ[4] كلّ بعيرٍ شيطاناً »، وهذا أيضاً مجازٌ؛ لأنه عليه الصلاةُ والسلامُ بالغ بذلك في وصفِ الإبلِ بالحِرَانِ والنِّفارِ[5] والاستعصـابِ واللَّجاجِ[6]، فكـأنه لإفـراطِ نِفارِهـا وشِمـاسِهـا[7] قـد امتطت الشياطينَ ذراها، فهي تؤُزُّها[8] وتَجُوسها[9]، وقيل إن المرادَ بقولِهِ عليه الصـلاةُ والسلامُ: لا تقبلُ إلا موليةً المَثَلُ الذي يقـال فيها إنهـا إذا أقبلتْ أدبرتْ، وإذا أدبرتْ أدبرتْ[10]: أي إن إقبـالَها إذا كـان بمنزلـةِ الإدبارِ، فـإدبارُهـا إذاً غايـةُ الإدبارِ.

---

(١) انظر اللسان والتاج (عنن).

وقال الزمخشري ٣:٣٣: « والأعنان والأعناءُ والأحناء بمعنىً، وهي النواحي.

(٢) انظر غريب الحديث ٣:١٥٧، والفتح الكبير ١:٢٩٤، وكنـز العمـال ٩:٢٤٩٦٧، ورواه ابـن ماجة، وأحمد في المسند ٤:٨٥ و ٨٦، وفي الفائق (عنن، ٣:١٣)، « وفي الحديث: أنهـم كرهوا الصلاة في أعطان الإبل، لأنها خُلقت من أعْنان الشياطين ». وفي الفتح الكبير: « إن الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطاناً ».

(٣) رواه أحمد في المسند ٤:٢٢١، وانظر كنز العمال ٩:٢٤٩٩٦ و ٢٤٩٩٧.

(٤) ذروة الشيء: أعلاه.

(٥) الحران: مصدر حرنت الدابة إذا امتنعت عن المشي، والنفار: مصدر نفرت الدابة إذا هاجت.

(٦) اللجاج: الجلبة واختلاط الأصوات.

(٧) الشماس: مصدر شمست الدابة إذا منعت نفسها من أن يركبها أحد.

(٨) أي توسوس لها، وأصل الأزّ التحريك والدفع.

(٩) تجوسها: تدخلها؛ كأنها تلبس أجسادها.

(١٠) انظر غريب الحديث ٣:١٥٧.

وقولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ: « ولا يأتي نفعُها إلا من جانِبِها الأشأمِ ». يريدُ أنها لا تحلبُ ولا تركبُ إلا من جهاتِ شمائِلِها، ويقال لليدِ الشمالِ: الشُّؤمىٰ.

ومنه قولُهُ تعالى[1]: ﴿وأصحَابُ المَشْئَمةِ مَا أَصْحَابُ المَشْئَمةِ﴾ يريد أصحابَ الشمالِ. والدليلُ على ذلك قولُه تعالى في الآيةِ الأخرى[2]: ﴿وأَصْحَابُ الشِّمالِ ما أَصْحَابُ الشِّمالِ﴾ فلما قال سبحانَهُ في الآيةِ الأولى: ﴿فأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾ قال: « وَأَصحَابُ المَشْئَمةِ »، ولما قالَ سبحانَهُ في الآيةِ الأخرى: « وأَصْحَابُ اليَمِين » قال: « وأَصْحابُ الشِّمالِ مَا أصْحابُ الشمالِ »؛ والمرادُ في الآيتينِ واحدٌ لا أنه سبحانَهُ طلبَ المقابلةَ في الكلامِ تأليفاً لأجزائِهِ، وملاحمةً بين أعضائِهِ[3].

ويقال للجانبِ الأيمنِ الإنسيّ، وللجانب الأيسر الوحشيّ، هذا على قولِ البصريينَ. وقال بعضُ الكوفيينَ الإنسيّ: هو الأيسرُ، وهو الذي تأتيهِ الناسُ عندَ الاحتلابِ والركوبِ، والوحشيّ هو الأيمنُ، وإنما سميّ وحشياً لأنَّ الركبَ والحالبَ لا يأتيانِ منه، وإنما يأتيانِ من الأيسرِ دونَهُ[4].

ومنه قول زهير[5]:

فجالَتْ على وَحْشِيِّها وكأنها ... مُسَرْبَلَةٌ من رازِقِيٍّ مُعَضَّدِ[6]

---

(١) الآية ٩ من سورة الواقعة، وانظر تفسير القرطبي ١٧: ١٩٨.

(٢) الآية ٤١ من سورة الواقعة، وانظر تفسير القرطبي ١٧: ٢١٣.

(٣) جعل للكلام أعضاء تشبيهاً بالإنسان، والمراد بالأعضاء الأجزاء.

(٤) انظر غريب الحديث للهروي ٣: ١٥٨، وتكاد العبارة تكون مأخوذة منه حرفياً.

(٥) زهير بن أبي سُلْمى المزني: حكيم الشعراء في الجاهلية. وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة، توفي في سنة ١٣ ق. هـ.

(٦) ديوان زهير: ٢٢٨.

أراد جانبَها الأيمنَ لأنها إذا فزِعَتْ حاصتْ[1] من جانبِها الإنسيّ الذي تخافُ أن يُؤتي منه وهو الشمالُ إلى جانبِها الوحشيّ الذي تأمنُ الإتيانَ من ناحيتِهِ وهو اليمينُ. والخائفُ إنما يفرّ من موضعِ الذعرِ والمخافةِ إلى موضعِ الأمنِ والسلامةِ.

[٢٣٦] ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام[2]:
« **مِنْ شَرِّ مَا أُعْطِيَ العَبْدُ شُحٌّ هَالِعٌ أَوْ جُبْنٌ خَالِعٌ** ».

والهالعُ: المخيفُ المفزعُ والاسمُ منه الهَلَعُ، وهو أشدُّ الجزعِ[3].

وقولُه عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « أو جبنٌ خالعٌ » مجازٌ: أي يخلعُ قلبَ الجبانِ، وهذا على المبالغةِ في وصفِهِ بوَهَلِ[4] الرَّوعِ ونَخَبِ الرُّوعِ وليس يبلغُ الجبنُ على الحقيقةِ إلى أن يخلعَ قلبَ الجبانِ من مَناطِهِ، ويزعجُهُ عن قرارِهِ، وإنما المرادُ بذلك ما يعرضُ في القلبِ عند الخوفِ من نوازعِ الأفكارِ، ونوازعِ الجذارِ.

وعلى ذلك[5] قولُه تعالى[6]: ﴿**وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِر**﴾. وقد أوضحنا الكلامَ على ذلك في كتابِ: « مجازاتِ القرآنِ »[7].

---

(١) حاصت: رجعت وعادت.

(٢) رواه أبو داود برقم ٢٥١١، ورواه أيضاً البخاري في تأريخه وهو حديث صحيح. وانظر أيضاً غريب الحديث ٣:٦٢، والمسند ٢:٣٠٢ و ٣٢٠ والفائق « هلع ». جزعاً شديداً، ويحزن على درهم يفوته، أو يخرج عن يده، وهذا من باب قولهم ليل نائم ويوم عاصف، أي: يُنام فيه، وتعصف فيه الريح.
والخالع: الذي كأنه خُلِع فؤاده لشدة خوفه وفزعه.

(٣) قال الزّبيدي في التاج: « الهَلَعُ: الجزع وقلة الصبير، وقيل: « هو أفحش الجزع وأسوَؤه ».

(٤) الوهل: الضعف والجبن والفزع.

(٥) أي على المبالغة في وصف الخوف.

(٦) الآية ١٠ من سورة الأحزاب، وانظر تفسير القرطبي ١٤:١٤٤.

(٧) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ٢٦٤.

[٢٣٧] ومن ذلك قولُهُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ[1] :

« ما مِنْ أميرِ عَشَرةٍ إلاّ وَهُوَ يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ مَغْلُولَةً يَداهُ إلى عُنُقِه حَتَّى يكُونَ عَمَلُه الَّذي يُطْلِقُهُ[2] أوْ يُوتِغُهُ »[3] .

وهذه استعارةٌ لأن العملَ على الحقيقةِ لا يطلقُ المرءَ من وَثاقٍ ولا يُوثِقُهُ بعد إطلاقٍ، وإنما المرادُ أنه يجيءُ مغلولةً يداهُ إلى عنقِهِ، فإن كان عملُهُ صالحاً أطلقَ اللَّهُ عنه رِبْقةَ وثاقِهِ، وإن كان عملاً صالحاً زادَهُ اللَّهُ خِناقاً إلى خِناقِهِ. وإنما أضافَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الإطلاقَ والإيثاقَ للعمل لأن العملَ سببُهُما، وصلاحُهُ وفسادُهُ مؤثرٌ فيهما.

وقوله: « يُوتغه » المرادُ به يُسلِمُهُ ويُهْلِكُهُ، يقال: وتِغَ الرجلُ يَوْتَغ وَتَغاً إذا هلَك، وقد أوتغه غيرُهُ إذا أهلكَهُ ومنه قولهم: أوتغ فلانٌ دينا إذا ثلَمَهُ وأفسدَهُ ويروى أو يُوبقُهُ[4] والمعنيانِ متقاربانِ.

[٢٣٨] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ في كتابٍ كتبَهُ لثقيفٍ[5] :

« وإنّ ما كان لهم من دَيْنٍ إلى أجلٍ فَبَلَغَ أَجَلَهُ فإنّه لِيَاطٌ مُبَرَّأٌ مِنَ اللَّهِ »، وهذه استعارةٌ والمرادُ باللياطِ هاهنا الربا المضافُ إلى رؤوسِ الأموالِ، كأنه

---

(١) انظر سنن الدارمي (سير ٧٢)، والمسند ٢ : ٤٣١ و ٥ : ٢٨٤ و ٣٢٣ و ٣٢٧ وغريب الحديث ٣ : ١٧٠، والفتح الكبير ٣ : ١٠٦، وكنز العمال ٦ : ١٤٧٢٢ و ١٤٧٢٣ والفائق والنهاية (وتغ).

(٢) يطلقه: يعني ينجّيه.

(٣) أو يوتغه: يعني يهلكه؛ ويقال: وَتِغَ وَتَغاً إذا هلك، وأوتغه غيره.

(٤) يوبقه: يهلكه.

(٥) انظر غريب الحديث ٣ : ١٩٨ والفائق والنهاية (ليط). وثقيف بن منبّه بن بكر بن هوازن، من عدنان: جد جاهلي. وكانت منازل بنيه في الطائف، وهم عدّة بطون. وقد أسلمت ثقيف في رمضان سنة ٩ هـ جوامع السيرة: ٢٥٥.

وقال الهروي: « في حديثه عليه السلام أنه كتب لثقيف حين أسلموا كتاباً فيه أنّ لهم ذمّةَ اللَّه، وأنّ واديهم حرام عِضَاهُه وصَيْدُه وظلم فيه وأن ما كان لهم من دَيْن إلى أجل فبلغ أجله فإنه لياطٌ مبرّأٌ من الله. وإن ما كان لهم من دَين في رَهْن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى رأسه ويُلاط بعكاظ ولا يؤخرّ ».

عليه الصلاةُ والسلامُ شبّهه بالشيءِ الملصقِ بالشيءِ والمضافِ إليه، وكلَّ شيءٍ ألصقُ بشيءٍ فقد لِيطَ به. ومنه لياطُ الحوضِ، وهو ما يلصقُ به بعضُ أحجارِهِ إلى بعضٍ عند بنائِهِ أو إصلاحِهِ من طينٍ أو ما يقومُ مَقامَهُ، يقال: قد لاطَ فلانٌ حوضَهُ إذا رقَّهُ وأصلَحَهُ، وفي حديثٍ لأميرِ المؤمنينَ عليه السلامُ مع الفرزدقِ[1]: إن أباه غالباً جاء به إليه صلى الله عليه وآلِهِ، وهو يَلُوطُ حوضاً له.

وفي قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: «مبرأُ من الله» سرٌّ لطيفٌ، وهو أنه لما جعلَ الربا ملصقاً إلى أموالِهِمْ على الوجهِ المذمومِ جعلَهُ مبرأً من اللَّهِ سبحانَهُ، فكان ذلك الإلصاقُ بالأموالِ سبباً للتبرئةِ من الله تعالى. والمرادُ مبرأُ من رضاءٍ أو من دينِ اللَّهِ أو من ثوابِ اللَّهِ، لا بدَّ من تقديرٍ واحدٍ من هذه المضافاتِ، لأن اللَّهَ سبحانَهُ لا يجوزُ أن يتصلَ به شيءٌ على الحقيقةِ، لأن ذلك من صفاتِ الأجسامِ المكيفةِ، والأبعاضِ المؤلفةِ التي يجوزُ عليها أن تتدانى فتلتصقَ، وأن تتناءى فتفترقَ، تعالى اللَّهُ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

وليس هذا من مواضعِ استقصاءِ الكلامِ على هذا المعنى. وقد يجوزُ أن يكونَ المرادُ باللِّياطِ هاهنا القشرُ، يقال: لَيْطٌ[2] ولِياطٌ. قال الشاعرُ يصف قوساً عربيةً[3]:

فَمَلَّكَ باللَّيطِ الذي تحتَ قشرِها ... كغِرْقِيء بِيضٍ كَنَّهُ القَيْضُ من علُ[4]

---

(١) هو همام بن غالب التميمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق، ت ١١٠ هـ.

(٢) قال الزَّبيدي في التاج (ليط): «وقال الأزهري: لِيوطُ العُوْد: القشر الذي تحت القشر الأعلى، جمع لِيطٌ، كريشةٍ وريشٍ وجمع لِيطٍ: لِياطٌ بكسرهما، وألياطٌ، وأنشد الفارسي قول أوس بن حجر يصف قوساً وقوّاساً:

فملّك اللّيط الذي تحت

(٣) هو أوس بن حجر وقد سبق التعريف به.

(٤) ديوان أوس بن حجر ص٨٩.

ومعنى كنّه القيض: ستره، والقيض هو القشرة اليابسة للبيضة وهي حماية، كما أن قشر القوس حماية لها.

فقوله ملّك: أي شدّد بتركِ قشرِ النبعةِ عليها ما تحتَهُ من عودِها، فقويتْ بانضمامِ القشرِ إليها. وذلك مأخوذٌ من قولِ القائلِ: مَلَكْتُ العجينَ، أي أحكمتُ عجنَهُ، وموضعُ (الذي) هاهنا نصبٌ بملّكَ كأنه قال: فقوِيَ باللِيطِ عودُ القوسِ، والغِرْقىءُ: القشرُ الرقيقُ الذي بين جسمِ البيضةِ وبينَ قشرِها الأعلى، والقشرُ الأعلى هو القَيْضُ، واللِّيطُ أيضاً الجلدُ، والجمعُ ألياط، والليطُ أيضاً كونُ الشيءِ، ذَكَر ذلك أبو عبيدٍ في الغريبِ المصنفِ، فيكونُ الربا المضافُ إلى رؤوسِ الأموالِ على هذا القولِ مشبَّهاً بالقشرِ المضافِ إلى العودِ في أن العودَ هو القائمُ بنفسِهِ، والقشرُ كالتبعِ له والمنوطِ به.

[٢٣٩] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ(١):

« إنّ للشيطان نَشُوقا وكعُوقا ودِسَامَا ».

وهذه الكلماتُ الثلاث محمولةٌ على المجازِ، لأن النشوقَ ما استنشقَهُ الإنسانُ بأنفِهِ، واللعوقُ ما لعقه بلسانِهِ، والدِّسامُ هاهنا الشيءُ الذي يجعلُهُ سِداداً لأذنِه، يقالُ منه دَسَمْتُ الشيءَ أدسُمُهُ دَسْماً: إذا سددتَهُ.

والمراد بهذه الكلماتِ قريبٌ من المرادِ بالحديثِ الذي تقدّمَ كلامُنا عليهِ في هذا الكتابِ، وهو استعاذَتُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ من هَمَزاتِ الشيطانِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ. فكأنه عليه الصلاةُ والسلامُ شبَّهَ ما يسوّلُهُ الشيطانُ للإنسانِ من العُجْبِ بنفسِهِ والإزراءِ على غيرِهِ حتى يشمخ بأنفِهِ ويَنْأى بِعِطْفِهِ بالنَّشُوقِ الذي يُنْشِقُه إياه، فيحدثُ له هذا الخلقُ الذميمُ والطبعُ اللئيمُ، وقوّى ذلك بذكرِ اللُّعوقِ، فكأنّ الشيطانَ يُلْعِقُهُ بهذا التسويلِ لَعوقاً إذا وصلَ إلى جوفِهِ أحدثَ له خيلاءَ الكبرِ، ومَدَّ له في غُلواءِ العُجْبِ.

---

(١) انظر غريب الحديث ٣: ٢٠١ و ٤: ٤٩٣ والفائق.
قال الهروي: الدِّسام: ما سدّ به الأذن، واللّعُوق في الفم، والنشوق (لكل دواء يصب) في الأنف.

وشبه عليه الصلاةُ والسلامُ صرفَ الشيطانِ للإنسانِ عن مراشدِهِ وإصمامَهُ عن سماعِ قولِ مرشدِه بالدِّسامِ، وهو الصمامُ الذي تُسَدُّ به الأذنُ، فتحجبُ عن سماعِ الأصواتِ وزواجرِ العظاتِ.

[٢٤٠] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ في مرضِهِ الذي مات فيه[١]:

« أَغْبَطَتْ[٢] عَلَيّ الحُمَّى ».

وهذه استعارةٌ، وربما قيل: أَغْمَطَت بالميم[٣]. قال الواقديُّ في[٤] هذا الحديثِ: أصابته حُمّى مُغْمِطةٌ بالميم[٥]. وقال الأصمعيُّ[٦]: أغبطتْ علينا السماءُ إذا دامَ مطرُها، وقال أبو عبيدٍ: هما لغتان بالمِيمِ والباءِ قد سمعناهما[٧]. وهذا كقولِهِم: سَبّد الرجلُ رَأسَهُ وسَمَّدَهُ إذا استأصلَ حلقَهُ[٨]، وأشباهُ ذلك كثيرةٌ، وأغْبَطَت الحمّى بالباء أكثرُ في كلامِهِم، والأصلُ في ذلك إلزامُ الرْحلِ ظهرَ البعيرِ، يقالُ: أغبطَ فلانٌ رحلَهُ على مطيتِهِ، أي أطالَ مكثَهُ عليها ولِزَامَهُ لها.

---

(١) غريب الحديث ١ :١٥٧، والفائق والنهاية واللسان والتاج (غبط).

(٢) الإغباط في الأصل: وضع الغبيط على الجمل؛ ثم قالوا: أَغْبَطْتَ الرجل على البعير؛ ثم استعاروه فقالوا: أغبطت عليه الحُمَّى؛ كقولك: رحْلتُهُ وركْبْتُهُ.

(٣) أغمطَتْ (بالميم): إما أن يكون الميم فيه بدلاً من الباء، وإما أن يكون من الغَمْط، وهو كفران النعمة وسَتْرُها؛ لأنها إذا غشيته وركبته، فكأنما سترت عليه. وقد جاء اغتمطته بمعنى علوته.

(٤) محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، أبو عبدالله المدني، الواقدي من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث ولد بالمدينة، وولي القضاء ببغداد واستمر إلى أن توفي بها سنة ٢٠٧ هـ. (تاريخ بغداد ٣ :٣ وتهذيب التهذيب ٩ :٣٦٣ والسير ٩ :٤٥٤).

(٥) انظر هذا الكلام في غريب الحديث ١ :١٥٧، وزاد بعده « ـ بالميم في معنى الباء ».

(٦) انظر قول الأصمعي في غريب الحديث ١ :١٥٨، وزاد بعده « وهو من هذا ».

(٧) انظر غريب الحديث ١ :١٥٨.

(٨) قال أبو عبيد في غريب الحديث ١ :١٥٨: « وهذا مثل قولك: سبَّد الرجل رأسه وسمَّده ـ إذا استأصله. وأشباه بذلك كثيرة ».

ومن ذلك قولُ الراجزِ[1]:

إغباطنا المَيْسَ على أصْلاَبِهِ[2].

وقولُ الآخرِ:

وألـزِمَـتْـهُ قَـتَـبـاً تَـوَسَّـطُهْ   فَقَـرُبَتْ فَهْيَ عَلَيْنـا تُغبِـطُهْ[3]

ومنه سُمّي الغبيطُ، وهو مركبٌ من مراكبِ النساءِ فكأنّه عليه الصلاةُ والسلامُ شبَّهَ لزومَ الحمى له بلزومِ القَتَبِ ظهرَ الراحلةِ لأنها إذا ألزمَ ظهرَهَا عَقَرهُ وأكثرَ دَبَرَهُ[4]، ويقال: قَتَبٌ مُعْقِرٌ: إذا عضَّ[5] الغاربَ وأَدْمىٰ المناكبَ، فكذلك الحمّى إذا دامَ لبثُها على الإنسانِ هاضتْ[6] متنَهُ وحَسَرَت قوّتَه[7].

[٢٤١] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ[8]:

---

(١) البيت في التاج واللسان والصحاح والعباب (غبط)، والجمهرة ١ : ٣٠٧ وقال في التاج: « قلت: الرجز لحميد الأرقط يصف جملاً شديداً، ونسبه ابن بَرِّيّ لأبي النجم ».
وحميد الأرقط بن مالك التميمي وهم ربيعة الجوع. وسمي الأرقط لآثار كانت بوجهه: وهو شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية وكان معاصراً للحجاج (الخزانة ٥ : ٣٩٥ والسمط ٢ : ٦٤٩، ومعجم الأدباء ١١ : ١٤).
وأما أبو النجم فهو الفضل بن قدامة العجلي: من أكابر الرجّاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر نبغ في العصر الأموي، قال أبو عمرو بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة، وهو أبلغ من العجاج في النعت، توفي في سنة ١٣٠ هـ. (الأغاني ١٠ : ١٥٠ ومعاهد التنصيص ١ : ١٨ والسمط ١ : ٣٢٨.

(٢) هو الثاني في المراجع السابقة وقبله: وانْتَسَفَ الجَالبَ من أنْدابِهِ
والميس في البيت الشاهد: شجر عظام تعمل منه الرحال.
والاغباط: إدامة وضع الرحل، وأصلابه: أصلاب البعير: أي ظهره.

(٣) القتب: البرذعة، وتوسطه: أي تجعله في وسط ظهر الدابة، وتغبطه أي: تطيل إبقاءه.

(٤) عقره: جرحه، والدَّبر: أثر الجراح.

(٥) عض الغارب: الغارب هو ما بين السنام إلى العنق، وعضه أي التأثير فيه تأثيراً شديداً.

(٦) هاضت: أضعفت، والمتن: الظهر، والمراد به هنا الجسم كله أو قوته.

(٧) حسرت قوّته: قلّلتها.

(٨) انظر غريب الحديث ٣ : ٤٦٣ وجعله من أحاديث الإمام علي كرم الله وجهه وهو فيه على الشكل =

« خَيْرُ الناس في آخر الزَّمانِ الرَّجُلُ النُّوَمَةُ ».

وهذا مجازٌ، والمرادُ بالنُّوَمَةِ هاهنا: الرجلُ الخاملُ الشأنِ الخفيُّ المكانِ، لا الكثيرُ النومِ على الحقيقةِ. ومثلُهُ الحديثُ الآخرُ[1]: « رُبَّ ذي طِمْرينِ لا نَوْمَةَ له لو أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّ قسمَهُ ». لأن الخاشعَ العابدَ والمنقطعَ الزاهدَ، كثيراً ما يكونُ خاملَ الشخصِ ميّتَ الذكرِ لخفائِـهِ على النواظرِ وانقطاعِـهِ عن المجامعِ، ومن ذلك قولُهُمْ: نام جَدّ[2] آلِ فلانٍ، أي خملَ بعدَ اشتهارِهِ، وسقطَ بعد ارتفاعِهِ. قال الشاعرُ:

نامت جدودُهُمُ وأسقطَ نجمُهُمْ والنجمُ يسقطُ والجدودُ تَنامُ[3]

= التالي: « في حديثه عليه السلام (أي حديث علي) ذكر آخر الزمان والفتن فقال: خير أهل ذلك الزمان كل نُوَمَة، أولئك مصابيح الهدى، ليسوا

وانظر أيضاً الفائق والنهاية (نوم) والدارمي (مقدمة ٢٧).

وقال الهروي: « قوله: كل نُوَمَة: يعني الخامل الذكر الغامض في الناس الذي لا يعرف الشرّ ولا أهله ».

وقال الزمخشري: « وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال لعلي: ما النُّوَمَةُ؟ فقال: الذي يسكن في الفتنة فلا يبدو منه شيء ».

(١) كذ رواه الشريف، أما روايته عند الترمذي فهي على الشكل التالي: « قال الترمذي في مناقب البراء بن مالك رقم ٣٨٥٣: « قال رسول الله (ص) كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤ به له، لو أقسم على الله لابرّه منهم: البراء بن مالك »...

وانظر أيضاً: الفائق والنهاية (ضعف، طمر).

والأشعث: البعيد العهد بالدهن والمتسريح والغسل.

وذو طمرين: المطر: الثوب الخلَق، وذو طمرين: الذي عليه ثوبان خلقان.

ولا يؤ به له: أي لا يُعرف ولا يعلم به لحقارته.

لأبَرَّه: أبرّ قسمه، أي: صدّقه وجعله باراً فيه لا يحنث، ولو دعا الله ملحاً في الدعاء لأجابه إلىٰ ما يطلب.

(٢) الجدّ: الحظّ.

(٣) نامت جد ودهم: تعثرت حظوظهم، وأسقط نجمهم: خمل ذكرهم لأن العرب تعبر عن علو الذكر بعلو النجم، وخمول الذكر بسقوط النجم.

[٢٤٢] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ:

« **مَنْ خَالَفَ الجماعة فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإسْلام مِنْ عُنُقِهِ** ».

وهذه استعارةٌ، والرِّبقةُ: حبلٌ يربطُ بين عودينِ ثم تجعلُ فيه عُرًى فتُرْبَق فيه السِّخالُ[1]: أي تربطُ فيه، ويقال في إبل الصدقةِ: عِقَالُ عامٍ واحدٍ لأن الإبلَ تُعْقلُ. وفي الغنم رِباقُ واحدٍ لأن الغنم تُرْبَقُ، والمرادُ بذلك صدقهُ عامٍ من الإبلِ أو الغنمِ ،فشبّهَ عليه الصلاةُ والسلامُ ما في عنقِ الإنسانِ من لوازمِ الإسلامِ ومعاقدِ الإيمانِ بالربقةِ التي في عنقِ السَّخلِ لأنها تصدُّهُ إذا همّ بالشرودِ، وتمسكُهُ إذا جاذَبَ إلى النزوعِ ، وكذلك الإسلامُ يمنع صاحَبَهُ من الارتكاسِ[2] في المحظوراتِ، والتهوُّكَ[3] في الضلالاتِ.

[٢٤٣] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ في حديثٍ طويلٍ[4]:

« **تُؤَخِّرون الصلاةَ إلى شَرَقِ المَوْتَى** ».

وقد قيلَ في ذلك أقوالٌ كلُّها بعيدةٌ عن المحجةِ[5]، ومع ذلك فيخرجُ الكلامُ من حيّزِ الاستعارةِ غيرَ قولٍ واحدٍ هو أن يكونَ المرادُ أنهم يؤخرونَ الصلاةَ إلى ألّا يبقى من النهارِ إلا بقدرِ ما بقي من نفسِ الميّتِ الذي قد شَرِقَ بريقُهُ، وغَرْغرَ[6] ببقيةِ نفسِهِ، فنشّبَه عليه الصلاةُ والسلامُ تلك البقيةَ بشُفَافةِ الذَّماءِ التي قد قرُبَ انقضاؤها، وحان فناؤها.

---

(١) السخال جمع سخلة: وهي بنت السشاة.

(٢) الارتكاس: السقوط.

(٣) التهوك: التهور.

(٤) انظر غريب الحديث ١: ٣٢٩، والفائق (شوق)، وروايته فيهما: « لعلكم ستُدركون أقواماً يؤخرون الصلاة إلى شَرَق الموتى فصلوا الصلاة للوقت الذي تعرفون ثم صلوها معهم ».
ويقال: شرقت الشمسُ شَرَقاً إذا ضوؤ ها، وكأنه من اللحم الشَّرِق، وهو الأحمر الذي لا دسم له.

(٥) أي بعيدة عن الصواب، وأصل المحجة؛ الطريق المستقيم.

(٦) غرغر: تردد نفسه في حلْقه كما يتردد ماء الغرغرة.

[٢٤٤] ومن ذلك قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ[1] :

« لا تَرْفَعْ عَصاكَ عَنْ أهْلك » .

وهذا القولُ مجازٌ على أكثرِ الأقوالِ ، وذلك أنه عليه الصلاةُ والسلامُ لم يرد الضربَ بالعصا على الحقيقةِ؛ لأن ذلك مكروهٌ عندَهُ ومذمومٌ فاعلُهُ ، ألا تراه عليه الصلاةُ والسلامُ يوصى أمتَهُ أن يرفقوا بمن مَلَكَتْ أيمانُهُمْ حُنُوًّا عليهم ، ورأفةً بهم ، ونظراً إليهم ، فكيف بالأحرارِ من الأهلِ والولدِ الذين حقُّهُمْ أوجبُ والحنوُّ عليهم أَوْلى؟ . وإنما المراد لا ترفع التأديبَ عنهم ، ولا تُغُبَّ التقويمَ لهم ، فكنى عن ذلك بالعصا حملاً للكلامِ على عُرْفِ العربِ؛ لأن المتعارَفَ بينَها على أن التأديبَ في الأكثرِ لا يكونُ إلا بقرعِ العصا . وقد يجوزُ أن يكونَ المرادُ بذلك الاجتماعُ والائتلافُ ، من قولِهِمْ : فلانٌ قد شقَّ عصا المسلمينَ إذا فرّقَ جماعتَهُمْ وبدّدَ ألفتَهُمْ ، ومنه قولُ صِلَةَ بنِ أَشْيَمَ[2] لأبي السَّلِيلِ[3] : إياك وقَتِيلَ[4] العصا[5] ، يقول : إياك أن تكون قاتلاً أو مقتولاً في شقِّ عصا المسلمينَ .

ومنه قولُ جريرٍ[6] :

---

(١) انظر غريب الحديث للهروي ١ : ٣٤٤ ، والفائق (عصا) .
قال الزمخشري : « أي لا تغفل عن أدبهم ومنعهم من الفساد والشِّقاق؛ ويقال للرجل الحسن السياسية لما ولى : إنه للَّيِّن العصا .

(٢) صِلَةُ بن أَشْيَم ، أبو الصهباء العدوي البصري : الزاهد ، العابد ، القدوة قتل سنة ٦٢ هـ السير ٣ : ٤٩٧ .

(٣) هو ضُرَيْب بن نُقَي ، أبو السَّليل القيسي الجُريري البصري : محدث ثقة صادق (تهذيب التهذيب ٤ : ٤٥٨ ، وتقريب التهذيب ١ : ٣٧٤) .

(٤) جاءت في الطبعات السابقة (وقتل) وهو خطأ صوابه ما أثبتناه .

(٥) غريب الحديث ١ : ٣٤٤ ، والفائق ٢ : ٤٤٠ .

(٦) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى التميمي : أشعر أهل عصره ، كان عفيفاً وأخباره كثيرة ، ولد ومات في اليمامة سنة ١١٠ هـ؟!

فلمــا التقى الحَيَّــان أُلْقِيَتِ العصــا   ومـات الهـوى لما أُصيبَتْ مَقَـاتِلُهْ[1]

يقول: لما التقى الحيّان وقع الائتلافُ والدنوُّ وزال التمنعُ والنبوُّ، فكأنـه عليه الصلاةُ والسلامُ أراد بقولِهِ: « لا ترفع عصاك عن أهلِك »، أي أحملهم أبداً على الصلاحِ والائتلافِ، وامنعهُمْ من الفسادِ والخلافِ.

ويقال للرجلِ إذا كان رقيقَ السيرةِ جميلَ الإيالةِ[2]: إنه للَيّنُ العصا[3].

قال مَعْنُ بنُ أَوْسٍ المُزَنيُّ[4]:

عَـلَيْــهِ شَــرِيبٌ وَادِعٌ لَـيِّنُ الـعَصَــا   يُسَـاجِلُهَـا جُمَّــاتِـهِ وَتُسَــاجِلُهْ[5]

وقد تكلمنا على نظير هذا الحديث فيما تقدّم.

[٢٤٥] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ[6] لبعضِ أصحابِهِ:

« كَيْفَ تَصْنَعُ في فِتَنٍ تَخْجُمُ مِنْ أطْرافِ الأَرْضِ كَأَنَّهَا صَيَاصِي بَقَرٍ ».

وفي هذا الكلامِ مَجازٌ على بعضِ الأقوالِ، وهو أن يكونَ المرادُ تشبيهَ الفتنِ الناجمةِ من أطرافِ الأرضِ بنجومِ[7] صَياصِي البقَرِ وهيَ قُرُونُها، وإنما سُمِّيَتْ صياصِيَ تشبيهاً لهـا بالصياصي التي هي الحصـونُ، فكـأنهـا تحتمي

---

(١) ديوان جرير جـ ٢ ص٨٢٥

(٢) الإيالة: الرئاسة، وآل على القوم أولاً إيالاً وإيالة.: تولى عنهم.

(٣) انظر في هذا الأمر، غريب الحديث ١ : ٣٤٥، وفيه: « إذا كان رفيقاً حسن السياسة لما ولي: إنه لاين العصا ».

(٤) معن بن أوس المزني: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، رحل إلى الشام والبصرة وكفَّ بصره في أواخر أيامه، مات في المدينة سنة ٦٤ هـ. (خزانة الأدب ٧ : ٢٦٠، والسمط ٢ : ٧٣٣، والأغاني ١٢ : ٥٤).

(٥) ديوانه: ص ٦٥.

(٦) انظر غريب الحديث ٢ : ٨٤، والفائق والنهاية (صيص)، والمسند ٤ : ١٠٩، و٥ : ٣٣ و٣٥.

(٧) نجوم هنا مصدر: ومعناه الطلوع والظهور.

بِقُرونِها كما تَحْتَمِي الرجالُ بحصونِهَا، فأرادَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّ الفتنَ تَنجُمُ صغاراً ثمَ تَعظُمُ وتبدو سَحِيلاً[1] ثم تُبْرُمُ كنجومِ قرونِ البقرِ لأنها تبدو هَناتٍ ضئيلاتٍ، ثم تكونُ شِكَكاً ناكياتٍ[2]، وقد يجوزُ أن يكونَ المرادُ بتشبيهِ الفتنِ هاهنا بقرونِ البقرِ، المبالغةَ في وصفِهَا بالحدَّةِ والشدَّةِ وكثيرةِ العديدِ والعُدَّةِ. وقد يجوزُ أيضاً أن يكونَ تشبيهاً بقرونِ البقرِ لكثرةِ ما يشرعُ فيها من الأسنَّةِ، ألا ترى إلى قولِ بعضِ العربِ: الأسنَّةُ قُرونُ الخيلِ، لأنها توضعُ منها مكانَ القرونِ من ذواتِ القرونِ وصَدْمُ الخيلِ[3] بعواليها كَنَطْحِ البقرِ بصياصيها، وليسَ موضعُ المجازِ من هذا الكلامِ قولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كأنّها صياصي بقرٍ لأنّا قد ذكرنَا فيما تَقَدَّمَ أنَّ دخولَ كافِ التشبيهِ في الكلامِ يخرجُهُ من بابِ المجازِ، ولكنَّ الموضعَ الذي يكونُ فيه هذا القولُ من حيِّزِ المجازاتِ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسّلامُ في فتنٍ تنجُمُ من أطرافِ الأرضِ، فجعلها بمنزلةِ النباتِ الذي يكونُ خافياً فيظهرُ والقرونُ الناشئةُ التي تكونُ صغاراً فتكبرُ.

[٢٤٦] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في حديثٍ يذكُرُ فيه أشراطَ الساعةِ[4]:

« فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقِيءُ الأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا ».

وهذه من الإستعارةِ العجيبةِ؛ لأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ شبَّهَ الكنوزَ

---

(١) السحيل: الحبل المفتول على خيط واحد، والمبرم: المفتول على أكثر من خيط والمقصود أنها تكون ضعيفة ثم تقوى.

(٢) الشِّكك جمع شِكة، وهي السلاح. والناكيات جمع ناكية؛ ومعناها الجارحات أو القاتلات، يريد المؤلف أن قرون البقر بعد قوتها تكون كالسلاح القاتل أو الجارح.

(٣) المقصود بذلك: صدم راكبها وهم الفرسان؛ لأنهم يمسكون الرماح التي فيها الأسنة.

(٤) رواه مسلم رقم ١٠١٣، والترمذي رقم ٢٢٠٩، وانظر غريب الحديث ٣: ٢٦٥، والفائق والنهاية (فلذ). والأفلاذ: القطع؛ وهي جمع فلذة؛ وهي القطعة من كبد البعير. والقيء: مستعار لهما في إخراج كنوزها، كما تخرج القيء الطعام من الجوف.

التي استُودِعَتْها بطونُ الأرضِ بأفلاذِ الكبِدِ، وهي شُعَبُهَا وقِطَعُهَا؛ لأنَّ شعبَ الكبدِ من شرائفِ[1] الأعضاءِ الرئيسيّةِ، فكذلك الكنوزُ من جواهرِ الأرضِ النفيسةِ، ولما شَبَّهَها عليهِ الصلاةُ والسلامُ بأفلاذِ الكبدِ من الوجْهِ الذي ذَكَرْنَاهُ جعلَ الأرضَ عند إخراجِهَا كأنّها تقَيأَتْ ودَسَعتْ[2] بما استُودِعَتْهُ منها.

وفي قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: **«تقيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِهَا»** زيادةُ فائدةٍ في المعنى المرادِ، وهو وصفُ الأرضِ بالمبالغةِ في إخراجِ كنوزِهَا حتى لا يَخفى منها خافيةٌ ولا يبقى باقيةٌ، وذلك كما يقولُ القائلُ: قد تقيّأَ فلانٌ كبدَهُ إذا أرادَ المبالغةَ في وصفِهِ باستعيابِ جميعِ ما في جوفِهِ. وذلك معروفٌ في كلامِهِمْ وموضوعٌ على قاعدةِ العرفِ بينَهُمْ.

[٢٤٧] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في حديثٍ[3]:

« مَنْ قَالَ كَذَا وَكَذَا[4] غُفِرَ له ولو كان عَلَيْهِ طِفَاحُ[5] الأَرضِ ذُنوباً ».

وهذه استعارةٌ والمرادُ: ولو كان عليه ملءُ الأرضِ ذنوباً، فجعل الأرضَ كالإناءِ الذي طَفَح ماؤُهُ، وبلَغَ الغايةَ امتلاؤُهُ.

وفي قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «طفاحُ الأرضِ» زيادةُ معنى على قولِهِ: ملءُ الأرضِ أو طِلاعُ الأرضِ لأنّ الطِّلاعَ، والملْءَ: يفيدانِ بلوغَ الحدِّ في الامتلاءِ، والطِّفاحِ: يفيدُ مجاوزةَ الحدِّ في الامتلاءِ[6].

وقد مضى الكلامُ على هذا المعنى فيما تَقَدَّمَ من هذا الكتابِ.

---

(١) شرائف جمع شريفة.

(٢) وسعت: دفعت وأخرجت.

(٣) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (طفح).

(٤) كذا وكذا: كناية عن القول الذي يقوله المؤمن فتغفر له ذنوبه.

(٥) قال الزّبيدي في التّاج: « أي ملؤها، أي أن تمتليء حتى تطفح، أي تفيض. قيل: ومنه أخذ طفاحة القدر ».

(٦) أخذ الشريف هذا المعنى من قولهم: إناء طفحان، للذي يفيض من جوانبه كما في الفائق ٢ : ٣٦٥.

وقد مضى الكلامُ على هذا المعنىٰ فيما تَقَدَّمَ من هذا الكتابِ.

[٢٤٨] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ[١]:

« إنَّ القرآنَ شافعٌ مُشَفَّعٌ، وما حلٌ مُصَدَّقٌ ».

[وهذا القولُ مجازٌ، والمرادُ أن القرآنَ سببٌ لثوابِ العامِلِ بِهِ، وعقابِ العادلِ عنْهُ، فكأَنَّهُ يشفع للأوّلِ فيشفَّعُ ويشكو من الآخرِ فيصدّقُ، والماحلُ هاهنا: الشاكي[٢]. وقد يكونُ أيضاً بمعنى الماكِرِ، يقال: محل فلانٌ بفلانٍ: إذا مَكَرَ بِهِ. قال الشاعرُ:

أَلَا تَرَى أَنَّ هذا النَّاسَ قد نَصَحُوا   لَنَا عَلَى ثُولِ ما غَشُّوا وما مَحَلُوا

[٢٤٩] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ[٣]:

لا يكونوا مُغَوَّياتٍ لمالِ اللَّهِ ».

وهذه استعارةٌ والمُغَرّاةُ في الأَصلِ: زَبْيَةٌ تُحْفَرُ للسباعِ والذئابِ، ويُمَوَّهُ[٤] رأسُهَا ليَخْفَىٰ قَعْرُها، ويُجْعَلَ فيها سَخْلٌ يُسْتدعَىٰ بهِ السباعُ والذئابُ إليها، فتكونُ مهلكةً له إذا وَقَعَ فيها، فأراد عليهِ الصلاةُ والسلامُ بهذا القولِ لا

---

(١) انظر الفائق والنهاية (محل)، ونسب الحديث فيهما إلى عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(٢) قال الزمخشري: والماحل، الساعي، يقال: مَحِلْتُ بفلان أمحل به وهو من المِحال.. يعني إن من اتّبعه وعمل بما فيه فهو شافع له مقبول الشفاعة في العفو عن فرطاته، ومن ترك العمل به نمَّ على إساءته وصدق عليه فيما يرفع من مساويه.

(٣) انظر غريب الحديث ٣: ٣٢٤، والفائق والنهاية واللسان والتاج (غوى)، ونسب فيها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وروايته: «إن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله». وقال أبو عبيد: « هكذا يُرْوَى الحديث بالتَّخفيف وكسر الواو؛ وأما الذي تكلم به العرب فالمُغَوّيات بالتشديد وفتح الواو، واحدتها مُغَوَّاة وهي حفرة كالزُّبية تحفر للذئب ويجعل فيها جدي، إذا نظر الذئب إليه سقط بريده؛ فيُصطاد؛ ومن هذا قيل لكل مهلكة مُغَوَّاة.

(٤) يموّه رأسها: يوضع عليه شيء يخفيه، كما يطلى الشيء بالذهب فيخفيه الذهب.

يكونوا كالمهالِكِ لمالِ اللَّهِ بأن يأخذوها بالمكرِ والخداعِ، وينفقوها في الفسوقِ والضلالِ، فيكونوا لها كالمُغَوَّياتِ التي تَخْدَعُ ظواهرُهَا وتُهْلِك بواطِنُهَا.

وقال رُؤْبَةُ بنُ العَجّاجِ [(١)]، يعني الدهرَ:

إلى مُغَوَّاة الفتى بالمِرْصَاد[(٢)].

كأنّهُ قالَ: يسوقُ الفتى إلى مُهلكتِهِ تشبيهاً بالزُبْيةِ التي ذكَرْنَا حالَها ووصَفْنا الحيلةَ فيها.

[٢٥٠] ومن ذلك قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ[(٣)]:

« إيَّاكُمْ والمُغْمِضَاتِ من الذنوب »[(٤)].

[وهذه استعارةٌ، والمرادُ بالمغمِضات هاهنا على ما فسّرَهُ الثقاتُ من العلماءِ الذنوبُ العظامُ يركبُها الرجلُ وهو يعرُفها، فكأنه يغمضُ عينيهِ تَعَاشِياً عنها وهو يُبْصِرُهَا، ويتناكَرُهَا اعتماداً وهو يعرفُها، ومثلُ ذلك قولُ أبي النجم[(٥)] يصفُ ناقةً.

---

(١) رؤبة بن عبدالله العجّاج التميمي السعدي، أبو الحجّاف: راجز، من الفصحاء المشهورين ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة وأخذ عنه أعيان أهل اللغة. مات في البادية سنة ١٤٥ هـ. (معجم الأدباء ١١: ١٤٩، والخزانة ١: ٩١، والسير ٦: ١٦٢).

(٢) ديوان رؤبة ص ٤٩، وانظر أيضاً غريب الحديث ٣: ٣٢٤، والفائق واللسان (غوى). ويشبه الحديث وبيت الشعر المثل الذي يقول: «من حفر مُغَوَّاة وقع فيها». انظر جمهرة الأمثال ٢: ٢٨٩ ومجمع الأمثال ٢: ٩٧، والمستقصى: ٢: ٣٥٤.

(٣) انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (غمض)، ونسب فيها القول إلى سيدنا معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي الصحابي الجليل ت ١٨ هـ.

(٤) قال ابن الأثير: « هي الأمور العظيمة التي يركبها الرجل وهو يعرفها، فكأنه يغمض عينيه عنها تعاشياً وهو يبصرها، وربما روي بفتح الميم، وهي الذنوب الصغار، سمّيت مغمضات لأنها تدِقّ وتخفى فيركبها الانسان بضرب من الشُّبهة، ولا يعلم أنه مؤاخذ بارتكابها.

(٥) هو الفضل بن قدامة، وشهرته أبو النجم العجلي ـ ١٣٠ هـ.

* يُرْسِلُها التغميضُ إنْ لم تُرْسَلِ *

وذلك أن الناقةَ إذا غَشِيَتْ الحوضَ الذي تُذَادُ عَنْهُ حملَتْها شدَّةُ العطشِ على الاقتحامِ عليه، فغَمَضَتْ عينُها، وحمْلتْ على عِصِيِّ الذادةِ[1] حتى تَرِدَهُ، وربما رُوِيَ هذا الخبرُ بفتحِ الميمِ من المَغْمضَاتِ[2]، فيكونُ المرادُ به على هذا الوجهِ ضدَّ المرادِ به على الوجهِ الأوّلِ، لأن المُغْمِضاتِ بالكسرِ كما قلنا: الذنوبُ العظامُ، والمُغْمَضَاتُ بالفتح: الذنوبُ الصغارُ، وإنما سميتْ مُغمَضاتٍ لأنها تَدُقّ وتَخْفىٰ، فيركبُها الإنسانُ بضربٍ من الشبهةِ، ولا يَعلمُ أنه عاصٍ بفعلِهَا، ولا معاقبٌ من أجلِهَا.

[٢٥١] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وقد أتاهُ رَجُلٌ فقالَ[3]:

« **السلامُ عليك يا نبيَّ اللَّهِ، فقال: وعليكَ ورحمةُ اللَّهِ، ثم أتاه رجلٌ آخرُ، فقال: السلامُ عليكَ يا نبيَّ اللَّهِ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُهُ، فقال: وعليكَ، فقيل له: يا رسولَ اللَّهِ لِمَ لَمْ تقلْ لهذا كما قلتَ للذي قبلُ؟ فقال: إنه تَشَافَّهَا** ».

فقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « إنه تَشَافّها » استعارةٌ، والمرادُ استفرغَ جميعَ التحيّةِ. فلم يدعْ منها شيئاً يزادُ على لفظِهِ ويُرَدُّ عليه جواباً عن قولِهِ: والأولانِ أبقيا من تَحيّتِهِمَا بقيةً ردتْ عليهِما، وأعيدتْ إليهما، وأصلُ ذلك مأخوذٌ من التشافِّ، وهو تتبعُ بقيةَ الإناءِ والحوضِ حتى يستفذَ جميعَ ما فيه، وتلك البقيةُ تسمى الشُّفافَةَ[4] قالَ الشاعرُ[5]:

---

(١) الذادة: جمع ذائد، وهو المانع الذي يمنع النوق من ورود الماء.

(٢) المغمضات: المستخفيات من الذنوب.

(٣) انظر النهاية واللسان والتاج (شغف). وقال ابن الأثير: « ومنه حديث ردِّ السلام ـ قال: إنه تشافَّها » أي استقصاها وهو تفاعل منه.

(٤) المعجم في بقية الأشياء ص ١٠٠.

(٥) هو ذو الرُّمة غيلان بن عقبة، أبو الحارث العدوي: من فحول الشعراء في العصر الأموي. وكان مقيماً بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً، توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية سنة ١١٧ هـ.

أخــو فَقَــراتٍ دبَّـت في عــظامِــهِ شُفافاتُ أعجازِ الكرى فهو أخضعُ [1]

يريدُ بقـايا الكـرى وصُبابـاتِهِ، ودليـلُ ذلك قـولُهُ: أعجـازُ الكرى، أي أواخِـرُهُ وعقابيلُهُ [2]؛ ومن أمثالِ العربِ، ليس الريُّ عن التشافِّ [6].

يقولون: ليس يُرْوِي العطشانَ تتبعُ بقيةِ الماءِ حتى يستفرغَ جميعَ مـا في الإناءِ.

[٢٥٢] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ [3]:

« سَيِّدُ الأَيَّامِ يَوْمُ الجُمَعةِ ».

وهذا القولُ مجازٌ، والمرادُ أن ليومِ الجمعةِ شرفاً ونبـاهةً يبينُ بهمـا من سائرِ الأيّامِ، فيكونُ مقدماً لها، وعالياً عليها لما يختصّ به من صلاةِ الجماعـةِ التي ينشرُ ذكرُها، ويعظمُ أجرُهَا، كما يتقدّمُ السيِّدُ على من دونَهُ بعلوّ القـدرِ، ونباهةِ الذكرِ.

[٢٥٣] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ [5]:

---

(١) ديوان ذي الرمة حـ ٢ ص٥٢٤.

(٢) العقابيل جمع عُقْبول. وهي بقية العِلّة والعداوة والعشق، وقد أطلقها الشريف الرضي على بقايا النوم.

(٣) انظر جمهرة الأمثال ٢ : ١٩٠، ومجمع الأمثال ٢ : ١٩٠، والمستقصى ٢ : ٣٠٤، والمثل يضرب مثلاً للقناعة ببعض ما ينال من حاجته. أي ليس قضاؤك الحاجة ألا تدع قليلاً ولا كثيراً إلا نلته؛ فإذا نلت معظمها فاقنع به. وقال العسكري: « والتّشافّ: تفاعل من الشَّفِّ وهو استقصاء الشرب حتى لا يبقى في الإناء شيءٌ.

(٤) رواه أبو داود رقم ١٠٤٦ و١٠٤٧، ومسلم برقم ٨٥٤، والترمذي برقم ٤٨٨ و٤٩١، والنسائي ٣ : ٨٩ و٩٠ و٩١ و٩٢ و١١٤ و١١٥، ومالك ١ : ١٠٨ ـ ١١٠، وهو حديث صحيح وإسناده حسن. وجاء الحديث فيها بروايات مختلفات.

(٥) انظر الفائق والنهاية (غور ونتق)، وابن ماجة (نكاح ٧). وروايته فيهما: « عليكم بالأبكار، فإنهنّ أغرّ أخلاقاً، وأرضى باليسير ». وقال ابن الأثير: « أي أنهنّ أبعد من فطنة الشرّ ومعرفته، من الغِرَّة: الغَفْلة ». ويؤيِّده الحديث الآخر: « عليكم بالأبكار فإنهنّ أَغَرُّ غُرَّة »، وهو يحتمـل أن يكون من غرّة البياض وصفاء اللون، ويحتمل أن يكون من حسن الخُلُق والعِشْرة.

« تَزَوَّجُوا الشَّوَابَّ فَإِنَّهُنَّ أَغَرُّ أَخْلَاقاً » وفي هذا الكلامِ مجازٌ لأنه وصفُ الخُلُقِ بأنه أغرُّ إنما يرادُ بياضُهُ، والبياضُ هاهنا عبارةٌ عن الحسنِ كما أن السوادَ في قولِهِمْ: فلانٌ أسودُ الخلُقِ عبارةٌ عن القبحِ، فكأنّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ: فإنهنّ أحسنُ خُلُقاً كما أن الغُرَّ من الخيلِ أحسنُ خَلْقاً.

[٢٥٤] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: وقد سمع ناساً من أصحابِهِ يتذاكرونَ القضاءَ والقدرَ[١]: « إنكم قَدْ أَخَذْتُمْ في شِعْبَينِ[٢] بَعِيدَي الغَوْرِ »[٣]

وهذا القولِ مجازٌ لأنّهُ عليه الصلاةُ والسلامُ شبّهَ القضاءَ والقَدَرَ، وحقيقةُ علمِهِما، ومعرفةُ كنهِهِما بالشِّعبينِ اللّذينِ غَوْرُهما بعيدٌ واقتحامُهُمَا شديدٌ، وطالبُ غايتِهِمَا مجهُودٌ[٤] يقولُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: إن علمَهُمَا لا يُدْرَكُ كالماءِ الغائرِ الذي لا يُقْدَرُ عليهِ ولا يُهْتَدىٰ إليهِ.

[٢٥٥] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في حديثٍ طويلٍ[٥]:

« ثُمَّ يكونُ مُلْكٌ عِضٌّ يستحِلُّ الفَرْجَ والحَرِيرَ ».

وفي هذا الكلامِ مجازانِ: أحدُهُما قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « مُلْكٌ

---

(١) انظر النهاية واللسان والتاج (غور)، وانظر أيضاً كنز العمال ١: ٥٩٩ و١٥٨٩، وقال الزَّبيدي: « أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الفائر الذي لا يقدر عليه.

(٢) الشعب: الطريق بين الجبلين، ومسيل الماء في بطن الأرض.

(٣) الغور: قعر كل شيء وأسفله وعُمْقُه وبُعْدُه؛ أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الغائر الذي لا يُقْدر عليه.

(٤) مجهود: متعب مكدود.

(٥) رواه البخاري ١٠: ٤٥ - ٤٩، وأبو داود برقم ٤٠٣٩، والبيهقي ١٠: ٢٢١، وانظر أيضاً الفائق والنهاية (عضض).

عِضٌّ » والعِضُّ في الأصلِ : هو الرجلُ الداهيةُ المُنْكَرُ. وربما سُمِّيَ أيضاً بذلك الرجلُ السَّيِّءُ الخلقِ المُتَكَبِّرُ [١]. قال حسانُ بنُ ثابتٍ [٢] :

وَصَلْتُ بـه رُكْنِي وخـالَطَ شِيمَتِي ولم أَكُ عِضًّا في النَّدَامَىٰ مُلَوَّمَا [٣]

فكأنّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ شَبَّهَ المُلكَ الذي أومأَ إليهِ في السطوةِ والقسوةِ والطِّماحِ والنَّزْوَةِ بذي الدهاءِ والنُّكرِ. أو بذي الشموخِ والكبرِ.

والمجازُ الآخرُ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « يستحلُّ الفرجَ والحريرَ »، وإنما أراد أن أهلَهُ يستحلونَ ذلك، فحسنت إضافَتُهُ إلى المُلْكِ لما كان الاستحلالُ واقعاً في الملكِ، ونظائرُ ذلك كثيرةٌ، وقد جاء في روايةٍ أخرى لهذا الخبرِ ثم يكونُ: « مُلْكٌ عاضٌّ »، وهذه أيضاً استعارةٌ، وذلك كقولِ القائلِ : قد عضني الدهرُ: إذا أَثّرتْ فيه نوائِبُهُ، واشتدَّتْ عليه مصائِبُهُ. فوصف هذا الملكَ بالعضّاضِ لتأثيرِهِ في الناسِ بوقائِعِ الغَشْمِ [٤]، وقوارعِ الظُّلْمِ. وقد جاء في أشعارِهِم من ذكرِ عضِّ الزمانِ وعضِّ الأيامِ ما هو أشهرُ من أن يتكلفَ التنبيهُ عليهِ، والإيماءُ إليهِ.

[٢٥٦] ومن ذلك قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ [٥] :

---

(١) قال الزَّبيدي: « والعِضّ، بالكسر: السيء الخُلُق، عن الليث». وقال أيضاً: «وفي الصحاح: العِضّ هو البليغ المنكر ». انظر الأساس واللسان والتّاج (عضض).

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد الصحابي وشاعر النبي (ص) وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ٥٤ هـ.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٨، ورواية البيت فيه:

وصلتُ به كفّي وخالط شيمتي ولم أكُ سِبّاً في الندامى ملوّما

وجاء فيه: « ويروى، ولم أكُ عِضاً. والعض: المؤذي. ويقال: سِبٌّ عِضٌّ إذا كان مؤذياً سباباً.

يريد شددت بإخائه ركني خليقتي، ووافق خلقه خلقي. والعض: الداهية المنكر ».

(٤) الغشم: الظلم.

(٥) رواه النسائي ٢ : ١٦٧ و١٦٨ ورواه أيضاً الدارمي ٢ : ١٥.

« **الصَّوْمُ جُنَّةٌ[1] ما لم يَخْرِقْها** »[2].

وهـذه استعارة وذلـك أنه عليـه الصلاة والسـلام شبه الصـوم الذي يُجِنّ صـاحبُه من لـواذع العذاب، وقـوارع العقاب إذا أخلص لـه النيـة وأصلح فيـه السريرة، فجعل عليه الصلاة والسلام من اعتصم في صومه من الزلل، وتـوقى جرائر القول والعمل، كمن صان تلك الجُنَّة وحفـظها، وجعـل من أتبع نفسـه هواها وأوردها رَداها كمن خرق تلك الجُنة وَتهكها، فصارت بحيث لا تجِنُّ من جـارحـة، ولا تعصم من جـانحـة[3]، وذلـك من أحسن التمثيـلات، وأوقـع التشبيهات.

[٢٥٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« **إنّ المُسْلِمَ إذا تَوَضَّأ ثم صلى الخمس تحاتَّتْ خطاياه كما يَتَحـاتُّ[5] الورَق** ».

وهذه استعارة، والمراد أن الله تعالى يكفّر عنه خطاياه بسرعة، فتسقط عنه آصـارها[6]، وتنحطّ أوزارهـا كما تتسـاقط الأوراق عن أغصانهـا إذا هَزْهَـزَتْهـا الراح[7] أو زَعْزَعَتْها الرياح[8]، ولا بد أن يكون في الكلام مضمـرٌ مرادٌ جعلت

---

(١) جُنّة: أي يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات. والجنّة: الوقاية.

(٢) قال الدارمي: ما لم يخرقها؛ يعني بالغيبة.

(٣) الجانحة: الضربة التي تصيب الضلوع.

(٤) رواه الدارمي ١ : ١٨٣، وانظر المسند ٤ : ٧٠، و٥ : ٤٣٧ و٤٣٩، وانظر طرفه الأخير في النهاية واللسان والتاج (حتت).

(٥) قال الزَّبيدي: « الحتُّ، والانحتات، والتَّحاتُّ: والتَّحَتْحُتُ: سقوط الورق عن الغصن وغيره. وفي الحديث ـ تَحاتَّتْ عنه ذنوبه، أي: سقطتْ ».

(٦) الآصار جمع إصر: وهو الذنب.

(٧) هزهزتها: حرّكتها؛ والراح: اليد.

(٨) زعزعتها الرياح: حركتها تحريكاً شديداً.

الصلاة مُخبراً عنه وعَلَماً عليه وهو اجتناب الكبائر، والقيام بسائر الفرائض، فاكتفى عليه الصلاة والسلام بذكر الصلاة عن ذكر جميع ذلك، لأنْ الصلاة أفضل شعائر الإسلام، وأظهر معالم الإيمان، وليس لسائر الأوامر والعبادات والفرائض الواجبات من التأكيد ما لها، وذلك لأن من الفرائض ما أوجبه تعالى على الأغنياء دون الفقراء، ومنها ما ينوب عنه غيره[1]، ومنها ما ينوب عن كله بعضُه[2]، وجميع العبادات تختصّ إما بالفعل، أو بالذكر. والصلاة قد جمعت أفعالاً وأذكاراً من القيام والعقود والركوع والسجود والقراءة والتسبيح، والثناء على الله سبحانه والصلاة على الرسول وعلى آله، والاستغفار للمؤمنين، لأنها واجبة في اليوم والليلة خمس مرات على كلّ عاقل بالغ قادر عليها، لا يؤديها عنه غيره، ولا يسقطها عنه فقره. ولا يتولاها وليّه. وباقي العبادات يتعلق بزمان مخصوص، ووقت معلوم، كالصوم الذي يفعل في السنة دَفْعة. والزكاة التي تجب في الحول مرّة. والحجّ الذي في العمر دَفْعة واحدةً. ولهذا كانت عامة وصية النبي عليه الصلاة والسلام لما حضره الموت بالصلاة. وفي حديث أنس: أنه عليه الصلاة والسلام ما زال يكرّر قوله[3]: « الصلاة[4] وما ملكت أيمانكم[5] حتى جعل يُغَرْغِرُ بها صدره[6] وما يكاد يفيض » أي يبين، وفي الأكثر أن

---

(١) يصدق ذلك على العبادات المخيرة كالكفارات: من عتق الرقبة والإطعام والصيام؛ فأي واحد منها ينوب عن الآخر.

(٢) مثل فروض الكفاية: كصلاة الجماعة، فإذا فعلها بعض الناس سقطت عن باقيهم.

(٣) أخرجه أبو داود برقم ٥١٥٦، وابن ماجة برقم ٢٦٩٧ و٢٦٩٨، ورقم ١٦٢٥، ورواه أحمد في المسند ٣: ١١٧، وانظر أيضاً ٦: ٢٩٠ و٣١١ و٣١٥ و٣٢٥، وهو حديث صحيح؛ صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) أي: الزموا الصلاة، وأقيموها واحفظوها بالمواظبة عليها والمداومة على حقوقها.

(٥) أي: اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم.

(٦) يغرغر بها صدره: تتردد في صدره كما يتردد ماء الغرغرة في الفم.

قال الزّبيدي: « والغَرْغَرَة: ترديد الماء في الحلْق وعدم إساغته، كالتَّغَرْغُر وقال ابن القطاع: غَرغَر الرجل: ردّد الماء في حلقه فلا يمُجُّه ولا تُسيغه، وبالدواء كذلك ».

الإنسان إذا أدّى الصلاة على شرائطها، وفعلها في أوقاتها، وقام بجميع واجباتها، وهي التي تكرر في الليل والنهار، وتفعل على الدوام والاستمرار، كان أجدر بتأدية الفروض في سائر العبادات، والقيام ببواقي الطاعات التي هي أخف محملاً وأسهل متحملاً، فأراد عليه الصلاة والسلام أن من قام بهذه الواجبات التي عددناها، واجتنب الكبائر التي توعد بالعقاب عليها، سقط عنه عقاب معاصيه الصغائر كما يتساقط الورق المتناثر، ويقال: انحتّ الورق وتَحاتَّ: إذا انسلّتَ من أغصانه، وانحسر عن أفنانه.

[٢٥٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١] لرجل أقبل إليه ممن يُتَّهَمُ في دينه:

« أرَى عليه سُفَعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ ».

وهذا القول مجاز، والسُّفْعة: السواد، وقيل: هو السواد المشرَبُ حُمْرَةً، فكأنه عليه الصلاة والسلام رأى بوجهه أثراً يدلّ على نَغل[٢] الضمير وفساد اليقين، فنسب ذلك إلى الشيطان لأنه مُسَوِّل[٣] المعاصي ومُطَرِّق[٤] المغاوي، وفي الأكثر أن يقال لمن خبثت عقيدته وساءت سريرته: وجه فلان مسوَدّ، يراد لعظيم كفره، وفساد سرّه. وقد يجوز أن تكون السَّفْعة هاهنا بفتح السين مأخوذة من قول القائل: سَعَفْتُ رأس فلان: إذا ضربه بالعصا فأثرتْ فيه.

فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: « أرى عليه أثراً من الشيطان » وقد يكون

---

(١) الحديث في غريب الحديث ٣: ١٩٠ و٤: ١٠٦، والنهاية والفائق واللسان والتّاج (سفع)، ونسب فيها جميعاً إلى عبدالله بن مسعود الصحابي الجليل. وقال الزمخشري: « جعل ما به من العجب مسّاً من الجنون ».

(٢) نغل الضمير: سوؤه وفساده.

(٣) مسوّل المعاصي: مزينها.

(٤) مطرّق: ممهد الطريق.

السَّفْع أيضاً بمعنى الأخذ والقبض؛ ومنه قوله تعالى[1]: « لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ » أي لنأخذن بها ولنقبضنّ عليها، فإن حمل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « أرى عليه سَعْفة سَفْعة من الشيطان » جاز، وجميع الوجوه المذكورة في هذا الكلام قريب بعضها من بعض[2].

[٢٥٩] ومن ذلك قوله عليه السلاةُ والسلامُ[3]:

« خَيْرُ النَّاسِ مَنْزِلةً رجلٌ أَخَذَ بعِنانِ فَرَسِهِ يَطْلُبُ الموتَ مَظَانّهُ »[4].

وهذا القول مجاز وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الرجل المجاهد في سبيل الله الذي يتتبع قِراع الأعداء ومواطن اللقاء، كطالب الموت في معادنه، والمنقب عنه في مكامنه، وإن كان غير طالب له على الحقيقة، وإنما يطلب نُصْرَة الدّين ووَقْمَ[5] المحادّين، ولكن ذلك لما كان في الأكثر مفضياً إلى الموت القاصي[6]، والأجل الداني، كان كأنه انتجع مظنة حتفه، ونقب عن هلاك نفسه، والمظانّ: الأماكن التي إذا طُلب الرجل وُجد فيها، يقال موضع كذا مَظِنَّة من فلان: أي مَعلم منه ومكان يوجد فيه.

قال الشاعر[7]:

وإن يكُ عامرٌ قد قال جَهْلاً ... فإنَّ مَظِنَّة الجَهْلِ الشَّبَابُ[8]

---

(١) الآية ١٥ من سورة العلق، وانظر تفسير القرطبي ٢٠: ١٢٤ و١٢٥.

(٢) انظر الأساس واللسان والتاج (سفع).

(٣) أخرجه مسلم برقم ١٨٨٩، وابن ماجة (فتن ١٣)، وانظر المسند ٢: ٤٤٣.

(٤) مَظَانّه: مظنه الشيء: موضعه الذي يعرف به، ويطلب منه.

(٥) وقم المحادين: أي قهرهم وإذلالهم؛ وردهم أقبح الرَّدِّ، والمحادين: المخالفين والمعادين.

(٦) الموت القاصي: أي القاطع للحياة.

(٧) هو النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، أبو أُمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. من أهل الحجاز، توفي سنة ١٨ ق. هـ.

(٨) ديوان النابغة ص ١٠٩، وفيه (فإنْ) بدلاً من (وإنْ). وهو من أبيات سبعة قالها النابغة في هجاء =

كأنه قال: إن الشباب موضع للجهل. فيه تَسْرَحُ سارحته، وفيه تُنْشَدُ ضالَّته. وأراد عليه الصلاة والسلام: يَطْلُبُ الموتَ في مَظَانِّه. فلما خَلَع الجارّ وصَل الفعلُ إلى المظانّ فنصبها[1]، وذلك أقرب في الفصاحة، وأضرب في مذاهب البلاغة.

[٢٦٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« أعوذُ بك من شَرِّ الجُوعِ فإنّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ ».

وهذا القول مجاز، وإنما جعل عليه الصلاة والسلام الجوع بمنزلة لضجيع، لأن الإنسان إذا بات طاوياً كان كأنه مضاجع للجوع في مِهاد، ومبايته على فراش؛ لأنه يخلو في الليل به، وينفرد بمعاناته ومكابدته.

[٢٦١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« تَعِسَ[4] عَبْدُ الدِّينارِ وَالدِّرْهَمِ، تَعِسَ عبد الحُلَّةِ[5] وَالخَمِيصَة[6]، إنْ أُعْطِي رَضِيَ، وإنْ مُنِعَ سَخِطَ تَعِسَ فَلا انْتَعَش[7]، وإذا شِيكَ[8] فَلاَ انْتَقَشَ »[9].

= عامر بن الطفيل العامري، ومعنى البيت: إنما يعلم الجاهل ويتبين جهله عند سبّ غيره.

(١) يريد « أنه منصور على نزع الخافض، والأصل يطلب الموت في مظانه فحذفت ـ في ـ فنصب الاسم، لأن المجرور موضعه في الواقع النصب، انظر المقتضب ٢ : ٣٢١ و٣٤٧ و٤ : ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٢) أخرجه أبو داود برقم ١٥٤٧، والنسائي ٨ : ٢٦٣. وروايته عندهما: « اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بِئْسَت البِطانة ».

(٣) أخرجه البخاري ٦٠ و٦١، وهو حديث طويل وهذا طرف منه.

(٤) تعس: دعا عليه بالهلاك، وهو الوقوع على الوجه من العِثار.

(٥) الحُلّة: الثوب.

(٦) الخميصة: ثياب خَزٍّ أو صوف مُعْلَمة.

(٧) انتعش: ارتفع بعد تعاسته، أو جبر بعد فقره.

(٨) إذا شيك: شاكته الشّوكة: إذا دخلت في جسمه، وشيك: فعل لم يسمّ فاعله.

(٩) فلا انتقش: الانتقاش: إخراج الشوكة من الجسم، نقشته أنا، وانتقش هو.

وفي هذا الكلام مجاز. وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الرجل القويّ الطمع الشديد الجشع الذي يرضى بإعطاء ما سَأَل، ويسخط بمنع ما طَلَب بمنزلة العبد للدينار والدرهم، والثوب والعَرَض؛ لأنه بإعطاء هذه الأشياء يُسْتَرَقّ ويُمْلَكُ، ويُمْتَهَنُ ويُسْتَبْذَلُ. فجعله عليه الصلاة والسلام عبداً لها على المجاز، وهو في الحقيقة عبد لباذلها.

ومن معروف كلامهم: فلان عبد الطمع، وخادم الأمل، إذا كان ذليلاً لمن وجه أمله إليه، ومضارعاً لمن عَلَّق طمَعه به. وقوله عليه الصلاة والسلام: « وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ » من صلة الدعاء عليه. يقول: وإذا دخلت في مقدمة شَوْكة، فلا قدر على مِنْقاشٍ يَنْتَقِشُها حتى يدوم مكثها في أخمَصَه، فيكون ذلك أطول لأَلمَه.

[٢٦١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« **لا حَرَجَ إلا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ[٢] عِرْضَ أخِيه بِظُلْمٍ** ».

وهذه استعارة، والمراد بالاقتراض هاهنا: القَدْح في العرض، والحزُّ فيه، والنيل منه، فهو افتعال من القرض الذي هو القطع في العرض، ومنه قول ذي الرُّمة[٣]:

إلى ظُعنٍ يَقرِضْنَ أقواز مُشْرِفٍ   شِمالاً وعن أيمانهنّ الفوارسُ[٤]

يقول: يقطعن أوساط هذا الموضع المذكور بطيّ شُقّته، وتجاوز مسافته، وقولهم: أقرض فلان فلاناً مالاً راجع إلى هذا المعنى، والمراد أنه اقتطع له من ماله قطعه فسلّمها إليه، وقوله عليه الصلاة والسلام في أوّل الخبر: « لا حرج إلا

على رجل اقترض عِرْض أخيه بـظلم » لا يدلّ على أن من فعـل غير ذلـك من الأفعال التي يستحقّ عليها الذمّ، ويعظم بها الإثم. لا حرج عليه في الحقيقة، ولكنه عليه الصلاة والسلام كأنه قال: « لا حرج في فعل ما لا إثم فيه إلا على رجلٍ اقترض عرض أخيه »، وهذا التقدير في الكلام كأنه معلومٌ بفحواه ومفهوم بمعناه. وإن كان ظاهر اللفظ غير دالّ عليه.

[٢٦٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« **إنّ السِّقْطَ[٢] لَيَجَرُّ أمَّه إلى الجنَّة بسَرَرِه** ».

وهـذا القول مجـاز، والمراد أن المـرأة إذا أسقـطت الـولـد عن حـادث أصابها، واتفق أن يكون ذلك الإسقاط سبب منيتها كان لها بذلك أجر تستحقّ به دخول الجنة إذا كانت سليمة من الكبائر المُوبقة، والمعاصي المُرْهقة، فلما كان ذلك السقط سبباً لوصول أمه إلى دار النعيم والبقاء المقيم، حسن أن يقول عليه الصلاة والسلام: «إنه يجرّها إلى الجنة بسَرَرِه» وهو الجلد الرقيق المتصل منها به يقال: قطع سُره وسُرَرُه، والسرة: اسم لما يبقى بعد القطع منه.

[٢٦٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[٣]:

« **لا يَمْنَعَنَّكُمْ من سحُورِكُم الفَجْرُ حتَّى يَسْتَطِيرَ** »[٤].

وفي هذا القول استعارة، والمراد حتى ينتشر ضوء الفجر، فيكون كتحليق

---

(١) رواه ابن ماجة، وانظر أيضاً المسند ٥: ٢٤١ ويشبهه ما رواه البخاري ١: ١٧٥، ومسلم برقم ٢٦٣٣، من قوله صلى الله عليه وسلم: « إنّ السِّقط لمُحبنطيءٌ عند باب الجنة، حتّى يجيء أبواهُ ...» والمحبنطيء: هو المتغضِّب المستبطيء للشيء، يقال: احبنطأتُ واحبنطيتُ.

(٢) السِّقْط: ما تضعه الحامل من حملها قبل أن يتمَّ، وفي حركة فائه ثلاث لغات.

(٣) رواه مسلم برقم ١٠٩٤، وأبو داوغ برقم ٢٣٤٦، والترمذي برقم ٧٠٦ والنسائي ٤: ١٤٨.

(٤) يستطير: استطار ضوء الفجر: إذا انبسط في الأفق وانتشر؛ وهو الذي انتشر ضوؤه واعترض في الأفق، بخلاف المستطيل.

الطائر، وكالشَّرَر المتطاير، والفجر عندهم فجران: مستطيل، ومستطير[1]، فأما المستطيل فهو الأول، ولا يُحَرِّم على الصائم الطعامَ والشرابَ.

وأما المستطير فهو الثّاني، ويُحَرِّم الشَّراب والطّعام، ويسمى الأول ذنب السِّرْحان[2] لدقة خَيْطه وغُمُوض سمَتِه[3]. قال الكُمَيْتُ بن زَيْدٍ[4]:

ولما علا شمطه المِضْبَأَيْنِ من ليلة الذَّنَبِ الأَشْعَلِ[5]
وأطلع منه اللياحُ الشَّمِيطُ خدودا كما سُلَّتِ الأَنْصُلُ

فجعله أشعل لكثرة البياض فيه. والمضبأين: تثنية مضبأ، وهو المكان الذي يضبأ الإنسان به: أي يلزمه ويلطأ فيه. واللِياح: الأبيض، ويقال بكسر اللام وفتحها. والشميط: الكثير البياض، ويقال: ذَنَب شميط إذا كان كذلك، وهو بمعنى الأشعل، والمراد هاهنا الصبح وجعل له خدوداً بارزة على طريق الاستعارة كما يقال: طُرّة الصُّبح[6]. وحاجب الشمس[7]، ويسمىٰ الفجر الثاني المستطير لانتشاره ووضوحه.

قال الشاعر[8]:

---

(١) قال الزّبيدي: «وهمّا فجران: أحدهما المستطيل، وهو الكاذب الذي يسمّى ذنب السِّرْحان؛ والآخر المستطير، وهو الصادق المنتشر في الأفق الذي يُحَرِّم الأكل والشربَ على الصائم ولا يكون الصبح إلا الصادق». انظر التاج (فجر).

(٢) انظر اللسان والتاج (فجر) و(سرح). ويسمى الفجر الأول عند الفقهاء بالفجر الكاذب، وهو نور يظهر قبل الفجر ثم يذهب كما يسمى الفجر الثاني بالفجر الصادق، لأنه نور يظهر في موعد الفجر ثم يبقى وينتشر حتى تطلع الشمس.

(٣) اسمه: الطريق والمذهب والهيئة.

(٤) الكميت بن زيد: سبقت ترجمته.

(٥) ديوان الكميت حـ ٢ ص٣٩٨.

(٦) انظر الأساس والتّاج (طرد).

(٧) انظر الأساس والتاج (حجب).

(٨) هو حسان بن ثابت الصحابي الجليل.

لـهَـانَ على سَـرَاةِ بـنـي لَـؤَيٍّ   حَـرِيْقُ بـالبُـوَيْـرةِ مُسْتَـطِيـرُ[1]

أراد حريقاً قد انتشر شراره، وعظم أواره، وفي حديث آخر: أنـه عليه الصـلاة والسلام قال[2]: « ليس الفجر المستطيل الأبيض ولكنه المعترضُ الأحمر ».

[٢٦٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسـلام في صفة أهل الموقف يوم القيامة [3]:

« يَبْلُغُ العَرَقُ هُنَاكَ مَا يُلْجِمُهُمْ ».

وفي هذا القول مجاز، وله وجهان [**أحدهما**]أن يكون المراد أن العرق يزيد بهم يومئذٍ حتى يضعفوا عن الكلام فلا يُجِيروا جواباً، ولا يبتدئـوا مَقَالاً، كما يقول القائل :حاججت فلاناً فألجمته بالحجـة إذا أسكَتُّهُ بهـا عن مراجعتـه، وقطع لسانه عن مناقَلَته. فشبه عليه الصلاة والسلام اضعاف العرق لهم وبلوغه إلى أن بملك عليهم نطقهم باللُّجُم التي تملأ أفواه الخيل فتمنعها من تحـريك ألسنتها تمطُّقاً[4] بالمشرب، أو تَلَمُّظاً[5] بالمطعم. [**والوجه الآخر**]: أن يكون المـراد أن العرق يكثـر منهم حتى يَخُوضُـوا فيه فيبلغ إلى أن يـدخل أفـواهم،

(١) ديوان حسان هامش ص٢٥٣، ونسب البيت فيه إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وروايته (بالبويرة) وقال أيضاً: (ويروى بالبويلة). وصححنا رواية البيت من النهاية واللسان والتاج (طير)، ومن معجم البلدان (البويرة) ونسبه إلى حسان بن ثابت. وانظر أيضاً معجم ما استعجم ٢٨٥، وسيرة ابن هشام ٣: ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢: ٨٦، ومسلم برقم ١٠٩٣، وأبو داود برقم ٢٣٤٧ و٢٣٤٨، والنسائي ٤: ١٤٨، والترمذي رقم ٧٠٥.

(٣) رواه البخاري ١١: ٣٤١، ومسلم برقم ٢٨٦٣. وروايته عندهم: « يعرق الناس يوم القيامة، حتى يذهب في الأرض عَرَقُهم سبعين ذراعاً، وإنه يلجمهم حتى يبلغ آذانهم ». وانظر أيضـاً المسنـد ٣: ٩٠.

(٤) التمطّق: التصويب باللسان أي لا تستطيع تحريك ألسنتها من ملء العرق لأفواهها.

(٥) التّلمّظ: إخراج اللسان على الشفتين عند الأكل.

فيكون بمكان اللجمُ لهم. ومن روى هذه الكلمة بالتشديد فقال: ما يلجِّمهم، فالمراد بذلك أن العرق يبلغ المَلجَم من كلّ واحد منهم، وهو ما يلي الرأس من الرقبة، وقيل له: الملجم لأنه مكان اللجام من رأس الفرس كما قيل: المُقلّد والمُسَوَّر والمخَلْخَل والمُؤَزّر لموضع القلادة والسِّوار والمِئزر والخلخال.

[٢٦٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١] لما قسم غنائم حُنَيْن[٢] فأعطى المؤلَّفة قلوبُهم ولم يعط الأنصار في كلام طويل:

« يا معشر الأنصار أوَجَدْتُمْ[٣] في قلوبكم من لُعَاعَةٍ[٤] من الدنيا تَـأَلَّفتُ بها قوماً ليُسْلِمُوا وَوَكَلْتكم إلى إيمانكم ».

وهذه استعارة. واللُّعاعة: البقل: أول ما يبدو وهو ناعم رقيق، وقيل: هي بقلة ناعمة تعرف بعينها ذكر ذلك أبو عبيد في الغريب المصنف.

ومن قول الغريب، خرجنا نتلعَّعُ[٥]: أي نتتبع هذه البقلة في منابتها ونجتنيها من مقاطعها.

---

(١) رواه البخاري ٨: ٤١ و٤٢، ومسلم برقم ١٠٥٩، والترمذي برقم ٣٨٩٧ وانظر أيضاً الفائق والنهاية واللسان والتاج (لعع). والسيرة ٢: ٤٩٩.

(٢) انظر الخبر عن حنين في: ابن هشام ٢: ٤٣٧، وابن سعد ٢: ١٤٩ والمغازي ٣: ٨٨٥، وابن كثير ٤: ٣٢٢، والدّرر ٢٤٠، وابن سيد الناس ٢: ٢٤٨، وتاريخ الخميس ٢: ٩٩، والمغازي للزهري ٩٢. وكانت غزوة حُنَيْن في أول شوّال من السنة الثامنة من الهجرة، وكان منصرف رسول الله (ص) من حنين إلى الطائف.

(٣) أوجدتم: أغضبتم.

(٤) اللُّعاعة: الشيء اليسير، يقال: ما بقي في الإناء إلا لُعاعة، والإبراضة وإلا تليّة؛ وهي أيضاً بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(٥) انظر اللسان والتاج (لعع).

وقال الزبيدي: «اللُّعاعة؛ بهاء الهِنْدباءُ، عن ابن الأعرابي».

قال الشاعر[1] :

رَعَى غَيْـرَ مَـذْعُـورٍ بِهِنَّ وراقَـهُ لُعَـاعٌ تَهَـادَاه الـدَّعَـادِعُ وَاعِـدُ[2]

يريد بواعد هاهنا: أن هذا النبات كثير يعد راعيه الشبع منه والاكتفاء به. فشبه عليه الصلاة والسلام حلاوة المال المبذول، وتعلق القلوب به، وتتبع النفوس له بهذه البقلة الناعمة التي تستطاب مجانيها » ويتتبعها جانيها، ويجرى ذلك مجرى قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الآخر لحكِيم بن حِزَام [3]: إن هـذا المال حلوة خَضِرَة[4]، وقد ذكرناه فيما تقدم من كتابنا هذا.

[٢٦٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [5]:

« **تحفَةُ المُؤْمِنِ الموْتُ** ». وهذه استعارة، وأصل التُّحَفِ: طُرَفُ الفواكه التي يتهاداها الناس بينهم[6]، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعـل الموت الـوارد على المؤمن كالتحفة المهداة إليه، لأنـه يسرّ بتعجيـل مماتـه كما يسـر الكافـر بتنفيس حياته، لأن المؤمن يخرج من عِقَال إلى مجـال[7]، والكافـر يخرج من مَجال إلى عِقال.

---

(١) هو سويد بن كراع العُكلي: شاعر فارس مقدم. كان في العصر الأموي صاحب الرأي والتقدم في بني عكل. توفي نحو سنة ١٠٥ هـ. الأغاني ١٢ : ٣٤٠ والشعر والشعراء ٢ : ٦٣٥، والجمحي ١٧٦ - ١٨٦.

(٢) البيت في ديوانه المطبوع ص ٢٢.

(٢) حكيم بن حِزام بن خويلد، أبو خالد الأسدي: صحابي، قرشي. وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، توفي في المدينة سنة ٥٤ هـ. (تهذيب التهذيب ٢ :٤٤٧، والإصابة ٢ :٣٤٩، وشذرات الذهب ١ : ٦٠).

(٣) رواه البخاري ٣: ٢٦٥، ومسلم برقم ١٠٣٥، والترمذي برقم ٢٤٦٥، والنسائي ٥ :١٠١. والخَضِرَةُ: الناعمة الغضة الطرية، والمراد به: أن المال محبوب إلى الناس.

(٤) انظر كشف الخفاء ١ :٣٥٢، والفتح الكبير ٢ : ٢٥، وانظر أيضاً النهاية واللسان (تحف).

(٥) قال ابن الأثير: «التحفة: طرفة الفاكهة، وقد تفتح الحاء، والجمع التحف، ثم تستعمل في غير الفاكهة من الألطاف والنَّقص».

(٦) العقال: الحبل الذي تربط به قوائم الدابة، والمراد المكان الضيق الذي يقيد حركة من فيه. =

[٢٦٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [1] :

« **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ مَا لَمْ يَقَعِ الحِجَابُ** ».

وهذا القول مجاز. والمراد أن الله سبحانه يقبل توبة العبد من جميع المعاصي ما دام في نَفَس الرَّجاء، وفسحة البقاء، فإذا بلغ حال انقطاع التكليف، ووقوع الأمر المخوف، لم تنفعه التوبة، ولم تنقذه الإنابة.

فكأنه قد حجب عن طريق الاستغفار، وأخذ على حال الإصرار. وقد يجوز أن يكون المراد بالحجاب هاهنا ضد المراد بالوجه الأول، وهو أن يكون وقوعه بمعنى انكشافه وسقوطه كما يقول القائل: وقع الستر المضروب، وسقط الفدام [2] الممدود: أي زال وانتهتك وانكشف وانفرج، والمراد بانكشاف الحجاب: أن تظهر للمرء أشراط الآخرة التي لا تضام [3] التكليف، فيراها بادية بعد أن كانت خافية وظاهرة بعد أن كانت باطنة، فيكون الحجاب هناك على ضربين: حجاب مهتوك عما كان خافياً من أعلام الآخرة، وحجاب مضروب دون ما كان ممكناً من أحوال التوبة.

[٢٦٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [4] :

= والمجال: المكان المتسع الذي يجول فيه الإنسان ويطوف بأنحائه، ومعنى الحديث: أن ما يصيب المؤمن في الدنيا من الأذىٰ وماله عند الله من الخير الذي لا يصل إليه إلا بالموت، ويشبهه الحديث الآخر «الموت راحة المؤمن».

(١) انظر كنز العمال ١ : ٣٠٠، والنهاية واللسان والتاج (حجب).
وتتمته «قيل: يا رسول ، وما الحجاب؟ قال: أن تموت النفس وهي مشركة». يعني كأنها حجبت عن الإيمان.

(٢) الفدام: شيء تضعُه المجوس على أفواهها عند السفر، وإذا سقط انكشف ما تحته كما ينكشف الحجاب عن المؤمن عند موته.

(٣) تضام التكليف: أي تجامعه؛ أي لا تكون موجودة مع وجود التكليف على المؤمن وعند موته يسقط التكليف فتنكشف له أشراط الساعة أي علاماتها.

(٤) انظر المسند ٤ : ٣٩١.

« المَعْرُوفُ وَالمُنْكَرُ خَلِيفَتَانِ يُنْصَبَانِ لِلنَّاسِ فَيَقُولُ المُنْكَرُ لأَهْلِهِ: إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ [1] وَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُ إِلَّا لُزُوماً ».

وهذا القول مجاز، والمراد أن الله تعالى جعل للفعل المعروف علامات وعلى الفعل المنكر أمارات، ووعد على فعل المعروف حلول دار النعيم، وأوعد على فعل المنكر خلود دار الجحيم. فكان بين الأمرين الحِجاز البين والفُرْقانُ النيّر. فكأن المعروف يدعو إلى فعله لما وعد عليه من الثواب، وكأن المنكر ينهي عن فعله لما وعد عليه من العقاب.

فلذلك قال عليه الصلاة والسلام: « فَيَقُولُ المُنْكَرُ لأَهْلِهِ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ » على طريق المجاز والاتساع، وقولُه عليه الصلاة والسلام من بعدُ: **وما يستطيعون** له إلا لزوماً، المراد به أنهم من قوارع النُّذُر، وصوادعِ الغِيَرَ، وزواجر التحذير، وبوالغ الوعيد يتنازعون إلى فعله، ويتسارعون إلى وِرْده، وليس المراد أنهم لا يستطيعون له إلا لزوماً على الحقيقة. وإنما قيل ذلك على طريق المبالغة في صفتهم بالنزوع إليه والإصرار عليه كما يقول القائل: ما أستطيع النظر إلى فلان أو لا أستطيع الاجتماع مع فلان: إذا أراد المبالغة في نفسه بشدة الإبغاض لذلك الإنسان، والاستثقال لرؤيته، والنفور من مقاعدته، وإن كان على الحقيقة مستطيعاً لذلك بصحة أدواته [2]، والتمكن من تصريف إراداته [3]، ولو لم يكن هؤلاء المذكورين في الخبر قادرين على الانفصال من فعل المنكر لما كانوا قادرين على موافقته مذمومين، وبجريرته مطالبين، وذلك أوضح من أن نستقصي الكلام فيه، ونستكثر من الحجاج عليه [4].

---

(١) إليكم إليكم: معناها ابتعدوا عني.

(٢) صحة الأدوات: أي وجود الموصلات إلى الشخص المذكور، فجعل أسباب الإتصال كأدواته.

(٣) أي أن مريد الاجتماع بإنسان يستطيع تصريف إراداته وتغييرها حتى يمكنه الاجتماع به.

(٤) أي لو كان فاعلو المنكر لا يستطيعون حقيقة الابتعاد عنه بمقتضى طبيعتهم، لما كان عليهم إثم في فعله، ولم يلحقهم ذمّ في ملازمته، لأن الله تعالى عادل لا يعاقب على ذنب يجبر الإنسان على فعله.

[٢٦٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« أُمِـرْتُ بِقَرْيـةٍ تَأْكُـلُ القُـرَى[٢] تَنْفِي الخبثَ[٣] كمـا يَنْفِي الكِيـرُ خَبَثَ الحَدِيدِ »[٤].

يريد عليه الصلاة والسلام الهجرة إلى المدينة فقوله: « أمرت بقرية تأكل القرى » مجاز، والمراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ويغتنمون أموالهم، فكأنهم لهذه الأحوال يأكلونهم، وخرج هذا القول على طريقة للعرب معروفة، لأنهم يقولون: أكل فلان جاره إذا عدا عليه، فانتهك حرمته واصطفى حريته، وعلى ذلك قول عَلْقَمةَ بن عَقِيلِ بن عُلَّفَة لأبيه في أبيات[٥]:

أَكَـلْتَ بَنِيـكَ أَكْـلَ الضَّبِّ حَتَّى   وَجَـدْتَ مَـرَارَةَ الكَـلإِ الـوَبِيـلِ[٦]

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في غزوة الحُدَيْبِيَةِ[٧]: وَيْحَ قُـرَيْشٍ

---

(١) رواه البخاري ٤ : ٧٥، ومسلم برقم ١٣٨٢، والموطأ ١ : ٨٨٦، وروايته «أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد ».

(٢) أراد أن الله ينصر الإسلام بأهل المدينة، وهم الأنصار، ويفتح على أيديهم القرى، ويغنمها إياهم فيأكلونها، وهذا من باب الاتساع والاختصار وحذف المضاف، والتقدير: يأكل أهلها أموال القرى.

(٣) أي تخرجه عنها، وهو من النَّفْي: الإبعاد عن البلد. يقال نفيته أنفيه نفياً، إذا أخرجته من البلد وطردته.

(٤) هو ما تلقيه النار من وسخ الفضة والنحاس وغيرهما إذا أذيبا.

(٥) علقمة بن عقيل بن علّفة المري الذبياني، كان هو وأبوه وإخوته، من الشعراء المشهورين، من شعراء غطفان. انظر أخبارهم في القعقعة والبررة (نوادر المخطوطات ٢ : ٣٥٧ - ٣٦٠، والأغاني ١٢ : ٢٥٤ والمؤتلف والمختلف ٢٤٠، والحيوان ٦ : ٤٩.

(٦) انظر خبر هذا الشعر في الأغاني وهامش الحيوان والعققة والبررة، وينسب هذا الشعر إلى علّفة بن عقيل، ويقال إنها لعملس بن عقيل، ويقال بل قالها أرطاة بن سهيّة يعيره ببجيل. انظر العققة والبررة (نوادر المخطوطات ٢ : ٣٥٩) وبعد البيت.

فلـو كانـوا قريبـاً حين تَدْعُو   مَنَعْـتَ فِنـاءَ بيتـك من بَجِيلِ

(٧) هي قرية صغيرة سميت باسم بئر هناك عند مسجد الشجر وهي شجر سمر والحديبية على تسعة أميال من مكة، فكانت في السنة السادسة من الهجرة النبوية.

لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ» يريد أنها أفنت رجالهم، وانتهبت أموالهم، فكانت من هذا الوجه كأنها آكلة لهم، قال ذلك عليه الصلاة والسلام في حديث طويل[1]، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: « تنفى الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد » أن أهلها يَتَمَحّصُون فينتفى عنها الأشرار ويبقى فيها الأخيار، ويفارقها الأخلاط والأوشاب[2]، ولا يصبر عليها إلا الصميم واللُّباب، فتكون بمنزلة الكير الذي ينفي الأخباث والأدران، ويُخْلص المَصاص والنُّضار[3]. وهذا أيضاً مجاز ثانٍ، وقد ورد هذا الخبر بلفظ آخر ذكره عمر بن عبد العزيز[4] قال: سمعنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: « المَدِينَةُ تَنْفِي خَبَثَ الرِّجَالِ كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ »[5].

والمعنى في اللفظين واحد.

[٢٧٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

«الرَّحِمُ لَهَا حُجْنَةٌ[7] كحُجْنَةِ المِغْزَلِ» وهذه استعارة، والحُجْنة: هي الحديدة المُعَقَّفَةُ في رأس المِغْزَل[8]، ومنه المِحْجَنُ وهي العصا المعوَجَّة

---

(١) رواه البخاري ٥ : ٢٤١ - ٢٦٠، وأبو داود برقم ٢٧٦٥ و٢٧٦٦ ورقم ٤٦٥٥، وروايته عندهما: « إن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأخّرت بهم. . . ». وهو حديث طويل كما ذكر الشريف الرضي.
الرضي.

(٢) الأوشاب: الأخلاط؛ وهو جمع وِشْب.

(٣) المصاص: خلاصة الشيء، والنضار: الذهب الخالص أو خالص الجوهر.

(٤) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي: الخليفة الصالح. والملك العادل، وربما قيل له: خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم.. توفي بدير سمعان سنة ١٠١ هـ.

(٥) انظر رواية البخاري للحديث ٤ : ٧٥، ومسلم برقم ١٣٨٢، والموطأ ١ : ٨٨٦ في الجامع.

(٦) انظر المسند ٢ : ١٨٩، و٢٠٩، وفي الفائق والنهاية (حجن): «توضع الرحم يوم القيامة لها حجنة كحجنة المغزل، تكلّم بلسان طلِق ذلِق».

(٧) الحجنة من الأحجن، كالحمرة من الأحمر، وسمّيت بها الحديدة العقفاء في رأس المغزل.

(٨) قال ابن الأثير: أي صنّارته، وهي المعوجّة التي في رأسه.

الرأس. فأراد عليه الصلاة والسلام أن الرحم لها علائق يعتلق بها وشوابك تجتذب بوصلها فكأنها تستعطف المُعْرِض عنها وتردّ الشارد إليها كما يجتذب الإنسان الشيء بالمحجن إلى جهته أو يستثنى [1] به الذاهب عن وجهته.

[٢٧١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« مَنْ قُتِل تَحْتَ رَايةٍ عِمِّيَّة[3] تَغْضَبُ لِغَضَبِهِ وَتُقَاتِلُ لعَصَبَتِهِ[4] فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ »[5].

وفي رواية أخرى: « يَغْضَبُ غَضْبَتَهُ ويُقَاتِلُ عَصَبَتَهُ ». فقوله عليه الصلاة والسلام: « تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّة »، مجاز لأنه جعل الراية عِمِّيَّةٍ، والمراد الحرب التي رفعت تلك الراية فيها، وإنما حسن وصفها بالعَمَى وهو في الحقيقة للحرب، لأن الراية علم لها، ودليل عليها، والحرب العمية هي المشتبهة التي لا يهتدي فيها إلى القصد، ولا يتبين فيها وجه الرشد، فهي كالعمياء التائهة، والعشواء الخابطة، ومن ذلك قولهم: نحن في عمياء إذا كانوا في أمر مختلط، أو على رأي مشتبه، وربما روى لفظ الخبر على الإضافة، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « تحت راية عِمِّيَّة » كأنه قال: تَحْتَ رايةِ حربٍ عِمِّيَّة والمعنيان متقاربان.

[٢٧٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [6]:

« مَنْ أَرادَ أَهْلَ المَدِينة يَكِيدُهُمْ أَمَّاعَ[7] كما يَمَّاعُ المِلْحُ في الماءِ ».

---

(١) يستثني: يلويه ويثنيه ناحيته.

(٢) أخرجه مسلم برقم ١٨٥٠، والنسائي ٧: ١٢٣.

(٣) العِمِّيَّة بشرتين: الجهالة والضلالة، وهي فِعّيلة من العمى.

(٤) العَصَبَة: بنو العم، وكلٌ من ليست له فريضة مُسَمّاة في الميراث وإنما يأخذ ما يبقى بعد أرباب الفرائض؛ فهو عَصَبَة.

(٥) أي لا ثواب له فيها ويعاقب عليها، وهذا تنفير عن فعل مثل هذا العمل.

(٦) رواه البخاري ٤: ٨١ ومسلم برقم - ١٣٨٦ و١٣٨٧.

(٧) امّاع الشيء: إذا ذاب وتفرّقت أجزاؤه.

وقال ابن الأثير: أي يذوب ويجري. ماع الشيء يميع، إذا ذاب وسال.

وهذه استعارة، والمراد أنه يمحق كيده ويضمحل أمره، فيكون كالهباء المتلاشي والبناء المتداعى، فلا يثبت لـه عِماد ولا يَدْعَمُه سِناد. فعبر عليه الصلاة والسلام عن هذه الحال **بالاميّاع**، لأنه لا يَمَّاع إلا الجسم المتخلخل الذي لم تَسْتَحْصِفْ جِبِلته[1]، ولا استحَجَرتْ طِينَتهُ[2]. وتوصف أيضاً الأجسام الرقيقة بمثل ذلك، فيقال ماع الماء إذا جرى على وجه الأرض، وكذلك الدم، وإماع السمن: إذا ذاب، وكذلك الرُّب[3] ويفرق بينهما بأن يقال للجسم الذي لا يتماسك إذا خلى عنه ماع كالماء والدم. ويقال للجسم الذي إذا أطلق عنه تماسك بعض التماسك أمّاع كالسمن والرُّب. قال الشاعر[4]:

كَأَنَّهُ ذُو لِبَدٍ دَلَهْمَسُ   بِساعِدَيْهِ جَسَدٌ مُوَرَّسُ

* من الدِّماء مائعٌ ومُلبِس[5] *

والجسد ها هنا اسم من أسماء الدم[6].

[٢٧٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7] لِسَلْمان الفارسيّ رحمة الله عليه:

«سَلْمانُ ابْنُ الإسْلَامِ، سَلْمَانُ جِلْدَةُ بَيْنَ عَيْنَيَّ».

---

(١) الجبلّة: الطبيعة والخلّة، وتستحصف: تستحكم وتقوى.

(٢) أي لم تقو طينته ولم تجمد حتى تصير حجراً.

(٣) الرُّب: عصارة التمر المطبوخة، وما يطبخ من التمر والعنب. وربّ السمن والزيت: ثغله الأسود.

(٤) في اللسان والتاج (ميع): «وأنشد الليث».

(٥) انظر اللسان والتاج (ميع)، ورواية البيت الثالث فيهما:

من الدِّماء مائِعٌ وَيُبَّسُ

وقال الزبيدي: «ماع الشيء يميع ميعاً: جرى على وجه الأرض جرياً منبسطاً في هينة، كالماء والدم، والشراب ونحوه، وهو في السراب مجاز».

(٦) انظر اللسان والتاج (جسد).

(٧)

وفي هذا الكلام مجازان: أحدهما قوله عليه الصلاة والسلام: « سلمان ابن الإسلام » ولهذا القول وجهان: [أحدهما] أن يكون المراد به أن سلمان يتعرف بالإسلام كما يتعرف الناس بآبائهم، وينتمون إلى أجدادهم، لأنه كان عبداً غير معروف الأب ولا مشهور النسب، وإنما بالإسلام سمى وإليه انتمى.

[والوجه الآخر]: أن يكون المراد أن الإسلام دعَمَ ظَهْرَه وشَدّ أزرَه، فقام له مقام الحاضن الكافل والأب العائل.

والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام: « سَلْمان جِلْدَةٌ بين عيني » وجلدة بين العينين ها هنا كناية عن الأنف، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعله في العزة والقرب منه كالأنف الكريم على صاحبه والعزيز على مفارقه، وهذا القول أصح معنى من قول الشاعر [1]:

* وجِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأنْفِ سَالِمُ [2] *

لأنه لا جلدة بين العين والأنف مذكورة يقُصد قَصْدُها، ويشار نَحْوَها كما قلنا في جلدة بين العينين إنها الأنف الكريم موقعه والمشهورة موضعه.

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن العدوي: صحابي، نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة، ومولده ووفاته فيها سنة ـ ٧٣ هـ. وكفّ بصره في آخر حياته، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة. (الإصابة ٤٨٢٥ ونكت الهميان ١٨٣ والسير ٣: ٢٠٣).

(٢) وتمامه:

يُدِيرونني عن سالم وأُرِيغُهُ   وجِلْدة بين العين والأَنْفِ سالمُ

انظر اللسان والتاج والمقاييس (روغ). والمعارف ١٨٦ والعقد ٢: ٤٣٧ و٥: ٢٨٦ و ٥/ ٢٨٦ وكان ابن عمر يحب ولده سالم بن عبدالله، وكان الناس يلومونه في ذلك فيقول هذا البيت.

(*) ويُنسب البيت مع أبيات أخر أيضاً لأبي الأسود الدؤلي ولزهير بن أبي سلمى ولدارة ابن سالم. انظر السمط ١: ٦٦ والخزانة ٥: ٣٧٣.

[٢٧٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]:

« مُعْتَرَكُ المَنَايَا بَيْنَ السِّتِّين وَالسَّبْعِينَ ».

وهـذا القول مجاز، والمعترك موضع الحرب وسمى معتركاً لالتفاف الرجال، واعتراك الأبطال، وقد قال عليه الصلاة والسلام في خبر آخر[2]: « أعمار أمتي بين الستين والسبعين » وقال صلى الله عليه وآله: « لَا خَيْرَ لِمُؤْمِنٍ في عُمْرٍ يَتَجاوَزُ عُمْرِي » فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه هذا العمر لكثرة الذاهبين فيه، وقلة المجاوزين له، بمعترك المنايا، تكافح فيه الأرواح، وتُصطَلم[3] الآجال، فلا يُفْلِت من ذلك المقام إلا من أشذَّه حائلها[4] وتَخَطَّاه نائلها[5].

[٢٧٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

« لا تَسُبُّوا الإِبل فَإِنَّها رَقُوءُ[7] الدَّمِ ».

وهـذا القول مجاز، لأن الإبل على الحقيقة ليست برَقُوء الدم، وإنما

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، والخطيب في التاريخ ٥:٤٧٦، والحكيم في نوادر الأصول والرامهرمزي والعسكري في الأمثال، وأبو يعلى ١ : ٣٠٠ وهو حديث حسن بالحديث الصحيح التالي: «أعماد أمتي ما بين الستين» انظر الترمذي برقم ٣٦٢٠، وابن ماجة برقم ٤٢٣٦، والحاكم ٢ : ٤٢٧ . وانظر أيضاً كشف الخفاء ١ : ١٦٣ ، ومسند الشهاب ١ : ١٧٤ .

(٢) رواه الترمذي برقم ٣٦٢٠، وابن ماجة برقم ٤٢٣٦، وأبو يعلى ١ : ٢٧٥، وابن حيان ٢٤٦٧، والحاكم ٢ : ٤٢٧ .

(٣) تصطلم : تستأصل وتحتث.

(٤) أشذّه: نحاه وأبعده، وحائلها: الذي يحول بينها وبين الشخص.

(٥) نائلها: النائل الآخذ؛ والمراد هنا تخطفه المنايا لأن نيلها هو أخذها وإزهاق أرواح من تنالهم.

(٦) انظر النهاية واللسان (رقأ).

(٧) يقال : رقأ الدمع والدم والعِرق يرقأ رُقوءاً بالضم، إذا سكن وانقطع والاسم الرَّقوء بالفتح: أي أنها تعطى في الديات بدلاً من القود فيسكن بها الدم.

المـراد أنها إذا اعـطيت في الديـات كانت سببـا لانقطاع الـدماء المـطلولـة[1] والثارات المطلوبة. فشبه عليـه الصلاة والسـلام تلك الحال بـالعِرْق العـائد[2] والدم السائل الذي إذا ترك لج واستشـرى وإذا عولـج انقطع وَرَقَـأ، وعلى هذا المعنى قول الكُمَيْت بن زَيْدِ[3]:

ولــكــنّــى رَقُــوءُ دَمٍ وراقٍ   لأدْوَاءِ الضّغـائنِ والـدُّخُـولِ[4]

ويروى هذا الخبر على لفظ آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

فإنّ فيها رَقُوءَ الدَّمِ.

[٢٧٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

« إنَّ ذا الوَجْهَيْنِ[6] لَخَلِيقٌ ألاَّ يكوُن عَنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً »[7].

وهذا القول مجاز، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يرد تثنية الوجه الذي هو العضو المخصوص على الحقيقة لأن استحالة ذلك في الإنسان معلوم ضرورة، وإنما أراد ذم المنافق الذي ظاهره يخالف باطنه وحاضره يضاد غائبه، فكأنه يلقى أخاه في مشهده بصفحة المودة، ويتناوله في مغيبه بلسان الذم والعصبية، فشبه عليه الصلاة والسلام هاتين الحالتين ـ لاختلافهما ـ بالوجهين المختلفين لتباين ما بينهما.

---

(١) المطلولة: المسفوكة المراقة.

(٢) عند العرق: سال، فالعرق العائد هو السائل الذي لا ينقطع دمه.

(٣) الكميت بن زيد: سبقت الإشارة إليه.

(٤) ديوانه: (   )

(٥) انظر النهاية واللسان والتاج والصحاح (رقأ).

(٦) ذو الوجهين: المنافق.

(٧) وجيهاً: ذو جاه، أي لا يكون محترماً ولا ينظرون إليه نظر إكبار.

[٢٧٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« الإِيمانُ يَمَانٍ[٢] والحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ ».

وهذا قدر ما أورده أبو عبيد في كتابه من هذا الخبر وقد ذكر غيره فيه زيادة كثيرة وهي قوله عليه الصلاة والسلام بعد الكلام المتقدم.

« رحا الإسلام دائرةٌ في قَحْطَانَ، حِمْيَرُ رُؤُوسُ العرب وبهاؤها، والأَسْدُ[٣] كاهلها وحُمْجُمَتها، ومَذْحِجُ هامتها وَغَلْصَمَتُهَا »[٤].

في حديث طويل، وفي هذا الحديث عدة مجازات: أحدها قوله عليه الصلاة والسلام: « الإيمان يمان والحكمة يمانية » والمراد أهل الإيمان وأهل الحكمة يَمَانُون، وأمثال ذلك في الكلام معروف كثير.

ويدخل في هذا الوصف أهل مكة وأهل المدينة.

فأما مكة فهي جهة من جهات اليمن ومَفْضىً[٥] ألى ذلك الشِّق والسَّمْت، وأما المدينة فمعظم أهلها الأنصار وهم من أهل اليمن بالأصل وإن كانوا من أهل

---

(١) رواه البخاري ٦: ٣٨٧، ومسلم برقم ٥٢، والترمذي برقم ٢٢٤٤.

قال ابن الأثير: إنما ذلك لأن الإيمان بدأ من مكة، وهي من تهامة، وتهامة من أرض اليمن ولهذا يقال: الكعبة اليمانية.

وقيل: إنه قال هذا القول وهو بتبوك، ومكة والمدينة يومئذ بينه وبين اليمن، فأشار إلى ناحية اليمن وهو يريد مكة والمدينة.

وقيل: أراد بهذا القول الأنصار لأنهم يمانون، وهم نصروا الإيمان والمؤمنين وآوَوْهم، فَنُسِبَ الإيمان إليهم.

(٢) يمان: أي يمني، نسبة إلى اليمن، فيقال يمني ويمان، كما يقال: شآمي وشآم.

(٣) الأَسد هي الأزد.

(٤) الغلصمة: صفيحة غضروفية عند أصل اللسان، وتنحدر إلى الخلف لتغطية فتحة الحنجرة لإقفالها في أثناء الطعام.

(٥) مُفْضًى: موصل ومنفذ.

الحجاز بالدار، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الكلام بتَبُوك وهي من أرض الشأم، وكانت مكة والمدينة حينئذٍ بينه وبين اليمن فأشار إلى جهة اليمن وهو يريد مكة والمدينة.

والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام: رحا الإسلام دائرة في قَحْطان. والمراد أن أمر الإسلام يدور عليها كما تدور الرحى على قطبها، وقد مضى في صدر هذا الكتاب من الكلام على رحا الإسلام ما فيه كفاية؛ والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام: حمير رؤس العرب وبهاؤها، والأسد كاهلها وجُمْجُمتُها، ومَذْحِج هامتها وغلصمتها. والمراد أن حميرفي التقدم كالرؤوس الأعاظم، والأسْد في الاشتداد والاجتماع كالكواهل والجماجم، ومَذحجُ في السموّ والدنوّ، كالهامات والغلاصم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[٢٧٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]:

« يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَلْحَقَنَّ كُلُّ أُمَّةٍ بما كانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كان يَعْبُدُ صَنماً إلاَّ ذَهَبَ حَتَّى يَقَعَ في النَّارِ وَيَبْقى غُبَّرَاتُ[2] أَهْلِ النَّارِ »؛

فقوله عليه الصلاة والسلام: غُبّرات أهل النار استعارة، والمراد عقابيلهم وبقاياهم. وذلك مأخوذ من غُبّر اللبن وغُبْره بالتشديد والتخفيف، وهو بقيته في الخِلْف والضّرْع، وغُبّر الليل: آخره، مأخوذ من ذلك.

قال الطِّرِمَّاحُ بن حَكِيمٍ[3] في الغُبّر مُثَقَّلاً:

فَيَا صُبْحُ كَمّشَ غُبَّرَ اللَّيْلِ مُصْعِداً ... بِبَمٍّ وَنَبِّهْ ذا العِفَاءِ المُوَشَّحِ[4]

(١) رواه البخاري ١٣ : ٣٥٨، ومسلم برقم ١٨٣، والنسائي ٨ : ١١٢ و١١٣، وروايته فيها: «وغبّر أهل الكتاب .....».

(٢) غبرّ جمع غابر، وهو الباقي، وغبّرات جمع الجمع.

(٣) الطرماح بن حكيم بن الحكم الطائي: شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام وانتقل إلى الكوفة وكان هجّاء، معاصراً للكميت صديقاً له، لا يكادان يفترقان وتوفي في سنة ١٢٥ هـ تقريباً. (الأغاني ١٢ : ٣٥ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ٥٢، والخزانة ٨ : ٧٤).

(٤) ديوانه: ٩٨.

يريد الديك، وقال آخر[1] في الغُبْر مخففاً:

مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِئٍ   كَالقُرْطِ صاوٍ غُبْرُهُ لا يُرْضَعُ[2]

قال الأخفش[3]: هو بالتخفيف لا غير، وأنشد هذا البيت شاهداً على قوله.

[٢٧٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« الرُّؤْيَا عَلَى الرَّجُلِ طَائِرٌ[5] ما لَمْ تُعَبَّرْ، فَإذا عُبِّرتْ وَقَعَتْ فَلا تُحَدِّثَنَّ بِهَا إلَّا حَبِيباً أَوْ لَبِيباً ».

---

(١) هو خويلد بن خالد بن محرّث، أبو ذؤيب الهذلي: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح ومات في مصر نحو سنة ٧٢ هـ (الأغاني ٦ : ٢٦٤ ومعاهد التنصيص ٢ : ١٦٥ والخزانة ١ : ٣٨١).

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ : ٣٥، والبيت من قصيدة أبي ذؤيب العينية وجاء فيه: «ابن الأعرابي: يريد أن أنساءها قد تفلّقت في حال قُنُوء ضَرْعها. قال الأصمعي: النسا لا يتفلّق، إنما يتفلق موضعه يريد: انفلقت فخذاها عن موضع النسا بلجمتين، لما سمنت انفرجت اللحمة فظهر النسا، فصار كأنه في جدول».

وعن قانيء: أراد: مع قانيء، والقانيء: الضرع، كان أسود فاحمر فإذا ذهب لبنه اسودّ. والقانيء الذي قد احمرّ حتى دخله سواد، ومعنى صاوٍ: يابس؛ والمعنى: إذا يبس الضرع احمرّ واسودّ كما يقنأ الخضاب، فأراد أنها ذاوية الضرع، لم تحمل زماناً، وهو أشد لها. وكالقُرْط: يعني الضرع كأنه قرط في صغره.

(٣) الغبر: بقية اللبن، ولم يرد أن ثمّ بقية لبن، ولا يرضع: أي أنها لم تحمل قط، لا يريد أن فيها لبناً إلا أنه لا يرضع، ولكنه يقول: لا يرضع ألبتة، ليس له غبر يرضع، ليس فيه لبن يشرب.

وجاء الشطر الثاني في طبعات الكتاب:

«كالقرظ صاف غبره لا يرضع»

وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه.

(٤) رواه الترمذي برقم ٢٢٧٩ و٢٢٨٠، وأبو داود برقم ٥٠٢٠، مع خلاف في الرواية.

(٥) وفي رواية «رجلِ طائرٍ»، والمعنى: كل حركة من كلمة أو شيء يجري لك، فهو طائر. يقال: استهموا داراً، فطار سهم فلان في ناحيتها، أي خرج وجرى. والمراد في الرؤيا: أنها على قدرٍ جار، وقضاء ماضٍ من خير أو شر، وهي لأول عابر يحسن عبادتها.

روى هذا الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله أبو رزين العُقَيْلي، وهو لقيط بن عامر ابن المُنْتَفِق[1]، وفي هذا الكلام مجاز.

والمراد بالطائر ها هنا الأمر الذي يُتَطَيَّرُ به، ومنه قوله تعالى[2]: ﴿ وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ ﴾ يريد ما يتطير منه، ويخاف وقوعه به من جزاء أعماله السيئة وأوزاره المثقلة، وذلك مأخوذ من زَجْر الطير على مذاهب العرب وكانوا يتيمنون بأيامنها ويتشاءمون بأشائمها، وعلى ذلك قول الشاعر[3]:

ولَقَدْ غَدَوْتُ وَكنْتُ لا ... أَغْدُو على وَاقٍ وحاتِمْ

فإذا الأشائمُ كالأيا ... مِن والأيامنُ كالأشائم

والواقِ: بكسر القاف الصُّرَدُ، كأنهم سموه بحكاية صوته[4].

قال الشاعر[5]:

---

(١) لقيط بن عامرالمنتفق بن عامر، أبو رزين العقيلي: صحابي، له صحبةووفادة على الرسول (ص)، وهو ممن غلبت عليه كنيته، ومنه جاءنا هذا الحديث بروايته كما في الترمذي (أسد الغاب ٤: ٥٢٣ وتهذيب التهذيب ٨: ٤٥٦).

(٢) الآية من سورة الإسراء: ١٣، وانظر أيضاً القرطبي ١٠: ٢٢٩.

(٣) تجد الشعر منسوباً إلى المرقش في عيون الأخبار ١: ١٤٥، وتأويل مختلف الحديث ١٠٦ والصحاح واللسان والتاج (حتم) والحيوان ٣: ٤٣٦. ولم يعين المراد أهو المرقش الأصغر أم الأكبر، لكن اطلاقه يرجح أنه الأصغر فإنه «أشعرهما وأطولهما عمراً» معجم المرزباني ص ٤. وتجد الشعر في حماسة البحتري ٢٥٥، معزواً إلى المرقّم الذهلي، وهو خزز بن لوذان كما في المؤتلف ١٤٣.

(٤) انظر اللسان والتّاج (وقي).

(٥) البيت لُخَيْمْ بن عَدِيٍّ الكلبي، ولقبه الرّقاص: شاعر جاهلي. (انظر الذيل والتكملة للصاغاني ٦: ٥٣٣، الاقتضاب ٣: ١٦٣، اللسان والتاج (وقى وحتم وخثرم). وهو يمدح بالشعر مسعود بن بحر الزهري وهو في أدب الكاتب ١٩١، والاقتضاب ٣: ١٦٣، الحيوان ٣: ٤٣٧، تأويل مختلف الحديث ١٠٦، الصحاح والتكملة واللسان والتاج (وقى، حتم).

وقال الصاغاني: «والرواية» «ليس بهياب» على المغايبة» ومثله الاقتضاب واللسان. وقال ابن السيد البطليوسي: «وأراد (بواق): الصّرد، وبحاتم: الغراب. وقد فسر ذلك ابن قتيبة والهياب: =

ولستُ بهَيَّابٍ إذا شَدّ رَحْلَه يقول عَداني اليومَ واقٍ وحاتمُ

والحاتم: الغُراب، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل رؤيا الإنسان التي يتروّع لها، ويخاف ضررها بمنزلة الشي الذي يُتطير به، وقد يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون، فإذا عبّرها فعبرت له على ما يكره وقع متوقَّعها، وخلص للشر مجوَّزها[1]: ويشْبه ذلك ما حكي عن بعض المتقدمين أنه قال: علم النجوم فأل فلكي، كأنه يشير إلى أن يتفاءل بالسعود[2] تعرضاً لها ويتطير بالنحوس تباعداً منها[3].

وجميع ذلك ما يجوز أن يقع، ويجوز ألا يقع. ولما جعل عليه الصلاة والسلام الرؤيا بمنزلة الطائر المتطير به جعل تعبيرها على الأمر المكروه بمنزلة وقوع الطائر موافقة بين أنحاء الكلام حتى يقع مواقعها وتطبق مفاصلها.

وقوله عليه الصلاة والسلام من بعد: فلا تُحَدِّثَنَّ بها حبيباً أو لبيباً، يريد به النهي عن قصتها إلا على محب ناصح أو لبيب راجح، لأن المحب للإنسان يتعمد حمل أموره على أجملها، ويتوخّى مسرّته بتحسين ما يحسن منها.

وبخلاف ذلك يكون المبغض المباعد، والكاشح الموارب[4]. وأما **اللبيب وهو العاقل فهو يعبرها على الوجه الصحيح الذي لا يوطىء فيه عَشْوة[5] ولا يطلب مضرة. وبخلاف ذلك يكون الأخرق الجاهل والغبي الغافل.**

= الكثير الهيبة والخوف، والرحل للناقة كالسرج للفرس، ومعنى عداني: صرفني. مدح نفسه بأنه لا يرجع عن سفره خوفاً من طائر يتطير به».

(١) أي الذي يجوز أن يكون خيراً، ويجوز أن يكون شراً.

(٢) السعود جمع سعد، والنحوس جمع نحس.

(٣) انظر الفصل الذي عقده الثعالبي في كتابه «التمثيل والمحاضرة» عن التّنجيم والمنجمين ص١٨٩ - ١٩٢.

(٤) الموارب: المداهن المخاتل الذي لا ينصح، والكاشح: المبغض.

(٥) يقال أوطأه عشوة: أركبه على غير هدى، والمعنى هنا: لا يفسر بغير علم.

[٢٨٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1] :

« إنّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الغَنَمِ يَأخُذُ القَاصِيَةَ والشَّاذَّةَ » .

وفي رواية أخرى : « فَإيَّاكُمْ والشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بالجَمَاعةِ وَالِعَمامَةِ »[2] .

وهذه من أحسن الاستعارات . وذلك أنه جعل الشيطان للإنسان بمنزلة الذئب للشاة يأخذ البعيدة المتفردة ، ويختلس الشاذة الشاردة ، ويكون لجماعتها أهيب ولفُرّادها[3] أقرب . وكذلك الشيطان يقوى طمعه في الفذ الفريد ، والشارد الوحيد ، فيستهويه بهواجسه ، ويجعله غرضاً رجيماً[4] لوساوسه ، ويكون في جماعة الناس أضعف طمعاً وبهم أقل تَوَلُّعاً .

وفي هذا الكلام حث للناس على لزوم الجماعة في طاعة السلطان العادل والإمام الفاضل ، ويجوز أيضاً أن يكون فيه حثٌّ لهم على لزوم الدين القويم والصراط المستقيم وترك الانفراد بالمذاهب وسلوك الولائج[5] والعوادل[6] .

[٢٨١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7] :

« لَيُنْقَضَنَّ الإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً كما يُنْقَضُ الحبْلُ قُوَّةً قُوَّةً » .

---

(١) انظر المسند ٥ : ٢٣٣ و٢٤٣ ، كنز العمال ١ : ١٠٢٦ و٧ : ٢٠٣٥٥ ، والفتح الكبير ١ : ٣٠٦ وفيها : «يأخذ الشاة القاصية والناصية» وآخره : «وعليكم بالجماعة والعامّة والمسجد» .

(٢) العمامة : أي الكثرة .

(٣) الفراد : جمع فريد .

(٤) رجيماً : مذموماً ، لأن من معاني الرجم الشتم .

(٥) الولائج جمع وليجة ، وهي الكهف ، ومنعطف الوادي ، والمراد هنا الطرق غير الواضحة .

(٦) العوادل جمع عادلة ، وهي الطريق المعوجّة .

(٧) انظر المسند ٤ : ٢٣٢ و٥ : ٢٥١ ، كنز العمال ١ : ١١٨٩ و١١٩٠ و٣ : ٧٢ والقوة : هي الخيط الواحد الذي يفتل مع غيره حتى يتكون منه الحبل .

هذه رواية فَيْروزَ الدَّيْلَمي[1]، وفي رواية أبي أمامة الباهلي[2]: عُرَى الإسْلَامِ عُرْوةً عُرْوةً[3]، فكلما انتقضت عروة كان تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضا الحُكْم[4] وآخرهن لتنقضنّ الصَّلاة، وهذه استعارة.

والمراد لَتَتْرُكُنَّ العمل بشرائع الإسلام التي أُحكِم عَقْدها ووُكِّد العمل بها حتى تكاد تنمحي مراسمها وتعفو معالمها، فيكون الإسلام كالحبل المنتقِض من أطرافه والمنتكِث بعد استحصافه. والقُوى: الطَّاقاتُ التي يفتل منها الخَيْطُ، والواحدة قوة، وجعل عليه الصلاة والسلام شرائع الإسلام كالعُرَى له من حيث كانت رِبَقاً[5] للرقاب وكان التعلق بها أماناً من العذاب. ونظير هذا الخبر **الخبرُ الآخرُ الذي رواه البَراء بن عازب[6] عنه عليه السلاة والسلام[7]** أنه قال: أيُّ عُرَى الإسلام أوْثق؟ فعَدَّد الحاضرون شيئاً من شرائع الدين، فقال عليه الصلاة والسلام: «أوثقُ عُرَى الإسلام أن يُحَبَّ في اللَّه ويُبْغَضَ في اللَّهِ».

---

(١) فيروز الديلمي، أبو الضحاك: أمير صحابي يماني، فارسي الأصل، من أبناء الذين بعثهم كسرى لقتال الحبشة. وفد على النبي (ص) وروى عنه أحاديث، وعاد إلى اليمن، ووفد على عمر في خلافته، ثم سكن مصر وولاه معاوية على صنعاء، فأقام بها إلى أن توفي سنة ٥٣ هـ. (الإصابة ت ٧٠١٢، تجريد أسماء الصحابة ٢: ٩، أسد الغابة ٤: ٣٧١).

(٢) هو صُدَيّ بن عجلان بن وهب الباهلي، أبو أمامة: صحابي. سكن الشام، فتوفي في أرض حمص، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام سنة ٨١ هـ. (الإصابة ت ٤٠٥٤، تهذيب التهذيب ٤: ٤٢٠، ابن عساكر ٦: ٤١٩).

(٣) العروة: العقدة؛ لأن النسيج يكون له عقد عند نسجه، وبكثرتها يصير النسيج متيناً. وبقلتها يصير غير متين، فجعل الإسلام كالنسيج ذي العقد.

(٤) الحكم: أي الخلافة.

(٥) ربقاً جمع ربقة وهي القيد.

(٦) البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة: قائد صحابي من أصحاب الفتوح، أسلم صغيراً، وغزا مع رسول الله (ص)، وعاش إلى أيام مصعب بن الزبير، فسكن الكوفة واعتزل الأعمال، وتوفي في زمنه في الكوفة سنة ٧١ هـ. (طبقات ابن سعد ٤: ٨٠، نكت الهميان ١٢٤، السير ٣: ١٩٤).

(٧) انظر الفتح الكبير ١: ٤٦٢، كنز العمال ١: ١٠٥.

[٢٨٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(١):

« مَا مِنْ آدَمِيٍّ إلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ اللَّهِ ».

وهذا النوع من جملة الأخبار التي توهم التجسيم وتقتضي التشبيه، قد ذكرنا في أول كتابنا هذا أنا نغفل الكلام عليها لأن جماعة من علماء الشريعة واللغة قد سبقونا إلى استقصاء القول فيها، وإنما نذكر منها ماله دخول في باب الاستعارة بجهة من الجهات، إلا أنا نتكلم على هذا الخبر ها هنا لضرب من الاستظهار، فنقول: إن كان نقله صحيحاً فله وجه في كلام العرب يَسُوغُ حمله عليه وردّه إليه مما يوافق صفات الله سبحانه الذي لا يشبه الخلق التي خلقها والبرايا التي براها وصوّرها، وهو: أن الإصبع في كلام العرب اسم للأثر الحسن التي تظهر سِمَتُه وتشتهر علامته، يقال لفلان في مالِهِ إصبعٌ حسنة أي قيام محمود وأثر جميل. وعلى ذلك قول الراعي(٢) يصف راعياً لإبله:

ضَعِيفُ العصَا بادِي العُرُوق تَرَى لَـهُ ... عَليها إذا ما أَجْدَبَ الناسُ إصَبَعَـا(٣)

أي ترى له عليها أثراً حسناً، وقد قيل أيضاً: إن المراد بذلك إشارة الناس إليها بالأصابع لحسنها وشارتها. وقوله: ضعيف العصا، يريد أنه لا يكثر ضربها

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٥٤ في القدر، والترمذي رقم ٢١٤١ في القدر، وروايته فيهما فيها بعض الاختلاف عما رواه الشريف.

(٢) هو عُبَيْد بن حُصَيْن بن معاوية بن جندل النميري، أبو جندل: شاعر من فحول المحدثين، ولقّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، وهو من أهل بادية البصرة، عاصر جريراً والفرزدق، وكان يفضل الفرزدق فهجاه جرير هجاءً مراً، توفي في سنة ٩٠ هـ. (الأغاني ١٤: ٢٠٤. السمط ١: ٥٠، الخزانة ٣: ١٣٤).

(٣) شعر الراعي النميري: ١٦٢.
وقوله: ضعيف العصا؛ كناية عن حسن الرعية، والعمل بما يصلح الإبل، ويحسن أثره فيها مع قلّة ضربها، وذلك مما يحمد من الراعي.

ولا يعتنف بها وذلك أجدر بأن تَشْحُمَ أبدانها وتَغْزُر ألبانها ومثل هذا قول الشاعر الآخر وقد تقدم ذكره[1]:

عَلَيْهَا شَرِيْبٌ وادِعٌ لَيِّنُ العَصَا يُسَاجِلُهَا جُمَّاتِهِ وَتُسَاجِلُهْ

وأنشد الخليل بن أحمد[2] في كتاب العين لبعض العرب[3]:

أَغَرُّ كَضَوْءِ البَدْرِ في كُلِّ مَنْكِبٍ مِنَ النَّاسِ نُعْمَى يَحْتَذِيهَا وَإِصْبَعُ[4]

يحتذيها ها هنا: يعطيها كأنه يفتعلها من الحُذْيَ[5] كما تقول يصطنعها والمَنْكِب عندهم: اسم لكل اثنتى عشرة عِرَافَةً[6]، ويسمى الرجل الذي يلي ذلك مَنْكِباً[7]، وهو من يدبر هذه العدة من العرفاء. وقال شاعر آخر في معنى الإصبع أيضاً[8]:

مَنْ يَجعَلِ اللَّهُ عَلَيْه إصْبَعَا للخيرِ والشّرِّ يُصَادِفْهُ مَعَا[9]

---

(١) هو الشاعر معن بن أوس المُزنيّ، وقد تقدم هذا البيت في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ترفع عصاك عن أهلك»، ورواية البيت هناك.

عَلَيْهِ شَرِيْبٌ وادِعٌ. . . . .

والضمير في عليه يعود على الحوض المذكور في البيت قبله.

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي: إمام في اللغة والنحو والأدب، وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد، ومات في البصرة سنة ١٧٠ هـ،

(٣) انظر كتاب العين ص٣٦٢، وفيه البيت.

(٤) قال الخليل: والإصبع: الأثر الحسن، وجاء بالبيت شاهداً على ذلك.

(٥) الخدي والخدية: العطية.

(٦) العرافة: جماعة من الناس يكون عليهم عريف؛ أي رئيس يعرفهم، وهم من ثلاثة إلى عشرة.

(٧) أي منكب العرفاء، وهو رأسهم، ومعنى كلام الرضي: الذي يرأس العرافات الأثني عشرة.

(٨) هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام، ووفد على النبي (ص)، وقد سكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً، وتوفي في سنة ٤١ هـ. (الأغاني ١٥: ٣٦١، الخزانة ٢: ٢١٣، السمط ١: ١٣).

(٩) ديوان لبيد ٣٣٧، من أرجوزة طويلة، ورواية البيتين فيه.

أي من يجعل الله عليه أثراً يستدل به على أنه من أهل الخير، أو من أهل الشر يصادف الجزاء على كلا الفعلين من ثواب أو عقاب، ونعيم أو عذاب، وذلك الأثر الذي يجعله الله عليه هو استحقاق الحمد من الناس إن كان محسناً، أو استحقاق الذم منهم إن كان مسيئاً.

فإذا تمهّدْتَ[1] الذي قررناه كان معنى لفظ الخبر: ما من آدميّ إلا وقلبه من الله سبحانه بين نعمتين حسنتين: إحداهما ما منّ به عليه من معرفة خالقه ورازقه. والأخرى الغبطة بما أنعم به عليه من تحسين خلقه وتوسيع رزقه، وذلك يوجب عليه الخروج إليه تعالى من حق الشكر على مننه، وإحسان الجوار لنعمه. وقد عبر بعضهم عن هذا المعنى بعبارة أخرى قال[2]: المراد بذلك تقلب القلوب بين حسن آثار الله عليها، وهذا القول مُجْمَلٌ، والقول الذي ذكرناه من قبل مُفَصَّل.

فأما ما تذهب إليه المشبِّهة من الإصبع ها هنا على حقيقتها، وأن لله سبحانه أصابع ويداً وساقاً وقدماً إلى غير ذلك، فهو من الجهالات التي تدفعها العقول بأوائلها، وتقضي بفسادها قبل إعمال النظر فيها، وكيف يصح هذا القول لهم، ويقوم في عقولهم مع اعتقادهم أن الله سبحانه مستوٍ على العرش كاستواء

= مَنْ يَبْسُطِ الله عليه إصْبَعَا

بالخَيْرِ والشرِّ بأَيٍّ أُوْلِعَا

وجاء في التاج (صبع) « وقال الصاغانيّ: ليس الرجز للبيد. قلت (والكلام للزبيدي): الرجز للبيد كما قاله الليث، ولكنه روي على غير وجه»:

من يجعل الله عليه إصبعا

في الخير أو في الشرّ يلقاه معا.

وهذه الرواية تشبه رواية الشريف الرضي.

(١) تمهدت: أي قبلت وفهمت.

(٢) قال الزبيدي في التاج معلقاً، وشارحاً لهذا البيت:

« معناه أن تقلّب القلوب بين حسن أثاره وصنعه تبارك وتعالى، وقيل: هو جار مجرى التمثيل والكناية عن سرعة تقلّب القلوب، واطلاقها عليه مجاز».

القاعد في مقعده، والمتمهد على مهاده، وأن بينه وبين المخلوقين من بني آدم سبع سموات، وما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وسَمْك[1] كل سماء مثل ذلك، فكيف يسوغ أن تكون أصابعه ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ واصلة إلى قلوب خلقه مع هذا البعد العظيم، والمدى الطويل؛ ولو كان ذلك على حقيقته لوجب أن يكون له من الأصابع ما لا نهاية له حتى يختص قلب كل عبد من عبيده بإصبعين من أصابع يده. هذا لعمر الله القول المتفاسد، والظن المتكاذب، وبمثل هذا الجواب نجيب من سأل عن قوله تعالى[2]: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ الآية فنقول: أراد سبحانه أنه معهم بالعلم والإحاطة لا بالدنوّ والمقاربة، لأن الأمر لو كان علىٰ ذلك لكان المعنى مستحيلاً، وذلك أنه تعالى لا يجوز أن يكون مع كل ثلاثة ولا مع كل خمسة في حال واحدة على الحقيقة، لأن الجسم لا يصح أن يكون في مكانين في حال واحدة، تعالى الله عن تنقل الأمكنة وتقلب الأزمنة علوًّا كبيراً.

ومما يبين كذب قولهم وفساد تأويلهم ما رواه أبو معاوية الضّرِيرُ[3] وغيره عن الأعمش[4] عن إبراهيم[5].

---

(١) السَّمْك: الارتفاع.

(٢) الآية (٧) من سورة المجادلة، وانظر تفسير القرطبي ١٧ : ٢٨٩، ومجازات القرآن ٣٢٨.

(٣) هو محمد بن خازم التميمي السعدي، مولاهم، أبو معاوية الضرير: حافظ للحديث، ثقة، من أهل الكوفة عمي صغيراً، وروي الحديث وأقرأه، وكان مرجئاً توفي في سنة ١٩٥ هـ (تهذيب التهذيب ٩ : ١٣٧، نكت الهميان ٢٤٧، السير ٩ : ٧٣).

(٤) هو سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالأعمش: تابعي مشهور، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، منشؤه ووفاته في الكوفة سنة ١٤٨ هـ. (تاريخ بغداد ٩ : ٣، وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٠، السير ٦ : ٢٢٦).

(٥) إبراهيم بن مالك الأشتر النَّخَعي : قائد شجاع، وأحد الأبطال والأشراف كأبيه، وكان من أصحاب مصعب بن الزبير ، ومن أمرائه، شهد معه الوقائع، وولي له الولايات ، وقاد جيوشه في مواطن الشدة، وكان مصعب يعتمد عليه ويثق به، حتى قتل معه في سنة ٧٢ هـ. (البداية والنهاية ٨ : ٣٢٨، السير ٤ : ٣٥).

=

عن علقمة (١) عن عبدالله بن مسعود(٢) قال: «أتى النبيّ عليه الصلاة والسلام رجلٌ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن اللّه يحمل السموات على إصبع، والأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع؟

فضحك صلى الله عليه وآله من قوله، وأنزل الله سبحانه (٣) عقيب ذلك ـ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» الآية.

وقد روى أيضاً في حديث عبدالله بن عباس(٤) أن من زعم أن لله خِنْصَراً وبِنْصراً فقد أشرك بالله سبحانه، ومجال كتابنا هذا أضيق من أن نسير في أقطار الكلام على هذا الخبر أكثر من هذا المسير، وقد استقصينا ذلك في كتاب حقائق التأويل(٥).

[٢٨٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(٦):

---

(١) علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الهمداني؛ أبو شبل، تابعي كان فقيه العراق، ولد في حياة النبي (ص)، وروى الحديث عن الصحابة، ورواه عنه كثيرون سكن الكوفة، فتوفي فيها سنة ٦٢ هـ. (تاريخ بغداد ١٢ : ٢٩٦، الإصابة ٦٤٥٤، السير ٤ : ٥٣).

(٢) عبدالله بن مسعود: أبو عبد الرحمن الهذلي: صحابي، من أكابرهم، فضلاً وعقلاً، وقرباً من الرسول (ص)، وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وكان خادم رسول الله الأمين، وصاحب سره، توفي في المدينة سنة ٣٢ هـ. (الإصابة ت ٤٩٥٥، تاريخ بغداد ١ :١٤٧، السير ١ : ٤٦١).

(٣) الآية الأنعام: ٩١، وانظر أسباب النزول للواحدي ٢١٥، وتفسير القرطبي ٦ : ٣٨٢ و٧ : ٣٧. وهذه الآية نزلت في مالك بن الصيف، وكعب بن الأشرف اليهوديين.

(٤) عبدالله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: الصحابي الجليل وحبر الأمة.

(٥) حقائق التأويل في متشابه التنزيل؛ وهو من مؤلفات الشريف الرضي. طبع في النجف الأشرف وطهران بتحقيق آل كاشف الغطاء.

(٦) رواه البخاري ١١ : ٢٠٥، ومسلم رقم ١٠٤٧، والترمذي رقم ٢٣٤٠، وأخرجه أيضاً ابن ماجة رقم ٤٢٣٤. وروايته فيها: «يهرم ابن آدم، ونسْبَ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»، وفي رواية: «يكبر ابن آدم، ويكبر معه اثنتان: حبُ المال، وطول العمر» وهو فيها مروي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

« يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ منه اثْنَتَان: الحِرْص عَلَى الحَيَـاةِ، والحِرصُ عَلَى المَالِ ».

وفي رواية أخرى: « الحِرصُ وَالأَمَلُ ».

وهذه استعارة، كأنه عليه الصلاة والسلام جعل زيادة هاتين الخلّتين[1] في الإنسـان مع نقصـان عمره، وتـداني أجله بمنـزلـة الشبـاب المتقبـل، والعمـر المستقْبَل، فكلما ازدادت حوامل جسمه ضعفاً وانتقاضاً زادت جواذب أمله قوة واستحصافاً، فيكون أضعف ما كان بدناً وشخصاً، أقوى ما يكون أملاً وحرصاً.

وروى هذا الخبر أبو هُرَيْرَةُ[2] على خلاف هـذه الروايـة قال: قـال عليه الصلاة والسلام[3]: « قَلْبُ الكَبِيـرِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: حُبِّ الحيَـاةِ وَحُبِّ المَالِ ».

[٢٨٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ غَضّاً كما أُنْزِلَ فَلْيَقْرأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ ».

وهذه استعارة، والغض في كلامهم صفة للثمر، أو النبت الذي لم يطل مكثه بعد مجتناه، فيؤثر فيه الزمان، ويدخله التغيير والفساد.

---

(١) الخَلَّة: الخصلة، والطبيعة، يقال: فيه خَلّةٌ حسنة، وخلّةٌ سيئة.

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابـة حفظـاً للحديث ورواية له.

(٣) أخرجه البخاري ١١: ٢٠٥، ومسلم روقم ١٠٤٦، والترمذي رقم ٢٣٣٩، وابن ماجة رقم ٤٢٣٣، وروايته فيها عن أبي هريرة (رض).: «قلب الشيخ شابَ على حب اثنتين: حبِّ العيش ـ أو قال: طول الحياة ـ وحبِّ المال».

(٤) رواه أحمـد في المسنـد ١: ٢٥ ـ ٢٦ و٢: ٤٤٦ و٤: ٢٧٨، وذكره الهيثمـي في مجمـع الزوائـد ٩: ٢٨٨، وصاحب الكنز ٣٣٤٦١، أخرجه أبو نعيم في الحلية ١: ١٢٤، والفسوي في المعرفة والتاريخ ٢: ٥٣٨.

ويقولون: غضٌّ وغضيض بمعنى واحد، والغَضِيض أيضاً عندهم اسم من أسماء الطَّلع، فأراد عليه الصلاة والسلام أنّ من يأخذ القرآن عن ابن أم عبد، وهو عبدالله بن مسعود[1] رحمة الله عليه أو يسلك في القراءة نهجه، ويَطَّلْع فجَّه[2] فقد أخذه سليماً من الفساد والتغيير، وبريئاً من التحريف والتبديل، فهو كالنبات الغَضِّ لم يطُلْ عهد جانيه، ولا دبَّ الفساد فيه[3].

وقد رُوِي هذا الخبر على وجه آخر، وهو قوله عليه الصلاة والسلام[4]: « من سرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل » والمعنى في الروايتين واحد، وروى أبو هريرة[5]: « من أحب أن يقرأ القرآن غريضاً كما أنزل » والغريض: الطريّ[6]، وهو أيضاً في معنى الروايتين الأوليين.

[٧٨٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه[7]:

« لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْروفِ وَلَتَنْهُونَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيَلْحَيَنَّكُمُ اللَّهُ كما لَحيْتُ عَصَايَ هٰذِهِ ».

لعود في يده. وفي هذا الكلام موضع استعارة وهو قوله عليه الصلاة والسلام: لَيَلْحَيَنَّكم الله، والمراد ليتنقصَّنكم الله في النفوس والأموال، وليصيبنكم بالمصائب العظام فتكونون كالأغصان التي جُرِّدت من أوراقها

---

(١) ترجمنا له فيما سبق.

(٢) الفجّ: الطريق الواسع.

(٣) أي هو طازج، ما زال فيه الرواء والنضرة.

(٤) انظر ما سبق، وبشكل خاص: المسند ١: ٢٥ ـ ٢٦، والحلية ١: ١٢٤، والمعرفة والتاريخ ٢: ٥٣٨.

(٥) انظر المسند ٢: ٤٤٦.

(٦) في التاج (غرض): كل أبيض طري غريض، كما في الصحاح». وفيه أيضاً: «والغريض: الطريّ من التمر».

(٧) أخرجه الترمذي رقم ٢١٧٠، وانظر مجمع الزوائد ٧: ٢٦٦، والمسند ٥: ٢٧٤ و٢٧٥.

وعرِّيت من ألحيتها وألياطها[1] فصارت قضباناً مجردة وعيداناً مفردة، وهم يقولون لمن جَلَفَ الزَّمان ماله[2] أو سلبه أولاده وأعضاده[3]. قد لحاه الدهر لَحى العصا، لأن ما كان ينضم إليه من وِلْدَته[4] وحَفَدَته ويُسْبَغ عليه من جلابيب نعمته بمنزلة اللِّحاءِ للقضيب والوَرَق للغصن الرطيب، فإذا أُخْرِج عن ذلك أجمع كان كالعود العاري والقضيب الذاوي[5].

[٢٨٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

« **إنّ مِنْ أَرْبى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ المَرْءِ في عِرْضِ أخِيهِ المُسْلِمِ** ».

وهذه استعارة، لأنه عليه الصلاة والسلام شبه تناوُل الإنسان من عرض غيره بالذم والوقيعة والطعن والعَضِيهة[7] أكثر مما تناوله منه ذلك الذي قَدَح في عِرْضه وأغرق في ذمه، بالربا في الأموال، وهو أن يعطى الإنسان القليل ليجر الكثير فإنه يستربي المال بذلك الفعل: أي يطلب نماءَه وزيادته، وأصل الربا عندهم مأخوذ من الزيادة يقولون: ربا الشيء في الماء إذا انتفخ وزاد ومنه الرَّبَاوة وَالرَّبْوة، وهي ما علا من الأرض وارتفع. ومن ذلك قوله تعالى[8]: « وَتَرَى

---

(١) الألحية: جمع لحاء، وهو قشر الشجرة، وفي قشرها قوة لها؛ فإذا ازال القشر تعرض جسمها الداخلي لعوامل الجوّ فتوثر فيها.
والألياط: جمع ليطة، وهي قشرة القصبة والعود من الخشب ونحوهما، فهي بمعنى لحاء.

(٢) أي ذهب الزمان بماله؛ وشبه إذهاب الزمان للمال بتقشير العود ونحوه.

(٣) الأعضاء جمع عضد؛ وهو ما بين المرفق إلى الكتف، والإنسان يستعين بعضده، ويقوى به، والمراد هنا الأنصار، والمساعدون تشبيهاً بالأعضاء.

(٤) الوِلْدة جمع ولد: وهو كل ما وُلِدَ، ويطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع.

(٥) الذاوي: الذابل الذي قلّ غذاؤه، أو قطع فذبل وضعف.

(٦) أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٦، ورواه أيضاً أحمد في المسند ١: ١٩٠، وروايته عندهما «إن من أربى الرِّبا: الإستطالة في عِرْض المسلم بغير حقّ».

(٧) العضيهة: الكذب والنميمة.

(٨) الحج: ٥، وانظر تفسير القرطبي ١٢: ١٣.

الأَرْضَ هَامِدَةً فإذَا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا المَاءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ » : أي رطب ثراها وبُلّ، وكثر نبتها واتصل.

[٢٨٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في صفة الخوارج والخبر[١] طويل :

« يقرؤون القرآن يحسبون أنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لاَ يُجَاوِزُ خَنَاجِرَهُم »،

وهذا القول مجاز. والمراد أنهم لا يَعْمَلُون بأحكام القرآن وفرائضه ولا يأتمرون لأوامره والا ينزجرون بزواجره وكأنهم ليس لهم منه إلا الصوت الخارج من حناجرهم. يقول عليه الصلاة والسلام : لا يعرف القرآن عندهم إلا بهذّه[٢] وتلاوته دون العمل بأحكامه وواجباته. وقد روى أيضاً « لا يجاوز تَرَاقِيَهُمْ »[٣] والمعنى واحد.

[٢٨٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : لمخاطَبْين من أهله سألاه في حديث[٤] طويل :

« وَاللَّهِ لا أعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَنْطَوِي بُطُونُهُمْ لاَ أجِدُ ما أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ».

وفي هذا القول مجاز، وأهل الصُّفَّة هم فقراء المهاجرين، فكأنه عليه

(١) رواه مسلم رقم ١٠٦٦ في الزكاة، وأبو داود رقم ٤٧٦٨ و٤٧٦٩ و٤٧٧٠ في السنة، والبخاري ٩ : ٨٦ في فضائل القرآن، وانظر الموطأ ١ : ٢٠٤ و٢٠٥ في القرآن . والنسائي ٥ : ٨٧ في الزكاة.

(٢) الهذّ : سرعة القراءة.

(٣) انظر النسائي ٧ : ١١٩ ، ومسلم رقم ١٠٦٦ والتراقي : جمع ترقوة. ومعنى لا يجاوز حناجرهم أو تراقيهم، أن القرآن يخرج ألفاظاً من حلوقهم وأفواههم، ولا يجاوز حلوقهم إلى الداخل، فتتلقاه قلوبهم بالتدبر والقبول، فهو ألفاظ فقط لا معاني لها في مفهومهم.

(٤) انظر المسند ١ : ٧٩ و١٠٦ ، وكنز العمال ٦ : ١٦٧٨٦ و١٥ : ٤١٩٧٨ .

الصلاة والسلام شبه بطونهم من الخَمص[1] والهَضم[2] لقلة الزاد والمطعم بالأوعية الفارغة التي تنطوي لفراغها وتنضمّ لخلوّ أجوافها.

وقد يجوز أيضاً أن يكون إنما شبهها بالبُرُود المْثنِيّة[3]، والخماص[4] المطوية لانضمام بعضها على بعض من خلوّ الأحشاء وبعد العهد بالغذاء.

وقد يجوز أيضاً أن يكون تنطوى بطونهم ها هنا تنفعل من الطوى وهو الجوع، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال تتجوع بطونهم. وهذا القول يخرج الكلام من حيز الاستعارة ويدخله في باب الحقيقة.

[٢٨٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5] :

« الإيْمَانُ قَيَّدَ الفَتْكَ »[6].

وهذه استعارة. والمراد بذلك أن الإنسان المؤمن يمتنع لإجل إيمانه أن يسفك الدم الحرام طاعة لأمر الحميَّة، وركوباً لسنن الجاهلية، فكأنّ إيمانه قيَّد فَتْكهُ فتماسكه وضبط تهالكه. ومثل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لَخوَّات بن جُبَيْرٍ الأنصاري[7] وكان خَلِيعاً[8] قبل إسلامه « ما فعل شِرَادُ بَعِيرِكَ يا خوّاتُ؟

---

(١) الخمص: خلو البطن.

(٢) الهضم: هو الخمص.

(٣) أي الأثواب المطوية.

(٤) الخماص جمع خميصة: وهي كساء أسود مربع له علمان، ويريد الشريف بذلك كالأكسية المطوية.

(٥) أخرجه أبو داود رقم ٢٧٦٩ في الجهاد، وتتمته: «لا يفْتِكُ مؤْمِنٌ ».

(٦) الفتك: القتل على غفلة وغِرّة.

(٧) خوّات بن جبير بن النعمان، أبو صالح الأنصاري الأوسي: صحابي جليل، وهو صاحب ذات النِّحْيَيْنِ في الجاهلية، ثم أسلم فحسن إسلامه، توفي في المدينة سنة ٤٠ هـ. (طبقات ابن سعد ٣: ٤٧٧، أسد الغابة ٢: ١٤٨، السير ٢: ٣٢٩).

(٨) يقال: غلام خليع: أي تبرّأ منه أهله، فلا يطالبون بجنايته.

فَقَالَ قَيِّدَهُ الإِسلام يا رسول الله »[1] ألا ترى كيف شبهه عليه الصلاة والسلام في ريعان خلاعته وعنفوان نزاقته بالبعير الشارد الذي قد فارق مَرَاحه[2] وتبع ارتياحه. وكيف أجاب هذا الإنسان عن كلام النبيّ عليه الصلاة والسلام بما هو من جنسه وماضٍ على نهجه، فقال قَيِّدَه الإسلام، لأنه عليه الصلاة والسلام لما جعله بمنزلة البعير الشارد وجعل هو ما رَدَّهُ[3] عن ذلك الشِراد وعَكَسَهَ[4] عن تلك الحال بمنزلة القَيْدِ والعِقال. وهذا القول من النبي صلى الله عليه وآله أيضاً داخل في باب المجاز.

[٢٩٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

« **الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولى** ».

وفي رواية أخرى: « الأجر عند الصدمة الأولى ». وهذا القول مجاز، والمراد بالصدمة أول ما يطرق الإنسان من النوائب ويبدهه[6] من المصائب، فشبه ذلك عليه الصلاة والسلام في شدة وقعته وعظيم روعته بصدمة الجسيم الشديد، أوصكة الحجر الثقيل في أنه يُوهِن ويُحَطِّم ويُرْمِض[7] ويُؤْلِم.

فإذا صَبَر الإنسان لتلك الواقعة وتماسك تحت تلك الروعة وسلّم للأقضية النازلة والأقدار الغالبة ولم ينفُذْ في جواذب الجزع ويَرْكُضُ في مضمار القلق أعطيَ الأجر برُمّته[5] وقِيدَ إليه بأزِمّته، لأن ما يطرق الإنسانَ وهو ذاهلٌ ويَفْجَؤه

---

(١) انظر جمهرة الأمثال ٢ : ٣٢٢، والدرة الفاخرة ٢ : ٤٠٥، ومجمع الأمثال ١ : ٣٧٧ والشراد: مصدر شرد البعير؛ إذا ندّ وهرب.

(٢) المراح: مكان مبيت الإبل، والدواب.

(٣) الضمير في الفعلين (ردّ وعكس) يعود على خوات (رضي الله عنه).

(٤) أخرجه البخاري ٣ : ١٣٨، ومسلم رقم ٦٢٦، وأبو داود رقم ٣١٢٤، والترمذي رقم ٩٨٧ والنسائي ٤ : ٢٢.

(٥) يبدهه: يفجؤه، ويقع له أول مرة.

(٦) يوجع ويحرق.

(٧) . أي جميعه.

وهو غافل أعظم نكاية لقلبه وإيجاعاً لنفسه مما يطرق وقد أخذ له أهبته وأعدَّ له عُدَّته. ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]:

« وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ».

في حديث طويل، وهذه استعارة؛ والمراد بإسلام قلبه سلامته من الإخبات[2]، وبإسلام لسانه تسلمه من الأرفاث[3] فلا يعتقد قلبه شراً ولا يقول لسانه هُجْراً. والدليل على إرادته عليه الصلاة والسلام هذا المعنى قوله في تمام الكلام[4]: « ولا يؤمن حتى يَأمَنَ جاره بوائقه » وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر[5]: « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »، وكأنه عليه الصلاة والسلام جعل تمام إسلام العبد: أن يكُفَّ قلبه عن اعتقاد المقبَّحات، ويده عن فعل المحظورات، ولسانه عن قول المُقْذِعات[6].

[٢٩١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7]:

« إنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إلاّ وقَدْ عِلَمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنكُمْ مُطَّلِعٌ »[8].

وهذا القول مجاز؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام شبه ما حرّمه الله تعالى

---

(١) رواه أحمد في المسند ١: ٣٨٧.

(٢) الإخبات: الخشوع والتواضع.

(٣) الأرفاث جمع رفث: وهو الفحش. وقد وردت هذه الكلمة في إحدى طبعات الكتاب (الأرفات، بالتاء)، وفي أخرى (الآفات جمع آفة).

(٤) أخرجه مسلم ١: ٤٩، والمسند ٢: ٢٨٨ و٣٣٦ و٣٧٣ و٤٤٠ و٣: ١٥٤ و٤: ٣١ و٦: ٣٨٥.

(٥) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٢٩، والنسائي ٨: ١٠٤ و١٠٥، وصحيح ابن حبان ٢: ٢٢٦.

(٦) المقذعات جمع مقذعة؛ وهي الكلمة الفاحشة.

(٧) انظر المسند ١: ٣٩٠ و٤٢٤، وكنز العمال ١١: ٣١٩٢١، والفتح الكبير ١: ٣٤٣.

(٨) وتتمته: «الأواني ممسك بحجزكم أن تهافتوا في النار، كما يتهافت الفراش والذباب» واطلع مثل طلع، يقال، طلع علينا، واطلع، وطلع الجبل واطلعه.

من محارمه ونهى عباده عن تقحُّمه[1] بالحِمَى الذي يُحْمى رِعْيه ويُمْنَع رَعْيه [2]، وشبه عليه الصلاة والسلام المُتَعَرِّض لحرمة من تلك الحرمات بمن هجم في الحمى مُقْدِما واطَّلَع فَجْأة متقحماً. وقد مضى الكلام على نظير هذا الخبر فيما تقدم من كتابنا هذا.

[٢٩٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل ذكر فيه بني إسرائيل [3]:

« نَهَاهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ عَنِ المَعَاصِي فَلَمْ يَنْتَهوا فَجَالَسُوهُمْ في مَجَالِسِهِمْ، وَوَاكلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعض وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ »،

فقوله عليه الصلاة والسلام: فضرب الله قلوب بعضهم ببعض استعارة، والمراد بالضرب ها هنا خلط القلوب بعضها ببعض كأنه تعالى خلطها بأن شهد على جميعها بالضلال ولم يتميز بين قلوب العلماء والجهال إذا كان الضَّلال شاملاً لهم والغَوَاية ضاربة بسياجها عليهم. ومن ذلك قول القائل: ضربت بعض بني فلان ببعض، إذا ألقى بينهم حرباً يختلطون فيها، أو عداوة يتناوشون عليها، ونظير ذلك الخبر مروى عنه عليه الصلاة والسلام وهو قوله[4]: أبِهٰذَا أُمِرْتُمْ أن تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ »: أي أن تجعلوا حَرَامه حَلالاً وحلالَه حراماً فكأنكم قد خلطتموه فجعلتم أعلاه أسفله، ومفهومه مبهومه[5].

---

(١) تقحم الشيء: اقتحامه والدخول فيه.

(٢) الرِّعي: الكلأ، والرَّعي: أكل الكلأ.

(٣) انظر المسند ١ : ٣٩١.

(٤) انظر المسند ٢ : ١٧٨ و١٩٦، وكنز العمال ١ : ٩٧٧. وروايته فيه: «مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم».

(٥) المبهوم: الذي لا يدري أوله من آخره، أو الذي لا يدري من أي مكان يوصل إليه.

[٢٩٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١] :

« **الأَيْدِي ثَلَاثٌ: فَيَدُ اللَّهِ العُلْيَا، ويَدُ المُعْطِي بَلَغَ قُبَالاً[٢] الوُسْطَى، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى** ».

وقد مضى هذا الخبر فيما تقدم إلا أن فيه ها هنا زيادة لأجلها أعدنا الكلام عليه وهي قوله عليه الصلاة والسلام: « فَيَدُ اللَّهِ العُلْيَا » وهذا القول مجاز ويد الله سبحانه ها هنا نعمته، وهي أعلى النعم لأنها أصل لها وأم لجميعها لأن كل من أعطى عطاء أو حَبَى حِباء فإنما أعطى مما خوّله الله سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لكانت كفه جامدة وريحُ أريحتِهِ راكدة، ولأجل ذلك يقول في الحياة إنها أول النعم ويزيد بذلك أنها أول في الرتبة لافتقار كل نعمة إليها وصحة وجودها متفردة بنفسها، غير مفتقرة إلى غيرها فصارت أولى في الرتب وإن جاز أن يوجد معها غيرها من النعم، وفيما علقّته عن قاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد[٣] فيما قرأته عليه من أوائل كتابه المعروف « بشرح الأصول الخمسة »: أن النعمة هي المنفعة إذا قصد بها فاعلها وجه الإحسان، فإن قيل: فما المنفعة؟ قيل: اللذات والمسارّ وما أدى إليها إذا لم يعقب ضرراً أعظم منها. فإن قيل: فما اللذات؟ قيل: ما يعلمه كل أحد من نفسه في إدراك ما يشتهيه من مآكله ومشاربه ومناظره وملابسه، إلى غير ذلك من الأمور التي يدعو العلم بها إلى التوصل إليها.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ١٦٤٩، وروايته فيه:
«الأيدي ثلاثة: فيدالله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى، فأعط الفضل، ولا تعجز عن نفسك».

(٢) القُبال: الناصية، وقبال كل شيء أوله؛ والمراد بقوله: بلغ قبالاً؛ أي بلغ درجة من الأرتفاع، والعلو محدودة، فكانت يده الوسطى، لأنها لم تبلغ النهاية في العلو.

(٣) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد آبادي، أبو الحسن: قاضٍ، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، ولي القضاء، بالريّ، ومات فيها سنة ٤١٥ هـ. ـ وقد سبقت ترجمته ـ.

فأما السرور فهو اعتقاد ذلك أو الظن له، وليس بمعنى سوى ما ذكرناه، وما يؤدي إلى اللذات في كونه نعمة كاللذات. ولذلك نعدّ من مكن غيره من الوصول إلى الملاذ بالدنانير والدراهم منعماً، وإن كانت أعيان الدراهم والدنانير لا لذة فيها، ولهذا الوجه نعد التمكين من هذه الأمور نعمة حتى نقول إن الله سبحانه منعم بالتكليف الذي هو وصلة إلى النعيم المقيم والثواب العظيم، ولأجله أيضاً قلنا في المصحِّح للنعم إنه نعمة كما نقول في الحياة والشهوة، وإن كانا يترتبان.

وقد عدّ في ذلك أيضاً دفع المضار والغموم وما يؤدى إليهما.

ولذلك نقول: إن الله سبحانه لو عفا عن العصاة كان منعماً عليهم ولو سهل لهم السبيل إلى الفرار من النار كان محسناً إليهم، وليس يحتمل كتابنا هذا أكثر من القدر المذكور في هذا المعنى، وكأنه عليه الصلاة والسلام جعل يد الله العليا للعلة التي ذكرناها، وجعل يد المعطي الوسطى لأنها تليها، وجعل يد السائل السفلى، لأنها مَصَبُّ فضلها وقرارة سيلها، وقد تقدمت الإشارة إلى جملة هذا المعنى فيما تقدم من الكلام.

[٢٩٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(١):

« لَيْلَةُ الجُمْعَةِ غرَّاءُ وَيَوْمُهَا أَزْهَرُ ».

وهاتان استعارتان. والمراد أنَّ ليلة الجمعة متميزة من سائر الليالي بتعظيم قدرها وتشريف العمل فيها، فقد صارت لأجل ذلك كالفرس الغراء التي تبين من البُهْمِ والشَّهْبَاء التي تتميز عن الدُّهْم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ : ٢٥٩. وانظر أيضاً الفائق، والنهاية، واللسان، والتاج (زهر).
ـ البهم: جمع بهيمة أو بهيم، وهو ما لا شية فيه من الخيل.
ـ الغَرّاء: الفرس التي في جبهتها بياض، وهو سوداء، أو حمراء.
ـ الدُّهمْ: جمع أدهم؛ وهو الأسود، والشهباء: البيضاء.

وكذلك المراد يكون يومها أَزْهَر، والأزهر: الشديد البياض كأنه لتميزه من الأيام بعظم القدر وشرف الذكر قد زاد عليها اتضاحاً وكَثَرَها[1] غُرَراً[2] وأوْضاحاً[3].

[٢٩٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل[4]:

« **ألاَ إنَّ عَمَلَ الجنَّة حَزْنٌ بِرَبْوةٍ. ألاَ إنّ عَمَل النَّارِ سَهْلٌ بِسَهوَةٍ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ** ».

وفي هذا الكلام مجازان [**أحدهما**] قوله عليه الصلاة والسلام: ألا إن عَمَل الجنة حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ. ألاَ إن عَمَلَ النارِ سَهْلٌ بسَهْوَةٍ، فجعل عليه الصلاة والسلام عَملَ الجنة كالحزْن من الأرض، وهو ما غلظ منها، لأنه يصعب تجشّمه فكذلك عمل الجنة يشق تكلُّفه، وزاد عليه الصلاة والسلام الكلام إيضاحاً بقوله حزنٍ بربوة فلم يرض بأن جعله حزناً حتى جعله بَرَبْوةٍ وهي الأكمة العالية ليكون تجشمه أشق وتكلفه أصعب ولم يرض عليه الصلاة والسلام بأن جعل عمل النار سهلاً وهو ضد الحزن حتى جعله بسَهْوة ليكون أخف على فاعله وأهون على عامله.

[**والمجاز الآخر**] قوله عليه الصلاة والسلام وما من جُرْعَةٍ أحبُّ إلى الله سبحانه من جُرْعةِ غيظٍ يكظِمها عبد. فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل كظم

---

(١) كثرها: زاد عليها، وغلبها في الكثرة.

(٢) الغرر: جمع غرّة.

(٣) الأوضاح: جمع وَضَح؛ وهو بمعنى الغرّة.

(٤) انظر الطرف الأول من الحديث، في النهاية، والفائق، واللسان، والتاج (سهو)، وروايته عندهم: « ألا إن عمل الجنة حْزنة بربوة، وإن عمل النار سْهلة بسهوة ».

وأما الطرف الثاني، فقد رواه القصاعي في مسند الشهاب ٢: ٢٥٦، وابن المبارك في الزهد (٦٧٢) وأحمد في المسند ١/ ٣٢٧ و ٢: ١٢٨، وابن ماجة ٢: ١٤٠١، ورواه البخاري ص ٤٣٢.

الغيظ بمنزلة الجُرْعة المؤثرة التي يَجرَعها الإنسان فيجد مذاقها مُرّا ويجد غِبّها[1] حلواً. ولهذا المعنى شبهوا ما يجده الإنسان من حرارة حزنٍ وحرارة هَمّ بالشجا[2] المعترِض في الحلْق، وشبهوا ما يلحقه من منظر يأباه وملحظ لا يهواه بالقَذَى العارض في الطَّرْف[3]، لأن الأول يحبس مجاري أنفاسه والثاني يمنع مجال ألحاظه.

[٢٩٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« **شِفاءُ العِيِّ السُّؤَالُ** ».

وهذا القول مجاز. والمراد أن الشيء إذا عَيَّ الإنسان به ولم يُثْلَج صدرُه بمعرفته كان في السؤال عنه بيان التباسه وَسَرَاحُ احتباسه، فأقام عليه الصلاة والسلام العِيّ بمعرفة الأمر مقام الداء المطاول والكَرْب المماطل، وأقام السؤال عنه إذا أدى إلى العلم به مقام الشفاء المُزيح[5] والفَرَحِ المُرِيح.

[٢٩٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]: في كلمات قالهن لعبدالله بن عباس[7]:

« **احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْهُ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ** ».

وفي رواية أخرى « تَجِدْهُ أَمَامَكَ ». وهذا مجاز، لأنّ اللَّهَ سبحانه أمامنا

---

(١) الغِبُّ من كل شيء: عاقبته وآخره.

(٢) الشَّجَا: ما اعترض، ونشب في الحلْق من عظم، أو نحوه.

(٣) الطرْف: العين؛ والقذى: القذر والوسخ.

(٤) رواه أبو داود رقم (٣٣٧)، وابن ماجة برقم (٥٧٢)، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٠١)، والحاكم ١: ١٦٥ و ١: ١٧٨، وأحمد في المسند ١: ٣٨٠.

(٥) المزيح: المبعد للمرض.

(٦) رواه الترمذي رقم (٢٥١٨)، وأحمد في المسند رقم (٢٦٦٩) و (٢٧٦٣) و (٢٨٠٤). وهو طرف من حديث طويل. أوصى به سيدنا محمد (ص) عبدالله بن عباس (رض)، وكان رديف رسول الله (ص).

وخلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا من طريق الحفظ لنا والإحاطة بنا، فليس يختص ذلك منا بجهةٍ دونَ جهة وبحالة دون حالة، إلا أنَّ المراد بتجاهك وأمامك ها هنا أنك تجد حفظه ومعونته حيث توجهت وأي طريق سلكت.

وذلك كقول الشاعر[1] من التخويف بالله تعالى وهو نَظِيرٌ للحال التي كلامنا عليها:

والله يُصْبحُ مِنْ أَمَامِ المُدْلِجِ [2] *

أي لا يفوته هارب، ولا يضل عنه شارد.

[٢٩٨] ومن قوله ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

العَيْنُ حَقٌّ تسْتَنْزِلُ الحَالِقَ ».

وهذا مجاز، ولمراد أن الإصابة بالعين من قوة تأثيرها وتحقق أفاعيلها كأنها تستهبط العالي من ارتفاعه، وتستقلق[4] الثابت بعد استقراره، والحالق المكان المرتفع من الجبل وغيره؛ فجعل عليه الصلاة والسلام العين كأنها تحط ذروة الجبل من شدة بطشها وحدّة أخذها، وقد تناصرت الأخبار بأن الإصابة بالعين حق.

والذي يقوله أصحابنا أن الله سبحانه يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال التي يفعلها والأقدار التي يُقَدِّرها.

---

(١) لم نعرفه، ولم نعرف تتمة البيت، ووجدنا أبياتاً منها بيت، يشبه البيت الشاهد؛ وهو البيت الاخير منها.

قد يصبح الله، أمام الساري

انظر أمالي المرتضى ٢ : ٢٠١، والصاهل والشاحج ٤٥٩.

(٢) المدلج: السائر بالليل، والمراد هنا الذي، يستخفي من الله، يفعل المحرمات بينه وبين نفسه.

(٣) رواه أحمد في المسند ١ : ٢٧٤، والحاكم ٤ : ٢١٥، وانظر الفتح الكبير ٢ : ٢٥٣، وكنز العمال ٦ : ١٧٦٥٦ و ١٧٦٥٧، والكنز الثمين ٣٥٦.

(٤) تستقلق: أي تزحزح، وتحرك؛ والسين والتاء، زائدنان للمبالغة.

وإذا تقررت هذه القاعدة فغير ممتنع أن يكون تغييره تعالى نعمة زيد مصلحة لعمرو، وإذا كان تعالى يعلم من حال عمرو أنه لو لم يسلُب زيداً نعمته، ويَخْفِض منزلته أقبل على الدنيا بوجهه، ونأى عن الآخرة بِعطْفه، وأقدم على المغاوى وارتكس في المهاوي، وإذا سلب سبحانه نعمة زيد للعلة التي ذكرناها عوّضه عنها وأعطاه بدلاً منها عاجلاً أو آجلاً، وإذا كان ذلك كما قلنا، وقد روى عنه صلى الله عليه وآله ما يدل على أن الشيء إذا عظم في صدور العباد وضع الله قدره، وصغر أمره لم ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه، واستحسانه له وعِظَمِه في صدره وفخامته في عينه كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: لما سُبِقَتْ ناقته (العَضْباءُ)[1]، وكانت إذا سُوبق بها لم تُسْبَق: «ما رفع العباد من شيء إلا وضع الله منه»، فيمكن أن يتأول قوله عليه الصلاة والسلام: «العين حق» على هذا الوجه، ويجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشيء عند رؤيته له من إعاذته بالله والصلاة على رسول الله قائماً في المصلحة مقام تغيير حالة الشيء المستحسن فلا تغير عند ذلك لأن الرائي قد أظهر الرجوع إلى الله سبحانه والإخبات له، وأعاذ ذلك المرئي به، فكأنه غير راكن إلى الدنيا، ولا مفترٍّ بها، ولا واثق بما يرى عليه أحوال أهلها.

ولعمرو بن بحر الجاحظ[2] في الإصابة بالعين مذهب انفرد به، وذلك أنه يقول[1]: «إنهٔ لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة فتؤثر فيه وتجنى عليه»، ويكون هذا المعنى خاصاً ببعض الأعين كالخواص من الأشياء، وعلى هذا القول اعتراضات طويلة، وفيه مطاعن كثيرة لا يقتضي هذا الكتاب استيفاء ذكرها واستقصاء شرحها.

---

(١) العضباء: اسم لناقة النبي صلى الله عليه وسلم سميّت بذلك لنجابتها.

(٢) تجد هذا القول في كتاب الحيوان للجاحظ ٢ : ١٣٣.

[٢٩٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [١]:

« الإِسْلَامُ ذَلُولٌ لَا يَرْكَبُ إلاّ ذَلُولاً ».

وهذه استعارة، والمراد أن الإسلام سهل القياد لمن اقتاده وَطِيء الظهر لمن اقتعده لا يتوقّص براكبه [٢]، ولا يتقاعس [٣] على جاذبه، فهو كالبعير الذلول الذي يسهل مَرامه [٤]. ويطوع [٥] زمامه، وقوله عليه الصلاة والسلام لَا يَرْكَبُ إلا ذَلُولاً: أي لا يستجيب من الناس إلا من لانت للدين عرائكه، وقربت عليه مآخذه، وطاعت نفسه باحتمال أعبائه والصبر على لأوائه [٦]. فأشبه المسلم من هذا الوجه أيضاً الفرس الذلول الذي يمكن راكبه، ويطاوع فارسَه. وإنما جعل عليه الصلاة والسلام الإسلام في الثاني بمنزلة الراكب بعد أن وصفه في الأول بصفة المركوب، لأن الإسلام كالمالك على الإنسان أمره، والمبتاع منه نفسه، فهو يقوده بزمامه ويصرّفه على أحكامه، وكان من هذا الوجه كأنه راكب لظهره لما كان مالكاً لأمره.

[٣٠٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [٧]:

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥ : ١٤٥. وانظر الفتح الكبير ١ : ٥٠٧، وكنز العمال ١ : ٢٤٤.
- ذلول: أي ليّن، سهل القياد.

(٢) يتوقّص براكبه: لا يتعبه بشدة وطئه في الأرض، لأن شدة الوطء تهز الراكب، وتقلق مكانه.

(٣) يتقاعس: يرجع إلى الوراء، إذا جذبه الجاذب، أي أنه مطاوع غير شرس.

(٤) أي طلبه.

(٥) يطوع زمامه: أي ينقاد زمامه، أي لجامه. كلما حركه راكبه في ناحية تحرك فيها من غير إباء.

(٦) اللأواء: الشدّة.

(٧) رواه مسلم رقم (٢٦٨٧) في الذكر، وهناك ما يشبهه عند البخاري ١٣ : ٣٢٥ و ٣٢٦ وانظر أيضاً مسلم رقم (٢٦٧٥).
- الباع: قدر قدِّ اليدين، أي قدر المسافة التي بين مفتوحتين، كل منهما في جهتها.
- الهرولة: بين الجري، والمشي. أو الإسراع في المشي.
- قراب الأرض: هو ما يقارب ملأها.

« مَنْ تَقَرَّبَ إلى اللَّهِ شِبْراً تَقرَّبَ إلَيْهِ ذِرَاعـاً، وَمَنْ تَقرَّبَ إلى اللَّهِ ذِرَاعـاً تَقرَّبَ إليْهِ بَاعاً، وَمَنْ أَقْبَلَ إلى اللَّهِ ماشِياً أَقْبَلَ اللَّهُ إلَيْهِ مُهَرْوِلاً ».

وهذا القول مجاز، والمراد أن من فعل الشيء القليل من البرّ عوّضه الله الشيء الكثير من الأجر، فجعل عليه الصلاة والسلام التقرب من استحقاق الثواب كأنه تقرب من فاعل الثواب على طريق المجاز والاتساع، وعلى هذا المعنى يُحمل كل ما جاء في القرآن والكلام من ذكر التقرب إلى الله سبحانه لأنه تعالى جَدّه لا يوصف بالقرب من طريق الدنوّ بالمسافة، ولكن من حيث كان قريب الثواب من مستحقه، وداني الإحسان من راجيه، ومؤمله، فكانت صفة القرب متعلقة بإحسانه وثوابه لا بنفسه وذاته، فأما قوله عليه الصلاة والسلام: **ومن أقبل إلى الله ماشياً أقبل الله إليه مهرولاً**، فالمراد به أن من تقرب إليه سبحانه بطاعة وإن فعلها بطيئاً متضرعاً فإنه تعالى يجعل جزاءه عليها مُعَدّاً مسرعاً، فالمشي ها هنا كناية عن الطاعة المبطئة، والهرولة كناية عن المثوبة المسرعة. فذكره عليه الصلاة والسلام على طريق ضرب المثل لفضل ما يفعله الرب تعالى على ما يفعله العبد، وإن كان لا يجب في كل طاعة أن يكون جزاؤها عاجلاً، وثابها مبادراً.

[٣٠١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(١):

« مَا لِلشَّيْطَانِ مِنْ سِلَاحٍ أَبْلَغَ في الصَّالِحِينَ مِنَ النِّساءِ ».

وهذا القول مجاز، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام النساء لحكمهن على النفوس وتأثيرهن على القلوب مقام السلاح للشيطان الذي يقارع به قلوب الصالحين ويَقْرَع بحده ضمائر المتماسكين، فيملك به أزمة رقابهم وينقلهم به إلى طاعته عن طاعة ربهم.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/ ١٦٤.

ونظير ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]: « النساءُ حَبَائِلُ الشيطان ». وقد مضى كلامنا عليه فيما تقدم من هذا الكتاب.

[٣٠٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، وقد سئل عن ضالّة الإبل. فقال للسائل[2]:

« مالَكَ وَلَهَا؟ مَعَها حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِيءَ رَبُّها فَيَأْخُذَهَا ».

وهاتان استعارتان، كأنه عليه الصلاة والسلام جعل خُفّ الضالة بمنزلة الحذاء، ومستجرَّها[3] بمنزلة السقاء، فليس يضرّ بها التردد في الفيافي، والتنقل في المصايف والمشاتي، لأنها صابرة على قطع الشقة[4]، وتكلف المشقة، لاستحصاف مناسمها[5]، واستغلاظ قوائمها، ولأنها بطول عنقها تتمكن من وِرد

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣ : ١٨٤، وأبو نعيم في الحلية ١ : ١٣٨ - ١٣٩، والقضاعي في مسند الشهاب ١ : ٦٦، وعبد الرزاق في مصنفه رقم (٥١١٥)، ورواه ابن الاثير في جامع الأصول ١١ : ١٦. وانظر كشف الخفاء ٢ : ٥، وروايته عنده: « الشباب شعبة من الجنون، والنساء حبالة الشيطان ».
وحِبَالة الشيطان بالكسر: ما يصاد به، من أي شيء كان، وجمعه حبائل؛ والحبائل: الأشراك التي للصائد.

(٢) رواه البخاري ١ : ١٦٨، ومسلم رقم (١٧٢٢)، ومالك في الموطأ ٢ : ٧٥٧، وأبو داود رقم ١٧٠٤ و ١٧٠٥ و ١٧٠٦ و ١٧٠٧ و ١٧٠٨، والترمذي رقم ١٣٧٢ و ١٣٧٣ وابن ماجة ٢ : ٨٣٧.
وإنما شدد في ضالة الإبل بقوله « معها حذاؤ ها » وهو ما تطأ به الأرض من خفّها، لأنه أراد: أنها تقوى به على قطع الأرض، وقوله: « سقاؤ ها » أراد: أنها تقوى على ورود المياه، ورعي الشجر، والاقناع من السباع المفترسة، وكذا ما كان في معنى الإبل من البقر والخيل والحمير. حتى يجيء ربها: أي فدعها تأكل وتشرب حتى يأتيها ربها.

(٣) مستجرّها: مكان جرتها، واجترارها، أي بعض معدتها التي تختزن فيه الطعام والماء

(٤) الشقة: المسافة.

(٥) استحصاف: متانة وإحكام، والمناسم: هي الأخفاف.

المياه القالصة [١]، والتناول من أوراق الشجر الشاخصة [٢]، فهي لهذه الأحوال بخلاف الضالة من الشاة، لأن تلك تضعف عن إدمان السير [٣]، والضرب في أقطار الأرض لضعف قوائمها، وقلة تمكنها من أكثر المياه والمراعي بنفسها، ومع ذلك فهي فريسة للذئب إن أحس حسها [٤]، واستروح ريحها [٥]، ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام للسائل عنها [٦]: « خذها، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب ».

[٣٠٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل [٧]:

« فَإِذَا طَلَعَ حاجِبُ الشَّمْسِ فَلَا تُصَلُّوا حَتَّى تَبْرُزَ، وَإِذَا غَابَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَلَا تُصَلُّوا حَتَّى تَغِيبَ ».

وهذه استعارة، والمراد بحاجب الشمس أول ما يبدو من قرصها، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه الشمس عند صعودها من حَدَبة الأرض [٨] بالطالع من وراء ستر يستره، أو غيب يَطْمِره [٩]، فأول ما يبدو منه وجهه، وأول ما يبدو من

---

(١) القالصة: البعيدة المنال، التي يصعب على غيرها ورودها.

(٢) الشاخصة: المرتفعة.

(٣) ادمان السير: أي مداومتَه.

(٤) الحس: الصوت الضعيف.

(٥) استروح ريحها: أي شم ريحها.

(٦) هو طرف من الحديث السابق، وذلك عندما سأله عن الشاة؟. فقال: « خذها، فإنما هي لك. أو لأخيك، أو للذئب » وإنما رُخِّص في ضالة الغنم، لأنها إن لم تؤخذ أكلها الذئب، فلذلك قال « هي لك، أو لأخيك » يعني: رجلاً آخر يراها، فيأخذها « أو الذئب » يأكلها إذا تركت.

(٧) رواه البخاري ٢ : ٤٩، ومسلم رقم (٨٢٩)، ومالك في الموطأ ١ : ٢٢٠
وإذا طلع حاجب الشمس: أي ظهر طرفها الأعلى من قرصها، سمّي بذلك لأنه أول ما يبدو منها، يصير كحاجب الإنسان.
ـ وحتى تبرز: أي تصير بارزة ظاهرة، ومراده ترتفع.

(٨) حدبة الأرض، وحدبها: ما ارتفع منها.

(٩) يطمره: يخفيه ويدفنه.

مخاطيط وجهه حاجبه، ثم بقية وجهه، ثم سائر جسده شيئاً شيئاً وجزءاً جزءاً، فكأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الصلاة عند ظهور بعض الشمس للعيون حتى يظهر جميعها، وعند مغيب بعضها حتى تغيب جميعها، وقال القَطاميّ[1] في حاجب الشمس، ومراده جانبها:

تَرَاءَتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ منها وضَنَّتْ بحاجِبِ[2]

أي ظهر منها جانب، وغاب منها جانب.

وقد يجوز أن يكون لحاجب الشمس هاهنا معنى آخر، وهو أن يراد به ما يبدو من شعاعها قبل أن يظهر جِرْمها، وكذلك ما يغيب من شعاعها قبل أن يغيب قُرْصها، فأقام ذلك عليه الصلاة والسلام لها مقام الحاجب لأنه يدل عليها، ويظهر بين يديها، فكأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الصلاة قبل أن يظهر قرص الشمس، وبعد الشعاع الغائب أمامه، والصلاة المرادة هاهنا صلاة التطوع دون صلاة الفرض.

ألا ترى أن أول ما يظهر قرص الشمس ليس بوقت لشيء من الصلاة المفروضات، وفي أول هذا الخبر ما يحقق القول الذي قلناه، وهو قوله عليه الصلاة والسلام[3]: «لا تَحَيَّنوا بصلاتكم طلوعَ الشمسِ ولا غروبتها، فإنها تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَي شيطان». وقد اختلف الفقهاء في ذلك فقال أبو حنيفة:

لا يجوز أن يتطوع بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، ولا بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس.

---

(١) هو عمير بن شيم بن عمرو، أبو سعيد التغلبي، الملقب بالقُطامي: وكان شاعراً غزلاً فحلاً. كان من نصارى تغلب في العراق، أسلم. وهو أول من لقب «صريع الغوائي» ـ توفي نحو سنة ١٣٠ هـ.

(٢) ديوان القطامي.

(٣) رواه البخاري ٢: ٤٩، ومسلم رقم ٨٣٨، ومالك في الموطأ ١: ٢٢٠، والنسائي ١: ٢٧٧ وتحيّنوا في الحديث من تحيّنت. وقت كذا: أي طلبت حِيْنَهُ.

وقال الشافعي: يجوز أن يصلّي في هذين الوقتين النفل الذي له سبب مثل تحية المسجد، ولا يصلى النفل المبتدأ الذي لا سبب له.

[٣٠٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]:

« المُؤْمِنُ يَأْكُلُ في مِعَاءٍ وَاحِدٍ، وَالكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ ».

وهـذا القول مجـاز، والمراد أن المؤمن يقنـع من مطعمـه بالبُلَغ[٢] التي تمسك الرَّمَق، وَتقيم الأوَد[٣] دون المآكل التي يقصد بها وجه اللذة ويقضي بها حق الشهوة، فكأنه يأكل في مِعَاءٍ واحد لفرط الاقتصار وكراهة الاستكثار.

وأما الكافر: فإنه لتبحبه في المآكل، وتنقله في المطاعم، وتوخيه ضد ما يتوخاه المؤمن من إحراز حطام الدنيا التي يطلب عاجلها ولا يأمل آجلها فهو عبد فيها للذته وكادح في طاعة شهوته كأنه يأكل في سبعة أمعـاء، لأن أكله للذة لا للبُلْغة، وَللنَّهْمَة لا للمُسْكة[٤].

[٣٠٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[٥]:

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٠٦٠) و (٢٠٦١) و (٢٠٦٢)، والبخاري ٥٣٩٣ و ٥٣٩٤ و ٥٣٩٥ والترمذي رقم (١٨١٩)، وابن ماجة ٢ : ١٠٨٤ و ١٠٨٥، وأحمد في المسنـد ٢ : ٢١ و ٤٣ و ٧٤ و ١٤٥ والقضاعي في مسند الشهاب ١ : ١١٤. وانظر تخريج الحديث فيه أيضاً، وروايته فيها: « في معىً واحد. . . ».

والمعاء، والمعي: واحد الأمعاء، وهي المصارين التي يمر فيها الطعام من الفم إلى القولون الذي يتصل بالمستقيم.

(٢) البلغ جمع بلغة: وهي المقدار الذي يتبلّـع به، أي يصل به إلى حفظ حياته وإمساك رمقه.

(٣) الأود: مصدر أوِدَ، بمعنى اعوج، فالأود: العوج، ومعنى يقيم أوده: أي يقيم أعوجاجه، والمراد يقيم صلبه، فلا يعوج، لأن الجوع، والضعـف يحني الظهر، ويطوي البطن.

(٤) المسكة: هي ما يُمسك الرمق.

(٥) رواه الترمذي رقم (١٤٩٦)، وأبو داود رقم (٢٧٩٦)، والنسائي ٧ : ٢٢١، ومسلم رقم (١٩٦٧) وابن ماجة ٢ :١٠٤٦، وروايته فيه: « ضحّى رسول الله (ص) بكبش أقرن مخيلٍ، يأكل في سواد، ويمشي في سواد، وينظر في سواد ».

« جِيئُوا بِكَبْشٍ أَقْرَنَ يَطَأُ في سَوَادٍ وَيَنْظُرُ في سَوَادٍ في حديث طويل، فأُتِيَ بِهِ فَضَحَّى بِهِ وَذَبَحَهُ بِيَدِهِ ».

وهذه استعارة.

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: يَطَأُ في سوادٍ أن أظلافه سود، فكأنه يطأ منها في سواد: أي ليس بينها وبين الأرض منها إلا ما هو أسود، وهذه من محاسن الاستعارات. والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: وينظر في سواد أن حدقته سوداء أو مطارح نظره منها فكأنما ينظر في سواد، وهذا المعنى أراد كُثَيِّرٌ[1] بقوله:

ومِنْ نَجْلاَءَ تَدْمَعُ في بياضٍ إذا دَمَعَتْ وَتنظُرُ في سَوَادِ[2]

فالمراد بقوله تدمع في بياض أن دمعها يقطر على خدها وهو أبيض فيصير الدمع واقعاً في بياض، والمراد بقوله وتنظر في سواد، المعنى الذي قدمنا ذكره من وصف الحدقة بشدة الإسوداد، وإذا كان النظر منها فكأن النظر في سواد.

[٣٠٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3] وقد ذكر له امرأة استحيضت:

« لَيْسَتْ هٰذِهِ بالحَيْضَةِ وَلكِنَّهَا رَكْضَةٌ مِنَ الرَّحِمِ ».

وهذه استعارة، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: ركضة من الرحم: أن الرحم نَفَحت[4] بهذا الدم من غير حيضة، ولكن من حادث علة فأشبهت رَمْحة

= والأقرن: أي ذي قرنين، والفحيل: هو الذي يشبه الفحولة في نبله، وعظم خلقه.
ويقال: هو المنجب في ضرابه، والذي يراد من الحديث: أنه اختار الفحل، على الخصيِّ والنعجة وطلب نبله.

(١) هو كثير عزة (ت ١٠٥ هـ)، وله ديوان مطبوع.

(٢) ديوان كثير: ٢١٩.

(٣) رواه النسائي، وأحمد في المسند ٦: ١٢٩.

(٤) نفخ العرق: نزى منه الدم؛ أي سال.

الفرس إذا رمح[1] بحافره، أو ركضة البعير[2] إذا ركض بمَنْسِمِه وهم يسمون الطعنة إذا عَنَدَ عِرْقها[3] وفار دمعها رَمَّاحة[4] ورَمُوحاً، ويقولون: رَمَحَتْ بالدم إذا كان فَرْغُها[5] رغيباً وجرحها رحيباً، وذلك موجود في أشعارهم ومتعارف في لسانهم.

[٣٠٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

[إِنَّ اللَّهَ لَيُرَبِّي لأَحَدِكُمُ التَّمْرَةَ واللُّقْمَةَ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أو فَصِيلَهُ حَتَّى يكُونَ مِثْلَ أُحُدٍ ».

وهذه استعارة. والمراد أن الله سبحانه يجمع القليل إلى القليل من صدقاتكم والنّزْر من قُرَبكم وطاعاتكم حتى يعظم يسيرها ويَكْبُرَ صغيرها، فيكون عظيم الجزاء بحسبه وجزيل الثواب على قدره، فجعل عليه الصلاة والسلام ذلك كتربية الفَلُوّ[7] والفصيل[8] وتربية الطفل الصغير، لأنه تنقيل من حال الضعف والصغر إلى حال الاشتداد والكِبَر.

---

(١) رمح الفرس بحافره: رفس.

(٢) ركض البعير: ضرب بخفه، والمنسم: الخفّ.

(٣) عَنَدَ العرق: سال دمه باستمرار، ولم يكفّ عن السيلان.

(٤) الرماحة والرموح: صيغتا مبالغة من الرمح، وهو الدفع، ويقال: قوس رماحة: إذا كانت شديدة الدفع. فشبهت الطعنة، لشدة دفعها للدم بالقوس الشديدة الدفع.

(٥) الفرغ: مكان خروج الماء من الدلو بين العراقي، كأنه يخرج من مسام القربة، فإذا اتسعت المسام سميت رغيبة، أي واسعة. والمعنى: إذا كان مكان خروج الدم منها واسعاً.

(٦) رواه البخاري ٣: ٢٢٠ ـ ٢٢٢، ومسلم رقم (١٠١٤)، والترمذي رقم ٦٦١ و ٦٦٢، والنسائي ٥: ٥٧، ومالك في الموطأ ٢: ٩٩٥، وابن ماجة ١: ٥٩٠، والدارمي ٣٤، وأحمد في المسند ٢: ٣٣١ و ٣٨٢ و ٤١٨ و ٤١٩ و ٤٣١ و ٤٧١ و ٦: ٢٥١ وربا الشيء، يربو، إذا زاد وكثر.

(٧) الفَلُوُّ: المهر أول ما يولد (الصغير من أولاد الفرس، وإن تربيته تحتاج إلى مبالغة في الاهتمام به عادة).

(٨) الفصيل: ولد الناقة: إلى أن يفصل عن أمه.

[٣٠٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]:

« مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ الرَّحْمَةَ حَتَّى يَجْلِسَ فَإِذَا جَلَسَ أُغْتَمَسَ فِيهَا ».

وهذه استعارة. والمراد العبارة عن كثرة ما يختص به عائد المريض من الأجر الوافر، والثواب الغامر، فشبهه عليه الصلاة والسلام لهذه الحال بخائض الغَمْر[2] في مشيته، والمغتمس[3] فيه عند جلسته.

[٣٠٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل[4]:

« لَا تَرْسِلُوا فَوَاشِيَكمْ وَصِبْيَانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ العِشَاء ».

فقوله عليه الصلاة والسلام: فحمة العشاء، والمراد ظلمة العشاء، إلا أنه عليه الصلاة والسلام شبه الظلمة في هذا الوقت بالفَحْمة، وهي الهَنة السوداء

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣ : ٣٠٤، والحاكم في المستدرك ١ : ٣٥٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٣ : ٣٨٠.

(٢) الغمر: الماء الكثير.

(٣) المغتمس فيه: المغمور به، حتى يغطيه.

(٤) رواه البخاري ٦ : ٢٤١، ومسلم رقم (٢٠١٢)، ومالك في الموطأ ٢ : ٩٢٨ و ٩٢٩ في صفة النبي (ص) وأبو داود رقم ٣٧٣١ و ٣٧٣٢ و ٣٧٣٣ و ٣٧٣٤، والترمذي رقم (١٨١٣) من حديث طويل كما ذكر الشريف الرضي، ونهاية الحديث هي: فإنَّ الشياطين تنبعث إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء » وانظر غريب الحديث ١ : ٢٤٠.
وفحمة العشاء: اسوداد ظلامه.
والفواشي، جمع فاشية، وهي كل شيء ينتشر من الإبل، والبقر، والغنم في المراعي وغيرها، وقد أفشى الرجل: إذا كثرت فاشيته، أي: نعمه، ودوابُّه، وأصل الفشو: الظهور.

التي أحرقت النار أجزاءها وأحالتها عن هيئتها[1] والجمع فَحَمٌ كسَعْفة وسَعَف[2] فكأنه عليه الصلاة والسلام أقام شمس النهار مقام النار المتوقدة فإذا انطفأ جاحمها[3] وخَمَدَ متضرّمها[4] أعقب منها الحُمَمُ[5] وخَلَفها الفَحَم.

والفَوَاشِي في هذا الخبر: اسم لما ينتشر من الحيوانات في الحي: كالإبل، والغنم، والحمير، والبقر، وما يجري هذا المجرى، وسميت فاشية لانتشارها وظهورها، ومنه قولهم فشا الحديث إذا ظهر وانتشر.

ومن كلام العرب: : ضَمُّوا فَوَاشِيَهُم، ورَدُّوا مواشيهم.

[٣١٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

« **أَعْطُوا الطُّرُقَ حَقَّهَا. فقِيلَ: وَمَا حَقُّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: غَضُّ البَصَرِ، وَكفُّ الأذى، والأَمْرُ بالمَعْروفِ، والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ. وفي حديثٍ** آخرَ[7]: **لَا تَقْعُدُوا عَلَى الصَّعَدَاتِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهَا حَقَّهَا** ».

والصَّعدات: الطرق، وهذه استعارة، كأنه عليه الصلاة والسلام جعل للطرق على القاعدين عليها حقاً يجب عليهم الخروج إليها منه، والإعفاء لها

---

(١) هي الجمرة عند خمود جذوتها، واسوداد لونها، وفي القاموس الفحم: الجمر الطافىء.

(٢) هو اسم جمع، وقوله جمع تجاوز عن الإصلاح.

(٣) جاحمها: شديدها، ومتأججها.

(٤) خمد: سكن، والمتضرم: شديد الاشتعال.

(٥) الحمم: جمع حممة بوزن « همزة » وهي الجمرة الحامية الحارة والمراد بقي منها الحرارة.

(٦) رواه البخاري ١١: ٩، ومسلم رقم (٢١٢١)، وأبو داود رقم (٤٨١٥)، وأحمد في المسند ٣: ٤٦ و ٤٧ و ٦١.

(٧) رواه مسلم رقم (٢١٦١)، وأحمد في المسند ٣: ٦١ و ٦: ٣٨٥. ورواية الحديث عند مسلم هي « مالكم، ولمجالس الصعدات؟ اجتنبوا مجالس الصعدات فقلنا: إنما قعدنا لغير ما بأس، قعدنا نتذاكر ونتحدث، قال: إمَّالا، فأدوا حقّها: غضُّ البصر، وردُّ السلام، وحسن الكلام ».
والصعدات: جمع صُعُدٍ، وصُعُدٌ، جمع صعيد، والصعيد: التراب، ووجه الأرض. مثل طريق، وطراق، وطرقات.

به، وهو مجموع الخلال المذكور في أول الحديث، فمن خرج عن ذلك الحق الواجب، وقام بذلك الفرض اللازم جاز له القعود على الطرق، ومن لم يقم بذلك الحق، ويؤدّ ذلك الفرض كان جلوسه عليها محظوراً. وكان بمخالفة الأمر مذموماً.

[٣١١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]:

[« المَجَالِسُ ثَلاَثَةٌ: سَالِمٌ وغَانِمٌ وشَاجِبٌ »].

وهذا القول مجاز، والمراد أن أهل هذه المجالس الثلاثة سالمون، وغانمون، وشاجبون، والشاجب الهالك، والشَّجَب الهلاك، فجعل عليه الصلاة والسلام هذه الصفات للمجالس، وهي على التحقيق لأصحاب المجالس، ولكنها لما كانت مشتملة على أهلها حَسُنَ إجراء صفاتهم عليها. ومعنى هذا الخبر المجلس لا يذكر فيه الجميل، ولا القبيح، ولا المنكر، ولا المعروف، فأهله سالمون، والمجلس الذي يذكر فيه الحسن من الأقوال ويَتَحَاضّ من فيه على جميع الأفعال فأهله غانمون، والمجلس الذي لا يسمع فيه إلا القبيحُ، ولا يفعل فيه إلا المحظور فأهله هالكون.

[٣١٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

---

(١) ليس بحديث، وإنما هو من أقوال الحسن البصري، كما في غريب الحديث ٤ : ٤٥٥، والفائق، والنهاية (شجب)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١ : ٥١٩. وانظر أيضاً اللسان، والتاج (شجب).

والحسن البصري؛ هو الحسن بن يسار، أبو سعيد البصري التابعي، وكان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، وكان جميلاً وسيماً، وله كلمات سائرة، وتوفي سنة ١١٠ هـ. (تهذيب التهذيب: ٢ :٢٦٣، حلية الأولياء ٢ :١٣١، السير ٤ :٥٦٣)، وينسب هذا القول أيضاً لأخي بلال (رض) مؤذن النبي (ص). انظر غريب الحديث للهروي ٤ :٤٥٧.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٣١٦، وأحمد في المسند ٣: ١١٢.

ـ الظئر: العاطفة على ولد غيرها. المرضعة له. ومعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « إن له =

« إِنَّ إِبْراهِيمَ ابْنِي مَاتَ في الثَّدْيِ ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرينِ يُكَمِلان رَضَاعَهُ في الجَنَّةِ » .

فقوله عليه الصلاة والسلام: مات في الثدي مجاز. والمراد أن الموت أصابه وهو يَرْضع، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: مات وهو في الرّضاع، وذلك كقول القائل: ابن فلان في الصياغة، أو ولد فلان في التجارة إذا أراد أنه قد دُفع إلى من يعلمه هذه الصناعة، فهو مقصور على ذلك، ومأخوذ به ولم يفرغ بعدُ من تعلمه، ومثل ذلك أيضاً قولهم ابن فلان بعدُ في أبجد أو في ألف باتاثا: أي هو بعد في تعلمه هذه الحروف المخصوصة، ولم يستكمل علمها فينتقَل عنها إلى غيرها، ولا بد من حمل الكلام على تقدير مضاف محذوف، وهو رضاع الثدي، فيكون المعنى صحيحاً، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: مات وهو في رضاع الثدي، ولذلك نظائر كثيرة، وأمثال مشهورة، وبابه ما جاء في التنزيل من قوله تعالى[1]: ﴿ وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ والمراد أهل القرية، وما في معنى ذلك.

[٣١٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« إِذَا وَقَعَتِ الحُدودُ وصُرِفَتِ الطُّرُقُ فَلاَ شُفْعَةَ » .

وهذا القول مجاز، والمراد وحيزت الطرق فخرجت عن حال الاشتراك

= ظئرين يكملان رضاعة في الجنة » أن إبراهيم عليه السلام مكرم من الله تعالى في الجنة بنعيم يعوض عليه ما فاته في الدنيا، بعدم رضاع الثدي، وجعل له مرضعتان بدل المرضعة الواحدة، وهذا كناية عن مضاعفة التعويض عما فاته في الحياة.

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف، وانظر ما سبق.

(٢) رواه البخاري ٤/ ٣٦٠ في الشفعة، ومسلم رقم ١٦٠٨ في المساقاة، والترمذي رقم ١٣٧٠ في الأحكام وأبو داود رقم ٣٥١٣ و٣٥١٤ في البيوع، والنسائي ٧/ ٣٠١ في البيوع و٣١٩ و٣٢٠ باب الشركة في النخيل والإمام مالك في الموطأ ٢/ ٧١٧.

وطريقة الاختلاط، فشبه عليه الصلاة والسلام ذلك بصرف الإنسان عن وِجهته. وعكسه من جهته.

وهذا الخبر مما يستشهد به من قال: إن الشفعة إنما تجب للشريك المخالط دون الجار المجاور، وقال أهل العراق: إنما تجب للشريك المخالط ثم للجار المجاور[1].

[٣١٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُثَقِّفُونَ القُرْآن كما يُثَقَّفُ القِدْحُ ».

في حديث طويل أخرجه مُخْرَج الذم لأهل ذلك الزمان، وهذه استعارة، والمراد أنهم يُعْنَونَ بإصلاح ألفاظ القرآن حتى تقوم على المنهاج، وتقوّم بعد الإعوجاج فتكون كالسهم المثقف الذي يسرع في الإنباض[3]، ويُقَرْطِسُ في الأَغراض[4] وَلَا يَتَدبَّروُنَ ما وراء تلك الألفاظ من حُكْمٍ واجب، وأمر لازم، وفرض متعين، وحق مُبَيَّن.

[٣١٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام أَطْلَقَ الشُّرْبَ في الأوعية بعد أن كان حَظَرَهُ[5]:

---

(١) الشفعة عند الشافعي رحمه الله لا تثبت، إلا في الشركة، وعند أبي حنيفة رحمه الله تثبت للشريك والجار، وأصل الشفعة: هو الزيادة، وهو أن يشفعك فيما يشتري حتى تضمه إلى ما عندك، فتزيد عليه، أي: كان واحداً، فضممت إليه ما زاد، وجعلته له شفعاً.

(٢) رواه أحمد في المسند ٣: ١٤٦ و٣٩٧. القدح: السهم قبل أن يوضع فيه النصل، وقبل أن يراش، أي العود من الخشب الذي يصير سهماً.

(٣) الإنباض: تحريك الوتر حتى يسمع له رنين.

(٤) يقرطس: يصيب. والأغراض جمع غرض، وهو ما ينصب لإصابته بالسهم، والمراد يقع في الهدف ويصيبه.

(٥) رواه أحمد في المسند ٣: ٤٨١، ومعنى أوكى؛ أي ربط وأغلق.

« وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الشُّرْبِ في الأَوْعِيَةِ، فَاشْرَبُوا مَا شِئْتُمْ إلاَّ مَنْ أَوْكَى سِقَاءَهُ عَلَى إثْمٍ ».

وهذا القول مجاز.

والمراد إطلاق الشرب في الأوعية التي وقع النهي عنها كالدُّبَّاء[1] والحنتم[2] والنَّقير[3] والمزفّت[4] إذا كان ما فيها من الأشربة المطلقة غير الممنوعة والمباحة غير المحظورة، وموضع المجاز قوله عليه الصلاة والسلام: إلا مَنْ أَوْكَى سقاءه على إثم. يقول: إلا من رَبَط سقاءه على مشروب مُحَرّم فإن ذلك خارج عن باب الإطلاق والإباحة، وداخل في باب الحَظْر والكراهة؛ وأراد عليه الصلاة والسلام إلا من أوكى سقاءه على مشروب يؤدي إلى الإثم، فأقام الإثم مقامه لأنه عاقبة أمره ووبال فعله.

[٣١٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

« حُفَّتِ الجَنَّةُ بالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ ».

وهذا القول مجاز، والمراد أن جميع الأفعال التي توصل إلى الجنة يتجشم فعلها على الكُرْه والمشقة، لأن طريقها وَعْرٌ، ومذاقها مُرٌّ.

فلما كانت الطرق المُفْضِية إلى الجنة كلها كما ذكرنا شاقة المسالك صعبة

---

(١) الدبّاء: القرع.

(٢) الحنتم: جرة من خزف مدهونة.

(٣) النقير: جذع النخلة ينقر، ويقور حتى يصير كالإناء.

(٤) المزفّت: المطلي بالزفت من خارجه حتى يسد مسام الإناء، فيكون أسرع لتخمر ما فيه.

(٥) رواه مسلم رقم (٢٨٢٢) في صفة الجنة، والترمذي رقم (٢٥٦٢) في صفة الجنة. وللبخاري رواية ثانية لهذا الحديث هي:

« حُجِبَتِ النارُ بالشهوات، وحُجِبَتِ الجنة بالمكاره »

انظر البخاري ١١: ٢٧٤، والمسند ٢: ٣٨٠ و٣: ١٥٣ و٢٥٤ و٢٨٤.

على السالك حسن أن يقال: الجنة حُفّتْ بالمكاره على طريق المجاز، وسعة الكلام؛ ولما كانت الأفعال الدُفْضِية إلى دخول النار في الأغلب الأكثر كثيرة الملاذّ ملائمة للطباع لا تؤتى من طريق مشقة ولا يُقْرَع لها باب كُلْفة، حسن أن يقال إن النار حُفّتْ بالشهوات على طريق الاتساع والمجاز.

[٣١٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(١):

« **وقد سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً، فتزوّجت بعده رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها هل تحلُّ لزوجها الأول؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لَا حَتَّى يَكُونَ الآخَرُ قَدْ ذَاقَ مِنْ عُسَيْلَتِهَا، وَذَاقَتْ مِنْ عُسَيْلَتِهِ** ».

وهذه استعارة كأنه عليه الصلاة والسلام كنى عن حلاوة الجماع بحلاوة العسل، وكأن مَخْبَر المرأة ومَخْبَر الرجل كالعسلة المستودعة في ظَرْفها فلا يصح الحكم عليها إلا بعد الذوق منها. وجاء عليه الصلاة والسلام باسم العسلة مصغراً لسر لطيف في هذا المعنى، وهو أنه أراد فعل الجماع دفعة واحدة هو ما تَحلُّ المرأة به للزوج الأول، فجعل ذلك بمنزلة الذواق القابل من العَسَلة من غير استكثار منها ولا معاودة لأكلها فأوقع التصغير على الاسم، وهو في الحقيقة للفعل وذلك بالعكس من التصغير في البيت المشهور وهو من أبيات الكتاب(٢).

وأنشدَناه الشيخان أبو الفتح عثمان بن جنى وأبو الحسن علي بن عيسى الرَّبَعيِّ وذلك قول الشاعر(٣):

---

(١) رواه البخاري ١٠ : ٢٢٦، ومسلم رقم (١٤٣٣)، ومالك في الموطأ ٢ : ٥٣١، وأبو داود رقم (٢٣٠٩)، والترمذي رقم (١١١٩)، والنسائي ٦ : ١٤٦ و١٤٧.

(٢) ليس هذا من أبيات الكتاب لسيبويه، وعادة الشريف سابقاً في الاستشهاد، أن يذكر البيت الشاهد، وينسبه للكتاب بصيغة التمريض، أما هنا، فقد جزم بأنه من أبيات الكتاب خلافاً لعادته، علماً بأن الشاهد من شواهد النحو المشهورة. (انظر تخريج البيت).

(٣) ينسب للعرجي، ولعلي بن محمد العريني، وللحسين بن عبد الرحمن العريني، أما الباخرزي في دميته ١ : ٨٥، فقد نسبه لكامل المتنفقي.

يَــامَــا أُمَيْلِــحَ غِـزْلاَنــاً شَــدَنَّ لَنَــا ... مِنْ هَـاؤُلَيَّـائِكُنَّ الضَّــالِ وَالسَّمُـرِ[1]

فأوقع الشاعر التصغير على الفعل في الظاهر وذلك غير جائز، وإنما أراد به على الحقيقة تصغيراً لاسم المصدر الذي هو الملاحة، فهذا الشاعر كما ترى صغر الفعل وأراد الاسم، وهو عليه الصلاة والسلام في الخبر صغر الاسم وأراد الفعل.

[٣١٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« لا يَتَطَهَّرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طَهُورَهُ، ثُمَّ يَأْتِي الجُمْعَةَ فَيُنْصِتُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلاَتَهُ إِلاّ كَانَ ذٰلِكَ كَفَّارَةً لَـهُ مَا بَيْنَـهُ وَبَيْنَ الجُمَعَةِ المُقْبَلَةِ، مَـا اجْتَنَبَ المَقْتَلَةَ ».

فقوله عليه الصلاة والسلام ما اجتنب المقتلة مجاز، والمراد ما لم يواقع الخطيئة الكبيرة التي تكون سبباً لهلاكه، وطريقاً إلى بواره، فشبهها عليه الصلاة والسلام بالمقتل من مقاتل الإنسان الذي إذا أتىَ منه فقد أتِي عليه، وإنما أنث عليه الصلاة والسلام المقتل لأنه جعله في هذا الموضع عبارة عن الخطيئة، وهي مؤنثة فأنثه حملاً على المعنى، ولذلك في كلامهم نظائر كثيرة[3].

[٣١٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

---

(١) البيت من قصيدة في ذيل ديوان العرجي ١٨٠ ـ ١٨٣. والبيت استشهد به المؤلف كالنحاة على تصغير فعل التعجب، واستشهد غيره بعجزه على تصغير اسم الإشارة، وعلى اقترانه بالهاء. وانظر تفصيل هذه المسألة في كتاب سيبويه ٣: ١٩٣ و٤٧٧.

ـ وأميلح: تصغير أملح، من ملح الشيء ملاحة، وشدنّ: جمع مؤنث من شدن الظبي شدونا، إذا صلح جسمه، وإذا قوي، وطلع قرناه، واستغنى عن أمه، فهو شادن.

(٢) رواه أحمد في المسند ٥: ٤٣٩.

(٣) انظر الخصائص لابن جني ٢: ٤١١، فصل في الحمل على المعنى.

(٤) رواه مسلم رقم (٢٧٠٢)، وأبو داود رقم (١٥١٥)، والحاكم في المستدرك ١: ٥١١، والبيهقي في سننه ٧: ٥٢، وأحمد في المسند ٤: ٢١١ و٢٦٠. وانظر غريب الحديث، لأبي عبيدة ١: ١٣٦ =

« إِنَّهُ لَيُغَان عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ ».

وهذا القول مجاز، والمراد أن الغم يتغشّى قلبه عليه الصلاة والسلام حتى يستكشف غُمْتّه. ويَستفرج كُرْبته بالاستغفار، فشبه ما تغشّى قلبه من ذلك بغواشي الغيم التي تستر الشمس، وتجلّل الأفق، والغَيْم والغَيْن اسمان للسحاب. وسواء قال: يغان على قلبي أو قال يُغام على قلبي.

[٣٢٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]:

« القُلُوبُ أوْعِيَةٌ بَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ ».

وهذه استعارة. والمراد تشبيه القلوب بالأوعية، وهي الظروف والعِياب[2] التي تحرز فيها الأمتعة وغيرها من الأشياء المحفوظة، وهي كالآنية لإيداع الأشياء المائعة إلا أن الأوعية تختص بالجامدات كما أن الآنية تختص بالمائعات، فالقلب من حيث حفِظَ ووَعى كالوعاء من حيث جمع وأوعى، وربما نسب هذا الكلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام على خلاف في لفظه، وقد ذكرناه في جملة كلامه لكُمَيْل بن زياد النَّخَعِيّ[3] في كتاب نهج البلاغة[4].

= ولابن الجوزي ٢ : ١٧٠. وروايته: « إنه لَيُغَان على قلبي، حتى استغفر الله في اليوم مائة مرة ». و (لَيُغَان على قلبي) أي: ليُغطّي ويغشي، والمراد به: السَّهْوُ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم لا يزال في مزيد من الذكر والقربة، ودوام المراقبة، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات أو نسي، عدَّه ذنباً على نفسه، ففزع إلى الاستغفار. وانظر شرح الحديث في غريب الحديث لأبي عبيدة ١ : ١٣٦ و١٣٧.

(١) رواه أحمد في المسند ٢ : ١٧٧، وانظر الكنز الثمين ٣٩١، والحديث فيه مطوّلاً.

(٢) العياب جمع عيبة، وهو وعاء من أدمٍ، ونحوه يكون فيه المتاع.

(٣) كميل بن زياد بن نهيك النخعي: تابعي ثقة من أصحاب علي بن أبي طالب، كان شريفاً مطاعاً في قومه، شهد صفين مع علي، وسكن الكوفة، وروى الحديث، قتله الحجاج صبراً، توفي سنة ٨٢هـ تهذيب التهذيب ٨: ٤٤٧، الإصابة ترجمة رقم ٧٥٠٣).

(٤) انظر نهج البلاغة ٣٨٦، وفيه « إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها... ».

[٣٢١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1] :

[مَا يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئاً مِنَ الصَّدَقَةِ حتَّى يَفلَّ عَنْهُ لَحى سَبْعِينَ شَيْطَاناً » .

وهذا القول مجاز، والمراد تعظيم الأمر في مجاهدة الإنسان نفسَه عند إخراج الصدقةلشدة تتبع النفس لها، وكثرة الصوارف عنها، ووساوس الشيطان بما يقتضي الامتناع منها، فإذا غلب الإنسان بإخراجها نوازع جنانه[2]، ونوازع شيطانه كان كأنه قد افتلها[3] من أيدي الجاذبين، وفَلّ عنها لحى الشياطين وإنما ذكر عليه الصلاة والسلام هذا العدد المخصوص من الشياطين وهو السبعون على طريقة للعرب مشهورة في ذكر ذلك إذا أرادت التكثير، وقد ورد التنزيل بسلوك هذا النهج، والوقوف عند هذا القدر. قال سبحانه[4] : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أوْلا تَسْتَغْفِر لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةَ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

وقال تعالى[5] : ﴿ ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ » .

[٣٢٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6] :

« يَدُ اللَّهِ مَعَ القَاضِي حِينَ يَقْضِي، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ القَاسِمِ حِينَ يَقْسِمُ » .

وهذا القول مجاز، والمراد أن علم الله سبحانه ومعرفته لا يغيبان عن الحاكم إذا حكم وعن القاسم إذا قسم فيعلم سبحانه عدل القاضي إذا تحرى العدل، وظلمه إذا اعتمد الظلم ولا يخفى عليه حَيْف القاسم وميله أو إنصافه

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥ : ٣٥٠، والحاكم في المستدرك ١ : ٤١٧، والبيهقي ٤ : ١٨٧. وانظر أيضاً الفتح الكبير ٣ : ١٢٦، وكنز العمال ٦ : ١٦٠٠٠، والكنز الثمين ٥٣١.

(٢) الجنان: النفس.

(٣) افتلها: استخلصها بعد فلهم وهزيمتهم.

(٤) الآية ٨٠ من سورة التوبة، وانظر تفسير القرطبي ٨ : ٢١٥.

(٥) الاية ٣٢ من سورة الحاقة، وانظر تفسير القرطبي ١٨ : ٢٦٨.

(٦) رواه أحمد في المسند ٥ : ٤١٤، والبيهقي في سننه ١٠ : ١٣٢، وانظر كنز العمال ٦ : ١٥٠٢١.

وعدله وذلك كما يقول القائل: يد فلان مع فلان إذا كان مشاركاً له في ولاية يليها أو مشارفاً له[1] في أمور يمضيها. وفي هذا القول تخويف شديد للحاكم والقاسم من مفارقتهما مقام الحق ومقال الصدق، وحث لهما على سلوك النهج الأبلج، وتجنب الطريق الأعوج.

ونظير هذا الخبر قوله عليه الصلاة والسلام[2]: « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ »، والمراد أنه تعالى يحيط علماً بمقاصد كلامه ومصارف لسانه كما يعلم ذلك مِنْهُ من سمع حواره وشهد خطابه. ومثل ذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام[3] وأراد الله سبحانه: « إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ رُؤُوسِ رِكَابِكُمْ ».

[٣١٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4] لعبد الله بن زيد بن عبد رَبِّهِ الأنصاري[5] وقد رأى الأذان في نومه:

« أَلْقِهِ عَلَى بِلَالٍ فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتاً ».

وهذا القول مجاز، والمراد أنه أمدّ صوتاً منك تشبيهاً بالشيء النديّ[6]

---

(١) مشارفاً له: مخالطاً ومطلعاً.

(٢) رواه ابن المبارك (٣٦٧) وأبو نعيم في الحلية ٨: ٣٥٢ و٩: ٤٤، والخطيب ٩: ٣٢٨، وانظر مسند الشهاب ٢: ١٦٩، والفتح الكبير ١: ٣٣٨، وكنز العمال ٣: ٧٨٤٢، وروايته مع تتمته: « إن الله تعالى عند لسان كلّ قائل، فليتق الله عبد، ولينظر ما يقول ».

(٣) لم نجده.

(٤) رواه أبو داود رقم (٤٩٩)، والترمذي رقم (١٨٩)، وابن ماجة ١: ٢٣٢، وأحمد في المسند ٤: ٤٣، والبيهقي ١: ٣٩٠، وانظر مصنف ابن أبي شيبة ١: ٢٣، والطحاوي ٨٩ ـ ٨٠، والبيهقي ١: ٢٤٠.

(٥) عبدالله بن زيد بن عبد ربّه، الأنصاريّ الخزرجيّ المدنيّ البدريّ: من سادة الصحابة، وشهد العقبة وبدراً، وهو الذي أُرِي الأذان، وكان ذلك في السنة الأولى من الهجرة، توفي سنة ٣٢ هـ. (أسد الغابة ٣: ٢٤٧، تهذيب التهذيب ٥: ٢٢٣، السير ٢: ٣٧٥).

(٦) النديّ: الرطب الطري الذي يمكن مطّه وتطويله.

يمتد وينبسط وهو بالضد من اليابس الذي يجتمع وينقبض[1] وعلى ذلك قول الشاعر[2]:

فقلْتُ ادْعِي وَأَدْعُوَ إنَّ أَنْدَىٰ ... لِصَوْتٍ أنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ[3]

[٣٢٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]:

« **مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَاشَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ قَالَهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَكُنَّ لَهُ مِنْ أَوَّلِ نَهَارِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ مَا لَمْ يَعْمَلْ يَوْمَئِذٍ عَمَلاً يَقْهَرُهُنَّ** ».

وفي هذا الكلام استعارتان:

[**إحداهما**] قوله عليه الصلاة والسلام: كنّ له مسلحة من أول نهاره إلى آخره. والمراد بالمسلحة هاهنا مجتمع السلاح الكثير، يقال هاهنا مسلحة للسلطان، ويراد به الموضع الذي فيه جماعة من أعوانه قد كثرت أسلحتهم، واشتدت شوكتهم كما يقال مأسدة للأرض الكثيرة الأسد، ومكمأة للأرض الكثيرة الكَمْأة ومَفْعاة ومَحْواة للأرض الكثيرة الأفاعي والحيات ونظائر ذلك كثيرة، فجعل عليه الصلاة والسلام هذه الكلمات لقائلهن بمنزلة السلاح الكثير الذي يدفع عنه المخاوف، **ويردّ الأيدي** البواطش.

---

(١) أي لا يمكن مدّه ولا مطّه.

(٢) هو دِثَار بن شيبان النَّمَرِي، من النمر بن قاسط: شاعر إسلامي، وهو الذي حمله الزبرقان بن بدر على هجاء بني بغيض، والبيت له كما في السمط ٢: ٧٢٦، وتنبيه البكري ١٠٠ والأغاني ٢: ١٩٠، وشرح أبيات المغني ٦: ٢٣٠، والاستيعاب ١: ٥٦١، واللسان والتاج (لوم وندي).

(٣) مجالس ثعلب ٤٥٦، والإنصاف ٢: ٥٣١، وابن يعيش ٧: ٣٣، والعيني ٤: ٣٩٢ والاشموني ٣: ٣٠٧.

(٤) رواه أحمد في المسند ٥: ٤٢٠.

[والاستعارة الأخرى] قوله عليه الصلاة والسلام: ما لم يعمل يومئذٍ عملاً يَقْهَرُهُنَّ، والمراد ما لم يعمل من الأعمال السيئة في يومه ما يغلب إثمه أجر هذه الكلمات إذا قالها على الوجه المحدود فيها، وينبغي أن يكون المراد بذلك الذنوب الصغائر دون الذنوب الكبائر لأن عقاب الكبيرة يعظم فيكون كالقاهر لتلك الحسنات التي ذكرها، والدرجات التي أشار إليها.

ولما أقام عليه الصلاة والسلام تلك الكلمات مقام السلاح لقائلها جعل ما في مقابلتها من إثم مُولِغ[1]، وذنب مُوبِق بمنزلةِ القاهر لها والثالم[2] فيها ملامحةً[3] بين صفحات الألفاظ ومزاوجةً بين فوائد الكلام، وهذا موضع المجاز الثاني الذي أفضنا في ذكره، وكشفنا عن سره.

[٣٢٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[4]: لما أمر برجم اليهودي الذي زنا بعد أن وافق اليهود على أن حد الزنى المُحْصِنِ عندهم الرّجمُ دون الجَلْد، وكانوا أنكروا ذلك ثم أقروا به فقال عليه الصلاة والسلام:

« اللَّهُمَّ إنِّي أوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إذْ أَمَاتُوهُ ».

وهذه استعارة، والمراد أني أول من أظهر أمرك إذ ستروه وأذاعه إذ كتموه. فأقام عليه الصلاة والسلام الإظهار مقام الإحياء والإخفاء مقام الإماتة، لأن الحي ظاهر منتشر والميت خاف مستتر، وقد مضى الكلام على نظير هذا الخبر فيما تقدم من هذا الكلام.

---

(١) إثم مولغ: أي موقع، ومدخل في النار، ومن ذلك ولغ الكلب في الإناء: أدخل لسانه فيه.

(٢) الثالم: الكاسر، أو المؤثر تأثيراً ينقص منها.

(٣) ملامحة: مشابهة ومشاكلة، لأن الملامح هو المشابه.

(٤) رواه مسلم رقم (١٧٠٠)، وأبو داود رقم (٤٤٤٨)، وابن ماجة ٢: ٨٥٥، وأحمد في المسند ٤: ٢٨٦، والبيهقي في سننه ٨: ٢٤٦، وهو طرف من حديث طويل.

[٣٢٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1]، فيما رواه شَدّادَ بن الهَادِ[2] قال:

« سجد رسول الله صلى الله عليه وآله سجدة أطال فيها، فقال الناس عند انقضاء الصلاة: يا رسول الله إنك سجدت بين ظَهْرَانَيْ صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه أتاك وحي، فقال عليه الصلاة والسلام: « كُلُّ ذلِكَ لَمْ يَكُنْ ولكِنَّ ابْنِي هٰذا ارْتَحَلنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حتَّى يَقْضِي حاجَتَهُ » .

وكان الحسن أو الحسين عليهما السلام قد جاء النبي عليه الصلاة والسلام في سجدته فامتطى ظهره. وهذا الحديث مشهور وهو حجة لمن يجوّز انتظار الإمام بركوعه إذا سمع خفق النعال حتى يدخل الواردون معه في الصلاة وهو قول الشافعي، وقد كرهه أهل العراق، ولا خلاف في أن الإمام يجوز له أن ينتظر حضور الجماعة إذا لم يخش فَوْت الوقت قبل أن يدخل في الصلاة، فانتظاره عليه الصلاة والسلام ابنه حتى يقضي منه حاجته يدلّ على أن من فعل هذا الفعل وأشباهه لا يخرج به من الصلاة. وقوله عليه الصلاة والسلام: « ولكنَّ ابني هذا ارتحلني » استعارة، والمراد أنه جعل ظهره كالراحلة له والمطية التي تحمله، ويقال من ذلك: رَحَلْتُ الناقةَ وارتحلتها إذا امتطيتها لتسيرها، وعلى ذلك قال الشاعر[3]:

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣: ٤٩٤ و٦: ٩٩، والحاكم في المستدرك ٣: ١٦٦، والبيهقي في سننه ٢: ٢٦٣، والنسائي ٢: ٢٣٠ في كتاب التطبيق. وارتحلني: أي علا على ظهري، حيث جعلني كالراحلة، فركب على ظهري.

وقد قال رسول الله (ص) لما ركبه الحسن (رض) وهو يصلي، فأبطأ في سجوده. وانظر أيضاً النهاية، واللسان، والتاج (رحل) وغريب الحديث لابن الجوزي ١: ٣٨٦.

(٢) شداد بن الهاد، واسم الهاد: أسامة بن عمرو الكناني الليثي، وإنما قيل له الهادي، لأنه كان يوقد النار ليلاً للأضياف، وكان شداد صحابياً سِلْفاً لرسول الله (ص) ولأبي بكر، ولجعفر، ولعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهم سكن المدينة، ثم تحول إلى الكوفة. (أسد الغابة ٢: ٥٠٩).

(٣) هو إبراهيم بن كُنَيْف النبهاني الصنعاني: شاعر إسلامي، من شعراء الحماسة، وله حماسية لامية =

ولكِنْ رَحَلْنَاهـا نُفُوسـاً كَـرِيمـةً تُحَمَّـلُ ما لا يُسْتَطَاعُ فَتَحْمِـلُ[1]

ألا ترى أن الشاعر لما جعل هذه النفوس بمنزلة المطايا المذللة، والظهور المحملة استحسن أن يقول رحلناهـا مقابلة بين أجـزاء اللفظ وملاحمـةً[2] بين العجز والصدر.

وليس هناك على الحقيقة ظهور تحمل الرجال وتحمل الأنفال، وإنما أراد صفة تلك النفوس بالصبر على عَضّ البلاء، وعَرْك الأدواء[3]، ونـوازل القدر، وجواذب الغِير[4].

[٣٢٧] ومن ذلـك قولـه عليه الصـلاة والسلام في كـلام كلم به بعض أصحابه[5]:

« لَنْ تَبْرَحُوا مُبْتَلَيْنَ مَـا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، فَـإِذَا أَنَا هَلَكْتُ أَقْبَلَتْ إِليكُمُ الدُّنْيَا وَأَقْبَلْتُمْ إِلَيْها وَاضْطَمَّتْكُمْ الدُّنيا اضْطِمَامَ الوَالِدةِ وَلَدَها ».

وهذه استعارة. والمراد أن الدنيا بعده عليه الصلاة والسلام تكثر فوائدها، وتتصل مراغدها، فشبّه نفعها لأهلها بحفاوة الـوالدة بـولدهـا إذ كانت تـرضعه

= جيدة. سمط اللآلي ١: ٤٣٠، والوافي بالوفيات ٦: ٩٤.

(١) البيت في الأمالي ١: ١٧٠ من قصيدة طويلة، وهو من حماسية اختارها أبو تمام في حماسته انظر شرح المرزوقي ١: ٢٥٨ ـ ٢٦١، وانظر شرح البيت فيها، والبيت مع القصيدة في زهر الآداب ٢: ٩٨٨، والوافي بالوفيات ٦: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) ملاحمة: مشاكلة وموافقة، يقال هذا الحيم، هذا بمعنى وفقه وشكله.

(٣) الأدواء جمع داء، وعركها: تأثيرها في الأجسام.

(٤) الغير: غير الدهر: أحواله وأحداثه المتغيرة.

يقال: لا أراني الله بك غيرا. (ج) أغيار.

(٥) لم نجده.

دَرِّها، وتمهده حجرها[1]، وتُشْبِل[2] عليه جُهْدَها، وذلك كقولهم: قد ضمّ فلان فلاناً إلى كنفه، يريدون أنه قد قام بأمره، وأغناه عن غيره.

[٣٢٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« **لا تُعَادُوا الأَيَّامَ فَتُعَادِيَكُمْ** ».

وهذا القول مجاز، لأن الأيام على الحقيقة لا يصحّ أن تعادِيَ ولا تعادَى، وإنما المراد لا تخصّوا بعض الأيام بالكراهية له والتطير به، فربما اتفق عليكم فيه من طوارق القدر، وبوائق الغِيَر ما يقوّى في ظنونكم أنه يختص ذلك اليوم دون غيره من الأيام، وليس كما ظننتم لأن الأيام تمضي في ذلك على عاداتها، وتجري إلى غاياتها، فتكونون كأنكم قد عاديتم ذلك اليوم باستشعاركم وصول الضرر إليكم منه، ويكون ذلك اليوم كأنه قد عاداكم باتفاق المضرة عليكم فيه، وخروج القول مخرج المجاز والاتساع، ومناديح[4] الكلام.

---

(١) تمهده حجرها: تجعله له مهداً ينام فيه كالسرير أو غيره، مما يجعل مناماً للطفل.

(٢) تشبل عليه: أي تعطف عليه.

(٣) لم نجده.

ـ وتعاديكم: يحدث لكم فيها، ما يحدث من العدو لعدوه، فكأنها هي العدو.

(٤) مناديح الكلام: جمع مندوحة، وهي في الأصل ما اتسع من الأرض، وهنا ما اتسع من الكلام.



[٣٢٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد سمع أعرابياً يقول في مسجده وصلى الله عليه وآلِهِ بعقب صلاةٍ صلاَّها: « اللهم ارحمني ومحمَّداً ولا ترحم معنا أحداً ».

فقال عليه الصلاة والسلام[1]:

« لقد تحَجَّرْتَ واسعاً ».

وهذه استعارة. وأصل التحجر أن يختطَّ الإنسان خطَّة، ويضرب عليها سياجاً ليحوزها به، ويُعْلم أنها في قبضته. ومنه الحجرة، وهو البيت المضروب، وجعلتْ بعد ذلك اسماً لبناء مخصوص وجمعها حُجَر. ومن ذلك قولهم: « حَجَر الحاكم على فلان إذا منعه من التصرف في ماله، فكأنه ضرب عليه خطاراً[2] يحبسه فيه، ويقصر خطوه دونه فأراد عليه الصلاة والسلام بقوله للأعرابي:

(١) رواه البخاري ١٠ : ٣٦٧، والترمذي رقم (١٤٧)، وأبو داود رقم (٣٨٠)، ورقم (٨٨٢)، والنسائي ٣ : ١٤، لقد تحجرت واسعاً، أي: ضيقت، من قوله: حجَّر فلان، إذا اتخذ له على الأرض حجارة محدقة بها. والمعنى: أن رحمة الله تعالى واسعة لكل شيء.

(٢) الخطار: ككتاب وسماء: الحائط، وما يحوط به على الدواب من شجر ونحوه، أي ضرب عليه حجاباً.

« لقد تحَجَّرْتَ واسعاً » .

تشبيهـه بمن ضرب سيـاجه على قـاعة واسعـة فحازهـا، ومنع غيـره من المشاركة فيها لأنه دعا ربه أن يرحم النبي عليه الصـلاة والسلام ويـرحمه معـه خصوصاً وخطر رحمته سبحانه على الناس عموماً وكان ذلك تحجراً على الرحمة وسيطرة على النعمة وخلافاً لقوله تعالى[1]: ﴿وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء﴾.

[٣٣٠] وفي رواية أخرىٰ أنه عليه الصـلاة والسلام قـال لما سمـع قول الأعرابي[2]:

« مَنْ هٰذا لقد احْتَظَرَ واسعاً » .

والمعنىٰ في اللفظين واحد: لأن الأول مأخوذ من الحجر ، والثاني مأخوذ من الحظيرة وقد يجوزُ أن يكـون المراد لقـد ضيَّق أمراً واسعـاً في الجملة وقد يجوز أن يكون لقد وسع على نفسه فضيَّق على غيره.

[٣٣١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » .

وهذه استعارة، والمراد أن من تأخر بسوء عمله عن غايات الفضل ومواقف الفخر لم يتقدم إليها بشرف نسبه وكريم حسبـه، فجعل عليـه الصلاة والسـلام الإبطاء والإسراع مكان التأخـر والتقدم، لأن المبـطىء متأخـر والمسرع متقـدم

---

(١) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف. وانظر أيضاً تفسير القرطبي ٧/ ٢٩٦.

(٢) رواه ابن ماجة ١/ ١٧٦ في الطهارة، وأحمد في المسند ٤/ ٣١٢، و٢/ ٤١٩ و٥٣٦ مع خلاف في الرواية.

(٣) رواه أبو داود رقم (٣٦٤٣)، ومسلم رقم (٢٦٩٩)، وابن ماجة ١ : ٨٢، والترمذي رقم (٤٠١٥)، والدارمي ٣٥١، والحاكم ١ : ٨٨ ـ ٨٩، وأحمد ٢ : ٢٣٠، و٢٥٢ و٣٦٥ و٤٠٧. وانظر مسند الشهاب ١ : ٢٤٥. وهو طرف من حديث طويل.

ـ ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه، أي من آخره تفريطه في العمل الصالح، في الدنيا؛ لم ينله في الآخرة شرف النسب.

وأضافهما إلى العمل والنسب وهما في الحقيقة لصاحبهما لا لهما، ولكن العمل والنسب، لما كانا سبب الإبطاء والإسراع حسن أن يضاف ذلك إليهما على طريق المجاز والاتساع.

[٣٣٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [١]:
« رَحِمَ اللَّهُ حِمْيَراً أَفْوَاهُهُمْ سلامٌ وَأَيْدِيهِمْ طَعَامٌ أَهْلُ أَمْنٍ وإيمَانٍ ».

وهذا القول مجاز. والمراد المبالغة في صفتهم بإفشاء السلام وإطعام الطعام، فلما كثر لفظ السلام من أفواههم، وبذل الطعام من أيديهم جاز على طريق المبالغة أن يقول: أفواههم سلام، وأيديهم طعامَ كما يقول القائل: ما فلان إلا أكل ونوم، وما فلان إلا صلاة وصوم إذا كثر الأكل والنوم من الأول، والصلاة والصوم من الآخر، وعلى هذا قول الخنساء[٢] في صفة الظبية الفاقدة ولدها:

تَـرْتَـاعُ مَـا نَسِيَتْ حَتَّى إذَا ذَكَـرتْ ... فَـإنَّـمـا هِـيَ إقْـبَـالٌ وَإدْبَـارُ[٣]

تريد صفتها بكثرة الإقبال والإدبار والتململ والاضطراب.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٩٣٥)، وأحمد في المسند ٢ : ٢٧٨، وروايته: « أن رجلاً من قيس جاء رسول الله (ص)، فقال: العن حِمْيَرَ؟ فأعرض عنه، فأعاد عليه، فقال رسول الله (ص): رحم الله حِمْيَرُ، أَفْواهُمُ سلامٌ، وأَيْدِيهم طعامٌ، وهم أهلُ أمنٍ وإيمانٍ ». والأصل: أفواههم صاحبة سلام، وأيديهم صاحبة طعام، فلما أريدت المبالغة حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فصار خبراً عن المبتدأ.

(٢) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السلمية، من أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطرق، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام، فأسلمت، ووفدت على رسول الله (ص) وكان يعجب بشعرها، ويستنشدها، توفيت سنة ٥٤ هـ.

(٣) ديوان الخنساء: ٢٦.

ومن هذا الباب أيضاً قولهم: فلان عَدْل، فوصفوه بالمصدر الذي فِعْله عَدَل يَعْدِل عَدْلاً لكثرة وقوعه منه وتظاهره به، ونظائر ذلك كثيرة.

[٣٣٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]، ويعني الموت:
« أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ ».

وهذه استعارة، والمراد أن اللذات بالموت تتلاشى وتبطل وتَمحَّق، وتَضْمَحِلُّ كما يَضْمَحِلُّ البناء بِهَدْمِهِ ويبطل بتعفية رسمه، والهدم في الأصل هو الإبطال للشيء، فإذا قالوا: هدم فلان البناء، فإنما يريدون أنه أزاله وأبطله، ومن ذلك الحديث المروي عنه عليه الصلاة والسلام للأنصار ليلة العَقَبة[٢] بعد مراجعة كلام طويل[٣]: « الدَّمَ الدَّمَ وَالهَدْمَ الهَدْمَ ».

وأصبح ما قيل في تفسير ذلك أنه عليه الصلاة والسلام أراد إنكم إن طلبتم بدم طلبته وإن هدمتموه هدمته، وأقام الهدم هاهنا مقام الطَّلّ، يقول: إن طَلَلْتُمُوهُ طَلَلْتُهُ، بمعنى إن أبطلتموه أبطلته، وقال يعقوب بن السِّكِّيت[٤] في كتاب الألفاظ[٥]: يقال دماؤهم هَدْمٌ بينهم: أي هَدَر.

ويقال هَدَم بتحريك الدّال أيضاً.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤٦٢)، و٢٣٠٨، والنسائي ٤: ٤ من حديث طويل.

(٢) انظر خبر العقبة الأولى ابن هشام ٢: ٧٣، وابن سعد ١: ١: ١٤٧، وابن سيد الناس ١: ... ، وابن كثير ٣: ١٥، وتاريخ الخميس ١: ٣١٧.

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦: ٤٢، وأبو نعيم في دلائل النبوة ١: ٤٠٤ و٤١٠، وهو طرف من حديث وجد طويل.
ـ والهدْم: اهدار الدم، أي، أب أن طلب دمكم، فقد طلب دمي.
والهدم: (بفتح الدال): القبر والمنزل؛ أي أقبر حيث يقبرون، وأنزل حيث تنزلون.

(٤) سبقت الاشارة إليه والترجمة له.

(٥) انظر كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ ص ٢٧٥.

[٣٣٤] ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام في ذم أقوام من المنافقين(١):

« خُشُبٌ بالليْلِ جُدُرٌ بالنّهارِ » .

في كلام طويل وهذه استعارة.

والمراد أنهم ينامون الليل كله من غير قيام لصلاة ، ولا استيقاظ لمناجاة، منهم كالخُشب الواهية التي تُدْعَم لئلا تتهافت، وتمْسَكُ لئلا تتساقط.

[٣٣٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (٢):

« إنّ المُؤْمِنَ إذَا أَذْنَبَ كَانَ الذَّنْبُ نُكْتَةً سَوْدَاءَ في قَلْبِهِ، فإن تاب وَنَزَعَ واستغفَرَ صُقِلَ قَلْبُه، فإنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْمُرَ قَلْبَه » .

فقوله عليه الصلاة والسلام: « صقل قلبه » استعارة، والمراد إزالة تلك النكتة السوداء عن قلبه، ولكنها لما كانت بمنزلة الدَّرَن(٣) في الثوب أو الطبع على السيف حسن أنْ يقال: صقل قلبه منها كما يُصْقل السيف من طَبَعه، أو يغسل الثوب من دَرَنه.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢ : ٢٩٣ . انظر غريب الحديث لابن الجوزي ١ : ٣٧٨، والفائق، والنهاية، واللسان والتاج (خشب) وقال الزمخشري ١ : ٣٧٠: « في ذكر المنافقين: مستكبرون لا يألفون، ولا يؤلفون، خشب بالليل، صخب بالنهار ـ وروي: سخب بالسين.

شبههم في عدهم نياماً بالخشب المطرحة. ويقال للقتيل: خرَّ كأنه خشبة، وكأنه جذع السَّخَب والصَّخَب: اختلاط الأصوات، والأصل السين، ومنه السِّخَاب، وهو القلادة من قرنفل، وقيل: ومن خرز؛ لاجراسه والصاد بدل، والذي أبدلت له وقوع الخاء بعدها؛ والمراد رفع أصواتهم، وضجيجهم في المجادلات والخصومات وغير ذلك.

(٢) رواه البخاري ٣/ ٢٣٨ في الزكاة، ومسلم ١٦٩٩ في الزكاة، والترمذي رقم ١٩٦١ في البّر والنسائي ٥/ ٧٤ في الزكاة، وأحمد في المسند ٦/ ٣٤٥ و٣٤٦ و٣٥٤.

وروايته: « انفقي ـ أو انضحي، أو أنفحي. ولا تحصي فيحصي الله عليك » وفي روايته « أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك ». والنضح والنفح كناية عن السماحة والعطاء.

(لا توعي فيوعي الله عليك): كناية عن الشح والإمساك، لأنه من الجمع والإدخار، وكذلك « لا توكي فيوكي الله عليك» كناية أيضاً عن البخل والمنع، من الإيكاء، وهو الشَّدُّ، كأنه يشد كيسه فلا ينفق منه شيءا.

(٣) أسماء بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، من قريش: صحابية، من =

[٣٣٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل[١]:

« وَلَا يَشْرِبُ أَحَدُكُمْ الحُدودَ وَهُوَ يَشْرَبُهَا مُؤْمِنٌ ».

وهذا القول مجاز، والمراد بالحدود هاهنا الخمر، وإنما عبر عليه الصلاة والسلام بهذا الاسم عنها، لأن إقامة الحدود تستحق بشربها، وليس هاهنا معصية ربما اجتمعت في الإقدام عليها حدود كثيرة غيرها، لأن السكران في الأكثر يقدم على استحلال الفروج، واستهلاك النفوس، وسبّ الأعراض، وقَذْف المُحْصَنات، فيجتمع عليه حدّ السكر، وحدّ القتل، وحدّ الزنا، وحدّ القذف؛ ولذلك قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام وقد سأله عمر بن الخطاب عن حدّ السكران[٢]، فقال: أقم عليه حدّ المفترى، لأن الشارب إذا سكر لَغا[٣]، وإذا لغا افترى[٤].

[٣٣٧] ومن ذلك قوله عليه الصّلاة والسلام في أطفال المسلمين[٥]:

= الفضليات. آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وهي أخت عائشة لأبيها، وأم عبدالله بن الزبير، تزوجها الزبير العوام فولدت له عدة أبناء بينهم عبدالله، ثم طلقها الزبير فعاشت بمكة مع إبنها عبدالله، إلىٰ أن قتل. فعميت بعد مقتله وتوفيت بمكة وهي وأبوها وإبنها وجدها صحابيون. شهدت اليرموك مع إبنها عبدالله وزوجها. وكانت فصيحة حاضرة القلب واللب، تقول الشعر. وخبرها مع الحجاج بعد مقتل إبنها عبدالله، مشهور. عاشت مئة سنة وهي محتفظة بعقلها، سميت (ذات النطاقين) لأنها صنعت للنبي(ص.) طعاماً حين هاجر إلى المدينة فلم تجد ما تشده به، فشقت نطاقها وشدت به الطعام. لها / ٥٦/ حديثاً، توفيت في عام/ ٧٣/ هـ. طبقات ابن سعد ٨/ ١٨٢، حلية الأولياء ٢/ ٥٥، والسير٢/ ٢٨٧.

(١) لم نجده بهذا اللفظ، وأما أحاديث تحريم شرب الخمرة فهي كثيرة.

(٢) الحد شرعاً: عقوبة مقدرة، وجبت حقاً لله تعالى، زجراً. في عرف الشرع: يطلق علىٰ كل عقوبة لمعصية من المعاصي، كبيرة أو صغيرة. وأما التخصيص فهو من اصطلاح الفقهاء.
قال الشوكاني: قد ظهر أن الشارع يطلق الحدود علىٰ العقوبات المخصوصة، ويؤيد ذلك قول عبد الرحمن ابن عوف بن حد شارب الخمر: إن أخفَّ الحدود ثمانون.

(٣) اللغو: سقط الكلام، والفحش.

(٤) أي كذب وتكلم بالباطل في حق الناس.

(٥) رواه مسلم رقم ٣٢ و٢٦٣٢ و٢٦٣٤ و٢٦٣٥ في البر والصلة، وأحمد في المسند ٢/ ٤٧٧، =

« هُمْ دَعَامِيصُ الجنَّةِ »، والدُّعْمُوص: دويبَّة صغيرة تكون في مياه العيون. يقال: إنها صفدع، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبههم للعبهم في أنهار الجنة ومياهها بالدَّعاميص التي تقوم في قرارات الغدران وجِمامها[1].

[٣٣٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« إذَا أُضِيعَتِ الأَمَانَةُ فانتظروا السَّاعةَ قيل: وما إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذَا تَوَسَّدَ الأمْرُ إلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ».

وفي رواية أخرى[3]: « إذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ » وهذه استعارة، والمراد إذا استند الأمر إلى غير أهله فأقام الوساد هاهنا مقام السناد، لأن المتوسد للشيء مستند إليه ومعتمد، وإنما جعل عليه الصلاة والسلام الأمر مستنداً لهم، لأنهم القائمون بأحكامه، والمقيمون لأعلامه، فهم له كالمساك والسناد، والدعائم والعِماد، ويكون المراد بقوله عليه الصلاة والسلام على الرواية الأخرى: « إذا وُسِّدَ الأَمْرُ إلَى غَيْرِ أَهلِهِ » على فعل ما لم يسمّ فاعله[4].

[٣٣٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]:

= و٥١٠. من حديث رواه أبو هريرة، ولفظه مع تمام روايته: « عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، أفما أنت محدثي عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بحديث يُطَيِّب أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم، صغارهم دعاميص الجنة، يتلقىٰ أحدهم أباه ـ أو قال: أبويه، فيأخذ بثوبه، أو قال: بيده ـ كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهىٰ ـ أو قال: لا ينتهي ـ حتى يدخله الله وأباه الجنة ».

(١) جمام: جمع جمّة، وهي مجتمع الماء.

(٢) رواه أحمد في المسند ٣/ ٣٦١.

(٣) رواه البخاري ١/ ١٣٢ و١٥٠ و١٥١ في العلم، و١٤/ ١١٦ و١١٧ في الرقاق ووسد: أي أسند؛ وأصله من الوسادة وكان من شأن الأمير عندهم إذا جلس أن تثنىٰ تحته وسادة فقوله: وُسِّدَ، أي: جعل له غير أهله وساداً، فتكون « إلىٰ » بمعنىٰ اللام، وأتىٰ بها ليدل على تضمين معنىٰ « أسند ».

(٤) أي بالبناء للمجهول.

(٥) رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٢ و٥/ ٤١٣ و٤١٤، وانظر الفتح الكبير ٢/ ٩٢.

« خَمْسٌ لَيْسَ لَهُنَّ كَفَّارَةٌ: الشِّرْكُ باللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بغَيْرِ حَقٍّ، أو بُهْتُ مُؤْمِنٍ[1]، أو الفِرَارُ يَوْمَ الزَّحْفِ، أو يمين صابرة[2] يُقْتَطَعُ بها مَالٌ بغيرِ حقٍّ ».

وهـذا مجاز، والمراد أي يمين مصبورة: أي مكرهة على الكذب من قولهم: فلان مصبور على السيف: أي محبوس على القتل مع إكراه عليه واضطرار إليه.

ومن ذلك الخبر المرويّ أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن صَبْرِ البهائم[3]، وصَبْرُها حبسها، وترك تغذيتها إلى أن تموت مكرهة على تلك الحال المكروهة، ومن ذلك قولهم: قُتِلَ فُلَانٌ فُلَانٌ صَبْراً، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل تلك اليمين الكاذبة لبعدها عن الصدق ومخالفتها جهة الحقّ بمنزلة المكرهة على ركوب تلك المحجة الضَّلْعاء[4] والوقوف عند تلك السوءة السُّوْءَاء[5]، فهي كالمصبورة على السيف، والمحمولة على الخسف؛ ومما يقوّي ما قلنا رواية عِمْران بن حُصَيْن الخُزَاعيّ[6] لهذا الخبر قال: قال صلى الله

---

(١) بهت المؤمن: اختلاف الكلام عليه وهو لم يقله. يقال بهته كمنعه؛ بهتاً وبهتاناً: قال عليه ما لم يفعل.

(٢) اليمين الصابرة: بمعنى المصبورة؛ ومعنى الصابرة الحابسة، والمصبورة المحبوسة؛ وليس الحبس هنا مراداً وإنما اللزوم. فالمعنى اليمين اللازمة التي يلزم بها الشخص حتى إذا حلف قضى له بما حلف عليه؛ وإنما سميت مصبورة لأنها ألزمت للحالف؛ أي ألزم بها فهي ملزمة بصيغة اسم المفعول.

(٣) رواه البخاري ٩/ ٥٥٣ و٥٥٤ في الذبائح والصيد، ومسلم رقم ١٩٥٦ في الصيد والذبائح، وأبو داود رقم ٢٨١٦ في الأضاحي، والنسائي ٧/ ٢٣٨ في الضحايا، وأحمد في المسند ٢/ ٩٤ و٣/ ١١٧ و١٧١ و١٩١. وأنظر غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٢٥٤، وصبرت الحيوان على القتل: إذا نصبته لتقتله وحبسته على القتل.

(٤) المحجة الطريق، والضلعاء: المعوجة؛ لأن الضلع هو الاعوجاج خلقة.

(٥) السوءاء: الشديدة السوء لأن فعلاء أنثى أفعل (أسوأ) وهو الأكثر سوءاً.

(٦) عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي: من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر سنة =

عليه وآله[1] : « من حلف بيمين كاذبة مَصْبُورَةٍ فليتبوَّأْ مقعده من النار »، فقد صرح عليه الصلاة والسلام في هذه الرواية بأن اليمين الصابرة في الرواية الأولى تعني المصبورة.

[٣٤٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2] :

« **إِذَا دَخَلَ الْبَصَرُ فَلَا إِذْنَ** ».

وهذه استعارة، والمراد أن من استأذن على بيت فولَج[3] فيه بَصَرُهُ قبل أنْ يلِج فيه بدنه فقد بطل إذنه، لأن الإذن إنما يكون من قبل أن يقع البصر على ما يشتمل عليه البيت، فأما إذا كان ذلك فكأن المستأذن قد وصل قبل أن يؤذن له في الوصول، ودخل قبل أن يؤمر بالدخول، ويقوّى ما قلناه من ذلك الخبرُ الآخرُ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام[4] : « من أطلع من صِير باب فقد دَمَرَ »، ومعنى دَمَر: دخل، والدامر: الداخل، والصِّير هاهنا: الشَّق أو الفُرْجة تكون بين البابين.

ذكر ذلك أبو عبيد في غريب الحديث[5] وموضع المجاز من هذا الكلام تصييره عليه الصلاة والسلام البصر بمنزلة الداخل على القوم، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام رؤيته لهم ونفوذه إلى ما وراء بابهم.

= (٠٧ هـ) وكان معه راية خزاعة يوم فتح مكة، وبعثه عمر إلىٰ أهل البصرة ليفقههم. وولاه زياد قضاءها. وتوفي بها، وهو ممن اعتزل حرب صفين توفي في سنة (٥٢ هـ) تهذيب التهذيب ٨/ ١٢٥ وطبقات ابن سعد ٧/ ٤ ، والسير ٢/ ٥٠٨.

(١) رواه أبو داود رقم ٣٢٤٢ في الأيمان والنذور. وروايته عنده: « من حَلَفَ على يمين مصبورة كاذباً، فليتبوأ بوجهه مقعده من النار ».

(٢) رواه أبو داود رقم ٥١٧٣ في الأدب.

(٣) دخل فيه بعده؛ أي وصل النظر إلى داخل البيت.

(٤) انظر غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ٤٢ وابن الجوزي ١/ ٣٤٨ و١/ ٦١١، والفائق والنهاية واللسان والتاج (دمر، صير).

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ٤٢، وفيه: « وكذلك حديثه الآخر: « مَنْ أطلع مِنْ صِيْر باب ففقئت عينه فهي هدر، فتفسيره في الحديث أن الصِّير هو شق في الباب ».

[٣٤١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(١):

« الجَرَسُ مِزْمَارُ الشَّيْطَانِ ».

وهذه استعارة، وذلك أنه لما كان كلّ صوت مكروه ينسب إلى الشيطان كضروب الغناء، وعويل النساء، وكان صوت الجرس من الأصوات المكروهة بدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الآخر(٢): « لا تَصْحُب الملائكة رُفْقَة فيها جَرَس » حسن أن يضاف صوته إلى الشيطان على طريق المجاز والاتساع.

[٣٤٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(٣):

« إنَّ المُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيْطَانَهُ كما يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ في السَّفَر ».

وهذه استعارة، والمراد أن المؤمن يَصْعُبُ قياده على الشيطان فلا يصغي إلى وساوسه، ولا يجعل لهواجسه سبيلاً إليه اعتصاماً منه بدينه، واستلآماً(٤) عليه في جُنَّة(٥) يقينه، فشيطانه أبداً مكدود معه لطول منازعته القياد ومفالتته(٧) الزمام، فشبهه عليه الصلاة والسلام لإتعابه الشيطان في الاحتجاز عن إضلاله، والامتناع من اتباعه بالمُنْضِي بعيرَه في السفر، إذا أطال شُقّته(٨) واستفرغ قوّته. وحَشَّ عريكته(٩).

---

(١) رواه مسلم رقم ٢١١٣ و٢١١٤ في اللباس، والترمذي رقم ١٧٠٣ في الجهاد وأبو داود رقم ٢٥٥٥ و٢٥٥٦ في الجهاد.

(٢) رواه أبو داود رقم ٢٥٥٤ في الجهاد، والنسائي ٨/ ١٨٠ في الزينة.

(٣) رواه أحمد في المسند ١/ ٣٨٠.

(٤) استلآماً عليه: أي اعتصاماً وامتناعاً على الشيطان من قولهم لبس لأمة الحرب إذا وقي نفسه بها.

(٥) الجنة: الستر، كأن اليقين شيء حسي يستر المؤمن على الشيطان ويختبىء داخله.

(٦) مكروه: متعب.

(٧) مفالتته: أي كلما أمسك الشيطان بزمام المؤمن ليقوده في غواياته، يشد المؤمن زمامه من يد الشيطان ويفلته منه.

(٨) شقته: مسافته.

(٩) حش: قطع، والعريكة: السنام؛ والمعنى: قطع السنام وهو ما يتغذى منه البعير عند عدم الغذاء فهو =

[٣٤٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل(١):

« لَا تَقُومِ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ المالُ ويَفِيضَ إلى أنْ يَخْرُجَ الرَّجُلُ بزكاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أحَداً يَقْبلُهَا مِنْهُ ».

فقوله عليه الصلاة والسلام: « حتى يكثر المال ويفيض » استعارة، كأنه شبهه بالماء الطامي(٢) الذي يفيض من قرارته(٣)، ويسيح من كثرته. ونظير هذا الخبر ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر آخر(٤): « ورُبَّ مُتَخَوِّض في مال اللَّهِ ورسُولِهِ فيما اشتهتْ نَفْسُه، لنا النارُ يوم القيامة » كأنه عليه الصلاة والسلام جعل كثرة المال عند هذا الإنسان بمنزلة الغَمْرة الطامية(٥) والجُمّة الطافحة(٦)، وجعل إنفاقه منه وتقلّبه فيه بمنزلة الخوض في الجمام الغزار، واللجج(٧) الغِمَار.

[٣٤٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(٨):

= كالإحتياطي له: أن المؤمن أذهب قوة الشيطان الإحتياطية بعد أن استفرغ قوته الأصلية. وكانت في الأصل وحسن عريكته، ولكن المعنىٰ الذي ذكرناه أولىٰ.

(١) رواه البخاري ١٣/ ٧٢ ـ ٧٨ في الفتن، ومسلم رقم ١٥٧ في الزكاة، ورقم ٢٩١٢ و٢٩٢٢ و١٥٧ في الفتن.

(٢) الطامي: العالي المرتفع.

(٣) قرارة الماء: ما استقرّ به من نهر أو بحر أو نحوهما.

(٤) رواه البخاري ٦/ ١٥٣ في الجهاد، والترمذي رقم ٢٣٧٥ في الزهد. وروايته: « إن هذا المال خضر حلو، من أصابه بحقّه بورك له فيه. ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار ».

(٥) الغمرة: الكثرة من الماء؛ والطامية: العالية.

(٦) الجمة: معظم الماء، والطافحة: التي بلغت الحافة ثم سالت علىٰ الجوانب.

(٧) اللجج: جمع لجة؛ وهي الماء المجتمع، والغمار: الكثيرة.

(٨) رواه أحمد في المسند ٢/ ٤١٨.

« إنَّ للمَسَاجِدِ أوْتَاداً، الملائكة جلساؤهم، إذا غابوا افْتَقَدُوهُمْ، وإنْ مَرِضُوا عادُوهُمْ، وإنْ كانُوا في حاجةٍ أعَانُوهُمْ ».

وهذه استعارة، كأنه عليها الصلاة والسلام شبه المقيمين في المساجد، والملازمين لها، والمنقطعين إليها بالأوتاد المضروبة فيها، وذلك من التمثيلات العجيبة الواقعة موقعها والمُقَرْطِسَةِ[1] غَرَضَها، ويقال: فلان وتد المسجد، وحَمامة المسجد[2]: إذا طالت ملازمته له وانقطاعه إليه، وتشبيهه بالوتد في الملازمة أبلغ من تشبيهه بالحمامة، لأن الحمامة تنتقل وتزول، والوتد مقيم ولا يَرِيم.

[٣٤٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث طويل[3]:

« ورجل تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَخْفَاهَا لا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ».

وهذا مجاز، والمراد المبالغة في صفته بكتمان نفقته وإخفاء صدقته، فإذا كانت شِماله لا تعلم بما تنفقه يمينه وهي سَرِيحتها[4] وقسيمتها وجارتها ولصيقتها، فأجدر ألّا يعلم بذلك غيرها ممن شَطَّ[5] داراً وبعد جواراً.

[٣٤٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذكر لوطاً عليه الصلاة

---

(١) يقال قرطس السهم: أصاب الغرض أي من التمثيلات المصيبة غرضها.

(٢) حمامة المسجد: يشبه المقيم بالمسجد بحمامته، لأن الحمام يأوي إلى المسجد ويقيم فيه اطمئناناً إلى أن أحداً لن يهيجه.

(٣) رواه البخاري ٢/ ١١٩ - ١٢٤ في الجماعة، ومسلم رقم ١٠٣١ في الزكاة، ومالك في الموطأ ٢/ ٩٥٢ و٩٥٣ في الشعر، والترمذي رقم ٢٣٩٢ في الزهد، والنسائي ٨/ ٢٢٢ و٢٢٣ في القضاة. وهو طرف من حديث مشهور أوله: « سبعة يظلهم الله في ظله . . . . . ».

(٤) سريحتها: شقيقتها لأن السريحة هي القطعة من الثوب، فالقطعتان سريحتان كل منهما سريحة للأخرى، وقسيمتها توضيح لها.

(٥) شطّ: بعد.

والسلام، وقوله لقومه[1]: « لَوْ أنَّ لِي بكُمْ قُوَّةً أوْ آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ». قال عليه الصلاة والسلام[2]: « فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ نَبِيّاً إلاَّ فِي ذِرْوَةِ قَوْمِهِ ».

وهذه استعارة، والمراد فما بعث الله نبياً إلا في أعلى شرف قومه لئلا يُغْمَضَ حَسَبُه ويُزْدَرَى مَنْصِبُهُ، فيكون ذلك منفراً عنه، فشبه عليه الصلاة والسلام ذلك بذِرْوة البعير وهي سَنَامه، أو ذروة الجبل، وهي رأسه، ويقولون: فلان من الغوارب[3] من قومه، كما يقولون من الذُّرَى من قومه، فالغارب ها هنا كالذروة هناك. ويقولون أيضاً: هو في عُلْيا قَصْر قومه[4]، وفي رواية: عليا قومه إذا أرادوا هذا المعنى، وذلك في أشعارهم وكلامهم أكثر من أن يستقصى، وفي شعر يروي لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

كانوا الذُّؤَابةَ من فهرٍ وأكْرَمَها   حَيْثُ الأُلُوفُ وحَيْثُ الفَرْعُ والعَدَدُ[5]

[٣٤٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

« لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وسَنامُ القرآنِ سُورَةُ البَقَرةِ، ومِنْها آيةٌ هِي سَيِّدَةُ آيِ القُرآنِ لا تُقْرأُ في بيتٍ فيه الشَّيْطانُ إلاَّ خَرَجَ مِنْهُ، وهِي آيةُ الكُرْسِيِّ ».

وفي رواية أخرى[7]:

---

(١) الآية ٨٠ من سورة هود وأنظر أيضاً تفسير القرطبي ٩/ ٧٣.

(٢) رواه البخاري ٦/ ٢٩٣ و٢٩٥ في الأنبياء، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان، ورقم ١٥١ في الفضائل، والترمذي رقم ٣١١٥ في التفسير. وهنالك رواية ثانية للحديث وهي: « ما بعث الله بعده نبيّاً إلا في ثروة من قومه ». والثروة: الكَثرة والمنعة.

(٣) الغارب: وهو الكاهل أو ما بين العنق والسنام والمراد في المكان المرموق العالي.

(٤) القصر: البناء العظيم، وعلياه: الحجر العليا فيه أو أعلاه.

(٥) ديوان أمير المؤمنين الإمام عليّ كرم الله وجهه (طبعة قم) ص٤٥ والذؤابة: الناصية أو منبتها، والمراد في أعلىٰ فهر، وهي قبيلة معروفة.

(٦) رواه الترمذي رقم ٢٨٨١ في ثواب القرآن. وسنام القرآن: أعلاه تشبيهاً بسنام البعير.

(٧) رواه أحمد في المسند ٥/ ٢٦، وابن كثير في تفسيره ١/ ٣٤ و٣/ ٥٧٠.

« البقرة سَنَامُ القُرْآنِ وذِرْوتُه، ويَاسِينُ قَلْبُ القُرْآنِ ».

وفي هذا الكلام استعارات ثلاث:

أولاهنّ قوله عليه الصلاة والسلام: « وَسَنَامُ القرآنِ سورةُ البَقَرةِ ».

والمراد أنها أعلى القرآن وأشرفه كما أن أعلى ما في البعير سنامه وذِروته. والكلام في هذا المعنى كالكلام على الخبر المذكور أمام هذا الخبر[1]، لأن المراد بهما واحد. والاستعارة الثانية قوله عليه الصلاة والسلام: « ومنها آيةٌ هِيَ سَيِّدةُ آيِ القرآنِ ».

والمراد أنها تتقدّم القرآن وتفضله، كما أن السيد يتقدّم على عشيرته، ويفضل أهل طبقته، والاستعارة الثالثة: قوله عليه الصلاة والسلام: « ياسين قَلْبُ القرآنِ ».

والمراد أنها خالصة ولُبابه كما أن قلب الشيء صحيحه ومصاحه، ويقولون: فلان قلب بني فلان، إذا كان في مقرّ صميمهم، وفي مصحّ أديمهم[2].

[٣٤٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل[3]:

« **أيُّهَا النَّاسُ: مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى أنْ تَتَابَعُوا في الكَذِب كما يَتَتَابَعُ الفَرَاشُ في النَّارِ** ».

وهذا القول مجاز، والمراد يتسارعون إلى قول الكذب تهافتاً فيه ومنازعة

---

(١) يريد الحديث السابق على هذا الحديث وفيه (في ذروة قومه).

(٢) الأديم: الجلد، والمصح: شيء تحشى به جلود الفصلان حتى يصير الجلد على هيئة الفصيل لتدر أمه، والمراد أنه في داخل القوم محوطٌ بهم كما يحيط الجلد بما في داخله.

(٣) رواه أحمد في المسند ٦/ ٤٥٤. وأنظر غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٣ وابن الجوزي ١/ ١١٥ و١٠٣ واللسان والتاج (تيع)، والغريبين ١/ ٢٦٨ والفائق ١/ ١٥٨.

إليه، فيكونون كالفراش المتساقط في النار لأنه يلوذ بها وينازع إليها، والتتابع: التواقع إلى الشيء المكروه[1]، فلما كان الكذب كالمَهْواة[2] والمَزَلّة[3] من حيث أدّى إلى المَخْزاة والمَذَلّة حسن لذلك أن يجعل المتسرّع إليه كالواقع فيهما والمرتكس في قَعْرِهما، وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد أن الكذب لما كان مفضياً إلى دخول النار جعل المتسرع إليه كالمتهافت في النار. ويؤكد هذا الوجه تشبيه المتتابع في الكذب بالفراش المتساقط في النار، ولذلك نظائر قد تقدم الكلام عليها في هذا الكتاب.

[٣٤٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذُكِرَ عنده رجالٌ من أصحابه يجتهدون في العبادة اجتهاداً شديداً، فقال عليه الصلاة والسلام[4]:

« تِلْكَ ضَرَاوَةُ الإِسْلامِ وَلِكُلِّ شَيْءٍ ضَرَاوَةٌ وشِرَّةٌ، وَلِكلِّ شِرَّةٍ وَلِكلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كانت فَتْرَتُهُ إلى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَسالِمٌ مَا هُوَ، وَمَنْ كانتْ فَتْـرَتُهُ إلى مَعَاصِي اللَّهِ فَذلِكَ الهالِكُ ».

فقوله عليه الصلاة والسلام: « تلك ضَراوة الإسلام وَشِرَّته » استعارة، والمراد بذلك شدّة الوَرَع وإفراطه وغُلُوُّه وَاشتطاطه[5]، تشبيهاً له بالضَّراوَة على الشيء المأكول أو المشروب، وهي شدّة الاعتياد له، وَفَرْطُ المنازعة إليه. وذلك مأخوذ من قولهم: سَبُعٌ ضَارٍ، إذا دَرَب بأكل اللحم فكثر طلبه له ولُوبته[6] عليه،

---

(١) التتايع: ركوب الأمر على خلاف الناس، والتهافت والإسراع في الشر والبحاجة، وأجود المعاني المناسبة للتتايع هنا هو التهافت، لأن تتايع الفراش تهافته، والتهافت: هو التساقط والتتابع، ولا مانع أن يكون الحديث: تتابعون بالباء بدل الياء، أي ينلو بعضكم بعضاً، ولكن المعنى الأول أفضل.

(٢) المهواة: مكان الهوى والسقوط.

(٣) المزلة: مكان الزلل والوقوع.

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٦٥.

(٥) الاشتطاط: الإبعاد في الشيء والزيادة فيه.

(٦) اللوبة هنا: استدارة الحائم حول الماء وهو عطشان لا يصل إليه، والمراد بحثه عنه، وتحويمه ودورانه عليه.

ويقولون: عِرْق ضارٍ إذا فار دَمُه فلم يقف، وتواتر فلم ينقطع. وقال الأَخْطَلُ[1] يصف دَنَّ الخمر عند بَزْله[2]:

لمَّـا أتـوْهَـا بمِصْبَـاحٍ وَمِبْـزَلِهِمْ   سَارَتْ إليهم سُؤُور الأَبْجَل الضَّارِ[3]

والأبجل: واحد الأباجل، وهي العروق، ومعنى سارت: أي فارت ونضحت[4] مأخوذ من سورة الشيء، وهي حركته وطموحه. ومما في هـذا المعنى الخبرُ المرويُّ عن بعض الصحابة[5]: «اتقوا هذه المجازر فـإن لها ضـراوة كضراوة الخمـر» فأراد أن ضـرر الإدمان على أكـل اللحم كضرر الإدمـان على شـرب الخمر، إلا أن المستكثر من اللحم يؤثر ضرره في بدنه، والشارب للخمر يؤثـر ضررها في دينه.

[٣٥٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

«لَعَنَ اللَّهُ الَّذِينَ يُشَقِّقُونَ الكلاَمَ تَشْقِيق الشَّعْرِ».

وهذا القول مجاز.

---

(١) هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك: شاعر، مصقـول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير ـ الفرزدق ـ الأخطل.

(٢) يقال بزل دنّ الخمر: إذا ثقبه ليخرج منه الخمر، والمعنى عند ثقبه لاستخراج الخمر منه.

(٣) ديوان الأخطل: ٨٢. والمصباح: السنات العريض، القدح: الكبير، المبزل: المصفاة. والمعنى لما أتوا الخمر بالسنان لثقب دنّها وبالمصفاة لتصفية ما يسيل منها. وسارت إليهم: فارت وخرجت من الرت، سؤ ور الأبجل: فورات العرق الضاري الذي لا يكف عن خروج الدم منه.

(٤) نضحت: أي رست وخرجت متدفقة.

(٥) هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما في النهاية لابن الأثير ١/٢٦٧. ولابن الأثير في شرح هذا القول كلام هو خلاف كلام الشريف، حيث قال: نهى عن أماكن الذبح، لأن إلفها وإدامة النظر إليها، ومشاهدة ذبح الحيوانات مما يقسي القلب، ويذهب الرحمة منه.....».

(٦) رواه أحمد في المسند ٤/٩٨.

والمراد الذين يتصرفون في الكلام فيدقّقون فيه ويتعمقون في معانيه.

وشبه عليه الصلاة والسلام فعلهم ذلك بتشقيق الشَّعر، لأن طاقات الشَّعْر مستدقة في نفوسها، وإذا تعاطى الإنسان تشقيقها انتهت من الدقة إلى غاية لا زيادة وراءها،وهذا اللعن في الخبر إنما يتناول من بلغ في تدقيق الكلام إلى ذلك الحدّ لِيَشْتبِهَ الباطلُ بالحق. ويجوز الغيّ بالرّشد كما قلنا في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام[1]: « ألَا أخبِركم بأبغضكُمْ إليّ وأَبغضكُمْ إليّ وأَبْعَدِكُمْ مِنّي مَجْلِساً يوم القيامة؟ الثَّرثَارُونَ المتفيهقون ».

[٣٥١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

« لَيَدْخُلَنَّ هذا الدِّينُ عَلَى ما دَخَلَ عَلَيْهِ اللّيْلُ ».

وهذا القول مجاز. والمراد انتشار الإسلام في الشرق والغرب واشتماله على البرّ والبحر، فجعله عليه الصلاة والسلام من هذا الوجه بمنزلة الداخل دخول الليل في الإطلال[2] والإطباق وتجليل[3] البلاد والآفاق.

ومن ذلك ما روي في حديث عن بعض الصحابة، وهو قوله[4]: « وَكَانَ ذلكَ حِينَ دَجَا الإسلام » أي ألبس كل شيء، ودخل على كلّ حي تشبيهاً بالليل في تغطية البلاد وشموله النِّجاد[5] والوهاد.

ومما يقوّي هذا المعنى ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لفاطمة

---

(١) مر الحديث عنه فيما سبق. وانظر تخريجه هناك مع تعليقنا وشرحنا عليه.

(٢) الإطلال: الإشراف، يقال أطل عليه إذا أشرف عليه والإطباق: التغطية، لأن طبق كل شيء غطاؤه، ويقال: أطبق عليه بمعنىٰ غطاه واستولىٰ عليه.

(٣) التجليل: التغطية أيضاً، يقال جلله بمعنىٰ غطاه، والمراد شمول الإسلام لكل شيء وإشرافه عليه.

(٤) انظر غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٣٢٥، والفائق والنهاية واللسان والتاج (دجا) ودجا الإسلام: انتشر وعم كل شيء مأخوذ من قولهم: دجا الثوب إذا سبغ وستر جميع البدن.

(٥) النجاد: المرتفعات، والوهاد: المنخفضات.

عليها السلام وقد رأت قميصه مخروقاً، وبطنه خَمِيصاً، فبكت عند ذلك، فقال لها صلى الله عليه وآله[1] : « أمَا يُرْضِيكِ يا فَاطمةُ ألَّا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إلا دَخَلَهُ عِزٌّ أوْ ذُلٌّ بأبيكِ » .

[٣٥٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2] لمُعاذ بن جَبَلٍ[3] :

« ألَا أُخْبرك بَرأسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قال: بَلَى يَا رَسُول اللَّهِ، قال: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهادُ » .

وهذه الألفاظ كلها مستعارة، كأنه عليه الصلاة والسلام جعل الإسلام رأس دين الله المتقدم ورئيسه المعظم، وجعل الصلاة عموده الذي به قوامه[4] وعليه قيامه، وجعل الجهاد ذِرْوة سَنَامه. لأنه يعد الرأس أعلى مشارفه[5]، وأرفع مراتبه، وبه يشاد بناؤه، ويقام لِواؤه، ويُقْمَع أعداؤه.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٦/ ٤. والمدر: قطع الطين اليابس، واحدته مدرة بوزن بقرة والمراد بيوت المدن التي تبنىٰ بالطين والحجارة.

والوبر: صوف الإبل ونحوها. والمراد أن لا يبقىٰ بيت علىٰ ظهر الأرض من البيوت بجميع أنواعها، سواء كان من المدن حيث البيوت من الطين والحجارة، أو في الصحراء، حيث البيوت من الصوف ونحوه.

ومعنى دخله عزّ أو ذلّ: أن الإسلام سيعم جميع البيوت، فالمسلم منها يعتز به، والكافر منها يذل به، ومعنىٰ بأبيك: أي بسبب أبيك، لأنه الذي جاء بالإسلام.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٦١٩ في الإيمان، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣١ و٢٣٦ و٢٣٧ وابن ماجة ٢/ ١٣١٤ في الفتن.

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن صحابي جليل كان أعلم الأمة بالحلال والحرام وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ توفي في سنة ١٨ هـ). ـ وقد سبقت ترجمته ـ.

(٤) قوام الشيء: قيمته وكنهه.

(٥) مشارف الشيء: أعاليه.

[٣٥٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[1] :

« **حُجُّوا قبل ألا تُحجُّوا . حُجُّوا قَبْلَ أنْ يَمْنَعَ البَرُّ جَانِبَهُ** » .

وفي هذا القول مجاز. والمراد حجوا قبل أن يَمْنَعَ سُلُوكَ البر القاطعون لسبيله، والعائِثون في طريقه، والحائلون بين الناس وبين دخوله. فلما جعل عليه الصلاة والسلام البر ممنوعاً بمن أشرنا إلى ذكره حَسُنَ على طريق المجاز أن يجعله كالمانع[2] لجانبه، والمخوِّف لسالكه لأن المحجوب كَرْهاً كالمحتجب، والممنوع قَسْراً كالممتنع.

[٣٥٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3] :

« **الحُمَّى كِيرُ جَهَنَّمَ** » .

وهذا القول مجاز. والمراد المبالغة في وصف حرارة الحمى واتقادها، وشدة أوارها واضطرابها، فشبهها عليه الصلاة والسلام بكيرٍ يستمد من نار جهنم، وهي أعظم النيران وُقُوداً، وأبعدها خُموداً.

وقال المفسرون في قوله تعالى وهو يريد نار الدنيا[4] : « نحنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً للمُقْوِين » قال تذكرة يستذكر بها الناس نار الآخرة، فيكون ذلك أزجر لهم عن المعاصي وأصرف عن المضالّ والمغاوي، لأن نار الدنيا إذا كانت

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ١/٤٤٨، والبيهقي في سننه ٤/ ٣٤٠ و٣٤١، وانظر الفتح الكبير ٢/ ٧٠.

(٢) يقال منع جانبه: إذا اشتدت قوته ومنع الناس من تجف أطرافه والوصول إلى مكانه.

(٣) رواه ابن ماجه ٢/ ١١٥٠ في الطب، وأحمد في المسند ٥/ ٢٥٢ و٢٦٤ وروايته مع تمامه: « الحمى كير من جهنم فحُّوها عنكم بالماء البارد ». والكير: زق ينفخ فيه الحداد. ومعنى أن الحمىٰ كير جهنم. أنها كالكير الذي يقوي النار غير أن هذا الكير يلفح لفحاً شديداً كأنه لفح جهنم، لأن كير جهنم فيها، والهواء الذي يخرج منه حار حرارة جهنم.

(٤) الآية ٧٣، من سورة الواقعة. وانظر تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٠.

على ما هي عليه من قوة الإحراق. وشدة الإرماض[1] والإقلاق[2]، وهي مع ذلك دون نار الآخرة في الطبقة وجزء من أجزائها في الإيلام والنكاية، فما ظنك بتلك النار إذا باشرت الأجسام، وخالطت اللحوم والعظام، نعوذ بالله منها، ونسأله التوفيق لما باعد عنها.

وقيل في المُقْوِين قولان: أحدهما: أن يكونوا المرْملين من الزاد، والفاقدين للطعام، يقال: أقوى فلان من زاده إذا لم يبق عنده شيء منه، وذلك مأخوذ من الأرض القَوَاء التي لا شيء فيها، فكأنه صار كهذه الأرض في الخلو من البُلَغ التي يُتَبَلَّغ بها، والمُسَك التي يترمقها[3]، والقول الآخر أن يكون المقوون ها هنا السائرين في القَوَى، وهي الأرض التي قدّمنا ذكرها، والنار للمسافر أرفق[4] منها للحاضر.

[٣٥٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[5]: في دعاء دعا به لميت:

« **اللَّهُمَّ إنَّ فُلَانَ بنَ فُلَانٍ في ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ، فَقِهِ فِتْنَةَ القَبرِ وَعَذَابَ النَّارِ** ».

فقوله عليه الصلاة والسلام « وحبل جوارك » استعارة.

والمراد أنه لَجِيءٌ إلى[6] ظلك، ومضطرٌّ إلى فضلك، فأخرج قوله « في

---

(١) الإرماض: الإيقاع في الحرارة، أي شدة إشعار الشخص بالحرارة.

(٢) الإقلاق: الإزعاج.

(٣) يقال ترمق اللبن: إذا شربه قليلاً قليلاً، والمسك جمع مسكة وهي ما يمسك الرمق الذي هو بقية الحياة، والمعنى: أن المقوىٰ الذي لا يجد إلا القليل من الطعام والزاد، يترمقه: أي يأخذه قليلاً قليلاً كلما وجده.

(٤) الرِّفْق: بكسر الراء وسكون الفاء: ما استعين به، ومعنىٰ أرفق للمسافر أي أكثر عوناً له.

(٥) رواه أبو داود رقم ٣٢٠٢ في الجنائز، وابن ماجة ١/ ٤٨٠ و٤٨١ وأحمد في المسند ٣/ ٤٩١.
وتمامه: « . . . وأنت أهل الوفاء والحق. فأغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم ».

(٦) لَجِيءٌ: اسم فاعل من لجيء بوزن فرح، فهو على وزن فعل بفتح الفاء وكسر العين بمعنىٰ لائذ.

ذمتك، وحبل جوارك » على عادة كلام العرب، لأنهم يقولون: قد عقد فلان لفلان حَبْلًا، وأخذ فلان من فلان حَبْلًا إذا أعطاه ذماماً، أو عقد له جواراً، وقد سموا العهود: حبالاً على هذا المعنى، وفي التنزيل[1]: ﴿ إلَّا بحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾: أي بعهد من الله، وعهد من الناس، والأصل في ذلك أن يشبهوا ما يعقد من الذمام[2] بما يعقد من الحبال لأنها تقرِّب بين البعيدين، وتجمع بين القريبين، وتصل الأبيات بالأبيات، وتربط الأطناب بالأطناب[3].

[٣٥٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه وقد ذكر وقوع الفتن[4]:

« ثُمَّ تَقُودُونَ فِيها أسَاوِدَ صُبًّا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ ».

وهذا القول مجاز. وأراد عليه الصلاة والسلام أنكم تكونون في هذه الفتنة كالحيات التي تَنْصَبُّ على مُناهشها، وتسرع إلى مُلابسها غير متذممة[5] من مُحَرَّم، ولا متورِّعة عن مُعَظَّم.

[٣٥٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[6]:

« كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الجَّنة إلا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّهِ شِرَادَ البَعِيرِ ».

---

(١) الآية ١١٢ من سورة آل عمران، وانظر تفسير القرطبي ٤/ ١٧٤.

(٢) الذمام: جمع ذمّة؛ وهي العهد.

(٣) الأطناب: جمع طنب بوزن فرس وهو الحبل يشد به البيت من جلد ونحوه.

(٤) رواه أحمد في المسند ٣/ ٤٧٧.

والأساود: جمع أسود، وهو الحية العظيمة.

والصبا والصبة: ما صب من طعام وغيره.

والمعنى: ينصبُّ بعضكم على بعض كما تنصب الأساود على غريمها.

(٥) غير متذممة: غير مستنكفة ولا مبالية.

(٦) رواه أحمد في المسند ٥/ ٢٥٨.

وشرد: أي نفر، وعدي بعلى لتضمينه معنى خرج.

فقوله عليه الصلاة والسلام « إلا من شرد على الله » مجاز والمراد إلا من عَنَدَ[1] عن أمر الله سبحانه وتعالى، وبعد عن رضاه وطاعته، وذهب في غير جهة مشيئته وإرادته، فكان كالبعير الشارد الذي ندّ عن صاحبه، وبعد عن معاطنه.

[٣٥٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2] لأسماء بنت أبي بكر[3]:

« انْفَحِي وَانْضَحِي، وَلَا تُوعِي فَيُوْعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ ».

قوله عليه الصلاة والسلام « انفخي وانضحى » استعارة. والمراد أنفقى مالك في سبيل الله، وابذليه في طاعة الله، وأصيبي به مواضعه بإسراع وبِدَارٍ[4] لما تنفح الريح هُبوبها[5]، وتنضح السحابة شُؤْبوبها[6]. والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام ها هنا « ولا تُوعِي فيُوعِيَ الله عليك » أي لا تمسكي فيمسك الله عليك لأن من أوعى شيئاً وحفظه فقد أمسكه ومنعه.

[٣٥٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7]:

« إنَّ قُرَيْشاً أَهْلُ صِدْقٍ وَأَمانَةٍ، فَمَنْ بَغَاهُمُ[8] العوائر كَبَّهُ اللَّهِ لِوَجْهِهِ»[9].

---

(١) عَنَدَ: مال، أي إلا من مال غن أمر الله وبعد عنه.

(٢) الحديث في صحيح مسلم (باب الزكاة)
- وهو في مُسند الإمام أحمد ٦: ٣٤٥.

(٣) هي ذات النطّاقين، الصحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وأخت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. شهدت اليرموك. وكانت فصيحة، تقول الشعر. وعاشت مئة سنة (توفيت سنة ٧٣ هـ)، ولها ٥٦ حديثاً.

(٤) البدار: مصدر بادر؛ أي أسرع.

(٥) يقال نفحت الريح: إذا هبت.

(٦) الشؤ بوب :

(٧) رواه أحمد في المسند ٤: ٣٤٠، وأنظر الفتح الكبير ١: ٤٠٢، وكنز العمال ١٢: ٣٣٨١٤، و١٤: ٣٧٨٨٩.

(٨) بغاهم: أي طلب لهم، العواثر جمع عاثرة بمعنى معثرة، والعاثرة الكابية، أي التي تعلقت قدمها بشيء فكبت على وجهها، والمراد بالمعثرات، أي المكبيات التي تسبب الكبوة، وقد بين الشريف سبب التعبير بالعواثر بدل المعثرات.

(٩) كبه الله على وجهه: ألقاه على وجهه في النار.

وهـذا القـول مجـاز. والمراد فمن بغـاهـم العثـرات، وهي الأمــور التي تعثرهم، وتضع شـرفهم[1]، فقال عليـه الصلاة والسـلام « العواثـر » لأنها وإن أعثرتهم فكأنها عاثرة بهم، أو وَاقعة عليهم، ومن قولهم: عَثَر الدهرُ بآل فلان: إذا نقص أعدادهم، وغيّر أحوالهم، وبلغ المبالغ منهم، وساءت آثاره فيهم.

[٣٦٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« المُسْلِمَان إذا حَمَلَ كُـلُّ وَاحِدٍ منْهُمَـا عَلَى صَاحِبِـه السِّلَاح فَهُمَـا عَلَى جُرُفِ جَهَنَّم، فَإذَا قَتلَ أحدُهُمَا صَاحِبَهُ دَخَلَاهَا جَمِيعاً ».

وهذا القول مجاز. والمراد بذلك المسلمان اللذان يتقاتلان في غير طاعة الله سبحانه، فهمـا بنفس القتال وتظاهرهما بحمل السلاح عاصيان لله سبحانـه مستحقان لعقابه مُقْدِمان على شِقَاقِهِ، فإذا قَتَل أحدهما صاحبه دخلا جميعاً النار إلا أن المقتول يستحقها بتعرضه للقتال المحظور عليه، والقاتل يستحقها بمثل ذلك، ويتفرّد بعقاب القتل الذي وقع منه، فيكون أشدهما نَكـالاً، وأعظمهمـا وبَالاً.

وموضع المجـاز، قولـه عليه الصـلاة وسلام « فهمـا على جرف جهنم » ومراد أنهما على طريق استحقاق نـار جهنم بإقـدامهما على الفعـل المحظور، والأمر المكروه، فشبه عليه الصلاة والسلام كونهما قريبين من استحقاق دخول

(١) تضع شرفهم: تحطه وتنقص قيمته.

(٢) رواه ابن ماجة ٢ : ١٣١١، وروايته: « إذا المسلمان، حمل أحدهما على أخيه السلاح، فهما على حرف جهنم فإذا قتل أحدهما صاحبه، دخلاها جميعاً ». وعلى أخيه: أي صاحبه.، و(فهما على جرف جهنم): روي على حَرْف، أي على جانب جهنم، والجرف ما تجرفه السيول وتأكلـه من الأرض، استعير هذا لذاك. ودخلاها: أي دخل القاتل والمقتول جهنم.

النار بمن أشرف على جُـرْفها[1]، وقـام على حرفهـا، في شدة القـرب منها، والإشفاء[2] على الوقوع فيها.

ومثل ذلك قـوله تعـالى[3]: ﴿ وَكنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْـرَةٍ مِنَ النَّارِ فَـأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾. وقد لخصنا الكلام على ذلك في كتاب مجازات القرآن[4].

[٣٦١] ومن ذلك قوله عليه الصـلاة والسلام وقـد رأى بعيراً في بعض حيطان[5] المدينة فحنّ إليه كالشاكي، فقال عليه الصلاة والسلام لصاحبه[6]:

« إِنَّ بَعِيـرَكَ يَشْكُوكَ وَيَـزْعُمُ أَنَّكَ أَكَلْتَ شَبَـابَـهُ حَتَّى إِذَا كَبِـرَ تُـرِيـدُ أَنْ تَنْحَرَهُ ».

وهذا القول مجاز، والمراد بقوله عليـه الصلاة والسـلام « أكلت شبابـه » استعملته في حال شبابه وقوَّته، وأجمعت نحره في حال ضعفـه وكبره، فجعـل استعماله طول أيام شبابه كالآكل شبابه لأنه استنفاد له وذهاب به.

[٣٦٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7]: في حديث طويل نهى

---

(١) أي على المكان المعرض لجرف جهنم له.

(٢) الإشفاء: الإشراف.

(٣) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، وانظر تفسير القرطبي ٤/ ١٥٨.

(٤) انظر مجازات القرآن ص١٢٤.

(٥) الحائط هنا: البستان وجمعه حيطان وحوائط.

(٦) رواه أحمد في المسند ٤: ١٧٣.

(٧) رواه البخاري ٥: ٩٤ في الشركة، ومسلم رقم ١٩٦٨ في الأضاحي، والترمذي رقم ١٤٩١ و١٤٩٢ في الأحكام، وأبو داود رقم ٢٨٢١ في الأضاحي، والنسائي ٧/ ٢٢٦ و٢٢٨ في الضحايا وابن ماجة ٢/ ١٠٦١ في الذبائح، وأحمد في المسند ٣/ ٤٦٣ و٤٦٤ و٤/ ١٤٠ و١٤١ و١٤٢.
وروايته: « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السِّنَّ والظُّفُرَ، وسأحدثكم عن ذلك: أمّا السِّنُّ فعظمٌ، وأما الظفر فمُدىٰ الحبشة ». مدىً: جمع مدية وهي الشفرة والسكين.
أنهر: أنهرت الدم، أي: أسلته، شبَّه جري الدم من الذبيحة يجري الماء في النهر.
ليس السن: ليس بمعنى (إلا) تقول: قام القوم ليس زيداً، أي: إلا زيداً.

فيه عن الذبح بالسِّنِّ والظُّفرِ: « أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفرُ فَمُدَى الحَبَشَةِ »،

وهذه استعارة، والمُدى السكاكين، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: والأظفار سكاكين الحبشة لأنهم يذبحون بحدّها ويقيمونها مُقَامَ المُدَى في التذكية بها، والظُّفْر هاهنا اسم للجنس كالدِّينار والدرهم في قولهم[1]: أَهْلَكَ الناسَ الدينارُ والدرهمُ: أي الدنانير والدراهم. ولذلك صح أن يقول: مُدَى الحبشة، والمُدَى جمع لأن الواحدة مُدية.

[٣٦٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

[« كَفَى بالسَّلاَمَةِ دَاءً »].

وهذا القول مجاز، لأن السلامة على الحقيقة ليست بداء في نفسها، وإنما المراد أنها تُفْضِي إلى الأدواء القاتلة والأعراض المهلكة، لأن طولها يؤدي إلى موت الشهوات وانقطاع اللذات وحواني الهَرَم[3] وعَوَادِي السَّقَم. فحسن من هذا الوجه أن تسمّى داءً، إذْ كانت مُوقعة فيه ومؤدية إليه. وقد أكثرت الشعراء نظم هذا المعنى في أشعارهم إلا أن كلمة النبي عليه الصلاة والسلام أبهى من جميع ما قالوه مطلقاً، وأبعد مَنْزِعاً، وأوجز في تمام، وأكثر مع قلة كلام. فما جاء في هذا المعنى قول حُمَيْدِ بن ثَورٍ[4]:

---

(١) انظر سر صناعة الأعراب ١/ ١٥ و٣٥٠.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ٢/ ٣٠٢، وانظر فتح الوهاب ٢/ ٢١٦، والفتح الكبير ٢/ ٣١٧.

(٣) حواني الهرم: اعوجاجاته وتغيراته.

(٤) حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري، أبو المثنىٰ: شاعر مخضرم، عاش زمناً في الجاهلية، وشهد حنيناً مع المشركين وأسلم ووفد علىٰ النبي صلى الله عليه وسلم ومات في خلافة عثمان. وقيل: أدرك زمن عبد الملك بن مروان. وعده الجمحي في الطبقة الرابعة من الإسلاميين، له ديوان شعر جمعه عبد العزيز الميمني توفي عام ٣٠ هـ. الإصابة ترجمة ١٨٣٠ وتهذيب ابن عساكر ٤/ ٤٥٦ والأغاني ٤/ ٣٥٦.

أرَى بَصَري قَدْ رَابَني بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءً أنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا[1]

قوله لَبِيدِ بن رَبِيعَة[2]:

وَدَعَوْتُ رَبِّي بالسَّلاَمَةِ جَاهِداً لِيُصحَّنِي فَإذَا السَّلاَمَةُ دَاءُ[3]

وقول النَّمِرِ بن تَوْلَبٍ[4]:

يَوَدُّ الفَتَى طُولَ السَّلاَمَةِ والغِنَى فكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلاَمَةِ يَفْعَلُ[5]

وإني لأستحسن كثيراً، الأبيات التي من جملتها هذا البيت وهي قوله[6]:

تَغَيَّرَ مِنِّي كُلُّ شيءٍ وَرَابَني مَعَ الدَّهْرِ أبْدَالِيَ الَّتي أَتَبَدَّلُ[7]
فُضُولٌ أَرَاهَا في أدِيمِيَ بَعْدَمَا يَكُونُ كِفَافَ الجِسْمِ أو هُوَ أَجْمَلُ
كأَنَّ قَحِطّاً في يَدَيْ حَارِثِيَّةٍ صَنَاعٍ عَلَتْ مِنِّي بِهِ الجِلْدَ مِنْ عَلُ

---

(١) البيت في ديوان حميد بن ثور ص ٧ من قصيدته الميمية المشهورة، وهو الرابع فيها، وروايته:
أرَى بَصَري قد رابني بعد حِدَّةٍ ....
وجاء بعد البيت في الديوان: « يريد أن الصحة والسلامة تؤديه إلى الهرم ».

(٢) لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. أدرك الإسلام ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم، ترك الشعر في الإسلام، سكن الكوفة وعمر طويلاً، توفي في عام / ٤١/ هـ. الأغاني ١٥/ ٣٦١، والمسط ١/ ١٣، والخزانة ٢/ ٢١٣.

(٣) البيت في ملحقات ديوان لبيد في (الأشعار المنسوبة للبيد) ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ ومعه بيت سابق له. وانظر تخريج البيت فيه.

(٤) النمر من تولب بن زهير بن أقيش العكلي: شاعر مخضرم. عاش عمراً طويلاً في الجاهلية، وكان فيها شاعر «الرباب» ولم يمدح أحداً ولا هجا، وكان من ذوي النعم والوجاهة، جواداً وهاباً لماله يشبه شعره بشعر حاتم الطائي، توفي عام (١٤) هـ الأغاني ٢٢/ ٢٧٢ والإصابة ترجمة ٨٨٠٤ والشعر والشعراء ١/ ٣٠٩.

(٥) شعر النمر بن تولب (ضمن كتاب شعراء إسلاميون ص ٣٦٩. والبيت من قصيدة طويلة فيه، ورقمه فيها (٢٢).

(٦) أي النمر بن تولب.

(٧) انظر الأبيات في شعره المجموع في كتاب (شعراء إسلاميون) ص٣٦٦ فما بعد.

يَــرُدُّ الفَتَى بَعْـدَ اعْتِــدَالٍ وَصِحَّــةٍ يَـنْــوءُ إذَا رَامَ الـقِـيَــامَ ويُـحْــمَــلُ
تَدَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وبَعْدَهُ حَوادِثُ أيَّامٍ تمُرُّ وأَغْفُلُ
يَــوَدُّ الفَتَى طُولَ السَّـــلاَمَـةِ والغِنَى فكَيْفَ يَـرَى طُـولَ السَّـلاَمَـةِ يَفْعَـلُ

[٣٦٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذكر صلاة العصر(١):

« وَلاَ صَلاَةَ بَعْدَها حَتَّى يُرَى الشَّاهِدُ ».

وهذه استعارة والمراد، بالشاهد هاهنا النجم، والعرب يُسَمُّون الكـوكب شاهد الليل كأنه يشهد بإدبار النهار وإقبال الظلام. وكلُّ شيء يـدل على شيء فهو يجري مجرى الشاهد به والمخبر عنه؛ إذ ليس كـلُّ دالٍّ بإنسـان، ولا كل دَليلٍ من جهة اللسان.

[٣٦٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام(٢):

« وَأيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ البُخْلِ ».

وهذا القول مجاز لأن البخل على الحقيقة ليس بداء، ولكنه لما كان عادة مكروهة وخليقة مذمومة أُجريَ مُجرى الداء الذي يغير الصحة، ويفسـد الجِبِلّة إلا أنه داء يمكن الانتقال عن صحبته وحَمْلُ النفس على مفارقته، لأنه لو لم يكن كذلك لما حسن الذم عليه والتعبير به، كما لا يحسن الذم على سائر الأمراض

---

(١) رواه مسلم رقم ٨٣٠ في صلاة المسافرين، والنسائي ١/ ٢٥٨ و٢٥٩ في المواقيت، وأحمـد في المسند ٦/ ٣٩٧. ورواية الحديث في مسلم والنسائي هي: « إن هذه صلاة عرضت علىٰ من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد » وكما ترىٰ فإن رواية الشريف هي (يُرىٰ) ورواية دواوين السنة (يطلع).

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ١/ ١٩٢ والبخاري في الأدب المفرد ٢٩٦ وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٣١٧ والخـطيب في التـاريخ ٤/ ٢١٧. ورواه أحمـد ٣/ ٣٠٧ والحميدي ١٢٣٣ والبخـاري ٣١٣٧، ورواه الطبراني ١٢٠٣ وأبو الشيخ ٩٠ و٩٤ والحاكم (٣/ ٢١٩) ورواه عبد الرزاق ٢٠٧٠٥ والطبراني في الكبير ١٦٣ و١٦٤/ ١٩ والصغير ١/ ١١٥ وأبو الشيخ ٩٥.

التي تغير الأحوال وتفسد الأجسام. والبخل على الحقيقة هو منع الواجب وكل مَنْ منع الواجب يوصف بالبخل ومن منع التفضل لا يوصف بذلك إلا على سبيل المجاز،

وكلُّ ما في القرآن من ذكر البخل فإنما يراد به منع الواجب كما أن كل ما فيه من الأمر بالإنفاق إنما يراد به إخراج المال في الواجب.

فأما تسمية العرب من لا يَقْرِي النازل ولا يُعْطِي السائل بالبخيل فلأنهم اعتقدوا وجوب ذلك عليه فوصفوه بالبخل لامتناعه منه، وأساميهم تتبع اعتقاداتهم.

[٣٦٦] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[١]: وقد سأله رجل من جُهَيْنَةَ[٢] متى يصلي العشاء الآخرة[٣] فقال: « **إِذَا مَلأَ اللَّيْلُ بَطْنَ كُلِّ وَادٍ** ».

وهذا مجاز لأن الليل على الحقيقة لا تملأ به بطون الأودية كما تمتلىء بطون الأوعية. وإنما المراد إذا شمل ظلُّ الليل البلاد وطبّق النِّجاد والوِهَاد فصار كأنه سِدادٌ لكل شَعْبٍ وصِمام لكل نَقْبٍ.

[٣٦٧] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[٤] وقد طلعت بين أصابعه حَرَّةٌ[٥] فوضع يده عليها وقال:

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/ ٣٦٥ وبطن الوادي: مسيرة ومنحدرة، وإذا عم الليل المنحدرات فقد تم إظلامه وأسبغ إلياله.

(٢) جهينة بن زيد بن ليث، من قضاعة: جدٌّ جاهلي، النسبة إليه (جُهَني) نزل كثيرون من بنيه ه الإسلام، بالكوفة والبصرة وصعيد مصر.

(٣) العشاء الآخرة: هي صلاة العشاء، وتسمى بالآخرة لأن المغرب تسمى عشاء أيضاً إلا أنها عشاء أولىٰ.

(٤) رواه أحمد في المسند ٥/٣٧٠.

(٥) الحَرَّة: البَثْرَة الصغيرة.

« اللهُمَّ مُطْفِىءَ الكَبِيرِ ومُكَبِّرَ الصَّغِيرِ أَطْفِئْهَا عَنِّي بِرَحْمَتِكَ ».

وهذه استعارة: كأنه عليه الصلاة والسلام أقام ذلك الداء مقام النار التي قد أخذت في الاضطرام، وبدأت بالاحتدام، وأقام الشفاء المطلوب من الله سبحانه مقام الإطفاء لها ونضح الماء عليها. في أن ذلك يُفني وُقودها ويُسْرع خُمودها. وهذا من التشبيهات الصادقة والتمثيلات الواقعة.

وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يَقْلَقُ القَلَق الشديد لما يظهر في جسمه من الداء اليسير، فقيل له في ذلك، فقال[1]: إن الله إذا أراد أن يعظم صغيراً عظّمه.

[٣٦٨] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[2]:

« مَنْ قَعَدَ في مُصَلَّاهُ حِينَ يُصَلِّي الصُّبْحَ حَتَّى يَسِيحَ الضُّحَا ».

وفي حديث طويل، وهذه استعارة كأنه عليه الصلاة والسلام جعل الضحا، وهو شباب النهار وزيادته بمنزلة الماء السائح من الغدير: وفي السائح تمثيل من وجهين: أحدهما أن بياض الضحا كبياض الماء، والآخر أن انتشار النهار بضيائه كانسياح الغدير بمائه، ومثل تسميتهم الشمس عند أول طلوعها بالغزالة وليس ذلك باسم لها في جميع الأحوال كما يظنه بعض الجهال، وإنما هو اسم لها في هذا الوقت المخصوص، ومن الشاهد على ذلك قول ذي الرُّمة[3]:

---

(١) لم نجده.

(٢) رواه أحمد في المسند ٣/ ٤٣٩.

ويسيح الضحى: ينتشر وتعمّ شمسه الآفاق.

(٣) ذو الرُّمّة هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة: شاعر، من مخول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة، وكان شديد القصر، دميماً يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، كان =

وأشْـرَفْتُ الغَـزَالـةَ رَأْسَ حُـزْوَى ... لأَنْـظُرهُمْ وَمَـا أَغْنَى قُبَـالا[1]

كـأنه قـال: وأشرفت ذلـك الموضـع أول طلوع الشمس، وأبين من هـذا قـول الآخر[2] وأنشدناه شيخنا أبو الفتح النحوي[3] رحمه الله:

قـالَـتْ لَـهُ وارْتَفَـقَتْ: ألَا فَـتَى ... يَسُوقُ بالقَوْمِ غَزَالَاتِ الضُّحَى[4]

كأنها قالت يسوق بهم أوائل النهار، وعند ابتداء الشمس في الانتشار، وغزالات **الضحا** أول شروفها وإنضاضها[5]، **والضحا** وقت إشراقها وارتفاعها.

[٣٦٩] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، وقـد مرّ على قـوم **وقوفاً**

= مقيماً بالبادية يحضر إلىٰ اليمامة والبصرة كثيراً، امتاز بإجادة التشبيه، قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: « ما بال عينك منها الماء ينسكب » لكان أشعر الناس. وتوفي في عام ١١٧ هـ. الأغاني ١٧/ ٣٩٨، ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٦٠، وخزانة الأدب ١/ ١٠٥.

(١) ديوان ذي الرّمة ٣: ١٥٠٨، وروايته فيه:

فأشرفـت الغزالـةُ رأس حَوْضي ... أراقبهم وما أُغني قِبالا

(٢) في نوادر أبي زيد: (وقال الراجز)، وفي أمالي الزجاجي: (وأنشد أبو إسحاق الزجاج)، وهو كذلك في اللسان بلا نسبة.

(٣) ابن جنّي: هو عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح من أئمة الأدب والنحو. وهو أستاذ الشريف الرضي، وعليه تخرج في اللغة والأدب.

(٤) البيتان في نوادر أبي زيد ١٢٨ وأمالي الزجاجي ١٢ واللسان (غزل) وقال أبو القاسم الزجاجي: ارتفقت: اتّكات. وكانت هذه الكلمة في طبعات الكتاب (ارتفعت) وهو تصحيف صواب ما أثبتناه. وفي نوادر أبي زيد واللسان البيت الأول:

* دَعَتْ سُلَيْمَىٰ دَعْوَةً هَلْ مِنْ فَتَى *

وبعد البيت الثاني في نوادر أبي زيد:

* فَقَامَ لاوَانٍ ولا رَثَّ القُوَى *

وقال أبو زيد: « قال أبو حاتم: لو قال: غزالة الضُّحى لجاز، وكَسَرَ موضع الفاء من القُوَى ».

(٥) نصف الشيء: ارتفع، ومعنى انضاض الشمس: ارتفاعها قليلاً قليلاً. والضحىٰ: ارتفاعها أكثر من هذا.

على ظهور دوابّهم، ورواحلهم يتنازعون الأحاديث فقال عليه الصلاة والسلام[1] :

« لَا تَتَّخِذُوها كَرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ في الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهِ »،

وهذه استعارة كأنه عليه الصلاة والسلام شبه الدواب والرواحل في حالة إطالة الوقوف على ظهورها بالكراسيّ التي يجلس عليها لأنها تثبت في مواضعها، ولا تزول إلا بمزيل لها، فنهى عليه الصلاة والسلام أن يجعل الحيوان المتصرف بمنزلة الجماد الثابت، والشيء النابت[2] .

[٣٧٠] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3] :

« **إنّ الإِسْلاَمَ بَدأ جَذَعاً، ثم ثَنِيّاً، ثُمَّ رَبَاعِيّاً، ثُمَّ سَدِيساً، ثُمَّ بَازِلاً، وما بعد البُزُول إلا النقصان** ».

وهذا الكلام كلُّه مستعار، والمراد تمثيل الإسلام في تنقل أحواله، وتغاير أوصافه بولد الناقة ينتقل في أسنانه، فيكون أول أمره جَذَعاً، ثُمَّ ثَنِيّاً، ثمّ رباعياً، ثمَّ سَدِياً، ثمَّ بَازِلاً، وهي سنّ التمام، وما بعدها إلى النقصان، ومدار المعنى

رواه أحمد في المسند ٣/ ٤٤١ و٤٣٩ و٤٤٠ .

(٢) الشيء النابت: الذي نبت في الأرض، ونباته في الأرض بدل على ثوبته فيها لأن جذره مغروس فيها.

(٣) رواه أحمد في المسند ٣/ ٤٢٣ و٥/ ٥٢).

والجذع: الذي أجذع مقدم اسنانه، أي أسقطها لينبت غير ويكون عمره خمس سنوات في هذه الحالة. والثنيْ: هو الذي نبتت له ثنيتان من أسنانه وتكون سنة حينئذ ست سنوات، والرباعي: الذي نبتت له أربعة أسنان ويكون عمره حينئذ سبع سنوات والسديس وعمره ثمان سنوات، والبازل الذي تخرج أنيابه قوية ويكون عمره حينئذ تسع سنوات، والبازل أقوىٰ أنواع الجمال ويكون تام القوة، كامل البنيان.

على أن الإسلام بدا في غاية الصغر، ثم انتهى إلى غاية الكبر على تدريج ما بين البازل والجَذَع، وأنه عليه الصلاة والسلام يخشى عليه نقيصة التمام، وعكيسة الكمال كما يخشى على اليَفَنِ[1] بعد انحنائه، والبازل[2] بعد انتهائه.

[٣٧١] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[3]:

« إِنَّمَا هذَا المَالُ مِنَ الصَّدَقَةِ أَوْسَاخُ أيْدِي النَّاسِ ».

وفي رواية أخرى « غُسالات أيدي الناس » وذكر ابن سعد[4] في كتاب الطبقات أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب رحمه الله وقد سأله أن يستعمله على الصدقة: ما كنت لأستعملك على غسَالَةِ ذُنُوبِ النَّاسِ، وهذا القول مجاز، والمراد تشبيه ما يخرجه الناس من صدقاتهم بالأوساخ التي يُميطونها عن أيديهم. والتشبيه بذلك من وجهين:

أحدهما: أن تكون أموال الصدقات لما كان إخراجها مطهراً لما وراءها من سائر الأموال جرت مجرى المياه التي تغسل بها الأدران، وتزال بها الأنجاس في انتقال تلك الأدران إليها، وحصول تلك الأدناس والأنجاس فيها.

والوجه الآخر: أن يكون المراد أن أموال الصدقات في الأكثر لا تكون إلا

---

(١) اليفن: الشيخ الكبير

(٢) البازل: القويّ.

(٣) رواه مسلم رقم ١٠٧٢ في الزكاة، وأبو داود رقم ٢٩٨٥ في الإمارة، والنسائي ٥/١٠٥ و١٠٦ في الزكاة، ومالك في الموطأ ٢/١٠٠١ في الصدقة، وأحمد في المسند ٣/٤٠٢ و٤/١٦٦.

(٤) محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبدالله: مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث ولد في البصرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها، وصحب الواقدي المؤرخ زماناً، فكتب له وروىٰ عنه، وعرف بكاتب الواقدي. قال الخطيب في تاريخ بغداد: محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل علىٰ صدقة فإنه يتحرىٰ من كثير من رواياته أشهر كتبه « طبقات الصحابة » اثنا عشر جزءاً « يعرف بطبقات ابن سعد توفي في عام ٢٣٠هـ . تهذيب التهذيب ٩/ ١٨٢ وتاريخ بغداد ٥/ ٣٢١ والوافي والوافي بالوفيات ٣/ ٨٨.

أسافل الأموال دون أخايرها ومفارقاتها[1] دون كِرامها، ولذلك أمر عليه الصلاة والسلام في الصدقة بالأخذ من حواشي الأموال[2] دون حَرزاتها، وهي خيارها، وإنما نسب عليه الصلاة والسلام تلك الأوساخ إلى الأيدي لأن الأموال المعطاة في الأكثر إنما تكون بها وتمر عليها وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدم.

[٣٧٢] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في تعديد أقوام ذمّهم[3]:

« وَرَجُلٌ يُنَازِعُ اللَّهَ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ رِداءَهُ الكِبْرِيَاءُ وَإِزارَهُ العَظَمَةُ ».

وهذا القول مجاز. والمراد بذلك أن الكبرياء والعظمة رداؤه تعالى وإزاره اللذان يكسوهما خليقته، ويلبسهما بريّته، ولا يقدر غيره علىٰ أن ينزع منهما ما ألبسه، أو يلبس منهما ما نزعه. والمراد بذلك العظمة والكبرياء على حقيقتهما دون ما يعتقده الجهال أنه عظمة وكبرياء، وليس بهما، وذلك مثل ما نشأ من تعظيم الجبارين، وتكبر المتملكين، فإن ذلك ليس بتعظيم من الله سبحانه لهم، ولا بإفاضة من ملابس كبريائه عليهم. وإنما العظمة والكبرياء في الحقيقة هما الكرامة التي يلقيها الله سبحانه على رسله وأنبيائه، والقائمين بالقِسْط من عباده، فيعظُمُون بها في العيون. ويَجِلُّون في الصدور والقلوب، وإن كانت هيئاتهم دميمة، وظواهرهم ورقابهم خاضعة، وبطونهم جائعة، فإذا ثبت ما قلنا بأن تسمية الكبرياء والعظمة رداء الله وإزاره ليس لأنه يكتسيهما ولكن لأنه يكسوهما، وذلك كما يقال القائل، وقد رأى على بعض الناس ثوباً أفاضه عليه عظيم من

---

(١) ومفارقات: معطوف على أسافل، أي ولا تكون إلا مفارقاتها دون كرامها، والمراد بالمفارقات التي يرضي أصحابها بمفارقتها لهم ويبذلونها عن طيب خاطر، لأنها غير عزيزة عليهم والكرام لا تهون عليهم.

(٢) حواشي الأموال: صغارها وأقلها قيمة كما سبق من حديث « خذ من حواشي أموالهم ».

(٣) رواه احمد في المسند ١: ٥١٩، وابن ماجة ٢: ١٣٩٧.

العظماء، أو كريم من الكرماء: هذا ثوب فلان ولم يرد أنه ملبسه، فأضافه إليه من حيث كساه لا من حيث اكتساه. ويجري هذا مجرى قولنا: بيت الله، وليس بساكنه، وعرش الله، وليس براكبه. ونظير ذلك قولهم: لَعَمرُ الله ما فعلت كذا، ولَعَمْرُ الله لقد فعلت كذا، والعَمْر هو العُمْرُ، يقال: عُمْرٌ وعَمْـرٌ بمعنى واحد. قال الشاعر[1]:

بَـانَ الـشَّـبَـابُ وَأَخْـلَقَ الـعَـمْـرُ وتَـغَـيَّـرَ الإخْـوَانُ والـدَّهْـرُ[2]

أراد العُمْرَ على أحد التفسيرين، والتفسير الآخر أن يريد به واحـد عُمُور الأسنان[3]، وإخلاقه تغيره من الكبر إلا أن العَمْر في قولهم: لَعَمْر الله، يرادُ به الحياة، وهذا المراد بقول القائل لَعَمْـرِي، ولَعَمْرُ فـلان كأنـه قال: وحيـاة أبي وحياة فلان.

وجاء عن ابن عباس[4] رحمة الله عليه أنه قال[5]: من كرامات الله سبحانه لنبينا عليه الصلاة والسلام أنه أقسم في القرآن بحياته ولم يفعل ذلك بنبيّ غيره قال تعالى[6]: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، وكأنـه سبحانـه قال: وحياتك إنهم كذلك.

---

(١) هو عمرو بن أحمد بن القمَّرد بن عامر الباهلي، أبو الخطاب: شاعر مخضرم، عاش نحو تسعين عاماً، كان من شعراء الجاهلية، وأسلم، وغزا مغازي في الروم وأصيبت إحدىٰ عينيه، له مدائح عمر وعثمان وعلي وخالـد وتوفـي في عام ٦٥ هـ. الإصابـة ترجمـة ٦٤٦٨، والسمـط ١/ ٣٠٧ والأغاني ٨/ ٢٣٤.

(٢) شعر ابن أحمر الباهلي: ٩٠.

(٣) عمور الأسنان: جمع عمر: بفتح العين وضمها، وهو اللحم الذي بين الأسنان أو لحم اللثة.

(٤) عبدالله بن عباس: ابن عم رسول الله، وحَبْرُ الأمة الإسلامية.

(٥) لم نجده.

(٦) الآية ٧٢ من سورة الحجر، وانظر تفسير القرطبي ١٠/ ٣٩ ومجـازات القـرآن للشـريـف الرضـي ص ١٨٧.

وإذا صح ما قلناه صار القائل لعمر الله كأنما حلف بحياة يُحّيي الله بها لا حياة يحياها[1] لأنه سبحانه يتعالى عن أن يحيا بحياة أو يتكلم بأداة أو يفعل بآلات.

[٣٧٣] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [2]:

« قَدْ تَرَكتكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْها بَعْدِي إلاَّ هَالِكُ ».

وهذا القول مجاز. والمراد بالبيضاء هاهنا محجة الدين ومدرجة الطريق المستقيم، وصفتها بالبياض: عبارة عن وضوح نهجها وبيان سننها، وكل أبيض في كلامهم واضح، يقولون وجه واضح إذا كان أبيض المحيًّا، وجبين واضح، وجِيدٌ واضح، على هذا المعنى. وقوله عليه الصلاة والسلام « ليلها كنهارها » مقول ما فسرناه من المراد بالبياض كأنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أن الليل لا يغطي وضوح هذه المحجة بسواده ولا يستر أعلامها بظلامه، ولا محجة هناك على الحقيقة، وإنما المراد صفة الدين بوضوح المعالم وبيان المواسم[3] وإنارة المداخل، وظهور الحجج والدلائل.

[٣٧٤] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام [4]:

---

(١) معنى هذا أن قولك لعمرك: لحياتك؛ لإحياء الله لك، أي لتعمير الله إياك وإحيائه لك.

(٢) رواه ابن ماجة ١/١٦ في المقدمة، وأحمد في المسند ٤/١٢٦ وروايته: « قد تركتكم على البيضاء. ليلها كنهارها. لا يزيغ عنها بعدي إلاّ هالك. ومن يعش منكم سيرىٰ اختلافاً كثيراً. فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضُّوا عليها بالنواجد. وعليكم بالطاعة. وإن عبداً حبشياً. فإنما المؤمن كالجمل الأنِف حيثما قيد انقاد».
ـ وعلى البيضاء: الملة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشبه أصلاً.
ـ فإنما المؤمن: أي شأن المؤمن من ترك التكبر والتزام التواضع.
ـ الأنف: أي الذي جعل الزمام من أنفه فيجره من يشاء من صغير وكبير إلى حيث يشاء.

(٣) المواسم: جمع موسم وهو أثر الكلي. والمراد هنا الآثار. وفي بعض الطبعات المراسم. وهي الرسوم والخطط.

(٤) رواه الترمذي رقم ٢٣٨١ في الزهد، وابن ماجة ٢/١١١١ في الأطعمة، والحاكم ٤/١٢١، =

« مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ » .

في حديث طويل. وهذا القول مجاز، وإنما جعل عليه الصلاة والسلام البطن بمنزلة الوعاء، لأنه قرار للطعام والشراب، وما يستحيلان إليه من الفُرُوث[1] والأخباث[2]، وكأن المأكل والمشرب إيعاء[3] فيه، وكأن [إفراز] الغدد[4] والتبرز تفريغ له.

ونظير هذا الخبر الخبرُ المرويُّ عنه، عليه الصلاة والسلام وهو قوله[5]: « القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض » وقد تقدم الكلام عليه لأنه عليه الصلاة والسلام إنما جعل القلوب كالأوعية لأنها موضع إيداع السرائر والضمائر، وحفظ الأدلة والعلوم، ومستقر الآراء والعُزُوم[6] إلا أن القلوب أوعية للأعراض من الإرادات والاعتقادات، والبطون: أوعية للأجسام من المأكولات والمشروبات.

[٣٧٥] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام[7]:

= وأحمد في المسند ٤/١٣٢، وروايته: « ما ملأ آدميّ وعاءً شراً من بطنٍ، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه ».

(١) الفروث: جمع فرث بوزن كلب وهو الروث والغائط الذي يتكون من فضلات الطعام بعد هضمه.

(٢) الأخباث: جمع خبث، وهو القاذورات التي تخرج بعد الهضم.

(٣) إيعاء: أي وضع في الوعاء، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ جمع فأوعى ﴾، وقوله صلىٰ الله عليه وسلم لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: « لا توعي » شبه الإمساك بالوضع في الوعاء.

(٤) كانت هذه الكلمة (العدد) بالعين فزدنا لها (إفراز) وأعجمنا العين حتى يكون الأسلوب مفهماً المعنىٰ المقصود.

(٥) رواه أحمد في المسند ٢/١٧٧.

(٦) العزوم جمع عزم، وهو القصد.

(٧) رواه العجلوني في كشف الخفاء ١/٤١٧. وقال: (رواه الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رضي عنهما رفعه، وذكر ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصيانه عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أنه قال: الحجر يمين الله عز وجل في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله، وكذا أخرجه الأزرقي في تاريخه، وأخرجه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الركن يمين الله في الأرض، يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه).

« الحَجَرُ يَمِينُ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ صَافَحَهُ بِهَا ».

وهذا القول مجاز. والمراد أن الحجر جهة من جهات القرب إلى الله تعالى، فمن استلمه وباشره قرب من طاعته تعالى فكان كاللاصق بها والمباشر لها، فأقام عليه الصلاة والسلام اليمين هاهنا مقام الطاعة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه على طريق المجاز والاتساع، لأن من عادة العرب إذا أراد أحدهم التقرب من صاحبه، وفضّل الأنَسَة بمخالطته أن يصافحه بكفه، ويعلق يَدَه بيَدِه، وقد علمنا في القديم أن الدنوّ يستحيل على ذاته، فيجب أن يكون ذلك دُنُواً من طاعته ومرضاته؛ ولما جاء عليه الصلاة والسلام بذكر اليمين أتبعه بذكر الصِّفاح ليوفىَ الفصاحة حقها، ويبلغ بالبلاغة غايتها.

ونظير هذا الخبر الحديثُ الآخرُ[1]: « إنّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ في يَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى قَبْلَ يَدِ السَّائِلِ ».

أي يُتعجل بها منه سبحانه استحقاق مثوبته ومواقعته وموافقة طاعته، وأنها لا تهلك ضلالاً، ولا تذهب ضياعاً، بل تكون كالشيء المحفوظ باليد، والمذخور للغد.

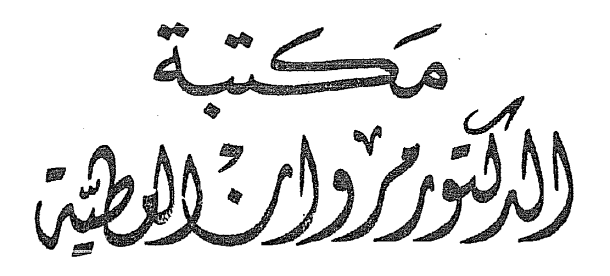
وهذا أخير انتهائنا إلى الفراغ من كتاب « مجازات الآثار النبوية » على ما تخلل عملنا له من قواطع الأشغال، وبواهظ الأثقال وعوادي الأيام والليالي، وقد خرجنا في صدر هذا الكتاب من عهدة التكفل باستيعاب جميع ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من آثاره الملفوظة، والأخبار المنقولة بما شرطناه من كلامنا الذي وقع إلبنا وقرب من متناولنا دون ما بعد عنا وشذ عن أيدينا، ولا

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٤/٨١ عن فضالة بن عبيد أن رسول الله (ص) قال: «إن الصدقة لتقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، وان الله ليدفع بها سبعين باباً من مخازي الدنيا، فيها الجذام والبرص وسيء الاسقام سوىٰ ما لصاحبها من الأجر في الآخرة».

يبعد أن يكون القدر الذي تكلمنا عليه قليلاً من كثير، وقصيراً من طويل، إلا أن عذرنا في الاقتصار عليه واضح وجَيْبُنَا فيما أدّيناه ناصح(١).

ونحن نحمد الله سبحانه على ما منّ به من التوفيق لاقتناص شوارده وتسهيل موارده، وإثارة فوائده(٢) وعوائده(٣) حمداً يكون للنعمة قِواماً، ولنِتاجها تماماً، ولصعبها عِقالاً وزِماماً(٤)، فإن النعمة تُثْنَى(٥) على قواعد الشكر لها، وترفع على دعائم المعرفة بقدرها، وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

[وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحِمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ]



---

(١) يقال رجل ناصح الجيب: لا غش فيه ونصح بمعنىٰ خلص، ويظهر أن أصل المعنىٰ وجيبنا خالص، لا شيء فيه من المحظورات.

(٢) أثار الفوائد. أظهرها بعد أن كانت راكدة وأفشاها بعد أن كانت خافية.

(٣) العوائد جمع عائدة، وهي المنفعة.

(٤) الصعب من الدواب: الشديد المراس، الذي تصعب قيادته والعقال: القيد، والزمام: اللجام.

(٥) تثنى: تعود مرتين فأكثر.

الفَهَارِس العَامَّةُ

١ ـ الآيات القرآنية.

٢ ـ الأحاديث النبويّة.

٣ ـ الأمثال.

٤ ـ حديث أمير المؤمنين (عليّ) رضي الله عنه وكرّم وجهه.

٥ ـ حديث عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه).

٦ ـ الكتب الواردة في المتن.

٧ ـ القبائل والطوائف.

٨ ـ الأماكن والمواضع.

٩ ـ الأشعار.

١٠ ـ الأعلام.


لا تنسونا من دعواتكم

فهـرس الآيـات

الدكتور راتب النابلسي (calligraphy)

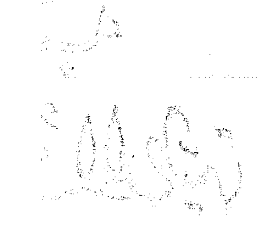
فهرس الأحاديث

فهـرس الأمثـال

حديث أمير المؤمنين

حديث عمر بن عبد العزيز

الكتب الواردة في المتن

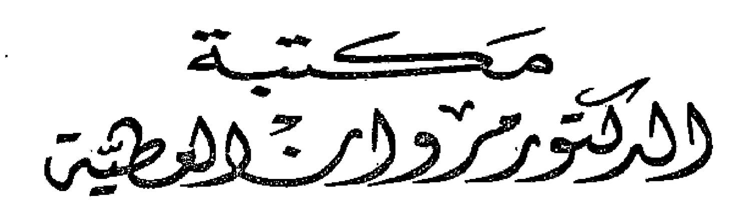


فهرس القبائل والطّوائف

فهرس الأماكن والمواضع

فهرس الأشعار

فهرس الأعـلام


مكتبة
الدكتور مروان العطية